

المجلد الثالث عشر

السيد محمد تقي النقوي القايني


بسم الله الرحمن الرحيم


شبكة الفكر
alfeker.net

ضیاء الفرقان

فی

تفسیر القرآن

مجلد ۱۳

لِمُؤلّفه سید محمد تقی النّقوی

سرشناسه	: نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸.
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیرالقرآن / لمؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۶.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ج.
شابک	: دوره 978-964-8981-24-7 ؛ ج. ۱۳: 978-964-8981-57-5
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع	: Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century
رده‌بندی کنگره	: ۱۳۹۵ ۹ض۷ن/۹۸ BP
رده‌بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد الثالث عشر

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمیة: ۱۰۰۰

الطبعة: الاوّل

تاریخ الطبع: ۱۳۹۷ ش. - ۱۴۳۹ ق.

تنسیق الصفحات: محسن نقوی

لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم ۱۰ - دارالکتب الاسلامیة

شابک: ۵ - ۵۷ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

شابک دوره: ۷ - ۲۴ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

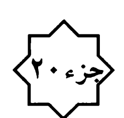
الجزء
العشرون

سُورَةُ ٱلنَّمْلِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فَمَا كَانَ جَوابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَنْ قالُوٓا أَخْرِجُوٓا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ ٱلْغابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلامٌ عَلٰى عِبادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفٰى ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمآءِ مآءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهآ ءَإِلٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرارًا وَ جَعَلَ خِلالَهآ أَنْهارًا وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حاجِزًا ءَإِلٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفآءَ ٱلْأَرْضِ ءَإِلٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ ٱلرِّياحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ءَإِلٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ تَعالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ

ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمٰاءِ وَٱلْأَرْضِ ءَإِلٰهٌ مَعَ ٱللّٰهِ قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ ﴿۶۴﴾ قُلْ لٰا يَعْلَمُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللّٰهُ وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ ﴿۶۵﴾ بَلِ ٱدّٰارَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهٰا بَلْ هُمْ مِنْهٰا عَمُونَ ﴿۶۶﴾ وَ قٰالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَءِذٰا كُنّٰا تُرٰابًا وَ آبٰاؤُنٰآ أَئِنّٰا لَمُخْرَجُونَ ﴿۶۷﴾ لَقَدْ وُعِدْنٰا هٰذٰا نَحْنُ وَ آبٰاؤُنٰا مِنْ قَبْلُ إِنْ هٰذٰآ إِلّٰآ أَسٰاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿۶۸﴾ قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿۶۹﴾ وَ لٰا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لٰا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمّٰا يَمْكُرُونَ ﴿۷۰﴾ وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ ﴿۷۱﴾ قُلْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿۷۲﴾ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لٰا يَشْكُرُونَ ﴿۷۳﴾ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مٰا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مٰا يُعْلِنُونَ ﴿۷۴﴾ وَ مٰا مِنْ غٰائِبَةٍ فِي ٱلسَّمٰاءِ وَ ٱلْأَرْضِ إِلّٰا فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ ﴿۷۵﴾



◀ اللّغة

ٱلْغٰابِرِينَ: الغابر الماكث بعد مضّي ما هو معه و هو كناية عن البقاء و منه الغبرة و هي البقّية في الضّرع من اللّبن، و قيل معناه أنّها بقيت ولم تسير مع لوط و قيل فيمن بقى بعد في العذاب.

حَدَآئِقَ: جمع حديقة و هي البستان.
بَهْجَةٍ: منظر حسن إبتهج النّاظر به إذا سرَّ.
رَوَاسِيَ: رست ترسوا رسواً إذا ثبتت و المراد بها الجبال الثّابتة.
حَاجِزًا: الحاجز المانع.
عَمُونَ: جمع عمى.
أَسَاطِيرُ: جمع أسطورة و هي القضية الّتي لا أصل لها.
تَكُنُّ: يقال كننت الشّئ في نفسي و أكننته إذا سترته في نفسك و الباقي واضح لا خفاء فيه.

◀ الإعراب

خِلَالَهَآ ظرف و هو المفعول الثّاني و بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ كذلك أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فاعل يعلم ٱلْغَيْبَ مفعول و إِلَّا ٱللَّهُ بدل من، مَن، و قيل، إلاّ، بمعنى غير و هي صفة، لمن، ٱدَّٰرَكَ أصله تدارك ثمّ سكنت التّاء و إجتلبت لها همزة الوصل و التَّدارك التّتابع وَ ءَابَآؤُنَا معطوف على الضّمير في، كنّا، من غير توكيد لأنّ المفعول فصلّ فجرى مجرى التوكيد عَسَىٰٓ أَنْ يَكُونَ إسم كان مضمرٌ فيها أي أن يكون الشّأن و ما بعده في موضع نصب خبرٌ كان رَدِفَ لَكُمْ الجمهور بكسر الدّال.

◀ التّفسير

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوٓا ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ

أخبر اللّه تعالى عن قوم لوط حين قال لهم لوط أتأتون الفاحشة إلى أخر ما تقدّم ذكره، أنّه لم يكن لهم جواب **إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوٓا ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ** أي أل لوط، **أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**، عن عملكم في إتيان الذّكران من

العالمين إذ تأمرونهم و يتّنزهون عن ذلك فلا تجاوروهم و هذه صفتهم نقل هذا القول عن إبن عبّاس.

و قال قتادة أخبر اللّه تعالى أنّه أهلك هؤلاء القوم بأجمعهم و أنجى لوطاً و أهله الّذين أمنوا به من ذلك الهلاك و إستثنى من جملة أهله إمرأته و أخبر أنّه قدّرناها من الغابرين.

أقول معنى الآية لا خفاء فيه و ذلك لأنّ نوح النّبي لما منعهم عمّا كانوا فيه من القبائح و لم يكن لهم جواب قالوا أي قال بعضهم لبعضٍ أخرجوا أل لوطٍ من قريتكم أنأّهم أناسٌ يتّطهرون عن أدبار الرّجال أي أنّهم يتّنزهون عنه و من المعلوم عند العقلاء أنّ هذا ليس جواباً له عليه السلام بل هو دليل على ضعف عقولهم و جهلهم أو عنادهم و أمثال ذلك من الوجوه و قد أجمع العقلاء على أنّ التّهديد في الجواب دليل على ضعف المجيب و عدم قدرته على الجواب.

فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ

أي فأنجينا لوطاً و أهله من العذاب الّذي نزل على قومه على ما مرَّ تفصيله في سورة الشُّعراء، إلاّ إمرأته قدَّرناها من الغابرين، لأنّ جرمها كان على مقدار جرمهم فهي كانت منهم في الحقيقة.

وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ

و قد مضى بيان هذا في الأعراف و هود و الشُّعراء و قلنا أنّ جبرئيل أخذ كفّاً من تراب و ضرب به وجوه أهل المدينة فعميت عيونهم و لمّا حان الفجر نزل بأمر ربّه و ضرب بجناحه الأيمن على ما حوى شرقيّها و بجناحه الأيسر على ما حوى غرّبيها فإقتلعها من الأرض و عرج بها حاملاً لها بين جناحيه و رفعها في الجوّ ثمّ قلّبها فجعل عاليها سافلها و أمطر اللّه عليهم من حجارة سجّيل و هلك القوم عن أخرهم أجمعين و هذا معنى قوله: **وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا.**

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ

الخطاب للنّبي صلى الله عليه و آله و سلم أي قل يا محمّد الحمد للّه، شكراً على نعمه وفّقنا للإيمان، وقال بعضهم معنى الكلام قل يامحمّد الحمد للّه على هلاكهم، و قيل الخطاب ليس للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بل خاطب اللّه تعالى لوطاً و قال له قل الحمد للّه على هلاكهم، و الحقّ أنّ الخطاب للنّبي صلى الله عليه و آله و سلم و عليه جمهور المفسّرين و المعنى قل يامحمّد الحمد للّه على هلاك كفّار الأمم الخالية قال النّحاس و هذا أولى لأنّ القرأن منّزلٌ على النّبي و كلّ ما فيه فهو مخاطب به عليه السّلام إلاّ ما لم يصّح معناه إلاّ لغيره.

و أمّا قوله: **وَ سَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ**، الواو للعطف أي قُل يا محمّد الحمد للّه على إهلاكهم و قل سلامٌ على عباده الّذين إصطفى، و هم الأنبياء و الأوصياء لأنّ اللّه تعالى إصطفاهم أي إختارهم للنّبوة و الوصاية علىٰ جميع خلقه و قوله: **ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ**، الهَمَزة للإستفهام و اللّه مبتدأ و خيرٌ، خبره و، أم، عاطفة و، ما، إسم موصول واقع على ألهتهم و جملة، يشركون صلة و على هذا فالمعنى ءاللّه خيرٌ أم الّذي يشركون به، من الأصنام و غيرها و قيل اللّفظ لفظ الإستفهام و معناه الخبر و قيل معنى الكلام الخير في هذا أم في هذا الّذي تشركون به في العبادة، ثمّ أنّ الخير في الآية ليس من أفعل التّفضيل بل هو على معناه في اللّغة و ذلك لأنّه لا خير في الأصنام و الأوثان أصلاً حتّى يقال، اللّه خير منها أي أفضل منها و بعبارةٍ أخرى لابدّ من وجود فضيلةٍ في المفضّل عليه ليصّح أن يقال هو أفضل منه فإذا قلت زيد أفضل من عمروٍ معناه أنّ عمرواً له فضل إلاّ أنّ زيداً أفضل منه و أمّا إذا لم يكن في عمرو فضل أصلاً فلا يعقل هذا الكلام إذا عرفت هذا فقد علمت أنّه لا خير في الأصنام و الأوثان أصلاً فلا يقال عبادة اللّه أفضل من عبادتها و إلى هذا أعني إنسلاخ الخير عن التّفضيل أشار الشّاعر بقوله:

أتهجوه ولست له بكفٍّ فشرّكما لخيركما الفداء

المعنى فالّذي فيه الشّر منكما للّذي فيه الخير الفداء و لا يجوز أن يكون بمعنى، من، لأنّك إذا قلت فلان شرٌّ من فلان فقد أثبتت في كلّ واحدٍ منهما الشَّر.

أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰآءً فَأَنْبَتْنٰا بِهِ حَدٰآئِقَ ذٰاتَ بَهْجَةٍ مٰا كٰانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهٰآ ءَإِلٰهٌ مَعَ ٱللّٰهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ

قال الزّمخشري في الكشّاف، فأن قلت ما الفرق بين، أم، في قوله: أم ما تشركون به، و قوله: **أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ**.

قلت تلك متّصلة لأنّ المعنى أيّهما خيرٌ، و هذه منقطعة بمعنى، بل، والهمزة لما قال اللّه تعالى، ءاللّه خيرٌ أم الألهة، قال بل أمّن خلق السّموات و الأرض خير تقريراً لهم بأنّ من قدر على خلق العالم خيرٌ من جماد لا يقدر على شيءٍ إنتهى كلامه.

و على هذا فيصير معنى الأية، بل من خلق السّموات و الأرض و أوجدهما من العدم إلى الوجود و أنزل لكم من السّماء ماءً، و هو المطر فأثبتنا به، أي نسب المطر، حدائق و بساتين ذات بهجةٍ و هو كناية عن حسن منظرهما، ما كان لكم أي ليس لكم أن تنبتوا شجرها أي شجر الحدائق ءإلهٌ مع اللّه بل هم قومٌ يعدلون، الهمزة للإستفهام على سبيل الإنكار أي ليس مع اللّه إلهاً أخر، بل هم قومٌ يعدلون، المراد بهم من يشرك باللّه فأنّهم يعدلون أي يتّجاوزون عن الحقّ، أنّ اللّه تبارك وتعالى أشار بهذه الأيات إلى بعض ما أنعمه على الخلق ممّا لا يقدر عليه أحد سواه فقال أمّن خلق السّموات و الأرض، و من المعلوم أنّ غيره لا يقدر عليه ثمّ أشار إلى نعمة الماء الّذي لابدّ منه لكلّ موجودٍ حيّ في بقاءه و قال و أنزل لكم من السّماء ماءً فأنبتنا به أي بسبب الماء حدائق أي

بساتين ذات بهجةٍ ثمّ أشار إلى ضعف المخلوق من إنبات الشّجر و قال ما كان لكم أن تبتوا شجرها، ءإلهٌ مع اللّه بل هم قومٌ يعدلون و يتّجاوزون عن الحقّ حيث يعبدون الأصنام و الأوثان التّي لا تقدر على خلق بعوضةٍ فضلاً عن خلق السّموات و الأرض و ما فيهما من الموجودات و عجائب الخلقة التّي توجب الدّهشة و الحيرة فأنّ العاقل لا يترك الخالق القادر و يأخذ بالجماد الّذي لا شعورٌ له و أيّ ظلمٍ أفحش منه فهذه الآية و ما يأتي بعدها كالبرهان على إثبات الصّانع الحكيم و الإستفهام في قوله ءإلهٌ، للإنكار أي ليس إلهٌ غيره فهو المعبود الّذي يستّحق أن يعبد لا غيره و لنعم ما قيل:

تفكّر في نبات الأرض و أنظر إلى أثار ما صنع المليك
ففي رأس الزّبرجد شاهداتٌ بأنّ اللّه ليس له شريكُ

ثمّ بعد ما ذكر أنّه منشئ السّموات و الأرض و موجدهما و ذكر شيئاً مشتركاً بين السّماء و الأرض و هو إنزال الماء من السّماء و إنبات الحدائق في الأرض ذكر بعده ما يختّص بالأرض و هو جعلها قراراً أي مستقّراً لكم بحيث يمكنكم الإقامة بها و الإستقرار عليها.

أَمَّنْ جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَ جَعَلَ خِلَالَهَآ أَنْهَارًا وَ جَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ءَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ فقال في هذه الأية أشار إلىٰ أُمور أربعة كلّها يدّل علىٰ كمال قُدرته و تمام عنايته بخَلقه

أوّلها: أنّ اللّه تعالى جعل الأرض قراراً أي مستّقراً فأنّ الموجود المادّي لابدّ له من مكانٍ بل هو أوّل ما يحتاج إليه.

ثانيها: أنّه تعالى جعل خلالها أي خلال الأرض و وسطها أنهاراً من الماء الّذي يوجب حياة الأرض و ما فيها.

ثالثها: جعل له أي للأرض رواسي و هو الجبال الرّاسيات و منافعها لا تخفى.

رابعها: جعل بين البحرين حاجزاً، أي مانعاً من إمتزاج العذب بالملح، ءإلهٌ مع اللّه بل أكثرهم لا يعلمون، أنّما قال أكثرهم ولم يقل جميعهم لأنّ كثيراً من النّاس يعلمون ما ذكره في الآية و مع ذلك ينكرونها عناداً و لجاجاً منهم أو لأجل المصالح الدُّنيوية و غير ذلك و أنّما قلنا ذلك لأنّ منشأ الإنكار قد يكون جهلاً كالعوام و قد يكون عناداً و قد يكون حبّ الدّنيا و غير ذلك فليس كلّ منكرٍ لشيءٍ جاهلاً به ألا ترى أنّ أميرالمؤمنين يوقل في الخطبة الشّقشقية:

قوله عليه السلام: أَما وَ اَللّٰهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ اَبِى قُحافَةَ و اِنَّهُ لَيَعْلَمُ اَنَّ مَحَلِّى مِنْهٰا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحٰى، الخ.

قال اللّه تعالى: **اَلَّذِينَ اٰتَيْنٰاهُمُ اَلْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰآءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ اَلْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ**[۱].

أَمَّنْ يُجِيبُ اَلْمُضْطَرَّ إِذٰا دَعٰاهُ وَ يَكْشِفُ اَلسُّوٓءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفٰآءَ اَلْأَرْضِ ءَإِلٰهٌ مَعَ اَللّٰهِ قَلِيلًا مٰا تَذَكَّرُونَ

في هذه الآية إشارة بل تصريح بأنّ المعبود ينبغي أن يجيب المضطّر إذا دعاه و يكشف السُّوء عنه و من لا يقدر على الإجابة و كشف السُّوء فهو ليس بمعبودٍ و لا ينبغي أن يعبد إذ وجوده و عدمه على السَّواء، و توضيح ذلك إجمالاً:

هو أنّ العابد محتاج إلى معبوده في جميع شئونه و لا سيّما عند الضّرورة و الإضطرار و هو على ضربين، مضطّرٌ، و غير مضطرٍ، و إختلفوا في معنى المراد بالمضطّر فقال إبن عبّاس هو ذو الضّرروة المجهود و قال السّدي، الذّي لا

۱- البقرة = ۱۴۶

حول له و لا قوّة، و قال ذو النُّون هو الّذي قطع العلائق عمّا دون اللّه و قيل هو المفلس و قيل هو الّذي إذا رفع يديه إلى اللّه داعياً لم يكن له وسيلة من طاعةٍ قدّمها و غير ذلك من الأقوال.

أقول المضطّر إسم مفعولٍ من الإضطرار و هو الّذي أحوجه مرضٌ أو فقرٌ أو حادث من حوادث الدَّهر إلى الإلتجاء إلى اللّه و التَّضرع إليه لكشف ما إعتراه من ذلك و إزالته عنه فالإضطرارا لا يصدق إلاّ في الحوائج الّتي لا يقدر أحدٌ على رفعها و كشفها إلاّ اللّه تعالى.

قال بعض المفسّرين إجابة دعاء المضطّر هو فعل ما دعا به لأجل طلبة و ذلك لا يكون إلاّ من قادرٍ عليه مختار له لأنّه يقع على ما دعا به الدّاعي و يكشف السُّوء يعني الآلام بصرفها عنكم إنتهى.

و الحَق أنّ المضطَّر الحقيقي هو الّذي يكون إضطراره بحيث لا يقدر أحدٌ على رفعه إلاّ اللّه تعالى و أمّا غيره فهو مضطّرٌ مجازاً لا حقيقةً قيل جاء رجل إلى مالك بن دينار فقال أنا أسألك باللّه أن تدعوا لي فأنا مضطًّر قال مالك إذاً فأسئله فأنّه يجيب المضطَّر إذا دعاه إنتهى.

قال الشّاعر:

وإنّي لأدعو اللّه و الأمر ضيِّقٌ	علّي فما ينفَّك أن يتُّفرجا
و ربّ أخ سدَّت عليه وجوهه	أصاب لها لمّا دعا اللّه مخرجاً

و أمّا قوله: **وَ يَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ** فقال بعضهم أي الضُّر و قال الكلبي الجور، و الحَق أنّ السُّوء البلَّية الّتي لا يقدر أحدٌ على رفعها إلاّ اللّه تعالى و لذلك يقال يا كاشف البّليات.

و قوله: **وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ** أي يجعل أهل كلّ عصرٍ يخلفون العصر الأوّل و أن شئت قلت يهلك قوماً و ينشئ آخرين، و قيل معناه يجعل أولادكم خلفاء منكم و غير ذلك من الأقوال الّتي يرجع كلّها إلى أصلٍ واحدٍ **ءَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ** فيه توبيخٌ كأنّه قال ويلكم أمع اللّه إلهٌ.

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ءَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ

الهداية إراءة الطّريق و المعنى هو الّذي نصب لكم من الدّلالات الّتي تستدّلون بها من الكواكب و غيرها في البراري و من الّذي يرسل الرّياح بشرى بين يدي رحمته يعني بين يدي المطر و الغيث و إنّما عبّر بالظُّلمات لأنّ مفاوز البَرّ الّتي لا إعلام لها و هكذا الحجج البحار كأنّها ظلمات لأنّه ليس لها علمٌ يهتدى به.

أَمَّنْ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ءَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

أشار اللّه تعالى بذلك إلى إختراع الخلق إبتداءً ثمّ عودهم إلى الدّنيا بعد موتهم المعَّبر عنه بالبعث فأنّ الأحياء و الإماتة ثمّ الأحياء ثانياً كما كان أوّلاً لا يقدر عليه إلاّ اللّه تعالى ثمّ أشار إلى نعمةٍ أخرى و هي قوله: **وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ** فمن للسّماء بالغيث و المطر و من الأرض بالنَّبات و أنواع الثّمار و الفواكه أآلهةٌ مع اللّه يقدر على ذلك قل يا محّمد لهم، هاتوا برهانكم، أي حجُّتكم و دليلكم على صدق مدّعاكم إن كنتم محَّقين في الإشراك معه فإذا لم تقدروا على إقامته و لن تقدروا أبداً فأعلموا أنّه لا إلٰه إلاّ هو و لا يسَّتحق العبادة سواه و ذلك لأنّ كلّ ما يكون حقّاً من أمر الدّين لابُّد أن يكون عليه دلالة و برهان هكذا قيل أقول في الآية إشارة إلى أنّ العاقل اللّبيب يتَّبع الدَّليل و البرهان في عقائده و هذا ممّا لا كلام فيه فمن يعبد الأصنام و الأوثان و غيرها من المخلوق لا برهان له عقلاً و ذلك لأنّ المخلوق كائناً ما كان لا يقدر على شئ مع قطع النَّظر عن مشيئته خالصة و ما كان كذلك فأيّ نفع في عبادته ثمّ أيّ دليلٍ دلَّ ذلك عقلاً إلاّ متابعة الهوى فهذه الآيات المذكورات من قوله: **قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ** إلى قوله: **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** من أقوى البراهين الّتي

أقيمت على توحيد اللّه عقلاً و حسّاً أمّا العقل فواضح و أمّا الحِّس فلإنّا نرى بأعيننا و ندرك بحوسّنا ما ذكره اللّه فيها و من آثار عقله و حسَّه معاً فهو جماد بل أضَّل و أسفل منه لأنّ الجماد لا عقل له و لا حسّ و الإنسان له عقلٌ و قوى محسوسة فإذا لم يستفد منها فهو أضَّل من جماد كما قال اللّه تعالى:

لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ إلىٰ قوله: أُولٰئِكَ كَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ.

قُلْ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰواٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللّٰهُ وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ

قال في المفردات الغيب مصدر غابت الشَّمس و غيرها إذا إستترت من العين يقال غاب يغيب غيباً مثل باع يبيع بيعاً و أستعمل في كلّ غائبٍ عن الحاسّة و ممّا يغيب عن علم الإنسان بمعنى الغائب و يقال للشّئ غيب و غائب بإعتباره بالنّاس لا باللّه تعالى فأنّه لا يغيب عنه شئ كما لا يعزب عنه مثقال ذرَّة في السّموات و الأرض فقوله: **عٰالِمُ ٱلْغَيْبِ و الشّهادة** أي ما يغيب عنكم وما تشهدونه، و الغيب في قوله: **يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** هو لا يقع تحت الحّواس و لا تقتضيه بداية العقول و إنّما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السّلام و يدفعه يقع على الإنسان إسم الإلحاد و أمّا من قال الغيب هو القرآن أو القدر فأشار إلى بعض ما يقتضيه لفظه إذا عرفت معنى الغيب و موارد إستعمالاته.

فنقول أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ العلم بالغيب منحصرٌ به و أنّه لا يعلم الغيب إلاّ هو و ذلك لأنّه تعالى نفى العلم بالغيب عن جميع من في السّموات و الأرض من الملائكة و الجّن و الإنس و أثبته لنفسه فقال لا يعلم من في السّموات و الأرض الغيب إلاّ اللّه فأنّه الإستثناء عن النَّفي يفيد الإثبات للمستثنى فإذا قلنا ما جائني أحد إلاّ زيد معناه نفي المجئ عن جميع النّاس و إثباته لزيد و هذا ظاهرٌ ثمّ أنّ الإستثناء قد يكون متصّلاً و هو ما يكون المُستثنىٰ داخلاً في المستثنى منه ثمّ أخرجه الإستثناء مثل قولك ما جاءني القوم إلاّ زيد

أو جاءني القوم إلاّ زيد، فأنّ زيد كان داخلاً في القوم فى المجئ و عدمه و إنّما أخرجه كلمة، إلاّ، الإستثنائيّة، و قد يكون منفصلاً أو منقطعاً و هو ما لا يكون كذلك أي لا يكون المستثنى داخلاً في المستثنى منه من أوّل الأمر مثل ما جاءني القوم إلاّ حماراً فأنّ الحمار لم يكن داخلاً في القوم حتّى يخرجه الإستثناء فكأنّك قلت ما جاءني إلاّ حمار إذا عرفت هذا فأعلم.

أنّ المفسّرين قد أجمعوا على أنّ الإستثناء في الآية منقطعٌ لا متصّل، و ذلك لأنّ كلمة من، فاعل الفعل و هذه هي المستثنى منه في الآية، و كلمة، اللّه، هي المستثنى و هو لم يكن داخلاً في المستثنى منه من أوّل الأمر حتّى يخرجه الإستثناء و ذلك لأنّ اللّه تعالى ليس له مكان أصلاً لتّنزهه عنه و أن شئت قلت أنّ السّموات و الأرض مكان لغيره تعالى من الموجودات التّي تحتاج إلى مكانٍ و أمّا الواجب تعالى فلا يحتاج إلى مكانٍ لتّجرده كما ثبت في محلّه و على هذا فالإستثناء ليس متصّلاً و إذا لم يكن متصّلاً فهو منقطعٌ لا محالة و هو المطلوب.

و حيث أنّ القاعدة تقتضي النّصب في المستثنى المنقطع، و قد أجمع القرّاء على رفع كلمة، اللّه، فقالوا أنّ الرّفع على لغة بني تميم لا على لغة الحجاز و قد فصّل الكلام صاحب الكشّاف لإثبات هذا المرام و تبعه غيره على هذا التّأويل قال الزّمخشرى.

إن قلت هلاّ زعمت أنّ اللّه ممّن في السّموات و الأرض كما يقول المتكلّمون، اللّه، في كلّ مكانٍ على أنّ علمه في الأماكن كلّها فكان ذاته فيها حتّى لا تحمله على مذهب بني تميم.

قلت يأبى ذلك أنّ كونه في السّموات و الأرض مجازٌ و كون غيره من الموجودات فيهنّ حقيقة و إرادة المتكلّم بعبارةٍ واحدة حقيقةً و مجازاً غير صحيحة على أنّ قولك من في السّموات و الأرض و جمعك بينه و بينهم في إطلاق إسمٍ واحد فيه إيهام تسوية و الإيهامات مزالّة عنه و عن صفاته تعالى إنتهى.

و قد أجاب الرّازي عنه بما حاصله أنّ كونهم في السّموات و الأرض كما أنّه حاصل حقيقته و هو حصول ذواتهم في تلك الأحياز فكذلك حاصل مجازاً و هو كونهم عالمين بتلك الأمكنة فإذا حملنا هذه الغيبة على المعنى المجازي و هو الكون فيها بمعنى العلم دخل الرَّب سبحانه و العبيد فيه فصحّ الإستثناء إنتهى.

و أنا أقول مستعيناً باللّه و متوكّلاً عليه أنّ ما ذكراه في حلّ الإشكال لا يرجع إلى محصلّ و العجب من الرّازي و هو من الفلاسفة كيف قال ما قال و أمّا صاحب الكشّاف فلا عجب منه لأنّه ليس من فرسان هذا الميدان و هو من علماء الأدب و اللُّغة و كان حقّه أن لا يتكلّم في المعقولات و قيل بيان أصل المطلب نقدّم مقدّمةً لابدّ من ذكرها في المقام و هي أنّه لا شكّ في كونه تعالى خالقاً و موجداً لجميع ما سواه فكلّ ما في العالم الإمكان معلول و مخلوق له فهو علّة الإيجاد و غيره معلول و قد ثبت في الفلسفة أنّ المعلول رشحٌ من رشحات وجود العلّة بمعنى أنّ المعلول لا قوام له بدون العلّة كما لا وجود له بدون وجودها فهو قائم بالعلّة لا بنفسه قال اللّه تعالى: **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ** و معنى القيّوم أنّه تعالى قائم بذاته و ما سواه قائم به، فالعلّة داخلة في المعلول لا كدخول شيءٍ في شيءٍ و خارجة عنه لا كخروج شيءٍ عن شيءٍ و أن شئت قلت داخلة في الأشياء لا بالممازجة و خارجة عنها لا بالمباينة و قد أشار بذلك أميرالمؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة و قد أجاد بذلك علىٰ جميع العقلاء سلام اللّه عليه بل المراد بالدّخول ربط العلّة بالمعلول و عنايتها به و إفاضتها عليه الوجود آناً فآناً (أگر نازى كند از هم فرو ريزند قالبها).

و ليس المراد بدخولها فيه أنّها مثله من حيث الذّات أين التّراب و ربّ الأرباب و أين الواجب من الممكن، كما أنّ المراد بخروجها من المعلول هو أنّه ليس من سنخ المعلول ذاتاً و صفةً إذا عرفت هذه المقدّمة فنقول:

قوله تعالىٰ: **لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ** أنّ المراد بكلمة (من) التّي هي المستثنى منه في الآية جميع الممكنات من ذوي العقول و غيرهم و أنّما أتى بكلمة من، التّي يقال لذوي العقول و لم يقل ما في السموّات و الأرض، تغليباً لذوي العقول على غيرهم مضافاً إلى أنّ البحث في العلم و هو يختصّ بذوي العقول فكلمة من، تشمل جميع الموجودات فيصير المعنى لا يعلم كلّ موجودٍ من الموجودات الّتي في السموّات و الأرض، الغيب إلاّ موجوداً واحد و هو اللّه تعالى فالمستثنى منه في الآية هو مطلق الموجود و المستثنى هو الموجود الخاصّ الواجبي و دخول الموجود الخاصّ في الموجود بمعنى العام لا إشكال فيه إذ كلمة الموجود تطلق على الواجب و الممكن على السّواء و من المعلوم أنّ الإشتراك في الوجود لا يلزم منه الإشتراك في الذّات و على هذا فنفى اللّه العلم بالغيب عن كلّ موجودٍ و أثبته لنفسه و أيّ إشكالٍ فيه أليس اللّه تعالى من الموجودات فأن كان منها فهو المطلوب و أن لم يكن منها فهو معدوم لأنّ غير الموجود هو العدم و لا واسطة بينهما.

إن قلت ليس في الآية ما ذكرت من كلمة الموجود بل الثّابت فيها هو كلمة من، و المراد بها الذوّات.

قلت لا دليل على أنّ المراد بها الذّوات و لو فرضنا أنّ المراد بها الذّات فهو أيضاً كما قلنا و المعنى لا يعلم الذّوات الغيب إلاّ ذات اللّه و لا يلزم من إطلاق الذّات عليه تعالى أنّ ذاته كذات غيره فأنّ الإشتراك في المفهوم لا يلزم منه الإشتراك في الذّات ألا ترى أنّ كلمة الذّات تطلق على جميع الموجودات من المجرّدات و غيرها فيقال ذات الملك و ذات الإنسان و ذات اللّه كلّ ذلك بحسب اللّفظ و أمّا المصاديق فلا و حاصل الكلام في المقام أنّ الإستثناء لا إشكال في كونه متصّلاً فلا محتاج في رفع كلمة اللّه، إلى لغة تميمٍ.

و أمّا قول الرّازي في نقله عن المتكلّفين من أنّه تعالى في كلّ مكان على أنّ معناه علمه في الأماكن كلّها فهو خلاف ظاهر الآية و لا يساعده العرف و العقل و اللّغة والنّقل.

أمّا العرف فواضح إذ لا يفهم العرف، عن قول القائل هو في كلّ مكان يعني علمه في الأماكن.

و أمّا العقل فأنّه يفرق بين كون الشّئ في مكان، و بين علمه به فأنّ العلم يتعلّق بالمكان و الزّمان لا أنّه فيه و الفرق واضح.

و أمّا اللُّغة فأنّ كون الشّئ في مكان معناه وجوده و قراره فيه لا علمه به.

أمّا النَّقل:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَ ٱللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**(١).

فعلى ما قاله الرّازي معناه علمه معكم، و أظهر منه.

قال اللّه تعالىٰ: **مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لَآ أَدْنَىٰ مِنْ ذٰلِكَ وَ لَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا**(٢).

و من المعلوم أنّ حمل هذه الأيات على علمه بالأماكن فقط خلاف الظّاهر نعم المعيّة بمعنى القرب المكاني لا معنى له لكونه تعالى منّزهاً عنه، في موضع أخر.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ**(٤).

فعلى قول الرّازي لابدّ لنا من حمل هذه الأيات على علمه تعالى و ليت شعري ما معنى قوله: **نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ** إذ قلنا أي أعلم به من حبل الوريد.

١- الحديد = ۴ ٢- المجادلة = ٧

٣- ق = ١۶ ۴- الواقعة = ٨۵

و أمّا إذا قلنا أنّ المراد بالقرب المعنوي و هو عناية الخالق بمخلوقه و لطفه لا القرب المكاني الّذي يكون في الأجسام فهو مطابق للعقل و النّقل و أمّا علمه بجميع الأشياء فقد ثبت في موضعه و لا ربط له بما نحن فيه فالأولى حمل الكلام على ظاهره و اللّه علم بما قال و أراده.

ثمّ أنّ الآية بصدد بيان أنّ العلم بالغيب منحصرٌ بذاته و هذا ممّا لا كلام فيه و أمّا أنّه لم يعطه أحداً من خلقه فالآية لا تدلّ عليه فما ذكره الزّمخشري و القرطبي و غيرهما من مفسّرين العامّة نقلاً عن عائشة بنت أبى‌بكر أنّها قالت من زعم أنّ محمّداً لم يعلم ما في غدٍ فقد أعظم على اللّه الفرية، كلام لا طائل تحته بل هو كذبٌ محض و إفتراءٌ على الرّسول و ليس شئ أعظم فريةً على اللّه من وضع هذه الأحاديث و نقلها، و ذلك لأنّ الرّسول لو لم يعلم ما في غدٍ فما الفرق بينه و بين أبى‌بكر و عمر و عثمان و غيرهم بل نقول ما الفرق بينه و بين عائشة إلاّ في الذّكورية و الأنوثيّة أو بينه و بين أحاد النّاس أليس هذا ممّا ينفيه العقل السّليم:

قال اللّه تعالىٰ: **عٰالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ٱرْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا، لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ وَ أَحٰاطَ بِمٰا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا**[١]

فالأيات الدّالات على أنّ علم الغيب منحصر به تعالى معناها أنّه ذاتّيٌ له و هذا لا ينافي وجوده في غيره تعالى بإعطاءه إيّاه كما أنّ الولاية على الغير منحصرة به تعالى أوّلاً و بالذّات و ثابتة للرّسول و أوصيائه ثانياً و بالعرض.

قال اللّه تعالىٰ: **أَطِيعُوا ٱللّٰهَ وَ أَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ**[٢].

١- الجنّ = ٢٦ الى ٢٨ ٢- النّساء = ٥٩

حاصل الكلام أنّ الآية و أمثالها لا تدلّ على عدم وجود العلم بالغيب في غيره تعالى و سيأتي تفصيل الكلام في سورة الجنّ إن شاء اللّه.

بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأٰخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ

قرأ الجمهور بل أدارك، و أصله تدارك فأدغمت التّاء في الدّال فسكنت و أجتبلت همزة الوصل، و قرأ أبّي، تدّارك على الأصل و جعل، أم، بدل، بل، فقال أم تدارك و قرأ إبن كثير و أبو عمرو و حميد، بل أدرك، من الإدراك و هكذا فالقرآت فيه مختلفة و المشهور قراءة الجمهور على ما في المصاحف قال إبن عبّاس المعنى بل تدارك علمهم ما جهلوه في الدُّنيا أي في الأخرة بمعنى تكامل علمهم في الأخرة لأنّهم رأوا كلّ ما وعدوا به معاينةً متكاملٌ علمهم به.

و القول الأخر في معنى الكلام، بل تتنابع علمهم اليوم في الأخرة فقالوا لا تكون.

و القول الثّالث، يدرك علمهم في الأخرة و يعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم لأنّهم كانوا في الدُّنيا مكذّبين.

و القول الرّابع أنّه على معنى الإنكار و هو مذهب أبي إسحاق و إستّدل على صحّة هذا القول بأن بعده (بل هم عنها عمون) أي لم يدرك علمهم في الأخرة.

و الأقوال في الآية كثيرة و الّذي حصل لنا في معنى الآية هو أنّ اللّه تعالى لمّا أخبر عن الكفّار في الآية السّابقة أنّهم لا يشعرون متى يحشرون يوم القيامة و أنّهم ساخرون في ذلك في الدُّنيا، أخبر في هذه الآية أنّهم سيعلمون حقيقة ذلك يوم القيامة حين يبعثهم اللّه إلاّ أنّ علمهم لا ينفعهم في ذلك اليوم مع شكّهم في دار الدُّنيا و أخبر أنّهم في شكٍّ من البعث و أنّهم عمون عن معرفة حقيقته و هو جمع، عمى، شبّه جهلهم به لأنّ كلّ واحدٍ منها يمنع بوجوده من إدراك الشّئ على ما هو به فأنّ الجهل مضادّ العلم و العمى منافٍ للرؤية و

الأصل في، عمون، عميون إستقلّت الضّمة على الياء فنقلت الى الميم بعد حذف كسرتها قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم النّاس نيّام إذا ماتوا إنتبهوا.

وَ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَ ءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ، لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ

حكى اللّه تعالى في هذه الآية عن الكفّار و المشركين الّذين أنكروا البعث أنّهم قالوا ءإذا كنّا تراباً، بعد الموت في القبور، و هكذا آباءنا، الّذين ماتوا و صاروا تراباً تحت القبور، ءإنّا لمخرجون، من قبورنا و مبعوثون و الهمزة في ءإنّا، للإنكار أي لا يكون كذلك و كانوا يقولون ذلك مستهزئين منكرين للبعث ثمّ أخبر اللّه عنهم أنّهم يحلفون و قولون، **لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا**، أي وعدنا البَعث بعد الموت نحن و آباءنا فيما مضى، إن هذا، أي ليس هذا الوعد **إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ**، أي أنّ القول بالبعث و الحياة بعد الموت من الأساطير الّتي لا أصل لها، و هذا تفسير ألفاظ الآية و أنت ترى خروجهم عن طور العقل و ذلك لأنّ العقال لا ينكر شيئاً هو في معرض الإمكان و مجرّد الإستبعاد لا يكفي في الإنكار و قد إتّفق العقلاء على أنّ الأصل في تحقّق الأشياء و وجودها على الإمكان إلاّ أن أقيم على إستحالته بالبرهان القاطع و أخبار الأنبياء في باب الحشر و النّشر و سؤال القبر و تطائر الكتب و غيرها ممّا هو خارجٌ عن حواسّنا من هذا القبيل إذ لم يدّا دليل من العقل على إستحالتها و إذا لم يكن الشّئ محالاً فهو ممكنٌ لا محالة فلا سبيل الى الإنكار و لذلك أي لأجل حكمهم على الممكن بالإستحالة صاروا مستّحقين للذّم لأنّه خروجٌ عن طور العقل، ألم يعلموا أنّ الّذي خلقهم من قطرة ماءٍ يقدر على خلقهم ثانياً من ترابٍ و ليس الخلق ثانياً بأصعب من الخلق أوّلاً فمن أنكر البعث أنكر الخلق الأوّل إلاّ أنّه لم يشعر به و نحن قد تكلّمنا في المعاد إجمالاً و سيأتي الكلام منّا في هذا الباب على وجهٍ أبسط إن شاء اللّه.

قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ

أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار المكذّبين المنكرين للبعث و النشّور، سيروا في الأرض فأنظروا كيف كان عاقبة المجرمين الّذين ظلموا على أنفسهم و على غيرهم زعماً منهم أنّه لا بعث و لا نشور و لا حساب و لا كتاب و لا سؤال فأهلكهم اللّه في الدُّنيا بذنوبهم و أعدَّ لهم في الأخرة عذاباً أليماً و قد ثبت عقلاً أنّ حكم الأمثال واحدٍ و أنّما عبَّر أنّهم بالمجرمين، لأنّ إنكار الأنبياء و الرسّل في الحقيقة إنكار اللّه و إنكار اللّه هو الكفر بعينه و أيّ جرمٍ أشدّ و أقبح منه بل الكفر و إنكار الحقّ رأس الجرائم و الذنوب و في الآية إشارة الى أنّ العاقل يعتبر من الحوادث الواقعة و يعلم أنّ حكم الأمثال واحد و لنعم ما قيل:

أنّ آثارنا تدُّل علينا فأنظروا بعدنا الى الأثار

وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ

في هذه الآية تسليةٌ للنّبي فقال تعالى: **لَا تَحْزَنْ** يا محمّد عليهم أي على الكفّار في تركهم الإيمان و بقاءهم على الكفر و لا تكن في ضيقٍ و شدّةٍ ممّا يمكرون فأنّ و بال مكرهم عائد عليهم في الدُّنيا و الأخرة، ففي الآية إيماءٌ الىٰ أنّ النّبي ليس له إلاّ تبليغ الرّسالة لقوله: **ما عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلاغُ**[1]

وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

أي يقولون هؤلاء الكفّار للنّبي متى هذا الوعد، أي وقت العذاب أو وقت البعث، **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**، في وعدكم، ولم يعلموا أنّ الأمور مرهونة بأوقاتها قيل الوعد من الحكيم على ضربين:

أحدهما: أن يكون مقيّداً بوقتٍ فإذا جاء ذلك الوقت فلابّد أن يفعل فيه ما وعد به.

١- المائدة = ٩٩

الثّاني: أن يكون مطلقاً غير موقّتٍ إلاّ أنّه لابدّ أن يكون معلوماً لعلاّم الغيوب الوقت الذّي يفعل فيه الموعود به فإذا كان ذلك الوقت معلّقاً بزمانٍ تعيَّن عليه الفعل في ذلك الوقت فلابدّ للموعود به من وقتٍ و أن لم يذكر مع الوعد ذكره في التّبيان.

قُلْ عَسَىٰٓ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ

قيل أنّ، **عَسَىٰٓ**، من اللّه واجبة، و الرّدف الكائن بعد الأوّل قريباً منه و قد فرَّقوا بينه و بين التّابع بما حاصله أنّ في التّابع معنى الطَّلب لموافقة الأوّل بخلاف الرّدف إذ ليس فيه معنى الطّلب و معنى، ردف لكم، أي قرب منكم و دنا، و قيل طلب لكم و الإستعجال طلب الأمر قبل وقته فهؤلاء الكفّار طلبوا العذاب قبل وقته تكذيباً به و قد أقام اللّه عليهم الحجّة فيه، قال المبّرد و اللاّم في، **لكم**، زائدة أي ردفكم و معنى الآية قل يامحمّد لهؤلاء الكفّار أنّ الّذي وعدكم اللّه به من العذاب لابدّ أن يردفكم بعض الّذي تستعجلون به يوم بدر و قيل عذاب القبر و الحاصل أنّ ما وعدكم اللّه حقّ لا ريب فيه هذا ما ذكروه في معنى الآية.

و قال الرّاغب في المفردات الرَّدف التّابع و ردف المرأة عجيزتها و التَّرادف التّتابع، و الرّادف المتأخّر و المردف المتقدّم الّذي أردف غيره:

قال اللّه تعالىٰ: **فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ ٱلْمَلَآئِكَةِ مُرْدِفِينَ**[1].

قال أبو عبيدة أي جائين بعد فجعل ردف و أردف بمعنى واحد و منه قول الشّاعر:

إذا الجوزاء أردفت الثُّريا

إنتهى كلام الرّاغب.

١- الأنفال = ٩

و على هذا فمعنى الآية أنّ الّذي ردف لكم من العذاب من نزول الملائكة يوم بدر بعض الّذي تستعجلون من العذاب و أنتم لا تعلمون و بعبارةٍ أخرى تستعجلون بالعذاب و لا تعلمون أنّه وقع بكم بعضه و سيقع بكم بعده ما هو أكبر منه و يمكن أن يكون المراد بالبعض، هو عذاب الدّنيا فأنّه بالنّسبة إلى عذاب الأخرة قليل فصّح أن يعبّر عنه بالبعض و كيف كان أوعد اللّه تعالى الكفّار في هذه إلاّ بنزول العذاب الّذي كانوا يستعجلون به ففي الآية إشارة إلى أنّ وعد اللّه حقّ فلا تستعجلوه فأنّ الأمور مرهونة بأوقاتها.

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ

لمّا ذكر في الآية السّابقة أنّهم أي الكفّار وقعوا في العذاب من حيث لا يعلمون ذكر في هذه الآية أنّ اللّه لذو فضلٍ على النّاس و الفضل الزّيادة على ما للعبد بما يوجبه الشُّكر فالعدل حقّ العبد و الفضل فيه واقع من اللّه لا محالة إلاّ أنّه على ما يصحّ و تقتضيه الحكمة و قد ورد في الدُّعاء، **يٰاداٰئِم الفَضْل علىَ البَرِيَة يٰاباٰسِط اليَدَين بِالعَطيّة**، الخ.

و الحقّ أنّه من أفضل النِّعم من اللّه على العباد في الدّنيا و الأخرة و لذلك ورد، إلهنا عاملنا بفضلك و لا تعاملنا بعدلك، و السّر فيه واضح على المتأمل المنصف و ذلك لأنّ العبد لا يقدر على أداء وظيفته بالنّسبة إلى خالقه من جهة العبوديّة كما قال سيّد الرُّسل **ما عبدناك حقّ عبادتك**، و ذلك لأنّ العبادة الكاملة لا تكون إلاّ بعد المعرفة الكاملة فأنّ العبادة فرعٌ على المعرفة و قد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ **ما عرفناك حقّ معرفتك** إذا عرفت هذا فنقول:

الشّكر علىٰ النِّعم رأس العبادة و أصلها بل العبادة في الحقيقة ليست إلاّ الشكّر العملي و إذا لم يقدر العبد على حقّ العبادة فكيف يقدر على أداء حقّ الشكّر و لذلك قيل حقّ الشكّر الإعتراف بالعجز عنه ثمّ أنّ العبد قد يكون قاصراً و قد يكون مقصّراً، فالقاصرون هم الأنبياء و الأوصياء و المقصّرون

غيرهم من أحاد الأمم، فإذا أراد اللّه تعالى أن يجازي العبد بمقتضى عدله لا يخلص من عذابه ومقته أحدٌ لكثرة النِّعم التّي قال فيها **وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللّٰهِ لا تُحْصُوهٰا**[١] و العدل يقتضي إعطاء الأجر بقدر الطّاعة و إذا كان كذلك فالعبد محتاج إلى فضله تعالى فكلّ ما يصل منه تعالى إلينا في الدُّنيا من الرّزق و الصّحة و العافية و غيرها من فضله لا من عدله لعدم إستحقاقنا ذلك و هكذا يكون في الأخرة أيضاً و إلى ذلك أشار بقوله: **وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنّٰاسِ**، ولم يقل على الكفّار فقط أو على المؤمنين فقط لأنّ فضله عامّ يشمل الجميع.

و قوله: **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَشْكُرُونَ**، معناه لا يشكرون على هذا الفضل الّذي هو فوق العدل ولم يعلموا أنّ ما يعطيهم اللّه في الدُّنيا و الأخرة فهو بمقتضى فضله و رحمته عليهم و أنّه رؤوفٌ بالعباد.

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مٰا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مٰا يُعْلِنُونَ

الإكتنان جعل الشّئ بحيث لا يلحقه أذى لمانعٍ يصدّ عنه و بعبارةٍ أخرى هو الإستتار و المعنى أنّ اللّه يعلم ما في قلوبهم و ما يعلنون أي يظهرون به في الآية إشارة إلى أنّ اللّه تعالى لا يخفى عليه شئ فأنّه تعالى علاّم الغيوب فهو عالمٌ بالخفيّات كما هو عالم بالظّواهر فمن كتم في قلبه شيئاً و لم يظهر به فاللّه تعالى عالمٌ به إذ الجهل نقصٌ و النّقص من شئون الممكن و الواجب منزّهٌ عنه مضافاً إلى أنّه قد ثبت أنّ العلّة حاوية لجميع مراتب المعلول فكيف يعقل أن يخفى عليه شئ و لذلك قال:

وَ مٰا مِنْ غٰآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمٰآءِ وَ ٱلْأَرْضِ إِلّٰا فى كِتٰابٍ مُبِينٍ

١- ابراهيم = ٣٤

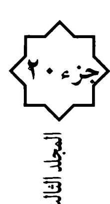
كلمة، ما، للنّفي أي ليس ممّا هو غائب في السّماء و الأرض عن الحوّاس إلاّ هو موجودٌ معلومٌ في كتابٍ مبين، قيل هو القرأن و قيل هو اللّوح المحفوظ و قيل هو كتاب المحو و الإثبات.

قال الحسن الغائبة القيامة و قال النّقاش ما غاب عنهم من عذاب السّماء و الأرض و قيل هو ما أخفاه الإنسان عن قلبه و عينه، و الحقّ أنّ الغائبة تطلق على جميع ما غاب عن الحوّاس و لا دليل على إختصاصها بالقيامة و غيرها و المقصود واضح.

■



إِنَّ هٰذَا ٱلْقُرْاٰنَ يَقُصُّ عَلٰى بَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذي هُمْ فيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿۷۶﴾ وَ إِنَّهُ لَهُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنينَ ﴿۷۷﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ ٱلْعَزيزُ ٱلْعَليمُ ﴿۷۸﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبينِ ﴿۷۹﴾ إِنَّكَ لٰا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتٰى وَ لٰا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعٰآءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرينَ ﴿۸۰﴾ وَ مٰآ أَنْتَ بِهٰادِي ٱلْعُمْيِ عَنْ ضَلٰالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلّٰا مَنْ يُؤْمِنُ بِاٰيٰاتِنٰا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿۸۱﴾ وَ إِذٰا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنٰا لَهُمْ دٰآبَّةً مِنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنّٰاسَ كٰانُوا بِاٰيٰاتِنٰا لٰا يُوقِنُونَ ﴿۸۲﴾ وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِاٰيٰاتِنٰا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿۸۳﴾ حَتّٰيٓ إِذٰا جٰآءُو قٰالَ أَكَذَّبْتُمْ بِاٰيٰاتي وَ لَمْ تُحيطُوا بِهٰا عِلْمًا أَمّٰاذٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿۸۴﴾ وَ وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمٰا ظَلَمُوا فَهُمْ لٰا يَنْطِقُونَ ﴿۸۵﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فيهِ وَ ٱلنَّهٰارَ مُبْصِرًا إِنَّ في ذٰلِكَ لَاٰيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿۸۶﴾ وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ إِلّٰا مَنْ شٰآءَ ٱللّٰهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ دٰاخِرينَ ﴿۸۷﴾ وَ تَرَى ٱلْجِبٰالَ تَحْسَبُهٰا جٰامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحٰابِ صُنْعَ ٱللّٰهِ ٱلَّذيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبيرٌ بِمٰا تَفْعَلُونَ ﴿۸۸﴾ مَنْ جٰآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ



مِنْهٰا وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ اٰمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنّٰارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمٰآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهٰا وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَ أَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْاٰنَ فَمَنِ ٱهْتَدٰى فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمٰآ أَنَا مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ سَيُرِيكُمْ اٰيٰاتِهِ فَتَعْرِفُونَهٰا وَ مٰا رَبُّكَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

◀ اللّغة

يَقُصُّ: القصص كلامٌ يتلوا بعضه بعضاً فيما ينّبئ عن المعنى.

يَخْتَلِفُونَ: الإختلاف ذهاب كلّ واحدٍ إلى خلاف ما ذهب إليه صاحبه.

لَهُدًى: الهدى الدّلالة على طريق الحقّ الّذي من سلكه أدّاه إلى الفوز بالنَّعيم.

ٱلصُّمَّ: الصَّمم فقدان حاسّة السّمع و به يوصف من لا يصغي إلى الحقّ و لا يقبله.

وَلَّوْا: التّولي الإعراض.

يُوزَعُونَ: أي يجمعون و قيل يدفعون.

فَفَزِعَ: الفزع ضدّ الأمن و قيل هو الخوف.

فَكُبَّتْ: يقال كبّه و أكبّه إذا أنكسه.

◀ الإعراب

تُكَلِّمُهُمْ يقرأ بفتح التّاء و كسر اللاّم مخفّفاً بمعنى تسمعهم و تعلم فيهم من كلمه، إذا جرحه و يقرأ بالضُّم و التّشديد و هو المشهور بين القرّاء و عليه المصاحف و هو بمعنى الأولى إلاّ أنّه شدَّد النّكير و يجوز أن يكون من الكلام أَنَّ ٱلنَّاسَ بالكسر على الإستئناف و بالفتح أي تخبرهم بأنّ النّاس، أو لأنّ النّاس أَتَوْهُ على الفعل و آتوه بالمّد على أنّه إسم و داٰخِرِينَ حال تَحْسَبُهَا الجملة حال من الجبال أو من الضّمير في، ترى، هِيَ تَمُرُّ حال من الضّمير المنصوب في تحسبها و لا يكون حالاً من الضّمير في جامدة إذ لا يستقيم أن تكون جامدة مارّة مرَّ السّحاب و التّقدير مرّاً مثل مرَّ السّحاب صُنْعَ ٱللَّهِ مصدر عمل فيه مادَّل عليه، تمُّر، لأنّ ذلك من صنعه تعالى فكأنّه قال أصنع ذلك صنعاً خَيْرٌ مِنْهَا يجوز أن يكون المعنى أفضل منها فيكون، من، في موضع نصب و يجوز أن يكون بمعنى فضل فيكون، منها، في موضع رفع صفةً و الباقي واضح لا خفاء فيه.

◀ التّفسير



إِنَّ هٰذَا ٱلْقُرْاٰنَ يَقُصُّ عَلٰى بَنِيٓ إِسْرٰٓئِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

قلنا في شرح اللّغات كلام يتلوا بعضه بعضاً فيما ينّبئ عن المعنى و على هذا فمن أجاب غيره عمّا سأل لم يقل له أنّه يقصّ لأنّه إقتصر على مقدار ما يقتضيه السّؤال و حيث أنّ اللّه تعالى ذكر في القرأن من حالات الأنبياء و أممهم ما لم يسأل عنه أحد عبَّر عنه بالقصص و فائدتها الإعتبار بها إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً و المراد بإختلاف بنيإسرائيل إختلافهم في المسيح و تكذيبهم نبوّته و قولهم فيه بما لا يليق به و هكذا ما قالته النّصارى من نبوّته و وجوب إلهيّته و كاختلاف اليهود في نسخ الشّريعة فأجازه قوم في غير التّوراة و

أباه أخرون فلم يجيزوا النّسخ أصلاً و إعتقدوا أنّه بداءٌ و كإختلافهم في المعجز فقال بعضهم لا يكون إلاّ بما لا يدخل مقدور العباد و قال أخرون قد يكون إلاّ أنّه ما يعلم أنّه لا يمكن العباد الإتيان به، و كإختلافهم في صفة المبشّر به في التورّاة فقال بعضهم هو يوشع بن نون و قال أخرون بل هو منتظر لم يأت بعد و كلّ ذلك قد دَّل القرأن على الحقّ فيه، و قيل قد بيَّن القرأن إختلافهم فيمن سلف من الأنبياء.

و قيل أنّ بنيإسرائيل إختلفوا حتّى لعن بعضهم بعضاً كالإسماعينيّة و العنّانية و السّامرة هكذا قررّه معنى الإختلاف في التّبيان إنتهى.

و قال صاحب الكشّاف قد إختلفوا في المسيح فتخرّبوا فيه أخراباً و وقع بينهم التّناكر في أشياء كثيرة حتّى لعن بعضهم بعضاً و قد نزل القرأن ببيان ما إختلفوا فيه لو أنصفوا و أخذلوا به و أسلموا إنتهى.

أقول الإحتمالات في معنى الإختلاف كثيرة و لكلّ منها وجهٌ لصدق الإختلاف على جميع المصاديق و لا يمكن حمل الإختلاف على في الآية على موردٍ أو موارد خاصّة لعدم الدّليل على التّخصيص فاللّفظ يحمل على عمومه و المعنى أنّ هذا القرأن يبيّن موارد الإختلاف بأحسن وجه و يرفع الإشكال عنها ففي الآية حثٌّ على التّمسك بالقرأن و الإيمان و أنّه كلامٌ منزلٌ من ربّ العالمين و توضيح ذلك إجمالاً أنّ اليهود و النّصارى كانوا مختلفين في الأصول و الفروع و ذلك لأنّ اليهود قد أنكروا نبّوة المسيح رأساً و من المعلوم أنّ إنكار النبوّة معناه إنكار الشّريعة رأساً ثمّ أنّهم بعد ذلك أنكروا نبّوة محمّد ﷺ ولم يعلموا أنّ القرأن أكبر معجزة النّبي و من جملة إعجازه إخباره بما تضمّن من القصص الموافق لما في التورّاة و الإنجيل مع علم اليهود و النّصارى بأنّه ﷺ كان أميّاً لم يخالط العلماء و لا أشتغل بالتعليم و التعلّم و مع ذلك جاء بكتاب جامعٍ لما يحتاج إليه البشر إلى يوم القيامة كما قال

تعالى: **لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلّا في كِتابٍ مُبِينٍ**[١] و حيث أنّهم لم يؤمنوا برسول اللّه ولم يصدّقوه بقى الإختلاف فيهم كما كان و ذلك هو الخسران المبين.

وَ إِنَّهُ لَهُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

قيل أي للمؤمنين منهم فالمعنى أنّ القرأن هدىً و رحمة لمن أمن به فمن أمن من بنيإسرائيل بالقرأن فقد إهتدى و من لم يؤمن فلا و يحتمل أن يراد بالمؤمنين معناه العامّ الشامّل لمن أمن منهم و من غيرهم و هو أي حمل اللفظ على العموم أولى و على هذا فالواو في قوله: **وَ إِنَّهُ**، للإستئناف و المعنى أنّ القرأن لمن أمن به و هدىً و رحمة كائناً من كان و قد أشار اللّه تعالى بهذا المعنى في كثير من الأيات كما لا يخفى.

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ

أي إذا لم يؤمنوا بك و ما أنزل عليك ولم يجعلوا القرأن حكماً بينهم لرفع الإختلافات الموجودة فيهم و بقوا على كفرهم و عنادهم فلا محالة يقضي اللّه بينهم يوم القيامة بحكمه **وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ** أي العزيز في إنتقامه من المبطلين، وا لعليم بالمحقّ المبين منهم من المبطل فهو يقضي بين المختلفين بما لا يمكن ردَّ قضاءه و لا يلتبس قضاءه بغير الحقّ و في هذا الكلام تخويفٌ و تهديدٌ على المنكرين و تسليةٌ للمؤمنين.

فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ

الفاء للتّفريع أي إذا لم يؤمنوا بك و بالقرأن الّذي جعلناه حكماً بينهم في إختلافهم، فتوكّل على اللّه و التوكُّل إيكال الأمر إلى الغير و هو على وجهين:

أحدهما: أن يكون بمعنى التولّي يقال توكّلت لفلان بمعنى تولّيت له و يقال

١- الانعام = ٥٩

وكلّته فتوكّل لي و منه الوكيل و التَّوكيل في الأمور.

ثانيها: أن يكون بمعنى الإعتماد أي إعتمدته و من هذا القبيل التوكّل على اللّه و الأيات الحاثّة عليه كثيرة و هو من أعلى مقامات العارفين و الموحّدين فأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه و من يتوكّل على اللّه فهو حسبه و الأيات و الأخبار الواردة في فضله كثيرة جدّاً و قد تكلّمنا فيه في تضاعيف الكتاب غير مرّةٍ.

قال بعض العرفاء في قوله تعالىٰ: **وَ عَلَى ٱللَّـهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**[1] التَّوكل كلة الأمر إلى مالكه و التّعويل على وكالته و هو من أصعب منازل العامّة عليهم و أوهى السُّبل عند الخاصّة لأنّ الحقّ و كلّ الأمور كلّها إلىٰ نفسه و أياس العالم من ملك شيءٍ منها و هو على ثلاث درجات كلّها تسير مسير العامّة.

الأولىٰ: التوكُّل مع الطّلب و معاطاة السَّبب على نيّة شغل النّفس و نفع الخلق و ترك الدّعوى.

الثّانية: التوكُّل مع إسقاط الطَّلب و غضّ العين عن السبّب إجتهاداً في تصحيح التوكُّل و قمع تشرّف النّفس و تفرُّغاً إلى حفظ الواجبات.

الثّالثة: التوكُّل مع معرفة علله و هو أن تعلم أنّ ملكة الحقّ تعالى للأشياء ملكة عزّةٍ لا يشاركه فيها أحد فأنّ من ضرورة العبوديّة أن يعلم العبد أنّ الحقّ هو مالك الأشياء كلّها وحده إنتهى.

أقول الحقّ أنّ العبوديّة الكاملة لا تتحقّق إلاّ بالتوكُّل عليه تعالى في جميع أموره و لنعم ما قيل فيه:

و ما ثمّ إلاّ اللّه في كلّ حالةٍ — فلا تتّكل يوماً على غير لطفه
فكم حالة تأتي و يكرهها الفتى — و خيرته فيها على رغم أنفه

١- المائده = ٢٣

و قال آخر:

توَّكل على الرّحمن في الأمر كلّه   فما خاب حقّاً من عليه توّكلا

و أمّا قوله: **إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ** ففيه إشعار بأنّ التوكُّل على اللّه أنّما هو في الحقّ لا في الباطل فكأنّه قال فتوكّل على اللّه لأنكّ على الحقّ.

قال بعضهم معناه توكّل على الظّاهر المبين في ما تدعوا اليه، و قيل المراد بالحقّ هو الحقّ المتعال و المعنى توكّل على اللّه الظّاهر بآثاره ثمّ أشار اللّه تعالى الى علّة الأمر بالتوكُّل في المقام بقوله:

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَ لَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ

شبَّه اللّه تعالى الكفّار بالموتى الّذين لا يسمعون ما يقال لهم و بالصمّ الّذين لا يدركون دعاء من يدعوهم الى الحقّ لا من جهة أنّه لا سمع لهم بل من جهة أنّ لهم آذان لا يسمعون بها فكأنّه لا سمع لهم و ذلك لأنّ السّمع للإستماع ثمّ ترتيب الأثار عليه فمن سمع و لم يترتب عليه آثار الإستماع و هي الإنتفاع بدعاء الدّاعي فكأنّه لم يسمع شيئاً فهو كالميّت من هذه الجهة أعني عدم الإنتفاع بما سمعه أو هو كالأصمّ لا يسمع أصلاً و حاصل الكلام هو أنّ السَّمع و البصر هما من الأعضاء للإنتفاع بها و هو عبارة عن ترتّب الأثار عليها لا للإدراك فقط و إلاّ فما الفرق بين الإنسان و الحيوان فأنّه أيضاً ينظر و يسمع و هكذا بل هذه القوى فيه أقوى فيها في الإنسان وليست فضيلة الإنسان على الحيوان بوجودها فيه دونه بل الفضل ثابت له لأنّه يترتّب عليها آثار الخير و الحيوان لا يقدر على ذلك إذا عرفت هذا فنقول.

لمّا أمر اللّه رسوله بالدعوّة الى الحقّ بقوله: **أُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ**[١] و دعاهم النّبي فأفترق النّاس فرقتين:

١- النحل = ١٢٥

فرقةٌ قبلت دعوته و فرقةٌ أنكرها و إستهزء بها أمّا الفرقة الأولى فهي المؤمنون حقّاً.

و أمّا الفرقة الثّانية فهم المنكرون الكافرون و لمّا أصر النّبي في دعوته أيّاهم ولم يقبلوا منه لعنادهم و لجاجهم فقال اللّه تعالى لنبيّه: توكّل على اللّه و ذرهم في خوضهم يلعبون، و ذلك لأنّهم بمنزلة الموتى في القبور أو بمنزلة الصمّ و هم الّذين لا سمع لهم وقد وصفهم اللّه بذلك في كثير من الأيات كما لا يخفى.

قال بعض المحققين الصمّ تارةً يكون في الأذن و تارةً في العقل.

أ مّا الأوّل فلاكلام فيه بل و لا يتوجّه اليه الذمّ إذا لم يسمع لعدم وجود السّامعة فيه.

و أمّا الثّاني فهو المراد في المقام لأنّ الكفّار لم يكونوا صمّاً من حيث الآذان بل كانوا صمّاً من حيث العقل أعاذنا اللّه منه و لذلك ورد في الدُّعاء عَصيتُك بسمعي ول شئتَ لأُصمَمتني أي جعلتني أصمّ الآذان لا أسمع شيئاً و قد ذمّهم اللّه في كتابه.

قال اللّه تعالى: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ**(١).

قال اللّه تعالى: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجَعُونَ**(٢).

قال اللّه تعالى: **إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**(٣).

قال اللّه تعالى: **وَ لا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ**(٤).

قال اللّه تعالى: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَ مَنْ كانَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ**(٥).

١- البقرة = ١٧١
٢- البقرة = ١٨
٣- الأنفال = ٢٢
٤- الأنبياء = ٤٥
٥- الزّخرف = ٤٠

و غيرها من الأيات و الإنصاف أنّ هؤلاء شرّ النّاس بل نقول أنّهم أصل الفتنة و الفساد في كلّ عصر و زمانٍ سواءٌ كانوا في زيّ الكفّار أم في زيّ المنافقين بلباس الإسلام فأنّ المنكر لدعوة الحقّ ينقسم الى القسمين المذكورين و الثّاني أخبث و أضرّ من الأوّل كما أنّ معاوية و أباسفيان و أمثالهما كانوا أخبث و أضرّ للإسلام من أبي لهب و أبي جهل و هذا ظاهرةٌ لا خفاء فيه.

وَ مَآ أَنْتَ بِهٰادِى ٱلْعُمْىِ عَنْ ضَلٰلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِاٰيٰاتِنٰا فَهُمْ مُسْلِمُونَ

كما تكون الصَّم تارةً في الآذان و تارةً في العقل على ما مرَّ ذكره كذلك تكون العمى تارةً في البصر و تارةً في القلب و كما لا يمكن إسماع الصمّ كذلك لا يمكن هداية الأعمى إذا كانا في العقل و القلب و كلمة، ما، نافية، بمعنى ليس خاطب اللّه نبيّه في هذه الآية أنّك لا تقدر على هداية الأعمى أي أعمى القلب عن ضلالته و هو أيضاً واضح، و **العُمىٰ**، بضمّ العين جمع أعمى و لذلك أتى بضمير الجمع في، ضلالتهم، كلمة، إن، أيضاً نافية أي لا تسمع إلاّ المؤمن بآياتنا فهم مسلمون، أي منقادون لك لإيمانهم.

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَأَنْتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَ لَوْ كٰانُوا لٰا يُبْصِرُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰآ أَنْتَ بِهٰادِ ٱلْعُمْىِ عَنْ ضَلٰلَتِهِمْ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لٰا يَرْجَعُونَ**[٤].

و الحاصل أنّ الصمّ و البكم و العمي لا فرق فيهم في عدم القبول.

١- يُونس = ٤٣
٢- الرّوم = ٥٣
٣- الزّخرف = ٤٠
٤- البقرة = ١٨

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمٰى وَ ٱلْبَصِيرُ وَ لَا ٱلظُّلُمٰاتُ وَ لَا ٱلنُّورُ**[١].

شبّه الأعمى بالظُّلمة و البصير بالنُّور و هما لا يجتمعان في شئٍ واحد.

وَ إِذٰا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنٰا لَهُمْ دٰآبَّةً مِنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنّٰاسَ كٰانُوا بِاٰيٰاتِنٰا لٰا يُوقِنُونَ

إختلف المفسّرون في معنى، وقع القول، و في الدّابة و تكلُّمها.

أمّا الأوّل فقيل معنى وقع القول عليهم، وجب الغضب عليهم قاله قتادة.

قال مجاهد معناه حقّ القول عليهم بأنّهم لا يؤمنون، و قال إبن عمر و أبوسعيد الخدّري إذا لم يأمروا بالمعروف و ينهوا عن المنكر وجب السّخط عليهم، و قيل وقع القول، يكون بموت العلماء و ذهاب العلم و رفع القرآن و أمثال ذلك من الأقوال كثيرة.

أمّا الثّانى: و هو الدّابة، فقيل أنّها تخرج من بين الصّفا و المروة و روي محمّد بن كعب القرطبي عن عليٍ عليه السلام أنّه سئل عن الدّابة فقال عليه السلام: **أما واللّه مالَها ذَنَبٌ و أنّ لها لِحية**، و في قوله هذا إشارة إلى أنّ الدّابة من إبن آدَم، و قال إبن عبّاس أنّه من دوّاب اللّه لها زغبٌ و ريش و لها أربعة قوائم، و قال إبن عمر أنّها تخرج حتّى يبلغ رأسها الغيم فيراها جميع الخلق و الأقوال كثيرة و أمّا تكلّم الدابّة ففيه قولان:

أحدهما: تكلّمهم بما يسوئهم من أنّهم صائرون إلى النّار من الكلام بلسان الآدميين الّذي يفهمونه معناه فتخاطب واحداً واحداً فنقول له يا مؤمن يا كافر،

الثّانى: أنّها تكلّمهم أنّ النّاس كانوا بآياتنا لا يوقنون، و في المقام.

١- فاطر = ١٩

قولٌ ثالث: و هو أنّها تكتب على جبين الكافر أنّه كافر و على جبين المؤمن أنّه مؤمنٌ و روي ذلك عن النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و الأقوال فيه أيضاً كثيرة و كلّها حدسيّات ظنيّات لا يمكن الإعتماد عليها و حمل كلام اللّه على الإحتمال و الظَّن ممّا لا يقبله العقل و النَّقل و حيث أنّ الآية من المشكلات فلا يعلم المراد منها إلاّ الرّاسخ في العلم و هو المعصوم لا غيره فنقول:

قال علّي بن إبراهيم القمي في تفسيره لهذه الأية: **وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دابَّةً** إلىٰ قوله **بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ**.

حدَّثني أبي عن إبن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: إنتهى رسول اللّه إلى أميرالمؤمنين و هو نائمٌ في المسجد قد جمع رملاً و وضع رأسه عليه فحركّه برجله ثمّ قال له قم يا دابّة اللّه فقال رجل من أصحابه يا رسول اللّه أيسمّى بعضنا بعضاً بهذا الإسم فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم: لا و اللّه ما هو إلاّ له خاصّة و هو الدّابة الّتي ذكر اللّه في كتابه، وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ ثمّ قال صلّى الله عليه و آله و سلّم يا علّي إذا كان أخر الزّمان أخرجك اللّه في أحسن صورةٍ و معك ميسم تسّم به أعدائك فقال رجل لأبي عبد اللّه عليه السلام أنّ النّاس يقولون أنّ هذه الدّابة أنّما تكلّمهم فقال أبو عبد اللّه كلَّمهم اللّه في نار جهنّم أنّما هو يكلّمهم من الكلام.

و الدّليل على أنّ هذا في الرَّجعة قوله: وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ قال عليه السلام الأيات أميرالمؤمنين والأئمّة عليهم السّلام فقال الرّجل لأبي عبد اللّه عليه السلام أنّ العامّة تزعم أنّ قوله وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا عني القيامة فقال أبو عبد اللّه أفيحشر اللّه من كلّ أمّةٍ فوجاً و يدع

الباقين، لا، و لكنّه في الرجّعة و أمّا أية القيامة فهي، وَ **حَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا**[١] إنتهىٰ.

وقال أبو عبد اللّه قال رجل لعمّار بن ياسر يا أبا اليقظان أيةٌ في كتاب اللّه قد أفسدت قلبي و شككّني قال عمّار و أيّة أيةٍ هي قال قول اللّه تعالىٰ: **وَ إِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ ٱلْأَرْضِ** فأيّ دابّةٍ هي قال عمّار و اللّه لا أجلس و لا أكل و لا أشرب حتّى أريكها فجاء عمّار مع الرّجل إلى أميرالمؤمنين عليه السلام و هو يأكل تمراً و زبداً فقال له يا أبا اليقظان، هلمّ، فجلس عمّار و أقبل يأكل معه فتعجّب الرجّل منه فلمّا قال معمّار قال له الرّجل سبحان اللّه يا أبا اليقظان حلفت أنكّ لا تأكل و لا تشرب و لا تجلس حتّى ترانيها فقال عمّار قد أريتكها إن كنت تعقل إنتهى.

و عن كتاب كمال الدّين و تمام النعمّة بأسناده إلى النزّال بن يسارة عن أميرالمؤمنين، الحديث طويل، قال فيه بعد أن ذكر الدّجال و من يقتله و أين يقتل إلاّ أنّ بعد ذلك الطامّة الكبرى قلنا و ما ذلك يا أميرالمؤمنين قال خروج دابّة الأرض من عند الصّفا معها خاتم سليمان و عصا موسى عليهما السّلام تضع الخاتم على وجه كلّ مؤمنٍ فينطبع فيه هذا مؤمنٌ حقّاً و تضعه على وجه كلّ كافرٍ فيكتب هذا كافر حقّاً حتّى أنّ المؤمن لينادي الويل لك حقّاً يا كافر و أنّ الكافر ينادي طوبى لك يا مؤمن وددت أنّي كنت مثلك فأفوز فوزاً عظيماً، ترفع الدابّة رأسها من بين الخافقين بأذن اللّه جلّ جلاله و ذلك بعد طلوع الشّمس من مغربها فعند ذلك ترفع التوبّة فلا تقبل توبة و لا عمل يرفع و لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن أمنت من

١- الكهف = ٤٧

قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ثمّ قال عليه السلام لا تسألوني بعد هذا فأنّه عهد إلّي حبيبي رسول اللّه أن لا أخبر به غير عترتي إنتهى مانقله عنه في تفسير نور الثّقلين.

و فيه عن كتاب علل الشّرائع بأسناده عن أبي عبد اللّه قال قال أميرالمؤمنين: أنا قسم اللّه بين الجنّة و النّار و أنا الفاروق الأكبر و أنا صاحب العصا والميسم إنتهى.

و فيه أيضاً عن أصول الكافي بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أميرالمؤمنين عليه السلام: و لقد أعطيت الستّ علم المنايا و البلايا و الوصايا و فصل الخطاب و أنّي لصاحب الكرّات و دولة الدوّل و أنّي لصاحب العصا و الميسم و الدابّة التّي تكلّم النّاس إنتهى.

و في مجمع البيان بعد نقله حديث العمّار و روى العياشي هذه القصّة بعينها عن أبي ذرّ و روي محمّد بن كعب القرطبي قال سأل علّيٌ عن هذه الدّابة فقال عليه السلام: أما و اللّه ما لها ذنب و أنّ لها اللّحية إنتهى.

أقول فهذه الأخبار كما ترى تدلّ بل تصرّح بأنّ المراد بالدّابة ليس ما زعمه النّاس من مفسّري العامّة، و أنّ المراد بالقول في الآية القول بالرّجعة التّي أنكروها و المراد بالدابّة التّي تكلّمهم هو أميرالمؤمنين و لا إشكال فيه فأنّ الدابّة يطلق على كلّ ما يدُّب على الأرض من الإنسان و غيره:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا مِنْ دَآبَّةٍ فِى اَلْأَرْضِ إِلّٰا عَلَى اَللّٰهِ رِزْقُهٰا**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **مٰا مِنْ دَآبَّةٍ إِلّٰا هُوَ آخِذُ بِنٰاصِيَتِهٰآ إِنَّ رَبِّى عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ**(۲) و غيرها من الأيات.

و أمّا كيفيّة القضيّة في الرّجعة فاللّه أعلم بها و حيث أنّ العامّة لا يقولون بالرّجعة حملوا الآية على غير ما ذكرناه فتأمّل فيها.

۱- هُود = ۶

۲- هُود = ۵۶

وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِاٰيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ

و هذه الآية أوضح قرينة على أنّ المراد بقوله تعالى: **وَ إِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ**، هو الرَّجعة لأنّ الحشر يكون بعد الرَّجعة و هو يوم القيامة و المعنى أنّ يوم القيامة نحشرهم من كلّ أمّةٍ فوجاً أي طائفةً من المكذّبين بأياتنا في الدّنيا و في الآية إشارة إلى أنّ حشر المكذّبين لا إختصاص له بأمّةٍ دون أمّةٍ و ذلك لأنّ في كلّ أمّةٍ من الأمم كان المكذِّب بأيات اللّه موجوداً قل أو كثر و حكم الأمثال واحد.

و قوله تعالى: **فَهُمْ يُوزَعُونَ** معناه يجمعون و قيل معناه يدفعون و قيل يساقون و قيل يوقف أوَّلهم على أخرهم.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِاٰيَاتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و المعنى بعد جمعهم يوم الحشر يقال لهم أكذّبتم بأياتي، و الإستفهام للتّوبيخ و التهدّيد و المراد بالأيات ما أنزل اللّه في كتبه السماويّة بواسطة الأنبياء و يعبّر عنها بالأيات التشريعيّة و يحتمل أن يكون المراد بها معناها العامّ الشّامل لها و التكوينّيات و في رأسها الأنبياء و الأوصياء و أنّما أتى بكلمة (قال) و لم يقل يقال لها لأنّ المستقبل إذا كان محقّق الوقوع فهو في حكم الماضي و يوم الحشر من هذا القبيل و قوله: **وَ لَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا** فالظّاهر أنّ **الواو** للحال أي وقع تكذيبكم بها غير متدبّرين لها و لا محيطين علماً بكونها آيات اللّه، و يجوز أن تكون **الواو** للعطف أي أجحدتموها و مع جحودها لم تلقوا أذهاتكم لتحقّقها و تبصّرها فأنّ المكتوب اليه قد يجحد أن يكون الكتاب من عند من كتبه اليه و لا يدع مع ذلك أن يقرأ و يحيط بجانبه علماً.

أقول لا نحتاج الى هذه التكلّفات في فهم المعنى و الحقّ أنّ **الواو** للعطف و المعنى أنّ علّة تكذيبكم الأيات عدم التأمّل و التفكّر فيها ولو تفكّرتم فيها

لعلمتم أنّها من عند اللّه و العاقل لا يكذّب شيئاً قبل التأمّل و التدبُّر و قوله: **أَمّاذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** قيل، أم، هنا منقطعة و ينبغي أن يقدَّر، ببل، وحدها إنتقل من الإستفهام الّذي يقتضي التوبّيخ الى الإستفهام عن عملهم أيضاً على جهة التوبيخ أي أيُّ شئٍ كنتم تعملون، و المعنى أن كان لكم عملٌ أو حجّة فهاتوا و ليس لهم عمل و لا حجّة فيما عملوه إلاّ الكفر و التكذّيب، و ماذا، بجملة يحتمل أن يكون إستفهاماً منصوباً بخبر كان و هو تعملون، و يحتمل أن يكون، ما، هو الإستفهام و (ذا) موصول بمعنى، الّذي فيكونان مبتدأ و خبر، و كان، صلة، لذا، و العائد محذوف أي تعملونه، و قرأ بعضهم، أماذا، بالتخفّيف، أدخل أداة الإستفهام على إسم الإستفهام على سبيل التوكّيد.

وَ وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمٰا ظَلَمُوا فَهُمْ لاٰ يَنْطِقُونَ

القول كناية عن العذاب الموعود به بسبب ظلّمهم على أنفسهم بسبب تكذيبهم آيات اللّه فهم لا ينطقون بحجّةٍ و لا عذر لما شغلهم من عذاب اللّه فكأنّه يختم على أفواههم فلا يقدرون على النُّطق قيل إنتفاء نطقهم يكون في موطنٍ من مواطن القيامة أو من فريقٍ من النّاس لأنّ القرآن يقتضي أنّهم يتكلّمون في غير هذا الموطن.

أَلَمْ يَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فيهِ وَ ٱلنَّهارَ مُبْصِرًا إِنَّ في ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

لمّا ذكر اللّه تعالى أشياء من أحوال القيامة ليرتدع بسماعها من أراد أن يرتدع نبهّهم على ما هو دليل على التّوحيد و الحشر و النبوّة بما هم يشاهدونه في حال حياتهم و هو تقلُّب اللّيل و النّهار من نورٍ الى ظلمةٍ و من ظلمةٍ الى نور و فاعل ذلك واحد و هو اللّه تعالى و إذا كان كذلك فيجب أن يفرد بالعبادة و الألوهيّة و في هذا التقلّيب دليلٌ على القلب من حياةٍ الى موت و من موتٍ الى

حياةٍ أخرى و فيه دليلٌ أيضاً على النبوّة لأنّ هذا التقلّيب هو لمنافع المكلّفين و لذلك علَّل الجعل بقوله لتسكنوا فيه و بعثة الأنبياء لتحصيل منافع الخلق و أضاف الإبصار الى النّهار على سبيل المجاز لما كان يقع فيه إضافة اليه كما تقول ليلك نائم و علَّل جعل اللّيل بقوله لتسكنوا فيه أي لأن يقع سكونهم فيه ممّا يلحقهم من التعّب في النّهار و إستراحة نفوسهم و الى ذلك المعنى أشار الشّاعر بقوله:

النَّوم راحة القوى الحسيّة　　　　من حركاتٍ و القوى النَّفسية

و لم يقع التّقابل في جعل النّهار بالنصّ على علّته فيكون التركّيب و النّهار لتبصروا فيه، فأتى بقوله: **مُبْصِرًا** قيداً في جعل النّهار لا علّة للجعل.

قال بعض المفسّرين و الّذي يظهر لي أنّ هذا من باب ما حذف من أوّله ما أثبت في مقابله و حذف من آخره ما أثبت في أوّله فالتقدّير و جعلنا اللّيل مظلماً لتسكنوا فيه و النّهار مبصراً لتتّصرفوا فيه فالإظلام ينشأ عنه السكون و الإبصار ينشأ عنه التَّصرف في المصالح و يدلّ عليه قوله تعالى: **جَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ** فالسّكون علّة لجعل اللّيل مظلماً و التّصرف علّة لجعل النّهار مبصراً إنتهى كلامه.

و كيف كان فمعنى الأية، أو لم ينظروا هؤلاء المكرين للتّوحيد و النبوّة إنّا جعلنا اللّيل لتسكنوافيه و النّهار مبصراً لتعملوا فيه أنّ في ذلك الجعل لأياتٍ لقومٍ يؤمنون.

و أيُّ آيةٍ أظهر منها لمن يتدّبر فيها بل هي تكفي لإثبات المدّعى لمن كان له قلب لأنّها من المحسوسات الّتي لا ينبغي الشكّ فيها.

وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَآءَ ٱللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ دٰاخِرِينَ

قال في المفردات النَّفخ نفخ الرِّيح في شيءٍ و منه نفخ الرُّوح في النشأة الأولى إنتهى.

و قال في الصوّر، قيل هو مثل قرنٍ ينفخ فيه فيجعل اللّه سبحانه ذلك سبباً لعود الصّور و الأرواح الى أجسامها و روي في الخبر أنّ الصّور صورة النّاس كلّهم إنتهى.

قيل أنّ الملك و هو إسرافيل له في الصُّور ثلاث نفخات.

نفخة الفزع و هو فزع حياة الدُّنيا ليس بالفزع الأكبر.

و نفخة الصَّعق، و نفخة القيام من القبور، و قيل نفختان بجعل الفزع و الصَّعق واحداً و سيأتي الكلام في ذلك إن شاء اللّه و قوله: **وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ** أي خاضعين خاشعين و قيل صاغرين و لفظة، كلٌّ، ها هنا معرفة لأنّها قطعت عن الإضافة و معنى الآية واضح نعوذ باللّه من فزع ذلك اليوم بحقّ محمّدٍ و آله.

وَ تَرَى ٱلْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحابِ صُنْعَ ٱللّٰهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ

قال إبن عبّاس معنى جامدة، قائمة أي تحسب الجبال قائمة و هي تسير سيراً حثيثاً سريعاً.

و قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية إعلم أنّ هذا هو العلامة الثّالثة لقيام القيامة و هي تسيير الجبال و الوجه في حسبانهم أنّها جامدة فلأنّ الأجسام الكبار إذا تحرَّكت حركةً سريعة على نهج واحدٍ في السَّمت و الكيفيّة ظَّن النّاظر اليها أنّها واقفة مع أنّها تمرّ مرّاً حثيثاً إنتهى ما أردنا نقله عنه و أنت ترى أنّ هذا الّذي ذكره مجرّد دعوى لا دليل عليه و الإنصاف أنّهم لم يفهموا معنى الآية فقالوا فيه ما قالوا و الّذي يختلج بالبال و يحكم به العقل أنّ المقصود من الآية هو بيان أنّ ما سوى اللّه حادث كائناً ما كان و لا قديم سوى اللّه تعالى و توضيح ذلك إجمالاً.

أنّ الحركة سريعاً كانت أو خفيفاً تدلّ علىٰ الحدوث بل لا نعني بالحدوث إلاّ الحركة و حيث أنّ الموجود المخلوق كائناً ما كان يتحرّك من النّقص إلى الكمال في عالم الوجود فهو حادث لا محالة لتغيُّر و قد ثبت أنّ كلّ متغيّرٍ حادث، و لهذا يقال العالم متغيّرٌ، و كلّ متغيّرٌ حادثٌ، فالعالم حادث، و هذا ممّا لا شكّ فيه و أنّما الكلام في كيفيّة الحركة و ملخّص الكلام فيها أنّ الحركة في كلّ موجودٍ بحسبه و هي تارةً تكون سريعة و أخرى خفيفة.

والأولى محسوسة و الثانية غير محسوسة و حركة الجبال من قسم الثّاني و لذلك شبَّهها بمرّ السّحاب و لا يبعد أن تكون الآية دليلاً على وجود الحركة في الجوهر كما ذهب إليه الصّدر الشّيرازي و يحتمل أن تكون الجبال متحرّكة بحركة الأرض و على هذا فالحركة فيها ليست ذاتيّة بل هي فيها عرضيّة بتبع الأرض إلاّ أنّ هذا الأعمال لا يساعده ظاهر الآية إذ المستفاد منها ثبوت الحركة للجبال في نفسها و كيف كان فالحركة ثابتة للجبال بلا كلام.

و قوله: **صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ**، فقد أشار اللّه تعالى فيه إلى أمرين:

أحدهما: أنّ تلك الحركة في الجبال و غيرها صنع اللّه و فعله أي أنّه تعالى أوجد الجبال كذلك و بعبارةٍ أخرى أنّ اللّه تعالى خلقها و أحدثها من العدم إلى الوجود و الحركة من شئون الحادث بل هي عينه.

الثّاني: أنّ الّذي خلقكم و خلق جميع الأشياء خبيرٌ أي عالم بما تفعلون و لا يخفى عليه شئ إذ لا يعقل جهل الخالق بمخلوقه و هو ظاهر.

مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَ هُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ، وَ مَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

أشار اللّه تعالى في هاتين الأيتين إلى عاقبة أمر النّاس يوم القيامة و قسّم النّاس إلى صنفين، كما هم كذلك واقعاً:

أحدهما: من جاء بالحسنة في دار الدّنيا.

ثانيهما: من جاء بالسّيئة فيها.

من المعلوم أنّ الحصر عقلّيٌ لا ثالث له و ذلك لأنّ فعل العبد لا يخلوا من الحسن و القبح، إمّا هذا و إمّا هذا و الجمع بينهما محال لأنّه من إجتماع النّقيضين كما أنّ رفعهما أيضاً محال للزومه إرتفاعهما فلا محالة يكون الفعل متّصفاً بأحدهما و هو المطلوب.

ثمّ أنّ الفعل أن كان ممّا يستحسنه العقل و الشّرع فهو حسنة و أن كان بخلافه فهو سيّئة فالاوّل كالصّلاة و الصّوم و الحجّ و الجهاد و الإنفاق في سبيل اللّه و حفظ الأمانة و أمثالها ممّا حثّ العقل و الشّرع عليه.

الثّانى: كالزّناء و شرب الخمر و غصب الأموال و الخيانة و الظّلم و أمثالها ثمّ أشار اللّه تعالى الى ما يترّتب على الفعل من الثّواب و العقاب فقال في الحسنات: **مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا** و المراد به هو الثّواب المترّتب عليها غداً في القيامة فأنّه أحسن من نفس الفعل كيف، و هم من فزع يومئذٍ آمنون، و لا شكّ أنّ الأمن من فزع ذلك اليوم من أفضل النِّعم و أحسن الثّواب.

و قال في السّيئات: **مَنْ جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ** و أيُّ عقاب أشدَّ منه ثمّ قال: **إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** الإستفهام للإنكار أي لا تجزون إلاّ بعملكم في دار الدُّينا و في هذا الكلام إشارة الى أنّ ربّك ليس بظّلامٍ للعبيد و أنمّا وقعوا فيما وقعوا من العذاب بسبب أعمالهم الشّنيعة، و إذا وجد السَّبب وجد المسّبب قطعاً هذا تفسير ألفاظ الآية.

و الّذي يظهر من أخبار أهل البيت هو أنّ الحسنة ولاية علّيٍ و السيّئة عداوته.

فقد روي عُمر بن شيبة عن أبي جعفر عليه السلام قال سمعته يقول إبتداءً منه أنّ اللّه إذا بدا له أن يبيّن خلقه و يجمعهم لما لا بدّ منه أمر

مناديا ينادي فأجتمع الجنّ و الإنس في أسرع من طرفة عينٍ الى أن قال عليه السلام رسول اللّه و عليّ و شيعته على كثبان من المسك الأذفر على منابر من نورٍ يحزن النّاس و لا يحزنون و تفزع النّاس ولا يفزعون ثمّ تلى هذه الأية: مَنْ جٰآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ اٰمِنُونَ، فالحسنة واللّه ولاية عليّ عليه السلام إنتهى (١).

ثمّ نقل قدس سره عن كتاب سعد السُّعود لأبن طاووس رحمه اللّه قال و قد نقل عن الفرّاء في قوله تعالى: **مَنْ جٰآءَ بِالْحَسَنَةِ** لا إلٰه إلاّ اللّه، و السيّئة الشّرك.

أقول هذا تأويلٌ غريبٌ غير مطابقٍ للمعقول و المنقول لأنّ لفظ لا إله إلاّ اللّه يقع من الصّادق و المنافق و لأنّ اليهود تقول لا إله إلاّ اللّه و كلّ فرقٍ في الإسلام تقول ذلك و واحدة منها ناجية و إثنان و سبعون في النّار و هذه الآية وردت مورد الأمان لمن جاء بالحسنة فكيف تناولها على ما لا يقتضيه ظاهرها.

أقُول و قد رأيتُ النّقل متظاهراً أنّ الحَسَنة معرفة اللّه و رسوله و معرفة. الّذين يقومون مقامه صلوات اللّه عليهم إنتهى ما أردناه (٢).

و أنا أقول ما ذكره الفرّاء في تأويل الآية ذكره على مذهبه و مسلكه و به قال جميع مفسّري العامّة أو أكثرهم و ذلك لأنّهم لا يتجاوزون عن ظاهر الألفاظ في تفاسيرهم و أن كان ظاهرها الكفر و لذلك يقولون بالجبر و كونه تعالى جسماً و أمثال ذلك من القبائح و يستدّلون بظواهر الأيات:

قال اللّه تعالى: **انَّ اَلَّذينَ كَفَرُوا سَوٰآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، خَتَمَ اَللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلىٰ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظيمٌ** (٣).

قال اللّه تعالى: **وَ جٰآءَ رَبُّكَ وَ اَلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا** (٤).

١- تفسير نور الثّقلين ج ۴ ص ١٠٢
٢- ج ۴ ص ١٠٣
٣- البقرة = ٧ / ۶
۴- الفجر = ٢٢

و هكذا غيرها من الأيات و قد رووا في كتبهم أنّ من قال لا إلٰه إلاّ اللّه وجبت له الجنّة كائناً من كان فلا عجب من الفرّاء و هو من علماءهم أن يقول أنّ المراد بالحسنة هو هذه الكلمة أعني التلّفظ بها بلا قيدٍ و شرط و لم يعلموا أنّ التلّفظ بكلمة من دون الإعتقاد بها و العمل بمقتضاها لا خير فيه و لا أنّه من الحسنات ولو كان الأمر كما ذكروه فيمكن لكلّ أحدٍ من النّاس أن يقول بلسانه لا إلٰه إلاّ اللّه، ثمّ يفعل ما يشاء من أنواع المعاصي و القبائح و يدخل الجنّة و هذا لا يستقيم إلاّ على مذهب الفرّاء و أمثاله و لا غرّو فيه فأنّ من أخذ دينه عن أبي هريرة و أمثاله من المنافقين الّذين خرجوا من مكتب السقيفة لا يترتّب منه غير هذا و إلاّ فكيف يحكم العقل السّليم أنّ مجرّد اللّفظ يفيد هذا و لهذا ردّ السيّد قدس سره عليه و هو في موضعه نعم كلمة لا إلٰه إلاّ اللّه من الحسنات بل هي أصل الشجرّة و لكن بشروطها و الولاية من شروطها كما قال مولانا الرّضا في حديث سلسلة الذّهب و هو قوله تعالىٰ: «**كلمة لا إلٰه إلاّ اللّه حِصني ومن دَخَل حِصني أمِنَ من عذابي**» بشروطها و أنا من شروطها يعني من شروطها الولاية لعلّي عليه السلام و أبناءه المعصومين بل نقول كلّ عملٍ من الأعمال إذا لم يكن على أساس الولاية لا نفع فيه كما ورد في الخبر عن الباقر عليه السلام بني الإسلام على خمسٍ.

على الصّلوة و الصوّم و الزّكوة و الحجّ و الولاية و ما نودي بشيءٍ منها كما نودي بالولاية فأخذ النّاس بالأربع و تركوها، و الأخبار في الباب كثيرةٌ.

ثمّ أنّ الرّازي ذكر في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه إعلم أنّه تعالى لمّا تكلّم في علامات القيامة شرح بعد ذلك أحوال المكلّفين بعد قيام القيامة و المكلّف أمّا أن يكون مطيعاً أو عاصياً أمّا المطيع فهو الّذي جاء بالحسنة و له أمران:

أحدهما: أنّ له ما هو خيرٌ منها و هو الثّواب، فأن قيل الحسنة الّتي جاء العبد بها يدخل فيها معرفة اللّه و الإخلاص في الطّاعات، و الثّواب أنّما هو الأكل و الشّرب فكيف يجوز أن يقال أنّ الأكل و الشُّرب خيرٌ من معرفة اللّه و جوابه من وجوهٍ:

أحدها: أنّ ثواب المعرفة النظّرية الحاصلة في الدُّنيا هي المعرفة الضـرّورية الحاصلة في الأخرة و لذّة النّظر الى وجهه الكريم سبحانه و تـعالى و قـد دلّت الدّلائل على أنّ أشرف السّعادات هي هذه اللذّة و لو لم تحملّ الآية على ذلك لزم أن يكون الأكل و الشُّرب خيراً من معرفة اللّه تعالى و هو باطل.

ثانيها: أنّ الثّواب خيرٌ من العمل من حيث أنّ الثّواب دائم و العمل منقض و لأنّ العمل فعل العبد و الثوّاب فعل اللّه تعالى.

ثالثها: فله خيرٌ منها، أي له خيرٌ حاصلٌ من جهتها و هو الجنّة إنتهى كلامه.

أقول الآية الشّريفة قد دلّت على أنّ من جاء بـالحسنة فـله خـيرٌ مـنها و لم يعيّن الخير فحمل الكلام على أنّ المراد بالخير هو الشُّرب و الأكل أو لذَّة النظّر الىٰ وجهه الكريم أو غير ذلك ممّا لا دليل عـليه و قـوله فـي الوجـه الأوّل مـن الجـواب و هـو أنّ ثـواب المـعرفة النّـظرية الحـاصلة فـي الدُّنـيا هـي المـعرفة الضّرورية في الأخرة و لذّة النّظر الى وجهه الكريم من أقبح الأقوال عقلاً و نقلاً فأنّ اللّه تعالى لا يرى في الدُّنيا و الأخرة فلا يعقل النّظر اليه حتّى يـجعل ذلك ثواب الحسنة و حاصل الكلام أنّ النَّظر الى وجهه الكريم من مذهب الأشاعرة و هو منهم و لا يجوز حمل كلام اللّه على هذه الأباطيل و أمّا الثّـاني و الثّـالث من الوجوه فلا بأس بهما و لا شكّ أنّ عطاء الكريم خيرٌ من فعل العبد و أمّا أنّه ما هو فهو أعلم به.

و أمّا قوله تعالىٰ: **وَ مَنْ جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ** الى آخر الآية فقد ظهر مـعناه مـمّا ذكرناه فأنّ السيّئة ضدّ الحسنة فأن كان المراد بالحسنة الولاية، فـالمراد بـالسيّئة عدمها و من المعلوم أنّ جزاء السيّئة ليس إلاّ العقاب يوم القيامة كـما أنّ جـزاء الحسنة الثّواب فيه و هذا ظاهر.

أن قلت ما الدّليل على أنّ المراد بالحسنة الولاية كما وردت به الأخـبار مـن أهل البيت و الآية ظاهرة في مطلق الحسنات.

قلت الحسنات تارةً تطلق على متفاهم العرف و أخرى على متعارف الشّرع، فكلّ فعلٍ يفعله العبد من أفعال الخير فهو حسنٌ عند العرف و لا يلزم منه أن يكون حسناً عند الشّرع و الآية ناظرة الى الحسنات الشرعيّة و هي لا تكون إلاّ بالولاية، مثلاً فعل الصّلوة و الحجّ و الصّوم و غيرها من الحسنات عند العرف كيف إتّفق و أمّا عند الشّارع فأن كان الفعل أعني به الصّلوة مثلاً مع الولاية فهو حسنٌ يتّرتب عليه الثّواب و إلاّ فلا، و هذا هو السرّ في حمل الحسنة على الولاية و الأخبار الدالّة على أنّ اللّه لا يقبل عملاً بغير الولاية كثيرة جدّاً.

إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ

قال اللّه تعالى لنبيّه قل لهم **إِنَّمَآ أُمِرْتُ**، من اللّه تعالى: **أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ**، يعني مكّة المكرّمة في قول إبن عبّاس و هو ظاهر الآية و قوله: **ٱلَّذِي**، هو صفة للرّب على مذهب الجمهور و ليس صفة للبلدة و لذلك لم يقل، التّي، و قوله: **حَرَّمَهَا**ا غير تنبيهٌ بنعمته على قريش إذ جعل بلدتهم أمنة من الغارات و الفتن التّي تكون في بلاد العرب و أهلك من أرادها بسوء، و قرأ بعضهم، التّي، حرّمها صفة للبلدة و هي شاذّة و المصاحف كلّها على قراءة الجمهور و قوله: **أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ**، معناه أن أكون من المطيعين لأوامره و نواهيه و قيل معناه، من الذّين يسلمون بتوحيده و إخلاص العبادة له مستسلمين له.



وَ أَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْاٰنَ فَمَنِ ٱهْتَدٰى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ

الواو للعطف أي و أمرت أيضاً أن أتلوا القرأن عليكم و أدعوكم إلى ما فيه، فقوله: **أَتْلُوَا**، إمّا من التّلاوة أي و أن أتلوا عليكم القرأن و هذا هو الظّاهر إذ

بعده التّقسيم المناسب للتّلاوة، و إمّا من المتلّو أي و أن أتّبع القرأن كقوله تعالى: **وَ ٱتَّبِعْ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ** و قرأ عبد اللّه، أتل، بغير **واو** و أمراً من تلا يتلو و عليه فجاز أن تكون، أن، مصدريّة وصلت بالأمر و جاز أن تكون مفسّرة على إضمار، و أمرت أن أتل أي أتل.

و أمّا قوله: **فَمَنِ ٱهْتَدىٰ** إلى أخر الآية فهو إشارة إلى نفع الإهتداء يرجع إلى صاحبه في الدّنيا و الأخرة كما أنّ وزر الضلالة أيضاً عليه لأنّ اللّه تعالى لا ينفعه طاعة من أطاعه كما لا تضرّه معصية من عصاه و ذلك لأنّه غنيٌّ عن العالمين كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام:

فَأنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ حِيْنَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتَهُمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتَهِمْ لِأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ.

و السرّ في ذلك أنّ الإحتياج و الفقر دليل على النّقص و هو من شئون الممكن و الواجب تعالى منزّهٌ عن الفقر.

و قوله: **أَنَا مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ،** معناه واضح لأنّ النّبي مبّشرٌ و منذرٌ، مبشّرٌ برحمة اللّه و منذرٌ من عقابه.

وَ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ سَيُرِيكُمْ اٰيٰاتِهِ فَتَعْرِفُونَهٰا وَ مٰا رَبُّكَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ

ثمّ أمر اللّه تعالى نبيّه بأن يقول **ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ** إعترافاً بنعمته، **سَيُرِيكُمْ اٰيٰاتِهِ،** أي سيريكم اللّه أياته و دلالته التّي لا يمكن لأحدٍ جحدها.



قال بعضهم يعني في الأخرة و قال الأخرون في الدّنيا و ما ربّك يا محمّد **بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ،** من قرأ بالياء يعني عمّا يفعله المشركون و من قرأ بالتّاء كما هو المشهور فعلى تقدير، قل لهم، ليس ربّكم بغافلٍ عمّا تعملونه بل هو عالمٌ بجميع ذلك فيجازيكم عليه و في ذلك غاية التهدّيد، و أعلم أنّ الأيات الدالّة على توحيد اللّه كثيرة بحيث لا يمكن إحصائها و لنعم ما قيل:

و في كلّ شيءٍ له أيةُ تدُلّ على أنّه واحدُ

و قد أشار اللّه تعالى إلى هذا الأصل في كثيرٍ من الأيات لمن إعتبر بها ثمّ أنّ الأيات المشار إليها في الآية الشريفّة أعمّ من التكوينات و التشريعات و المراد بالتكوينات الموجودات الخارجيّة كلّها و بالتشريعات الأيات الواردة في الأحكام.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ اٰياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذآ أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ اٰياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجًا لِتَسْكُنُوٓا إِلَيْها**[۲].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ اٰياتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ**[۳].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ اٰياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهارِ وَ ٱبْتِغآؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ اٰياتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا**[۵].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ اٰياتِهِ أَنْ تَقُومَ ٱلسَّمآءُ وَ ٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ**[۶].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ اٰياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ ٱلرِّياحَ مُبَشِّراتٍ**[۷] و غيرها من الأيات.

و حاصل الكلام أنّ الأيات المشعرة بالتّوحيد و أنّه لا إلٰه إلاّ هو كثيرة إلاّ أنّ المعتبر بها قليل قال أميرالمؤمنين عليه السلام: **ما أكثَر العِبَر وأقَلّ الإعتبار.**

و نحن نقول اللّهم إجعلنا من المعتبرين بأياتك بمحمّد و أله الطّاهرين.

■

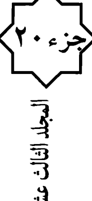
۱- الرّوم = ۲۰
۲- الرّوم = ۲۱
۳- الرّوم = ۳۲
۴- الرّوم = ۲۳
۵- الرّوم = ۲۴
۶- الرّوم = ۲۵
۷- الرّوم = ۴۶

سُورَةُ ٱلْقَصَصِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طٰسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ اٰيٰاتُ ٱلْكِتٰابِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَاِ مُوسٰى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاٰ فِي ٱلْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهٰا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طٰآئِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنٰآءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسٰآءَهُمْ إِنَّهُ كٰانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ ٱلْوٰارِثِينَ ﴿٥﴾ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ جُنُودَهُمٰا مِنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَ أَوْحَيْنٰآ إِلىٰٓ أُمِّ مُوسىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذٰا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَ لاٰ تَخٰافِي وَ لاٰ تَحْزَنِيٓ إِنّٰا رٰآدُّوهُ إِلَيْكِ وَ جٰاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ اٰلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ جُنُودَهُمٰا كٰانُوا خٰاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَ قٰالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لاٰ تَقْتُلُوهُ عَسىٰٓ أَنْ

يَنْفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَ
أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي
بِهِ لَوْلَآ أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ
عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ
ٱلْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ
بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ
لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ ٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَاهُ
حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَ
دَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ
فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَٰذَا مِنْ
عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِي
مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا
مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ
إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ
عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ
فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنْصَرَهُ
بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ
مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ

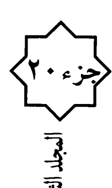


عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّآ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَ مَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَ جَآءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعٰى قَالَ يَا مُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسٰى رَبِّيٓ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَ لَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتّٰى يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَ أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقٰى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلّٰىٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدٰيهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدٰيهُمَا يَآ أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰٓ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَ

مٰآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِنْ شٰآءَ ٱللّٰهُ
مِنَ ٱلصّٰالِحِينَ ﴿۲۷﴾ قٰالَ ذٰلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا
ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاٰ عُدْوٰانَ عَلَىَّ وَ ٱللّٰهُ عَلٰى مٰا
نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿۲۸﴾ فَلَمّٰا قَضٰى مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَ
سٰارَ بِأَهْلِهِۦٓ اٰنَسَ مِنْ جٰانِبِ ٱلطُّورِ نٰارًا قٰالَ
لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا إِنِّىٓ اٰنَسْتُ نٰارًا لَعَلِّىٓ اٰتِيكُمْ مِنْهٰا
بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ ٱلنّٰارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿۲۹﴾
فَلَمّٰآ أَتٰيهٰا نُودِىَ مِنْ شٰاطِئِ ٱلْوٰادِى ٱلْأَيْمَنِ فِى
ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبٰارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَنْ يٰا مُوسٰىٓ إِنِّىٓ
أَنَا ٱللّٰهُ رَبُّ ٱلْعٰالَمِينَ ﴿۳۰﴾ وَ أَنْ أَلْقِ عَصٰاكَ فَلَمّٰا
رَاٰهٰا تَهْتَزُّ كَأَنَّهٰا جٰآنٌّ وَلّٰى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَقِّبْ يٰا
مُوسٰىٓ أَقْبِلْ وَ لاٰ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْاٰمِنِينَ ﴿۳۱﴾
ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضٰآءَ مِنْ غَيْرِ
سُوٓءٍ وَ ٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنٰاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذٰانِكَ
بُرْهٰانٰانِ مِنْ رَبِّكَ إِلٰى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِۦٓ إِنَّهُمْ
كٰانُوا قَوْمًا فٰاسِقِينَ ﴿۳۲﴾ قٰالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ
مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخٰافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿۳۳﴾ وَ أَخِى
هٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسٰانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا
يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخٰافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿۳۴﴾ قٰالَ
سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمٰا سُلْطٰانًا فَلاٰ
يَصِلُونَ إِلَيْكُمٰا بِاٰيٰاتِنٰآ أَنْتُمٰا وَ مَنِ ٱتَّبَعَكُمٰا
ٱلْغٰالِبُونَ ﴿۳۵﴾ فَلَمّٰا جٰآءَهُمْ مُوسٰى بِاٰيٰاتِنٰا بَيِّنٰاتٍ

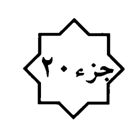
قٰالُوا مٰا هٰذٰآ إِلّٰا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَ مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا
فِيٓ اٰبٰآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَ قٰالَ مُوسٰى رَبِّيٓ أَعْلَمُ
بِمَنْ جٰآءَ بِالْهُدٰى مِنْ عِنْدِهٖ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ
عٰاقِبَةُ ٱلدّٰارِ إِنَّهُ لٰا يُفْلِحُ ٱلظّٰالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَ قٰالَ
فِرْعَوْنُ يٰآ أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ
غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يٰا هٰامٰانُ عَلَى ٱلطِّينِ فَاجْعَلْ
لِي صَرْحًا لَعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَيٓ إِلٰهِ مُوسٰى وَ إِنِّي
لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكٰاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَ ٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ
فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَ ظَنُّوٓا أَنَّهُمْ إِلَيْنٰا لٰا
يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنٰاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنٰاهُمْ فِي
ٱلْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلظّٰالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَ
جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنّٰارِ وَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ لٰا
يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَ أَتْبَعْنٰاهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلدُّنْيٰا لَعْنَةً وَ
يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ هُمْ مِنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَ لَقَدْ اٰتَيْنٰا
مُوسَى ٱلْكِتٰابَ مِنْ بَعْدِ مٰآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ
ٱلْأُولٰى بَصٰآئِرَ لِلنّٰاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَ مٰا كُنْتَ بِجٰانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ
قَضَيْنٰآ إِلٰى مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَ مٰا كُنْتَ مِنَ
ٱلشّٰاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَ لٰكِنّٰآ أَنْشَأْنٰا قُرُونًا فَتَطٰاوَلَ
عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَ مٰا كُنْتَ ثٰاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ
تَتْلُوا عَلَيْهِمْ اٰيٰاتِنٰا وَ لٰكِنّٰا كُنّٰا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَ مٰا
كُنْتَ بِجٰانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نٰادَيْنٰا وَ لٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ

رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مٰآ أَتيٰهُمْ مِنْ نَذيرٍ مِنْ قَبْلِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿۴۶﴾ وَ لَوْلَآ أَنْ تُصيبَهُمْ مُصيبَةٌ
بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْديهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنٰا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ
إِلَيْنٰا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ اٰيٰاتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنينَ
﴿۴۷﴾ فَلَمّٰا جٰاءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنٰا قٰالُوا لَوْلَآ
أُوتِيَ مِثْلَ مٰآ أُوتِيَ مُوسىٰٓ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمٰآ
أُوتِيَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ قٰالُوا سِحْرٰانِ تَظٰاهَرٰا وَ
قٰالُوٓا إِنّٰا بِكُلٍّ كٰافِرُونَ ﴿۴۸﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتٰابٍ مِنْ
عِنْدِ ٱللّٰهِ هُوَ أَهْدىٰ مِنْهُمٰآ أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ
صٰادِقينَ ﴿۴۹﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمٰا
يَتَّبِعُونَ أَهْوٰاءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوىٰهُ
بِغَيْرِ هُدًى مِنَ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ لٰا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ
ٱلظّٰالِمينَ ﴿۵۰﴾ وَ لَقَدْ وَصَّلْنٰا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿۵۱﴾ ٱلَّذينَ اٰتَيْنٰاهُمُ ٱلْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِهِ
هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿۵۲﴾ وَ إِذٰا يُتْلىٰ عَلَيْهِمْ قٰالُوٓا اٰمَنّٰا
بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّنٰآ إِنّٰا كُنّٰا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمينَ
﴿۵۳﴾ أُولٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمٰا صَبَرُوا وَ
يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ
يُنْفِقُونَ ﴿۵۴﴾ وَ إِذٰا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ
قٰالُوا لَنٰآ أَعْمٰالُنٰا وَ لَكُمْ أَعْمٰالُكُمْ سَلٰامٌ عَلَيْكُمْ
لٰا نَبْتَغِي ٱلْجٰاهِلينَ ﴿۵۵﴾ إِنَّكَ لٰا تَهْدي مَنْ
أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَهْدي مَنْ يَشٰاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ



بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَ قَالُوٓا إِنْ نَتَّبِعِ ٱلْهُدٰى مَعَكَ
نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا اٰمِنًا
يُجْبٰىٓ إِلَيْهِ ثَمَرٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَ
لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ
قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ
مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَ كُنَّا نَحْنُ ٱلْوٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَ
مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرٰى حَتّٰى يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا
رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ اٰيٰتِنَا وَ مَا كُنَّا مُهْلِكِي
ٱلْقُرٰىٓ إِلَّا وَ أَهْلُهَا ظٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَ مَآ أُوتِيتُمْ مِنْ
شَيْءٍ فَمَتٰعُ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَ زِينَتُهَا وَ مَا عِنْدَ
ٱللّٰهِ خَيْرٌ وَ أَبْقٰىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنٰهُ
وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لٰقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنٰهُ مَتٰعَ ٱلْحَيٰوةِ
ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَ
يَوْمَ يُنٰدِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا
هٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا
تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَ قِيلَ
ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ
رَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَ يَوْمَ
يُنٰدِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ
﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَ اٰمَنَ وَ عَمِلَ صٰلِحًا فَعَسٰىٓ

أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿۶۷﴾ وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مٰا يَشٰآءُ وَ يَخْتٰارُ مٰا كٰانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحٰانَ ٱللّٰهِ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ ﴿۶۸﴾ وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ مٰا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مٰا يُعْلِنُونَ ﴿۶۹﴾ وَ هُوَ ٱللّٰهُ لاَ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولىٰ وَ ٱلْآخِرَةِ وَ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿۷۰﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللّٰهُ عَلَيْكُمُ ٱللَّيْلَ سَرْمَداً إِلىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ ٱللّٰهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيٰآءٍ أَفَلاٰ تَسْمَعُونَ ﴿۷۱﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللّٰهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهٰارَ سَرْمَداً إِلىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ ٱللّٰهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاٰ تُبْصِرُونَ ﴿۷۲﴾ وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهٰارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿۷۳﴾ وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكٰآئِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿۷۴﴾ وَ نَزَعْنٰا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنٰا هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ فَعَلِمُوٓا أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلّٰهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ ﴿۷۵﴾



◀ اللّغة

طسٓمٓ: إسم للسُّورة.

نَبَإِ: بفتح النُّون و الباء الخبر.

عَلاٰ: العلُو التَّجبر و البغي.

شِيَعًا: شيع بكسر الشّين و فتح الياء جمع شيعة و هي التّابع.
يَسْتَحْيِي: أي يستبقي بناتهم.
هٰامٰانَ: إسمٌ لوزير فرعون.
يَحْذَرُونَ: الحذر توَّقي ما فيه المضّرة.
ٱلْيَمّ: بفتح الياء و تشديد الميم البحر يعني النّيل.
فَٱلْتَقَطَهُ: أي أخذه و قيل الإلتقاط هو إصابة الشّيء من غير طلب و منه اللّقطة.
فُؤٰادُ: القلب.
قُصّيهِ: بضّم القاف و كسر الصّاد المشدّدة أي إتّبعي أثره يقال قصَّه يقصّه إذا تبع أثره.
ٱلْمَرٰاضِعَ: بفتح الميم و كسر الضّاد جمع مرضعة.
يَكْفُلُونَهُ: الكفيل الضّامن.

◄ الإعراب

نَتْلُوا عَلَيْكَ مفعول له محذوف دلَّت عليه صفته تقديره شيئاً من نبأ موسى و على قول الأخفش، من، زائدة بِالحقّ حال من النَّبأ يَسْتَضْعِفُ صفة لشيع يُذَبِّحُ تفسير له أو حال من فاعل يستضعف مِنهم متعلّق بنرى و لا يتعلّق بيحذرون لأنّ الصلّة لا تتقدّم على الموصول أَنْ أَرْضِعِيهِ أن مصدريّة و قيل بمعنى، أي، لِيَكُونَ لَهُمْ اللاّم للصَّيرورة لا لام الغرض و الحزن و الحزن لغتان قُرَّةُ عَيْنٍ أي هو قرّة عينٍ لِي وَ لَكَ صفتان، لقرّة إِنْ كٰادَتْ إن مخفّفة من الثقيلّة و قيل بمعنى، و جواب لولا، محذوف دلَّ عليه، إن كادت، ولِتَكُونَ اللاّم متعلّقة، بربطنا، عَنْ جُنُبٍ هو في موضع الحال من الهاء في، به، أي بعيداً أو من الفاعل في، بصرت، ٱلْمَرٰاضِعَ جوع مرضعة و يجوز أن يكون جمع مرضع الّذي هو مصدر وَ لٰا تَحْزَنَ معطوفٌ على، تقرّ.

◀ التَّفسير

طسٓمٓ

قد مرَّ الكلام في الحروف المقطّعات و قلنا معناها إلاّ اللّه و المختار من بين الأقوال هو أنّها أسماء للسوّر.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ

الظّاهر أنّ المراد بالكتاب القرآن و قيل المراد به اللَّوح المحفوظ و الأوّل أظهر أنّ الكتاب المبين هو القرآن لكونه ظاهراً يراه كلّ أحدٍ بخلاف اللَّوح المحفوظ فأنّه لا يوصف بكونه مبيناً.

نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

أي نتلوا عليك طرفاً من أخبار موسى و فرعون بالحقّ على حقيقة البيان و هو إظهار المعنى للنَّفس بما تمزّه من غيره و إنّما قال لقومٍ يؤمنون لأنّ غير المؤمن باللّه و رسوله لا يصدّق القرآن فضلاً عمّا فيه من الأحكام و القصص و هو من الواضحات و أعلم أنّ هذه السُّورة سمِّيت بسورة القصص لأنّ اللّه تعالى ذكر فيها قصّة موسى و قصّة فرعون و قصّة قارون بوجهٍ أبسط ممّا مضى أمّا موسى، فقال الرّاغب من جعله عربيّاً فمنقولٌ عن موسى الحديث يقال أوسيت رأسه حلقته إنتهى.

و قال بعض أهل اللغّة هو فعلى أو فعل بضّم الفاء فيهما و هو ما يحلق به الرَّأس يذكّر و يؤنّث و على الأوّل لا ينصرف للألف المقصورة و يجمع على صرفه على المواسي و على المواسيات كالجلّيات و موسى لقيط فرعون من البحر قيل سميّ به لأنّه ألتقط من بين الماء و الشَّجر و الماء بلغة القبط إسمه (مو) و الشَّجر (سا) مركّباً و جعلا إسماً لموسى لأدنى ملابسةٍ، إنتهى.

و أمّا نسبه فهو موسى إبن عمران بن يصهر بن فاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم و كان بينه و بين إبراهيم خمسمائة سنة و كان أخوه هارون أكبر منه و تفّى قبل موسى و عاش موسى في الدّنيا مائتين و أربعين سنة و هو أوّل رسولٍ أرسل من بني‌إسرائيل و من تقّدمه كانوا غير رسل و آخر رسل بني‌إسرائيل عيسى بن مريم و بينهما ستمائة نبيٍ و كان في لسان موسى عقدة و ثقل و كان أخوه هارون أفصح منه لساناً و كان لهارون ولدان، شبير و شبر و أمّ موسى إسمها بوخائيد أو فاحية أو نخيب على إختلاف الرّوايات و هي بنت إشموئيل من ولد إبراهيم و لم يكن لموسى ولد و إنّما الخلافة كانت لولد هارون من بعده و كان الوحي من اللّه ينزل على موسى لكونه أفضل من أخيه و هو يخبر أخاه بما يوحى إليه و إذا غاب موسى عن قومه كان خليفته فيهم هارون و هو أخوه من أمّه و أبيه، روي أنّ يوسف الصدّيق بن يعقوب لما حضرته الوفاة جمع شيعته و أهل بيته و فيهم ثمانون رجلاً من ولد أبيه فحمد اللّه و أثنى عليه ثمّ جعل يحدّثهم عمّا سيجري عليهم من بعده من فراعنة أزمنتهم و حدَّثهم بما سيصنع فرعون و هامان و أتباعهما من القبط في بني اسرائيل و كيف يسومونهم سوء العذاب فيقتل رجالهم و يشقّ بطون الحوامل من نسائهم و يذبّح الأطفال ثمّ بشَّرهم بالنَّجاة قيل يد رجلٍ أسمر طويل إسمه موسى بن عمران و ذكر لهم صفاته و نعوته و أمرهم بإتبّاعه و إطاعته و الإيمان بنبوّته و سغلب على مصر بعدي فراعنة الزّمان و أمتدّت الأيّام و بنی‌إسرائيل تحت سلطة أولئك العتاة في أضيق حالٍ و أسوء عيشة لتمسّكهم بشريعة إبراهيم و مخالفتهم للعمالقة و الأقباط في العقيدة و العمل و هم ينتظرون الفرج كما وعدهم يوسف عليه السّلام.

و فرعون على وزن برزون و الواو و النُّون زائدتان و هو لا ينصرف لأنّه إسمٌ أعجّميٌ و جمعه فراعنة قال إبن الجوزي الفراعنة ثلاثة:

فرعون الخليل و إسمه سنان، و فرعون يوسف و إسمه الرّيان بن الوليد، و فرعون موسى و إسمه الوليد بن مصب و كان بين اليوم الّذي دخل يوسف مصر و اليوم الّذي دخله موسى رسولاً أربعمائة عامٍ، و كلّ عاتٍ فرعون و العتاة الفراعنة و قد تفرّعن هو و ذو فرعنة أي ذو دهاءٍ و مكرٍ إنتهى.

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ فرعون علا أي تجبّر و تكبّر في الأرض و جعل أهلها أي أهل الأرض قيل أنّ المراد بالأرض أرض مصر و أهلها أي أهل أرض مصر، **شِيَعًا**، أي جعلهم من أتباعه قهراً و ظلماً يستضعف أي يستعبد **طَآئِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ** أي يستبقي بناتهم فلا يقتلهنّ و قيل أنّه كان يأمر بإخراج أحيائهنّ الّذي فيه الولد و الأوّل هو المعتمد ثمّ حكم اللّه بأنّ فرعون كان من المفسدين في الأرض و أيّ فسادٍ أقبح و أشنع ممّا فعل فرعون لعنه اللّه، قيل أنّ فرعون رآى ليلة في منامه كان ناراً قد أقبلت من بيت المقدس و أشتملت على بيوت مصر فأخربتها و أحرقت القبط و تجنّبت بنيإسرائيل فلّما قصّها على المنجّمين و الكهنة قالوا يولد في بنيإسرائيل غلام يسلبك ملكك و يغلبك على سلطانك فسألهم هل ولد هذا الغلام أم لم يولد بعد قالوا أنّه لم يولد و لكّنه قرب مولده ففزع من ذلك و أمر بقتل كلّ غلامٍ يولد لبنيإسرائيل و جمع القوابل من نساء مملكته و شدَّد عليهنّ بقتل كلّ غلامٍ يولد على أيديهنّ و ترك البنات من المواليد و نفذّ هذا الأمر بشدّةٍ هائلة و أسرع الموت في شيوخ بنيإسرائيل و أشرفوا على الفناء حتّى دخلت رؤساء القبط على فرعون يقولون له أنّ الموت كاد أن يفني بنيإسرائيل فيوشك أن يقع العمل و الإستخدام علينا فأمر فرعون بأن يذبّحوا سنة و يتركوا سنة ذبح الأولاد فولد في أوّل سنة الترك هارون و لمّا كان العام

الثّاني ولد موسى فلّما حملت به أمّه حزنت و أشتَّد خوفها عليه و أقام فرعون عليها قابلة فلّما وضعته و نظرت قابلة الى وجهه جعلت تبكي أمّه و أرتَّعدت فرائصها فرفق اللّه سبحانه بقلب القابلة فأحّبت موسى و قالت لأمّه لا تخافي فإنّي سأكتم عليك فلم تثق أمّ موسى بكلامها و كان موسى لا يراه أحد إلاّ أحبّه فحلفت القابلة لأمّه فهدأ روعها فحملته القابلة و أدخلته مدخلاً خفيّاً ثمّ خرجت إلى الحرس و هم على الباب و قالت لهم إنصرفوا فأنّها لم يخرج منها إلاّ دم منقطع فصدّقوا كلامها و إنصرفوا و جعلت أمّ موسى ترضعه في المخدع و هي فزعة عليه من فرعون فقد ذبح في سبيله أكثر من عشرين ألف ولد فأرضعته ثلاثة أشهر و هي تخفيه إلى أن أبصره ذات يومٍ بعض العيون فأخبروا الحرس الذباحين فهجموا على بابها و أحسَّت بهم أختُ موسى فأخبرت أمّها و لم تعقل ماذا تصنع بالصبّي فوضعته في التّنور و هي لا و عي معها و هو ملتهب نارٌ و لّما دخل الحرس و تفحّصوا في جميع جوانب الدّار فلم يجدوا شيئاً و لم يدانوا من التنُّور لرؤية النّار تخرج من داخله و ما أن خرج الحرس حتّى إنتبهت أمّ موسى أنّ التنُّور مسجور و ملؤه نار فأسرعت لتنظر ماذا جرى فسمعت صوته من البعد و وجدته في وسط النّار و هو سالم و قد جعلها اللّه عليه برداً و سلاماً كما جعلها على جدّه إبراهيم من قبل فأسرعت و أخرجته من التنّور و فرحت بسلامته.



وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ ٱلْوارِثِينَ

لمّا أخبر اللّه تعالى في الآية السّابقة أنّ فرعون فعل ما فعل من الظُّلم على بني إسرائيل حتّى لا يوجد موسى أخبر في هذه الآية أنّ ما شاء اللّه و أراد لا مرَّد له و لا يقدر أحدٌ على دفعه و منعه فقال: **وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ** و الإرادة في المقام تكوينيّة لا تشريعيّة فأنّ للّه تعالى إرادتين، تكوينيّة، و تشريعيّة.

فالتّكوينيّة هي المعبّر عنها بالإرادة الإيجاديّة التّي لا إختيار في المراد فيها كما قال اللّه تعالىٰ: **إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**[١]، فهذه الإرادة أساسها على الجبر و القهر.

و أمّا التّشريعيّة فهي عبارة عن إرادة الحقّ في الأحكام و الأفعال الصّادرة من العبد و الإختيار ثابتٌ فيها للعبد فإذا أمر اللّه العبد بالصّلاة و الصّوم و الحجّ و غيرها من الأحكام بل جميع أفعال الخير فقد أراد الفعل من العبد و إلاّ لم يأمر به لأنّ الأمر بالشّيء أو النهيّ عنه مسبوق بالإرادة قطعاً مع أنّ العبد قد يصلّي و قد لا يصلّي أو قد يفعل المراد و قد لا يفعل و ليس ذلك إلاّ لأجل الإختيار الّذي جعله اللّه للعبد لمصلحةٍ إقتضاها التّكليف.

إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ قوله تعالى: **وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ**، معناه أنّ المراد قطّعي الحصول و في التّعبير بالمنيّة إشارة إلى أنّ رفع الظّلم عن المظلوم المستضعف لا يقدر عليه أحد إلاّ اللّه فهو يليق بالإمتنان.

قال قتادة يعني من بنىإسرائيل، و الحقّ أنّ الآية بصدد بيان حكم كلّي عامّ الشّامل لجميع الأرمنة و جميع المستضعفين و التخصّيص ببنىإسرائيل لا دليل عليه فأنّ خصوصيّة المورد لا تنافي عموم المعنى و حاصل الكلام في معنى الآية هو أنّ اللّه تعالى حكم فيها بأنّ لكلّ شدّةٍ فرج و لكلّ عسرٍ يسرٍ فلا الظّالم يبقى على ظلمه و لا المظلوم على مظلوميّته.

و في قوله: **وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ**، إشارة إلى نقطةٍ خفيّةٍ و هي أنّ اللّه تعالى قادرٌ على أن يجعل المظلوم قدوةً و إماماً و وارثاً لجميع ما تركه الظّالم ففي الكلام تسليةٌ للمظلوم و تهديدٌ للظّالم.

و روي بعض أصحابنا أنّ الآية نزلت في شأن المهدي عليه السلام و أنّ اللّه يمّن عليه بعد أن إستعضف و يجعله إماماً ممكناً و يورثه ما كان في أيدي الظّلمة.

قال علّي بن إبراهيم في تفسيره لهذه الآية و ما قبلها ما هذا لفظه:

١- يس = ٨٢

ثمّ خاطب اللّه عزّ وجلّ نبيّه فقال، نتلوا عليك يامحمّد **مِنْ نَبَإِ مُوسٰى وَ فِرْعَوْنَ** إلى قوله: **مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ**، فأخبر اللّه عزّ وجلّ نبيّه بما لقى موسى و أصحابه من فرعون من القتل و الظُّلم ليكون تعزيةً له فيما يصيبه في أهل بيته صلوات اللّه عليهم من أمّته ثمّ بشَّره بعد تعزيته أنّه تعالى يتفضّل عليهم بعد ذلك و يجعلهم خلفاء في الأرض و أئمّة على أمّته و يرّدهم إلى الدُّنيا مع أعدائهم حتّى ينتصفوا منهم فقال جلّ ذكره: **وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ ٱلْوٰارِثِينَ. وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَ نُرِىَ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ جُنُودَهُمٰا** و هم الّذين غصبوا أل محمّد حقّهم.

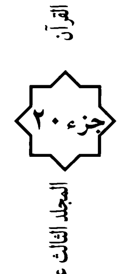
و قوله: **مِنْهُمْ**، أي من أل محمّد، **مٰا كٰانُوا يَحْذَرُونَ**، أي من القتل و العذاب ولو كانت هذه نزلت في موسى و فرعون لقال و نري فرعون و هامان و جنودهما منه ما كانوا يحذرون أي من موسى ولم يقل منهم فلمّا تقدّم قوله: **وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ** علمنا أنّ المخاطبة للنّبي و ما وعد اللّه به رسوله فأنّما يكون بعده و الأئمّة يكونون من ولده و أنّما ضرب اللّه هذا المثل لهم في موسى و بني إسرائيل و في أعدائهم بفرعون و هامان و جنودهما فقال أنّ فرعون قتل بني إسرائيل فظفر اللّه موسى بفرعون و أصحابه حتّى أهلكهم اللّه و كذلك أهل بيت رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أصابهم من أعدائهم القتل و الغصب ثمّ يرّدهم اللّه و يرّد أعدائهم إلى الدّنيا حتّى يقتلوهم.

قال مؤلّف هذا الكتاب عفي عنه يمكن إرادة موسى و فرعون و إرادة أهل البيت و أعدائهم و ما قيل أنّه مانع لا منع فيه كما يظهر بأدنى تأمّلٍ على إرادة كلٍّ من المعنيين في الظّاهر و الباطن كما نطقت به الأخبار الكثيرة عنهم عليهم السّلام و قد ذكرنا في هذا الكتاب من ذلك ما فيه كفاية لمن تتّبعه و وَّقف على طريقهم عليهم السّلام و يؤيّد ذلك.

ماروواه في الكافي بأسناده إلى حفص بن غياث قال قال أبو عبد اللّه عليه السلام: ياحفص أنّ من صبر قليلاً و إنّ من جزع جرعاً قليلاً إلى أن قال ثمّ بشّر في عترته بالأئمّة و وصفوا بالصّبر فقال جلّ ثناؤه وَ **جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ**(١) فعند ذلك قال الصَّبر من الإيمان كالرّأس مِن الجسد فشكر اللّه عزّ و جلّ ذلك له فأنزل اللّه عزّ وجلّ **وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ اَلْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ**(٢) فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أنّه بشرى و إنتقامٍ مع ماروواه في أصول الكافي في كتاب فضل القرأن مسنداً عن رسول اللّه من قوله: و قد ذكر القرأن وله ظهرٌ و بطن فظاهره حكمٌ و باطنه علمٌ ظاهره أنيقٌ و باطنه عميقٌ إنتهى كلامه.

أقول ماذكره قدس سره لا بأس به فأنّ الآية تشمل ظهور المهدي عليه السلام بلا كلام فأنّ حكم الأمثال واحد و لا فرق بين قوم بني إسرائيل و شيعة أميرالمؤمنين من جهة الإستضعاف و تسلُّط الأشرار و الفراعنة على أولياء الحقّ بعد غصب الخلافة فالملاك فيهما واحد و على هذا فالآية شاملة لأتباع أهل البيت و أنّهم من المستضعفين إلى يوم الوقت المعلوم و يؤيّد هذا المعنى.

ماروواه عاصم بن حميد عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: لقى المنهال بن عمرو علّي إبن الحسين عليه السلام فقال له كيف أصبحت يابن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال عليه السلام: ويحك أما أن تعلم كيف أصبحت و أصبحنا في قومنا مثل بني‌إسرائيل في أل فرعون يذّبحون أبنائنا و يستحيون نسائنا و أصبح خير البّرية بعد محمّد صلى الله عليه وآله وسلم يلعن على المنابر و أصبح عدّونا يعطى المال و الشّرف و أصبح من



١- السجدة = ٢٤ ٢- الاعراف = ١٣٧

يحبّنا محقورا منقوصاً حقّه و كذلك لم يزل المؤمنون و أصبحت العجم تعرف للعرب حقّها بأنّ محمّداًصلّى الله عليه و آله و سلّم كان منها و أصبحت العرب تعرف لقريش بأنّ محمّداً كان منها و أصبحت قريش تفتخر على العرب بأنّ محمّداً كان منها و أصبحت العرب تفتخر على العجم بأنّ محمّداً كان منها و أصبحنا أهل البيت لا يعرف لنا حقّ فهكذا أصبحنا يامنهال إنتهى(١).

و الأخبار في الباب كثيرة.

وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ جُنُودَهُمٰا مِنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَحْذَرُونَ

التّمكين هو فعل جميع ما لا يصحّ الفعل و لا يحصل إلاّ معه من القدرة و الألة و اللّطف و غير ذلك و الضّمير في، لهم، عائد على الأئمّة و المعنى تمكّن الأئمّة في الأرض و يحتمل عود الضّمير على بني إسرائيل و المأل واحد.

و قوله: **وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ جُنُودَهُمٰا**، أي نظهر لهما و لجنودهما قدرتنا ليروا أنّ اللّه على كلّ شيء قدير و قوله: **مِنْهُمْ** حيث أتى بضمير الجمع فهذا هو الّذي إستدلّ به عليّ إبن إبراهيم على أنّ الآية في ظهور الأئمّة على ما مرَّ الكلام فيه و لو كانت نزلت في موسى و فرعون لقال منه أي من موسى.

و نحن نقول ما ذكرهرحمه الله لا بأس به لكونه من مصاديق الآية بل أظهرها إلاّ أنّ الإستدّلال فيه ضعفٌ ظاهر و ذلك لإحتمال عود الضّمير إلى موسى و هارون و هما أثنان و قد ثبت أنّ أقلّ الجمع أثنان نعم الإستدلال بأنّ ظهور الأئمّة أمرٌ ثابت بالأخبار الواردة في باب الرّجعة ممّا لا كلام فيه فالإستدّلال بها أولى ممّا إستدلّ به فمعنى الكلام نريهما ما كانوا يحذرون و يخافون منه و هو ظهور رجل من بني إسرائيل و غلبته على فرعون و أعوانه.

١- نور الثّقلين ج ٤ ص ١٠٩

وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذٰا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اَلْيَمِّ وَ لاٰ تَخٰافِي وَ لاٰ تَحْزَنِي إِنّٰا رٰادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جٰاعِلُوهُ مِنَ اَلْمُرْسَلِينَ

قلنا أنّ أمّ موسى أرضعته ثلاثة أشهر و هي تخفيه إلى أن أبصره ذات يوم بعض العيون فوضعته في التّنور خوفاً من الحرس و اللّه تعالى جعل النّار عليه برداً و سلاماً فألهمها اللّه تعالى أن تضعه في التّابوت و تلقيه في الماء لعلّ اللّه يسلمه و ينجيه من فرعون و ملائه فذهبت أمّ موسى إلى النّجار ودعته لصنع التّابوت فسألها عمّا تصنع به فكرهت أن تخبره و كرهت أن تكذب فقالت لي إبن أريد أن أخبئه فيه فمضى إلى الحرس و أراد أن يخبرهم بالخبر فأمسك اللّه لسانه من الكلام فعلم أنّ هذا أمرٌ من اللّه و كأنّه ألهم أنّ هذا هو المولود الّذي سيكون هلاك فرعون على يده فهدى اللّه قلبه و عاهد اللّه تعالى أن ردّ عليه لسانه أن لا يدلّ على الوليد بل يحافظ عليه فأنطلق لسانه في الحال فأزداد إيماناً بموسى و أسرع في صنع التّابوت و تسليمه إلى أمّ موسى فأخذته و وضعت فيه شيئاً من القطن و وضعت فيه موسى و أطبقت بابه عليه و سدّت نوافذه بالزّفت ثمّ حملته في اللّيل و ألقته في بحر النّيل و لمّا توارى عنها و ضربته الأمواج و خفي عن عينها إلتهب قلبها و ندمت على ما فعلت و بقى موسى في البحر ثلاثة أيّام تضربه الأمواج حتّى إنتهت به إلى أشجار عند دار فرعون.

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ جُنُودَهُمٰا كٰانُوا خٰاطِئِينَ، وَ قٰالَتِ اِمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لاٰ تَقْتُلُوهُ عَسىٰ أَنْ يَنْفَعَنٰا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ

قد مرَّ في شرح اللّغات أنّ الإلتقاط هو إصابة الشّيئ من غير طلبٍ و منه اللُّقطة، قيل كان فرعون جالساً مع آسية على شفير النّهر الّذي كان منشَّقاً من النّيل إلى قصر فرعون و أو أقبلت إبنة فرعون في جواريها و كان في بنته برصٌ شديد عجز الأطبّاء عن معالجة فخبره السّحرة أنّها تبرأ من البرص من قبل

النّيل حيث يخرج منه شبه إنسانٍ فيؤخذ من ريقه و يلّطخ به برصها فتصّح فوراً و ذلك عند شروق الشّمس فنصبت أمة اللّه الصّالحة آسية قبّة على شاطئ النّيل تترقّب العلاج المنتظر و هم على تلك الحال إذ أقبل التّابوت تضربه الأمواج و لمحته آسية أوّلاً فقالت لجواريها أما ترين ما أرى على الماء قلن بلى، فلمّا دنا التّابوت أسرعت بنفسها لتأخذه و كادت تغمرها الماء إلى أن تناولت التّابوت بيدها و أخرجته من الماء و فتحته فإذا فيه غلام من أجمل النّاس و أحسنهم و هو يمّص إبهامه فوضعته في حجرها و أحبّه حبّاً شديداً و هي تقول هذا إبني و عمدت بنت فرعون إلى فمه و أخذت من ريقه و لطخت به برصها فخفي في الحال و شفيت منه و حملت أسية موسى و أرته لفرعون و كان بعيداً عنهنّ و قد رأى ما جرى لهنّ فقال اللّعين هذا إسرائيلي و همَّ بقتله فتوسّلت أسية بابية تقول كما حكاه اللّه منها في المقام.

فلم تزل أسية تستوهبه و هو يقول أخاف أن يكون هذا هو الذّي على يده هلاكنا و زوال ملكنا و هي تقول لا تخف أنّما هو إبنك ينشأ في حجرك إلى أن قلّبته عن رأيه و وهبه لها ثمّ أنّه أحبّه حبّاً شديداً و تبّناه و طلب له مرضعة تربّيه كما سيجئ الكلام فيه و في هاتين الأيتين نقاط لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً:

الأُولىٰ: قوله تعالى: **فَٱلْتَقَطَهُ**، و التّعبير به إشارة إلى أنّهم أي فرعون و أتباعه لم يطلبوا موسى بل كانوا منه على حذرٍ و لذلك عبّر عن أخذه من الماء بالإلتقاط و هو الّذي يحصل للإنسان من غير طلبٍ ففيه إيماء إلى أنّ العبد يدّبر و اللّه يقدّر و تقديره مقدّم على تدبير العبد و هو واضح.

ثانيهما: قوله: **لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا**، فاللاّم في، ليكون، لام العاقبة أو الصّيرورة يعني أخذوه من الماء ليكون لهم عدّواً في العاقبة و سبباً لحزنهم و ذلك يدلّ على جهل الإنسان بعاقبة الأمر و إلى هذا المعنى أشار الّه تعالى بقوله: **وَ عَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ**[١].

١- البقرة = ٢١٦

ثالثهما: قوله: **إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰان**، حكم فيها بكونهم جميعاً خاطئين و فيه إشارة إلى أنّ الأعوان و الأنصار لهم سهمٌ وافرٍ في ظلم المتبوع لأنّ الظّالم كائناً من كان لا يقدر على إنفاذ أمره مع قطع النّظر عن الأعوان فهم مشتركون في الظُّلم لأنّ من رضي بفعل قومٌ فهو منهم ألا ترى أنّ فرعون أمر بقتل الأولاد ولم يقتل أحداً بنفسه و أنّما قتلهم من أعانه و تبعه فيما أراد و هذا الحكم ثابت في جميع أعوان الظّلمة.

رابعها: أنّ في قوله تعالى: **خٰاطِـئِينَ** إشارة إلى أنّ فرعون ما كان في أخذه موسى من الماء ظالماً بل كان خاطئاً لأنّه أخذه ليكون له قرّة عينٍ و لم يعلم أنّ الأمر بخلافه ولعلَّه لذلك عبَّر عنهم بالخاطئينِ دون الظّالمين و يدُّل على ما ذكرناه ما حكاه اللّه عنهم بقوله: **وَ قٰالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لاٰ تَقْتُلُوهُ عَسىٰ أَنْ يَنْفَعَنٰآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ**

روي أنّ أسية إمرأة فرعون حملت موسى و أرته لفرعون بعد ما أخذته من الماء و كان فرعون بعيداً عنها إلاّ أنّه كان يرى ما جرى لهنّ فقال اللّعين هذا إسرائيلي و همَّ بقتله فتَّوسلت أسية به و قالت: **قُرَّةُ عَـيْنٍ لي وَ لَكَ** و أنّما قالت ذلك لأنّ فرعون لم يكن له ولد و لذلك قالت: **أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ**، بأنّهم أخذوا من الماء من هلاكهم على يده و من كان في جهله منغمراً كيف يدّعي الرّبوبيّة و يقول أنا ربّكم الأعلى، و أجهل من أعانه على إدّعائه و إعتقد ربوبيّته.



وَ أَصْبَحَ فُؤٰادُ أُمِّ مُوسىٰ فٰارِغًا إِنْ كٰادَتْ لَتُبْدي بِهِ لَوْلآٰ أَنْ رَبَطْنٰا عَلىٰ قَلْبِهٰا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

الفؤاد القلب أي صار قلب أمّ موسى فارغاً من كلِّ شيئٍ إلاّ من ذكر موسى، و قيل فارغاً من وحينا بنسيانه فأنّها نسيت ما وعدها اللّه به و قيل فارغاً من الحزن لعلمها بأنّ إبنها ناجٍ سكوناً إلى ما وعد اللّه و قبلت به هكذا فسَّروا

الكلام و الّذي يقوي في النّظر أنّ قوله: **فَارِغًا** إشارة إلى فزعها و أنّها لم تعقل ماذا تصنع بالصَّبي و ذلك لأنّ حفظه من أعين الحرس كان من أصعب الأمور و كان الفزع باقياً لها بعد أن ألقته في اليمّ أيضاً فلمّا أخذوا موسى من الماء و علمت أمّه به صار قلبها فارغاً عن الحزن لأنّها كانت تخاف منه من الغرق في اليمّ فلمّا علمت أنّه لم يغرق خرج الحزن من قلبها و دخل السرُّور فيه و علمت صدق ما وعدها اللّه من الرَّد إليها هذا ما فهمناه من الكلام و قد رأيت في بعض تفاسير العامّة أنّه فسَّر الكلام بما هذا لفظه:

و أصبح أي صار فارغاً من العقل و ذلك حين بلغها أنّه وقع في يد فرعون قد همَّها أمرٌ مثله لا يثبت معه العقل لا سيّما عقل إمرأةٍ خافت على ولدها حتّى طرحته في اليمّ رجاء نجاته من الذّبح هذا مع الوحي إليها أنّ اللّه يردُّه إليها ويجعله رسولاً و مع ذلك فطاش لها و غلب عليها ما يغلب على البشر عند مفاجأة الخطب العظيم ثمّ إستكانت بعد ذلك لموعود اللّه إنتهى كلامه.

أنا أقول ما ذكره بعيد غاية البعد و لا سيما بالنسّبة الى أمّ موسى بعد أن وعدها بقوله: **إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ** فالحقّ أنّ قلبها صار فارغاً من الحزن على موسى بعد أن علمت بأنّه لم يغرق و أخذ من الماء حيّاً لعلمها بأنّ الّذي أنجاه من الغرق قادرٌ على حفظه من شرّ فرعون أيضاً لأنّه مقلّب القلوب و هذا المعنى أليق و أنسب فتعالى اللّه.

و أمّا قوله: **إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَآ أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا** قيل معناه كادت أمّ موسى لتبدي و تظهر بذكر موسى و تقول يا إبناه مثلاً و قيل أن كادت لتبدي بالوحي الّذي أوحاه اليها بأنّه يردّه اليها و يجعله من المرسلين، **لَوْلَآ أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا** فالرّبط على القلب تقويته على الأمر حتّى لا يخرج منه ما لا يجوز، و جواب (لولا) محذوف و تقديره ربطنا على قلبها لأظهرته هكذا قيل في تفسير الكلام.



أقول لا شكّ أنّ، كاد، من أفعال المقاربة و إسمها مستّترٌ تقديره، هي و جملة، تبدي، خبر، كادت، و إن مخفّفة من الثّقيلة، و الإبداء الإظهار يقال بدى يبدوا، إذا ظهر، و جواب لولا، محذوف، و على هذا فالمعنى، أنّ أمّ موسى كادت أي قربت أن تظهر ما في قلبها و لولا أن ربطنا على قلبها لأظهرته أي لأظهرت ما في قلبها لكنّها لم تظهر لتكون من المؤمنين فاللاّم في، لِتكون، للتعليل أي إيمانها كان علّة لعدم إظاهرها ما في قلبها و فيه إشارة الى أنّ حفظ الأسرار من الإيمان و بعبارةٍ أخرى إيمانها دعاها الى عدم إظهارها ما في قلبها و فيه مدحٌ لأمّ موسى و أنّها كانت من المؤمنين و أمّا، أن، في قوله: **أَن رَّبَطْنَا،** فهي مصدريّة و هي مع مدخولها مصدر في محلّ رفع مبتدأ محذوف الخبر أي لولا ربطنا على قلبها حاصل، لأظهرته و محصلّ الكلام في معنى الآية هو أنّ اللّه تعالى لمّا أوحى الى أمّ موسى **وَ لَا تَخَافِي وَ لَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ،** و هذا هو الّذي كان فرعون خائفاً منه و فعل ما فعل من قتل الأولاد و إستحياء النّساء فلو علم حين ألتقط موسى من الماء أنّه هو الّذي أخبروه بأنّ هلاك فرعون على يده، قتله قطعاً و أنمّا لم يقتله لعدم علمه به فلو كانت أمّ موسى أظهرت ما أوحى اللّه اليها و سمع بذلك فرعون لقتله و لكنّ اللّه تعالى ربط على قلبها فلم تظهر ما فيه و كان ذلك سبباً لبقاء موسى و فيه إشارة الى أنّ اللّه إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه فيلقي الى قلب فرعون محبّة موسى و يحفظ على قلب أمّه ما فيه من السّر كلّ ذلك لأنّه تعالى أراد هلاك فرعون و من تبعه على يد موسى و ما شاء اللّه و أراد لا مرَّد له و هو على كلّ شيءٍ قدير.

وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ

لمّا أخذوه من الماء و توسَّلت آسية بفرعون و قالت له لا تقتله الآية و إنصرف فرعون عن قتله و وهبه لآسية حين تستوهبه جعل اللّه تعالى محبّته

في قلب فرعون أيضاً فأحبّه حبّاً شديداً حتّى تبنّاه أي جعله بمنزلة إبنه و طلب له مرضعة ترَّبيه و أقبلت المراضع فلم يقبل ثدي إمرأةٍ أبداً الى أن عجزت آسية و حارت في أمره و بلغ الخبر أمّ موسى أيضاً قيل أنّ أخت موسى دخلت على آسية و رأت أنّ موسى عندها أخذته من الماء و لا يقبل ثدي إمرأةٍ أخبرت أمّها و قالت لها أنّ موسى أخذ من الماء و لا يقبل ثدي إمرأةٍ من المراضع و عند ذلك قالت أمّ موسى لأخته أي لأخت موسى الّتي أخبرتها، قصِّه، أي اتبعي أثره يقال قصَّه يقصَّه قصّاً إذا إتبع أثره و منه القصص لأنّه حديث يتبع بعضه بعضاً يتبع الثّاني للأوّل و الإقتصاص إتباع الجاني في الأخذ بمثل جنايته في النّفس، و قوله: **فَبَصُرَتْ بِهِ** أي رأته و هو لا يتّعدى إلاّ بحرف الجرّ و الرؤّية تتّعدى بنفسها و قوله: **عَنْ جُنُبٍ** أي عن بعدٍ و به قال مجاهد و مثله، أبصرته عن جنابةٍ قال الأعشي:

أتيت حريثاً زائراً عن جنابةٍ فكلّ حريثٍ عن عطائي جاملاً

أي عن بعدٍ و قيل معنى عن جنبٍ عن مكانٍ جنب و هو الجانب لأنّ الجنب صفة وقعت مقام الموصوف لظهور معناه و كان ذلك أحسن و أوجز قاله في التّبيان.

و قيل معنى عن جنبٍ عن شوقٍ إليه و قيل هي لغة جذام يقولون جنبت إليك أي إشتقت، و قيل معناه عن جانبٍ لأنّها كانت تمشي على الشّط و هم لا يشعرون أنّها تقصّ، و قيل لا يشعرون أنّها أخته و قيل لا يشعرون أنّه عدوٌّ لهم، و قرأ الجمهور، جنبٍ، بضّمتين و قرأ زيد بن علّي، جنب، بفتح الجيم و سكون النّون و عن قتادة أنّه قرأ بفتحهما أيضاً و عن الحسن بضّم الجيم و اسكان النّون و قرأ النّعمان بن سالم عن جانب، قال قتادة معنى عن جنب، أنّها تنظر إليه كأنّها لا تريده، و كيف كان فأنّها عرفته حالاً و أدركت أنّه أخوها فتقّدمت حينئذٍ إليهم و هم في حيرةٍ شديدة فقالت لهم ما حكاه اللّه عنها بقوله:

وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ ٱلْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ

أي فقالت أخت موسى لأل فرعون هل أدُلّكم على أهل بيتٍ يكفلونه، أي يكفلون هذا الرّضيع و هم له ناصحون، معناه يضمنونه برضاعه و القيام عليه و ينصحونه في ذلك فقيل لأخته من أين قلت أنّهم ناصحون له أعرفت حاله و أهله فقالت أنّما عنيت ناصحون للملك و كانت أمّ موسى قد وعدها اللّه تعالى أن يرجعه إليها و تقرّ به عينها فإستقبلوا مقالة أخته و وعدوها بالجزاء إن أتت بمرضعةٍ يقبل ثديها فرجعت الفتاة راكضةً نحو أمّها و بشّرتها بحياة أخيها موسى ثمّ أتت بها إليهم و لمّا وقع نظر الأمّ على إبنها كادت أن تصرخ فرحاً و سروراً فربط اللّه على قلبها و ضبطت أعصابها و تناولت ولدها فألقمته ثديها فإلتقمه بكلّ و له و أخذ يمتّصه و فرحت بذلك أسية و فرعون و أكرموها و و عدوها بجزاء حسن فقَّرت بذلك عينها و زالت عنها أحزانها كما حكى اللّه تعالى في كتابه.

فَرَدَدْناهُ إِلىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

هذا ما وعد اللّه به أمّ موسى من قبل و من أصدق من اللّه قيلاً فرَّد اللّه موسى إلى أمّه كي تقُّر عينها برؤيته و لا تحزن بعد ذلك على فقدان ولده و لتعلم أمّ موسى و غيرها أنّ وعد اللّه حقّ لا مرية فيه و لكنّ أكثرهم أي أكثر النّاس لا يعلمون ذلك و التّعبير بأكثر النّاس مع أنّ الكلام في قصّة موسى للإشارة إلى نقطةٍ ينبغي التّوجه إليها لجميع النّاس و هي أنّ وعد النّاس كوعد أمّ موسى فهو حقٌّ بالنّسبة إلى الجميع و لا فرق بين موسى و غيره من هذه الجهة إلاّ أنّ هذه النقطّة خفيت على أكثر النّاس لجهلهم و عدم إيمانهم **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ ٱلشَّكُورُ**.

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ ٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ

أي و لمّا بلغ موسى، أشدَّه، قال قتادة أي ثلاث و ثلاثون سنة، و إستوى، أي بلغ أربعون و قيل إستواءه قوّته.

و قال في المفردات حتّى إذا بلغ أشدّه، أي بلغ أربعين سنة ففيه تنبيهٌ على أنّ الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتّقوى اللّه خلقه الّذي هو عليه فلا يكاد يزايله بعد ذلك إنتهى.

و قال في المجمع قوله تعالى حتّى يبلغ أشدّه، أي قوّته و منتهى شبابه واحدها شدَّ مثل فلس و أفلس قيل هو ما بين ثماني عشر سنة إلى ثلاثين و هو مرّويٌ عن الصّادق عليه السلام و في الحديث إنقطاع يتم اليتيم بالإحتلام و هو أشّده إنتهى.

و قوله: **ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا**، فالحكم النّبوة و العلم ما يحتاج إليه البشر أو علم الأحكام، أو العلم بما كان و ما يكون إلى يوم القيامة و في هذا الكلام إشعار بأنّ علم الأنبياء إفاضيٌ من عند اللّه لا كسبّيٌ و هو كذلك.

و قوله: **وَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ**، معناه مثل ما فعلنا به نجزي أيضاً من فعل الإحسان و فعل الطّاعات و الأفعال الحسنة، نشأ موسى على يد عدُّوه فرعون و كتمت الخبر أمّه و أخته و القابلة و النجّار و لم يعلم بنو إسرائيل ولم يزالوا في طلبه و موعد ظهوره و ربّي موسى في حجر فرعون دون أن يعلم فرعون أنّ هلاكه سيكون على يده و قد عاش في قصر فرعون كائنٍ له و بقى كثيراً من العزّ و الكرامة حتّى بلغ مبلغ الرّجال و كان يدعى موسى بن فرعون كما أنّه كان يركب مراكب فرعون و يلبس ملابسه و قد رفع بمركزه كثيراً من الظُّلم عن بني إسرائيل و كان لبني إسرائيل شيخ عالم يستريحون إلى أحاديثه و عنده بعض العلوم بصفات موسى عليه السلام و قد إجتمعوا معه في بعض اللّيالي و

جعل يحدّثهم الشّيخ الفقيه بحديث موسى و صفاته و أنّه رجلٌ طويل أسمر و عدَّد نعوته و بينما هم كذلك إذ طلع عليهم موسى و هو يومئذٍ حدث السّن راكبٌ بغله فيحاء و كان قد خرج من دار فرعون و صار مروره على القوم و هم يتَّحدثون و لمّا وقف عليهم نظر إليه الشّيخ و شكّ بأنّه رسولهم الموعود لإنطباق النّعوت عليه فقام إليه و قال له ما أسمك يرحمك اللّه، قال موسى، قال إبن من، قال إبن عمران فوثب إليه و أخذ بيده يقبلها و هو يقول الحمد للّه الّذي لم يميتني حتّى أرينك و ثار القوم و أيقنوا أنّه صاحبهم فأخذوا يقبّلون يديه ثمّ خرُّوا للّه ساجدين شكراً و لكن موسى لم يزد على أن قال لهم أرجوا أن يعجّل اللّه فرجكم ثمّ تولى و إنصرف عنهم و رجع إلى محلّه من دار فرعون و كان يركب في موكب فرعون و يخرج معه إذا خرج و بقى على ذلك مدّةً لا يعلمها إلاّ اللّه و النّاس كانوا يزعمون أنّه إبن فرعون لظاهر الأمر.

وَ دَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ

إختلف المفسّرون في المدينة الّتي دخل فيها موسى فقال قوم هي مدينة مصر بنفسها و كان موسى قد بدت منه مجاهرة لفرعون بما يكرهون فإختفى و خاف فدخلها متنكّراً حذراً منفعلاً للنّاس.

و قال إبن زيد كان فرعون قد أخرجه من المدينة فغاب عنها سنين فنسي و جاء و النّاس في غفلةٍ بنسيانهم له و بعد عهدهم به، و قيل كان يوم عيدٍ و هم مشغولون بلهوهم، و قيل خرج من قصر فرعون و دخل مصر و قيل المدينة عين شمس، و قيل قريةٌ على فرسخين من مصر و قيل الأسكندريّة و هكذا و الكلّ لا دليل عليه و لا يهمّنا البحث عنهما.

و أمّا كيفيّة القضيّة أنّه حدث ذات يومٍ أنّ فرعون ركب و خرج معه بعده على أثره و سار وحده إلى أن دخل المدينة فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته و هذا من عدّوه أي كان أحدهما إسرائيليّاً و الأخر قبطيّاً، و قيل كان أحدهما مسلماً و الأخر كافراً، فإستغاثه الذّي من شيعته، أي إستنصره لينصره على عدُّوه، فوكزه موسى عليه السلام أي دفع في صدره و جميع كفَّه، فقضى عليه، أي مات فقال عند ذلك موسى، هذا من عمل الشّيطان، أي من إغوائه و إضلاله أنّه أي الشّيطان عدُّو لبني أدم و مضلٌّ ظاهر لهم هذا تفسير ألفاظ الأية.

إن قلت كيف قتل موسى من لم يؤمر بقتله و لا سيّما عند من يقول في الأنبياء بالعصمة من البدو إلى الختم أي في جميع الأحوال قبل البعثة و بعدها و بعبارةٍ أخرى من إبتداء خلقتهم إلى أخر عمرهم كما تقول به الشّيعة.

قلت الجواب عنه من وجوهٍ:

أحدها: ما نقله الطّبرسي قدس سره في تفسيره لهذه الآية عن السّيد المرتضى رضي الله عنه أنّه قال أراد أن تزيين قتلى له و تركي لما نديت إليه من تأخيره و تقويتي ما إستحقّه عليه من الثّواب من عمل الشّيطان.

ثانيها: ما نقله عنه أيضاً و هو أنّه يريد أنّ عمل المقتول من عمل الشّيطان يبيّن بذلك أنّه مخالف للّه تعالى مستحقّ للقتل.

ثالثها: ما ذكره الفيض قدس سره في الصّافي عن الرّضا عليه السلام حيث سئل عن هذه الآية فقال عليه السلام فقضى عليه أي على العدُّو و بحكم اللّه تعالى ذكره فوكزه فمات.

رابعها: ماذكره بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية و حاصله أنّ ما وقع بينهما من الإقتتال من عمل الشّيطان فأنّه هو الّذي أوقع العداوة و البغضاء بينهما و أغرى على الإقتتال حتّى أدّى ذلك إلى مداخلة موسى و قتل القبطي بيده و ساق الكلام إلى أن قال فعند ذلك تنبّه عليه السلام أنّه أخطأ فيما فعله من الوكز الّذي أورده مورد الهلكة و لا ينسب الوقوع في الخطأ إلى اللّه سبحانه لأنّه لا

يهدي إلاّ إلى الحقّ و الصّواب، فقضى أنّ ذلك منسوب إلى الشّيطان و فعله ذاك و أن لم يكن معصية منه لوقوعه خطأ و كون دفاعه عن الإسرائيلي دفعاً لكافر ظالم لكنّ الشّيطان كما يوقع بوسوسة الإنسان في الإثم و المعصية كذلك يوقعه في أيّ مخالفة للصّواب يقع بها في الكلفة و المشقّة كما أوقع أدم و زوجه فيما أوقع من أكل الشَّجرة المنّهية فقول هذا من عمل الشّيطان إنزجار منه عمّا وقع من الإقتتال المؤدّي إلى قتل القبطي و وقوعه في الخطر إنتهى.

أقول هذا ما ذكروه في تفسير الآية و قد أطالوا الكلام حول الآية بما لا فائدة في نقلها و من أراد الوقوف على أقوالهم فعليه بمراجعة التّفاسير والّذي يختلج بالبال في حلّ الإشكال هو أنّ موسىعليه‌السلام لم يرد قتل القبطي بل أراد دفع شرَّه عن المسلم فوكزه أي دفع في صدره بجميع كفَّه فمات فقوله: **فَقَضٰى عَلَيْهِ** أي قضى اللّه عليه بالموت لا أنّ موسى قضى عليه بالموت إذ لو كان كذلك لقال فوكزه موسى فقتله و حيث لم يقل ذلك علمنا أنّ موسى لم يكن قاتله واقعاً نعم كان وكزه إيّاه سبباً له و هذا ليس من الذّنب بل يحتمل أن يكون قصده منع القبطي عن قتل الشّيعي و هو أمر مرغوبٌ فيه إلاّ أنّه وقع ما وقع و قوله: **هٰذٰا مِنْ عَمَلِ اَلشَّيْطٰانِ** يعني الإقتتال من عمل الشّيطان لا ما فعله موسىعليه‌السلام و لا يبعد أن يكون الضّمير في، قضى، عائد علىٰ موسى كما يقتضيه ظاهر الكلام و على هذا فالمعنى فوكزه موسى فقضى عليه أي حكم على القبطي له و لذلك وكزه و هو مشعر بكون القبطي مقصِّراً في عمله قاصداً قتل لا شّيعي من غير جرم.

و حاصل الكلام أنّه لاّ يستفاد من الآية أنّ موسىعليه‌السلام إرتكب ذنباً ينا في العصمة و نهاية الكلام أنّه من قبيل ترك الأولى كما نقول به في جدّه أدم و هذا القدر من الذّنب لا ينافي العصمة فأنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين و فى خاتمة البحث نذكر حديثاً رواه الصّدوققدس‌سره في العيون عن مولانا الرّضا فى تفسير هذه الآية الشّريفة.

روى بأسناده عن علّي بن محمّد بن الجهم قال حضرت مجلس المأمـون و عـنده الرّضـا عليه السلام فـقال له المأمـون يـا بـن رسـول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أليس من قولك أنّ الأنبياء معصومون قال عليه السلام: بلى قال فأخبرني عن قول اللّه عزّ وجّل: فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ. قال هذا من عمل الشّيطان فقال الرّضا عليه السلام: أنّ موسى عليه السلام دخل مدينةً من مدائن فرعون على حين غفلة من أهلها و ذلك بين المغرب و العشاء فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته و هذا من عدوّه فأستغاثه الّذي من شيعته على من عدّوه فقضىٰ عليه السلام على العـدوّ بحكم اللّه تعالى ذكره فوكزه فمات قال هذا من عمل الشّيطان يعني الإقتتال الّذي وقع بين الرّجل لا ما فعله موسى من قتله أنّه يعني الشّيطان عدّو مضلٌّ مبين قال المأمون فما معنى قول موسى ربِّ إنّي ظلمت نفسي فأغفر لي قـال عليه السلام يـقول وضـعت نـفسي غـير موضعها بدخول هذه المدينة، فأغفر لي، أي إسترني من أعداءك لئّلا يظفروا بي فيقتلوني فغفر له أنّـه هـو الغـفور الرّحـيم إنـتهى موضع الحاجة من كلامه عليه السلام و أنت ترىٰ أنّ ما ذكره الرّضا عليه السلام في تفسير الآية موافق للعقل و النّقل فليس فيه إشكال حتّى نحتاج الى الجواب عنه و ذلك لأنّه فسّر قوله فقضى عليه، بقوله فقضى عليه بحكم اللّه لا أنّه قتله فهذا من قبيل من أقيم عليه الحدّ فمات فأنّ إقامة الحدّ واجبٌ مات أو لا نعم إذا أراد فجرى الحدّ قتله فأجرى الحدّ بقصد القتل فهو مذنبٌ عاص و ما نحن فيه ليس من هذا القبيل لأنّ موسى لم يرد قتله بل من قبيل الأوّل و هو إجراء حكم اللّه في حقّه و أمّا أنّه مات فم ا ذنب موسى فيه، و على هذا فلا إشكال في الآية صدق ولّي اللّه و لأجل هذا قال الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم أنّي تارك فيكم

الثّقلين كتاب اللّه و عترتي الحديث هذا تمام الكلام في تفسير الآية و اللّه أعلم.

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

قد ظهر معنى هذه الآية من الحديث المروّي عن الرّضا عليه‌السلام لمّا سأله المأمون عن قول موسى **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي** و قول الرّضا في الجواب أي وضعت نفسي غير موضعها بدخول هذه المدينة، فأغفر لي أي إسترني من أعداءك، و أن أردت توضيح ذلك فنقول، الظّلم ثلاثة:

ظلمٌ على النّفس، ظلم على الغير و ظلم على اللّه، و الظلم على اللّه هو الشّرك به كما قال تعالى حكايةٍ عن لقمان: **يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**(١) و هذا ممّا لا كلام فيه فعلاً لخروجه عن مورد البحث إذ لم يقل أحد أنّ موسى أشرك باللّه و أنّما الأمر يدور بين الظّلم على النّفس و الظّلم على الغير لا سبيل الى الثّاني لأنّ موسى لم يظلم على القبطي بل قضى عليه بحكم اللّه و هو عين العدل كما يستفاد من الحديث و لو كان ظالماً على غيره، لقال ربّ أنّي ظلمت غيري، و حيث لم يقل ذلك فلم يكن ظالماً على الغير فبقى في المقام قسمٌ واحد و هو الظُّلم على النّفس و هو تارةً يتحقّق بالذّنب و العصيان كترك الواجب مثلاً و تارةً يتحقّق بترك الأولى فالأوّل يوجد في غير المعصوم و الثّاني في المعصوم بل نقول ترك الأولى لا يعدّ في غير المعصوم من الذَّنب حتّى يحتاج الى المغفرة و أمّا في المعصوم فأنّه يعدّ من الذّنب لأنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين و لأجل ذلك فسَّر الإمام قوله فأغفر لي، بقوله إسترني، و فيه إيماء الى أنّي لم أذنب شيئاً يحتاج الى مغفرة اللّه بل كان ذنبي و خطأي دخولي المدينة و أرجوا من اللّه أن يستره من أعداءه و حاصل الكلام

١- لقمان = ١٣

بعد اللّتيا و الّتي أنّ الغفران في الآية ليس من الغفران عن الذّنب بل هو بـمعناه اللّغوي و هو السَّتر فظهر و تحقّق ممّا ذكرناه أنّ الأيتين لا إشكال فيها و لا تنافيان العصمة حتّى نحتاج الى الجواب نعم لو حملناهما على ظواهر ألفاظهما فالإشكال ثابت فيهما و اللّه أعلم.

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ

قيل معناه، أنعمت علَّي فلن أكون ظهيراً للمجرمين فهو مشبهٌ بجواب الجزاء و لذلك دخلت الفاء في الجواب و إذا وقع الأنعام قيل لما أنعمت فلن أكون لأنّها في كلا الموضعين تدلّ على أنّ الثّاني وقع لأجل الأوّل و يحتمل أن يكون ذلك قسماً من موسى بنعم اللّه عليه بمغفرته و فنون نعمه بأن لا يكون معيناً على خطيئة و لا يكون ظهيراً و الظّهير المعين لغيره بما به يصير كالظّهير له الّذي يحميه من عدّوه هذا ما ذكره في التّبيان في تفسير الآية و قال بعضهم الباء في، بما، للقسم و التّقدير أقسم بما أنعمت علّي من المغفرة و الجواب محذوف أي لا توبتهنّ فلن أكون، أو متعلقّة بمحذوف تقديره إعصمني بحقّ ما أنعمت علَّى من المغفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين، و قيل فلن أكون، دعاء لا خبر و، لن، بمعنى، لا، في الدُّعاء، و المظاهرة أمّا بصحبته لفرعون و إنتظامه في جملته و تكثير سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد و كان يسمّى إبن فرعون، و أمّا أنّه أدَّت المظاهرة الى القتل الّذي جرىٰ على يده، و قيل بما أنعمت علَّى بالنبوّة فلن أستعملها إلاّ في مظاهرة أولياءك و لا أدع قبطيّاً يغلب إسرائيلياً.

و قال الطّبري في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه و قوله: **قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ** يقول تعالى ذكره قال موسى ربَّ بإنعامك علّي بعفوك عن قتل هذه النّفس فلن أكون ظهيراً للمجرمين يعني المشركين كأنّه أقسم بذلك و قد ذكر أنّ ذلك في قراءة عبد اللّه فلا تجعلني ظهيراً للمجرمين كأنّه على هذه

القراءة دعا ربّه فقال اللّهم لَن أكُون ظهيراً ولم يَستثن عليه السّلام حين قال فَلن أكُون ظهيراً للمجرمين فإبتلىٰ، إنتهىٰ موضع الحاجة من كلامه إذا عرفت هذا فنقول ما ذكروه في معنى الآية أنّما إخترعوه من عند أنفسهم بناءً على ما ذهبوا اليه من أنّ موسى إرتكب ذنباً بقتله القبطي ثمّ ندم و طلب من اللّه المغفرة فغفر اللّه له فقال ربِّ بإنعامك علَّى بعفوك عن قتل هذه النّفس الخ.

و أمّا على مذهب الحقّ فلم يأت موسى بالذّنب حتّى يحتاج الى المغفرة بل المراد بها هو السَّتر عليه كما مرّ الكلام فيه و على هذا فما ذكره الطّبري و تبعه من تأخّر عنه لا يستقيم أصلاً فالحقّ أنّ المراد بالإنعام في الآية هو ما أنعم اللّه على موسى من حين ولادته فجعل محبَّته في قلب القابلة أوّلاً و حفظه من الحرس الّذين تفحصُّوا الدّار في جميع جوانبها ليجدوه و يقتلوه و لم يجدوا شيئاً لأنّ موسى كان في التّنور و قد جعل اللّه تعالى عليه النّار برداً و سلاماً.

ثانياً: ثمّ أنجاه اللّه تعالى عن الغرق في اليمّ.

ثالثاً: و أخذ أل فرعون إيّاه من الملاء سالماً و إلقاء محبّة في قلب آسية و فرعون.

رابعاً: و تحريمه المراضع عليه حتّى أرضعته أمّه على ما مرَّ الكلام فيه.

خامساً: و غيرها ممّا لم نذكره مخافة الإطناب فهذه النِّعم هي الّتي أشار موسى إليها بقوله:، **رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ**، لا ما ذكره الطّبري و أمثاله.

و قوله: **فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ**، فالفاء للتّفريع و كلمة، لن، لنفي الأبد أي إذا كان الأمر على هذا المنوال فالشّكر على هذه النّعم يقتضي أن لا أكون ظهيراً أي معيناً و ناصراً للمجرمين أبداً و ذلك لأنكّ خلقتني و حفظتني من فرعون و أتباعه لإقامة العدل في عبادك لا لاقامة الجور و محصّل الكلام أنّ الشّكر على النّعمة أوجب عليّ أن لا أكون ظهيراً للمجرمين هذا ما خطر ببالي في معنى الآية و اللّه أعلم بما أراد.

فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ

معناه أنّ موسى أصبح في المدينة التّي قتل فيها القبطي و هو من أعوان فرعون، **خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ**، أي أصبح و هو خائف من فرعون و قوله: **يَتَرَقَّبُ** أي كان ينتظر الأخبار، فإذا الّذي إستنصره بالأمس يستصرخه، إذ للمفاجأة، يعني اليوم الّذي قبل يوم الإستصراخ و هو اليوم الّذي قتل فيه القبطي و المعنى فإذا الّذي إستنصره بالأمس يعني الإسرائيلي يستصرخه اليوم أيضاً و يطلب منه النُّصرة كما طلب بها بالأمس.

فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّآ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَ مَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ

قال الرّاغب في المفردات، البطش تناول الشّئ بصولةٍ إنتهى.

أي فلمّا أراد موسى أن يبطش بالّذي، أي بالرّجل الّذي هو عدُّو لهما أي لموسى و الإسراييلي قال الرّجل العدُّو يا موسى أتريد أن تقتلني اليوم كما قتلت نفساً، و هو القبطي، بالأمس، إن تريد، إن نافية أي لا تريد إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض و ما تريد أن تكون من المصلحين في الأرض و **الجبّار** بفتح الجيم و الباء المشدّدة يقال للقاهر غيره بالعلُو و هو في الإنسان من صفات الذّم.

إعلم أنّهم إختلفوا في مرجع الضّمير في، وله، و الخطاب في، إنّك، فقال قوم الضّمير في قوله: **قَالَ لَهُ**، والخطاب للقبطي أي قال موسى بعد أن إستصرخه الإسرائيلي، للقبطي أنّك لغويّ مبين و دلَّ عليه قوله: **يَسْتَصْرِخُهُ** و لم يفهم الإسرائيلي أنّ الخطاب في، إنّك، للقبطي فلمّا أراد أن يبطش الظّاهر أنّ الضّمير في، أراد، و يبطش، هو لموسى أي لمّا أراد موسى أن يبطش بالّذي هو عدوٌّ لهما أي للمستصرخ و موسى و هو القبطي يوهم الإسرّائيلي أنّ قوله:

إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ، هو على سبيل إرادة السُّوء و ظنّ أنّه يسطو عليه قال أي الإسرائيّلي يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس دفعاً ظنَّه من سطو موسى عليه و كان تعيين القاتل القبطية قد خفي على النّاس فإنتشر في المدينة أنّ قاتل القبطي هو موسى ففى ذلك إلى فرعون فأمر بقتل موسى، و قال الأخرون في، أراد، و يبطش، للإسرائيّلي و قيل الضّمير في، له، عائد على المستصرخ و الخطاب أيضاً و هو الّذي إخترناه في تفسير ألفاظ الآية أي قال موسى للمستصرخ و هو الإسرائيّلي **إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ،** لكونك كنت سبّباً في قتل القبطي بالأمس و لذلك وصفه بالغواية و التعدّي عن الحقّ و يظهر من أخبار أهل البيت ذلك قال الرّضا عليه السلام فأصبح موسى في المدينة خائفاً يترقّب فإذا الّذي إستنصره بالأمس يستصرخه، قال له موسى إنّك لغويٌّ مبين، قاتلت رجلاً بالأمس و تقاتل هذا اليوم لأدبنّك و أراد أن يبطش به **فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا** و هو من شعيته قال يا موسىٰ أتريد أن تقتلني إلى أخر الآية قال المأمون جزاك اللّه عن أنبيائه خيراً يا أبا الحسن إنتهى.

وَجَآءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ

إختلفوا في إسم الرّجل فقال بعضهم إسمه جبريل بن شمعون، و قال الضّحاك شمعون بن إسحاق، و قيل إسمه حزقيل و هو المعتمد، لمّا خاف موسى على نفسه بسبب موت القبطي و إنتشر الخبر في المدينة بأنّ إسرائيّلياً قتل قبطيّاً هاجت النّاس و أخبروا فرعون فأمرهم بطلب القاتل و هم لا يعرفونه و توارى موسى و سمع بذلك رجل إسمه حزقيل كان قد أمن سرّاً و كان من خواصّ فرعون فوثب من ساعته يفتّش حتّى وجد موسى و أخبره بالخبر و أنّ الملاء يأتمرون بك أي يأمر بعضهم بعضاً بقتلك فأخرج، من المدينة، **إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ،** فلمّا قال ذلك لموسى خرج منها كما قال تعالى:

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ

أي فخرج من المدينة حال كونه خائفاً من فرعون و أتباعه، **يَتَرَقَّبُ**، أي يطلب ما يكون و يتوقّعه، و الترقُّب طلب ما يكون من المعنى على حفظه للعمل عليه.

و قال قتادة خرج منها خائفاً من قتله النّفس يترقّب الطّلب و قيل خرج منها بغير زاد و كان لا يأكل إلاّ حشاش الصّحراء و قال أي قال موسى ربِّ نجنّي و خلّصني من القوم الظّالمين و هم فرعون و أعوانه و أنصاره و جعل يسير ليله و هو لا يعرف الطّريق فوَّجهه اللّه تعالى نحو مدين و لمّا إنتهى إلى أرض مدين و هو في غاية الضّعف و التَّعب نزل تحت شجرةٍ قرب باب المدينة بجوار بئرٍ حوله أمّةٌ من النّاس يسقون أغنامهم و مواشيهم كما قال تعالىٰ:

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ

و كان موسى جالساً هناك و إذا فتاتان ضعيفتان بحيال الجموع و هما تذودان غنمهما من الدَّلو نحو البئر كما قال اللّه تعالى:

وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَ أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ

أي وجد موسى من دونهم أي من دون النّاس، إمرأتين تذودان، أي تحبسان غنمهما و تمنعانها من الورود إلى الماء، قال، موسى، لهما ما خطبكما، أي ما شأنكما، فأجابتاه لا نسقي غنمنا، حتّى يصدر الرّعاع، أي حتّى ينصرف الرّعاع، الرّعاع جمع راع أي راعي أي راعي الغنم و أبونا شيخٌ كبيرٌ لا يقدر على ذلك بنفسه، و كانت المرأتان بنتي شعيب النّبي فرحمهما موسى و كان هناك بئرٌ غير التّي يستسقي منه الرّعاع على رأسها صخرةٌ كبيرة لا

يرفعها إلاّ رجال فتقدّم إليها و رفعها عن البئر وحده ثمّ أخذ دلواً لهما فسقى أغنامهما و رجعتا سريعاً إلى أبيهما قبل النّاس و توّلى موسى إلى ظِّل شجرة و لمّا رجعت البنتان سريعاً تعَّجب أبوهما و قال لهما ما كان أعجلكما قالتا وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا و سقى لنا أغنامنا و وصفتا له قوّته بحمل الحجر الثّقيل و إلى هذا أشار اللّه بقوله:

فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنْزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ

ما، في، لما، بمعنى الّذي و اللاّم بمعنى، إلى، و المعنى إنّي لما أنزلت إلَّي من خيرٍ فقيرٍ و تقديره إنّي فقير لما أنزلت إلَّي من خيرٍ.

قال إبن عبّاس أدرك موسى جزعٌ شديد فقال ربِّ إنّي لما أنزلت إلَّي من خيرٍ فقيرٍ، فقال شعيب للكبيرة و هي صُفراء (صَفوراء) التّي تزَّوج بها موسى بعد ذلك إذهبي فأدعيه لنكرمه و نجزيه كما قال تعالى: **فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ.**

فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا، و هي صفوراء جائت إلى موسى، تمشي على إستحياءٍ، أي مستترة بكّم درعها أو قميصها.

فقالت له، أي لموسى، إنّ أبي يدعوك ليجزيك، أي يكافئك على ما سقيت لنا قيل أنّ موسى كره و أراد أن لا يذهب و لكنّه لم يجد بدّاً من الذّهاب فقام و تبعها، و جعلت صفوراء تمشي أمامه و كانت الرّيح تضرب ثوبها و تلصقه بجسمها فقال موسى لها إمشي خلفي و دلّيني على الطّريق، فتأخّرت خلفه و هي تصف له الطّريق حتّى إنتهيا إلى منزل أبيها و لمّا دخل البيت و سلَّم على شعيب وجد عنده طعاماً فقال له شعيب إجلس و كل قال موسى

أعوذ باللّه قال شعيب و لم ألست بجائع قال موسى بلى و لكن أخاف أن يكون هذا ثمناً لما سقيت لهما و إنّا من بيت لا نبيع شيئاً من عمل الأخرة بملأ الأرض ذهباً قال شعيب هذه عادتي و عادة أبائي أن نقري الضّيف و نطعم الطّعام فجلس موسى يأكل فأنس و إرتاح ثمّ حكى لشعيب قصّته و ما جرى له مع فرعون فقال لا تخف نجوت من القوم الظّالمين.

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَآ أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ

أي قالت إحدى البنتين لشعيب النّبي و هي صفوراء الّتي ذهبت إلى موسى ودعته إلى البلد قالت لأبيها يا أبت، إستأجره أي إجعله أجيراً إنّ خير من إستأجرت القوّي الأمين، قد عرفت قوّته بأنّه سقى الماشية بدلوٍ واحد و عرفت أمانته بغضّ طرفه و أمره إيّاها بأن تمشي خلفه و لذلك لمّا سألها شعيب قد عرفت قوّته من رفع الحجر فمن عرَّفك أمانته فحكت له قصّة مشيها في الطّريق و تعّففه من النّظر اليها فتّعجب شعيب و قال لموسى كما قال تعالى:

قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ

أي قال شعيب لموسى أنّي أريد أن أنكحك إحدى إبنتي هاتين، ولم يعًين شعيب كأنّه خيَّره بينهما، على أن تأجرني ثماني حجّج، أي على أن تجعل أجري على تزويجي إيّاك إبنتي رعي ماشيتي ثماني سنين لأنّه جعل صداق إبنته هذا الّذي عقد عليه.

و قوله: **فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً**، معناه أنّه جعل الزّيادة على المدّة إليه الخيار فيها فلذلك قال فأن أتممت عشراً فمن عندك، أي لك الخيار فيه، ثمّ قال شعيب، **وَ مَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ**، بأن أزمك عشر سنين ستجدني فيما بعد

إن شاء اللّه من الصّالحين، الّذي يفعلون الخيرات فتّزوج موسى أكبرهما و هو صفوراء ثمّ وعده شعيب أن يعطيه نتاج غنمه كلّ درعاء أي أسود الرّأس أبتغي الجسد و قيل جعل لموسى كلّ صخلة تولد على خلاف شبه أمّها فولدت حملان شعيب في تلك السَّنة كلّها درعاء بأذن اللّه و صارت المواليد كلّها لموسى و قيل أنّ اللّه تعالى أوصى موسى أن ألق عصاك في الماء فولدت كلّهن خلاف شبههنّ و من المعلوم أنّ اللّه على كلّ شئٍ قدير.

قَالَ ذٰلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوٰانَ عَلَيَّ وَ ٱللّٰهُ عَلٰى مٰا نَقُولُ وَكِيلٌ

أي قال موسى في جواب شعيب ذلك، أي ذلك الشّرط بيني و بينك أيّما الأجلين، و هما ثماني حجّج أو عشراً، قضيت فلا عدوان علّي أي لا تعدّي علّي لأنّي مخيّراً فيهما، و اللّه على ما نقول وكيل أي كافٍ و حسيب و قيل شعيب فلمّا موسى الشّرط و أكمل خدمته لشعيب أمره اللّه تعالى بعوده إلى مصر كما قال:

فَلَمّٰا قَضٰى مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَ سٰارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جٰانِبِ ٱلطُّورِ نٰاراً قٰالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نٰاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهٰا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ ٱلنّٰارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ

أي فلمّا قضى موسى الأجل و أكمل خدمته لشعيب و قد صار له غنماً كثيراً إشتاق إلى أمّه و أخوانه فقال له شعيب ما وضعت أغنامي هذه السَّنة من غنم بلق فهو لك فبقي موسى فلم تصنع تلك الأغنام إلاّ حملاناً بلقاناً فإستكملها موسى و همَّ بالرّجوع إلى مصر ليخرج أخاه منها فزّوده شعيب عصا من بين عدّة عصّي كانت عنده ثمّ خرج موسى و سار بأهله و كانت زوجته حبلى فجعل يسير في البراري و هو لا يعرف طريقاً فقاده السَّير إلى

جانب الطُّور الأيمن في عشيّةٍ ممطرةٍ فبينما هو حائرٌ في أمره إذ أخذ إمرأته الطلق فأزاداد إضطراباً و فجأةً ظهر له نور فحسبه ناراً فقال لأهله أمكثوا إنّي أنست ناراً، أي رأيتها و أبصرتها فأمضي نحوها لعلّي أتيكم منها بخبرٍ، يعرف منه الطّريق و أنّما قال ذلك لأنّه كان قد ضلَّ عن الطّريق، أو جذّوةٍ من النّار، أي قطعةٍ من الحطب غليظة فيها النّار و قيل الجذوة الشُّعلة منها لكي تصطلوا بها، قيل أنّهما كانا وجدا البرد فذلك قال ما قال أي تتسخّنوا بها إذ كانت ليلة باردة.

فَلَمَّآ أَتَيٰهَا نُودِىَ مِنْ شَاطِئِ ٱلْوَادِى ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ

كلمة، من، في من شاطئ لإبتداء الغاية و من الشّجرة كذلك إذ هي بدل من الأولى أي من قبل الشَّجرة و الأيمن صفة للشّاطئ أو للوادي على معنى اليمن و البركة و المراد بالأيمن هو أيمن موسى في إستقباله حتّى يهبط الوادي أو بعكس ذلك بضّم الباء على الأشهر و قيل بفتحها أيضاً و وصفت بالبركة لما خصّت به من أيات اللّه و أنواره و تكليمه لموسى أو لما حوت من الأرزاق و الثّمار الطَّيبة و أن، في قوله أن ياموسى يحتمل أن تكون حرف تفسيرٍ و أن تكون مخفّفة من الثّقيلة، و معنى الآية أنّ موسى لما أتها أي أتى النّار التّي كان رأها من بعيدٍ نودي من جانب شاطئ الواد الأيمن و هو الشّط و يجمع شواطئ و شطأناً، من البقعة المباركة، وصفها بالمباركة، لأنّه كلَّم اللّه فيها موسى، من الشَّجرة، أي من ناحية الشَّجرة لأنّ اللّه تعالى أوجد الكلام فيها لا أنّه تعالى كان في الشَّجرة لتنّزهه عن المكان و الحلول في الجسم، أن يا موسى، أى ناداه بأن قال له ياموسى إنّي أنا اللّه ربّ العالمين، و جاء في سورة، طٰه: **إِنِّىٓ أَنَا رَبُّكَ**[١]، و في سورة النّمل: **نُودِىَ أَنْۢ بُورِكَ مَنْ فِى ٱلنَّارِ**[٢] و هنا نودي من شاطئ، و لا

١- طه = ١٢
٢- النمل = ٦

منافاة إذ حكى في كلّ سورةٍ بعض ما إشتمل عليه ذلك النّداء و الذّي يظهر من الأخبار أنّ موسى أقبل نحو النّار يقتبس فإذا شجرة و نار تلتهب عليها فلمّا ذهب نحو النّار يقتبس منها أهوت ففزع وعداً و رجعت النّار إلى الشَّجرة فألتفت إليها و قد رجعت إلى الشّجرة فرجع الثّانية ليقتبس فأهوت إليه فعدا و تركها ثمّ إلتفت و قد رجعت إلى الشَّجرة فرجع إليها الثّالثة فأهوت إليه فعدا و لم يعقبل أي لم يرجع فناداه اللّه عزّ و جلّ أن ياموسى أنّي أنا اللّه ربّ العالمين.

وَ أَنْ أَلْقِ عَصٰاكَ فَلَمّٰا رَ اٰهٰا تَهْتَزُّ كَأَنَّهٰا جٰآنٌّ وَلّٰىٰ مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَقِّبْ يٰا مُوسٰىٓ أَقْبِلْ وَ لٰا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْاٰمِنِينَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه لمّا قال لموسى أنّي أنا اللّه ربّ العالمين، أمره أيضاً أن يلقي عصاه، و إلقاؤها طرحها من يده إلى الأرض فلمّا طرحها إنقلبت بأذن اللّه ثعباناً عظيماً، تهتَّز كأنّها جانّ في سرعة حركته و شدّة إهتزازه فعلم موسى أنّ الّذي سمعه من الكلام كان صادراً من اللّه حقّاً و أنّ اللّه هو المتّكلم له و قوله: **وَلّٰىٰ مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَقِّبْ**، أي لم يرجع و ذلك أنّه خاف بطبعه البشّرية و تأخّر عنها و لم يقف فقال عزّ وجلّ أقبل و لاتخف أنّك من الأمنين، من ضررها فتناولها بيده فإذا هي عصا كما كانت أوّلاً.



ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضٰآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَ ٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنٰاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذٰانِكَ بُرْهٰانٰانِ مِنْ رَبِّكَ إِلِى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِۦٓ إِنَّهُمْ كٰانُوا قَوْمًا فٰاسِقِينَ

ثمّ أمره اللّه تعالى أن يسلك يده في جيبه أي بأن يدخلها فيه و كانت سمرة شديدة السَّمرة فلمّا أخرجها خرجت بيضاء نقيّة و قوله و أضمم جناحك من الرَّهب.

قال صاحب الكشّاف له معنيان أحدهما أنّ موسى لمّا قلّب اللّه العصا حيّة فزع و إضطرب فألقاها بيده كما يفعل الخائف من الشّئ فقيل له أنّ إلقاؤك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء فإذا ألقيتها فكما تنقّلب حيّة فأدخل يدك تحت عضدك مكان إتّقائك بها ثمّ أخرجها بيضاء ليحصل الأمران إجتناب ماهو غضاضة عليك و إظهار معجزةٍ أخرى و المراد بالجناح اليد لأنّ يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطّائر و إذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضمَّ جناحه إليه.

والوجه الثّانى: أن يراد بضَّم جناحه إليه تجَّلده و ضبطه نفسه و تشّدده عند إنقلاب العصا حيّة حتّى لا يضطرب و لا يرهب إستعاره من فعل الطّائر لأنّه إذا خوِّف نشر جناحيه و أرخاهما و إلاّ فجناحاه مضمومتان إليه و ساق الكلام إلى أن قال و معنى و أضمم إليك جناحك، و قوله: **ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ** على أحد التّفسيرين واحد و لكن خُولف بين العبارتين و أنّما كرّر المعنى الواحد لإختلاف الغرضين و ذلك أنّ الغرض في أحدهما خروج اليد البيضاء و في الثّاني إخفاء الرّهب و الخوف إلى أخر ما قال.

و قال بعض المفسّرين و قوله: **ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ** المراد بسلوكه إدخاله فيه و المراد بالسُّوء على ما قيل، البرص، و الظّاهر أنّ في هذا التّقييد تعريضاً للتّوراة الحاضرة في هذا الموضع من القصّة ثمّ قال له لارَّب أيضاً أدخل يدك في جيبك فأدخل يده في عبّه ثمّ أخرجها و إذا يده برصاء مثل الثّلج.

و قوله: **وَ ٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ** إلى أخر الأية، **الرَّهب** بالفتح فالسّكون و بفتحتين، و بالضَّم فالسّكون الخوف، و الجناح قيل المراد به اليد و قيل العضد، قيل المراد بضَّم الجناح إليه من الرَّهب أن يجمع يديه على صدره إذا عرضه الخوف عند مشاهدة إنقلاب العصا حيّة ليذهب ما في قلبه من الخوف.

و قيل أنّه لمّا ألقى العصا و صارت حيّة بسط يديه كالمتّقي و هما جناحاه فقيل له أضمم إليك جناحك أي لا تبسط يديك خوف الحيّة فأنّك أمن من ضررها إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و أن أقول ما ذكروه في تفسير الآية لا بأس به إلاّ أنّ الآية لا تحاج إلى هذه التكلّفات، أمّا قوله: **ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ** أي أدخلها في جيبك تخرج أي تخرج اليد البيضاء، فهو إحدى معجزاته و يعبّر عنها باليد البيضاء و هذا ظاهر لا كلام فيه.

و أمّا قوله: **وَ ٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ** فهو معجزة أخرى له وذلك لأنّ موسى عليه السلام رهب أي حاف من الحيَّة فأمره اللّه تعالى أن يضُّم إليه جناحه ليذهب عنه الفزع و أنّما قال من الرَّهب لأنّه جعل الرَّهب الذّي أصابه علّةً و سبباً لما أمر به من ضَّم الجناح و لذلك قيل كلّ من فزع من شئٍ فضَّم جناحه إليه ذهب عنه الفزع و الحقّ أنّ حقيقة ضمّ الجناح غير مرادةً في الآية بل هو مجاز عن تسكين الرَّوع و تثبيت الجأش و إن شئت قلت المراد بضّم الجناح هو العزم و الجدّ في الايمان و التَّسلط على الأعصاب عند الفزع كما قيل، أشدد حيازيمك للموت فأنّ الموت لاقيك أي لا تفزع منه و محصّل الكلام أنّ ضمّ الجناح كناية عن الإستقامة و العزم الرّاسخ و اللّه أعلم.

و أمّا قوله: **فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ**، معناه أنّ الأمرين المذكورين دليلان و برهان على صحّة دعواك و أنّك مبعوث من اللّه تعالى إلى فرعون و من تبعه ثمّ حكم بأنّهم كانوا قوماً فاسقين، و هو كذلك و أيّ فسقٍ أعظم من الشّرك و إدّعاء الألوهيّة و قتل الأولاد و سبي الرّجال و إستحياء النّساء من غير جرمٍ ألا لعنة اللّه على القوم الظّالمين.

قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ

أشار موسى بذلك إلى قصّة القبطي حيث وكزه موسى فمات فخرج منها خائفاً يتّرقب و أنّما قال ذلك بعد ما أمره اللّه بالذّهاب إلى فرعون و ملاءه و

إرشاده إلى توحيد اللّه ثمّ جاء الوحي مؤكّداً أمر ربّه ياموسى إنطلق برسالتي و أنت بعيني و سمعي و معك قوّتي و نصرتي فعزم موسى على إطاعة أمر ربّه و تنفيذه و المضّي إلى فرعون و لكنّه رجع إلى زوجته فوجدها قد ولدت إبناً و إنتظر حتّى طلع النّهار و إذا برجلٍ من أهل مدين أميناً موّثقاً فأرجع زوجته إلى أهلها ليتّفرغ إلى أمر ربّه و تبليغ رسالته ثمّ رجع إلى مناجاة ربّه فقال:

وَ أَخِي هٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسٰانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّىٓ أَخٰافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ

قيل أنّ موسى كان في لسانه عقدة ولم يكن كذلك هارون فسأل اللّه أن يرسل هارون معه ليكون ردءاً، أي عوناً له، و الرّدء العون الّذي يدفع السُّوء عن صاحبه.

و قوله: **يُصَدِّقُنِيٓ**، فمن جزعه جعله جواباً للأمر و من رفعه جعله صفة للنّكرة و تقديره ردءاً مصدّقاً، إنّي أخاف أن يكذّبون، في إدّعاء النّبوة و الرّسالة كما هو شأن أكثر النّاس بالنّسبة إلى الأنبياء قال موسى ذلك و نزل عن الطُّور و سار إلى مصر ألهم اللّه تعالى أخاه هارون فخرج صباحاً إلى شاطئ النّيل و أقبل موسى فتلاقيا معاً و تعانقا طويلاً و غمرهما فرحٌ عظيم ثمّ مضى موسى و أخوه إلى أمّهما فأسعدها بمجيئه و أخبر أخاه برسالة ربّه و عرّفه أنّ اللّه جعله وزيراً له و نبيّاً معه فقال هارون سمعاً و طاعةً و إلى هذا أشار اللّه تعالى بقوله حيث قال:

قٰالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمٰا سُلْطٰانًا فَلاٰ يَصِلُونَ إِلَيْكُمٰا بِاٰيٰاتِنآ أَنْتُمٰا وَ مَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغٰالِبُونَ

و المعنى سنقّويك بأخيك هارون بأن نقرنه إليك بالرّسالة لتقّوي بعضكما ببعضٍ و نجعل لكما سلطاناً أي حجّةً و قوّةً على الأعداء و هي التّي كانت لهما

بالعصا و اليد البيضاء و السُّلطان الحجّة الظّاهرة على الخصم، فلا يصلون، أي فرعون و ملاءه إليكما، أي لا يتّمكنون من قتلكما و لا يسلّطون عليكما و لا يقدرون على أذاكما بأياتنا، أي ببراهيننا فأنّ أنتما و من إتَّبعكما من المؤمنين من بني إسرائيل و غيرهم، الغالبون، لفرعون وعدهما اللّه في هذه الآية بالنّصر و الغلبة على فرعون و من تبعه و لذلك عزما على الذّهاب إلى فرعون فخرج موسى و هارون في اليوم الثّاني حتّى دخلاً غيطة فرعون التّي ملأها سباعاً ضارية فلم تتّعرض لهما فأنتهيا إلى الباب الأعظم و كان أقربها إلى فرعون في منزله الخاصّ فوقفا على الباب يلتمسان وسيلة الدّخول فرأهما بعض الحرس فزجرهما و قال لهما أتدريان لمن هذا الباب فقال موسى نعم أنّ الباب و الأرض و ما فيها لربّ العالمين فدهش الحارس من سماع ذلك الّذي لم يمع مثله قطّ، ثمّ أنّه أعجب بفصاحتهما و جرأتهما و أسرع إلى من فوقه من كبراء الحرس و حكى لهم ذلك و شاع الخبر بين الحرس حتىّ بلغ الخبر فرعون ثمّ أنّ موسى و هارون ولجا في الباب بأمر اللّه تعالى و تابعا سيرهما فلم يأتيا باباً إلاّ إنفتح لهما حتّى إنتهيا إلى قصر فرعون و كان فرعون حينئذٍ في قبّةٍ عظيمة فجلس موسى و هارون لدى باب القصر فمَّر رجل من حجّاب فرعون فسأله موسى أن يستأذن له على فرعون فلم يلتفت إليه فقال موسى أنا رسول ربّ العالمين فقال الرّجل مستهزئً به أما وجد ربّ العالمين غيرك فغضب موسى و ضرب الباب بعصاه ففتح حالاً ففزع البّواب و سمع فرعون فصاح بحرّاسه من الذّي ضرب الباب فتقدّم إليه عابثٌ يلعب و قال له أيّها الملك أنّ على بابك رجلاً مجنوناً يقول أنّ له إلهاً غيرك و هو ربّ العالمين فقال فرعون عليّ به فأدخلوه مع أخيه و على كلّ منهما مدرعة من صوف فلمّا وقفا أمام فرعون هاله ما رأه، فنظر فرعون إلى موسى و قال له من أنت قال أنا رسول ربّ العالمين فإستشاط فرعون غضباً و غيظاً و كان من عادته إذا غضب أمر ساسة

الأسود بإطلاقها عليه فتخطفه و تأكله فلمّا غضب على موسى السّاسة و أمرهم بإطلاق الأسود فأسرعت السّاسة إليها و أتت بها بقيودها و لمّا إنتهوا إلى موسى أطلقوها عليه و على أخيه و لكنّ الأسود ألحنت و داعةً و تذلُّلاً بين يديهما و جعلت تشمّم قدميهما فدهش فرعون و جلسائه من ذلك و أحدق بموسى متأملاً حتىّ تذّكره و قال له ألست أنت ربيب القصر في الطُّفولة ثمّ توّجه إليه و يعاتبه و يذكّره بنعمه عليه كما حكى اللّه عنه حيث قال:

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَ لَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ[١].

فَلَمَّا جَآءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ

تقدير الكلام أنّ موسى مضى الى فرعون و ملاءه فلمّا جاءهم موسى بآياتنا من العصا و اليد البيضاء مع أنّها من البيّنات الواضحات قالوا ليس هذا الّذي يدّعيه إلاّ سحرٌ مفترىً، أي مختلقٌ مفتعل، و في التّعبير، بلمّا، دون، لو، أي لم يقل و لو جاءهم بل قال و لمّا جاءهم، إشارة الى نقطةٍ و هي أنّ كلمة، لو، لتقدير وقوع الثّاني بالأوّل و لمّا، للإيجاب في وقوع الثّاني بالأوّل ففيه دليل على أنّهم أي فرعون و ملاءه قالوا ذلك عقيب مجئ الأيات بلا فصل و وصفهم الأيات بالسِّحر دليل على جهلهم أو عنادهم، ثمّ قالوا ما سمعنا بهذا، الّذي إدّعاه موسى و هو النبوّة أو ما سمعنا بربّ العالمين في آباءنا الأوّلين، و حاصل الكلام أنّهم أي فرعون و أتباعه زادوا في الطّنبور نغمةً أخرى و ذلك أنّهم بعد ما كذّبوا موسى قالوا ما سمعنا بهذا في آباءنا الأوّلين و غرضهم من هذا الكلام أنّه لو كان ما يقول موسى حقّاً من التّوحيد لكان مثله في سابق الزّمان فأنّ حكم الأمثال واحد و حيث لم يكن فكلامه عاطل باطل و بعبارةٍ

١- الشُّعراء = ١٨

أخرى إذا نفوا السّماع لمثل هذا في الزّمان السّابق ثبت أنّ ما إدّعاه موسى هو بدع لم يسبق الى مثله فدَّل على أنّه مفترىً على اللّه.

أن قلت كيف قالوا ذلك مع شهرة قصّة نوح و صالح و غيرهم من النبيّين الّذين دعوا الى توحيد اللّه و الإخلاص في عبادته.

قلت قد أجيب عنه بوجهين:

أحدهما: للفترة الّتي دخلت بين الوقتين وطول الزّمان جحدوا أن تقوم به حجّة.

الثّاني: أنّ آباءهم ما صدقوا بشيءٍ من ذلك و لا دانوا به إنتهى.

أقول في المقام شقٌّ ثالث و هو عنادهم فأنّ المعاند ينكر ما هو أظهر من الشّمس و أبين من الأمس و إلاّ كيف يعقل عدم سماعهم به.

وَ قٰالَ مُوسٰى رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَنْ جٰاءَ بِالْهُدٰى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عٰاقِبَةُ اَلدّٰارِ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ اَلظّٰالِمُونَ

قال صاحب الكشّاف يقول ربّي أعلم منكم بحالي و حال من أهلَّه اللّه للفلاح الأعظم حيث جعله نبّياً و بعثه بالهدى و وعده حسن العقبى، يعني نفسه و لو كان الأمر كما تزعمون كاذباً ساحراً مفترياً لمّا أهلَّه لذلك لأنّه غنّيٌ حكيمٌ لا يرسل الكاذبين و لا ينبّئ السّاحرين ولا يفلح عنده الظّالمون إنتهى كلامه.

و قال بعض المفسّرين معناه ربّي أعلم بما جاء بالهدى، أي الدِّين الواضح و الحقّ المبين من عنده و وجه الإجتماع به أنّه تعالى عالمٌ بما يدعوا الى الهدى ممّا يدعوا الى الضّلال فلا يمكن من مثل ما أتيت به ممّن يدعوا الى الضّلال لأنّه عالم بما في ذلك من فساد العباد ثمّ بيَّن هذا بقوله: **إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ اَلظّٰالِمُونَ** و أنّ عاقبة الصّلاح لأهل الحقّ و الإنصاف و هو كما تقول على طريق المظاهرة بحمل الخطاب اللّه بالحقّ منّا من المبطل و حجّتي ظاهرة فأكسرها أن قدرت على ذلك و من تكون له عاقبة الدّار، يعني الجنّة و ثواب

الأخرة **إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ** أي لا يفوز بالخير من ظلم نفسه و عصى ربّه و كفر نعمته إنتهى.

أقول الظّاهر في وجه الإجتماع بهذه الآية على فرعون هو أنّ فرعون حمل آيات اللّه الّتي أتى بها موسى على السِّحر و من كان كذلك فهو ظالم، فقال موسى في جوابه ربّي أعلم بمن جاء به من عنده من الأيات و من تكون له عاقبةٌ محمودة فلكنت ظالماً كاذباً في ما إدّعوك اليه و ساحراً فيما أتيت به لكنت ظالماً و الظّالم لا يفلح قطعاً و يحتمل أن يكون المراد أنّ فرعون لمّا كذَّب موسى ظلماً، فقال موسى: **إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ**، واللّه تعالى أعلم.

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَ إِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ

لمّا عجز فرعون عن الجواب شرع في تسخير القوام كالأنعام و قال للملاء من حوله ما علمت لكم من إلهٍ غيري و غرضه من هذا الكلام تكذيب موسى ثمّ أمر وزيره هامان أن يوقد ناراً على الطّين فقال له يا هامان إفعل كذا أي إطبخ لي الآجر.

قال قتادة هو أوّل من صنع الآجر و بني به. و قوله: **فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا**، فالصَّرح القصر و قيل الصَّرح البناء العالي كالقصر و منه التَّصريح شدّة ظهور المعنى و يقال الأجر بالتّخفيف و الثّقيل، لعلّي أطّلع إلى إله موسى، و أنّما قال ذلك لأنّ موسى قال ربّي و ربّكم و ربّ السّموات و الأرض و قوله: **أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ** أي أعرفه و أنّه كيف هو، ثمّ قال و إنّي لأظنّه من الكاذبين قيل الظّن هنا الشكّ فكفر على الشكّ لأنّه قد رأى من البراهين و المعجزات ما لا يخيَّل أي لا يشكل على ذي فطرةٍ و لذلك قال إبن عبّاس كذب عدّوا اللّه بل علم أنّ له ثمّ ربّاً هو خالقه و خالق قومه إنتهى.

قيل لمّا أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصَّرح جمع هامان العمّال قيل خمسين ألفاً بنّاء سوى الأتباع و أمر بطبخ الأجر و الجصّ و نشر الخشب و ضرب المسامير فبنوا و رفعوا البناء و شيَّدوه بحيثص لم يبلغه بنيان منذ خلق اللّه السّموات و الأرض فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه حتّى أراد اللّه أن يفتنهم فيه فحكى السدّي أنّ فرعون صعد السَّطح و رمى بنشّابةٍ نحو السّماء فرجعت متلطّخة بدماء فقال قد قتلت إله موسى ثمّ أنّ اللّه تعالى أمر جبرئيل عند مقالة فرعون فضرب الصَّرح بجناحه فقَّطعه ثلاث قطع قطعةٌ على عسكر فرعون قتلت منهم ألف ألف و قطعة في البحر و قطعة في الغرب و هلك كلّ من عمل فيه شيئاً إنتهى.

و أنت ترى أنّ ما ذكره السّدي في كيفيّة بنائه إلى أخر ما نقلناه عنه لا أصل له و لا دليل على صحّة نقله بل هو بالخرافات و الموهومات أشبه و تفاسيرهم مملؤةٌ بهذه الأراجيف و الّذي يعتمد عليه في تفسيرها هو أنّه أمر هامان بما أمره و أمّا كيفيّة بناء الصّرح غير معلوم لنا بل لا نعلم أنّه صنعه أم لا و أنّما قال فرعون: **إِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ** و لم يقل أنّه من الكاذبين لوجهين:

أحدهما: أنّ الخبر يحتمل الصِّدق و الكذب فلا معنى لحمل الخبر على الصِّدق فقط أو على الكذب كذلك و لكن هذا يصّح بإعتبار نفس الخبر بما هو هو مع قطع النّظر عن القرائن الموجودة فيه صدقاً أو كذباً و ما نحن فيه ليس من هذا القبيل لوجود القرائن القاطعة الدّالة على صدق المخبر و هو موسى بما أخبر به و هي المعجزات التّي أتى بها موسى و أيّة قرينةٍ أوضح من القرائن الحسّية فقول فرعون إنّي أظنّه من الكاذبين مع وجود تلك القرائن لا معنىٰ له فهو كاذبٌ في دعواه لا موسى.

الثّاني: إنّ في تصديق الخبر هدمٌ لما بناه فرعون في عقائدهم من أنّه ربّهم و لا ربّ سواه و حيث أنّ الملك عقيمٌ و لا سيّما إذا خلط بإدّعاء الألوهيّة فهو أعقم و لذلك أنكر الحقّ و قال ما قال و محصّل الكلام أنّ فرعون رجّح في قوله

هذا، كذب موسى على صدقه و لذلك أتى بكلمة الظـنّ دون الشكّ فأنّ الشكّ يقال في تساوي الطَّرفين و الظنّ يقال لرجحان أحدهما على الأخر و كيف كان لا شكّ أنّ غرضه من هذا الكلام إغمار النّـاس و أن كـان إعـتقاده بـخلافه فأنّ مقام الإعتقاد غير مقام اللّفظ إذ كثيرٌ من النّاس لولا أكثرهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم و هو واضح.

وَ ٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَ ظَنُّوٓا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عـن إسـتكبار فـرعون و جـنوده عـلى سـبيل الباطل زعماً منهم أنّهم إلينا لا يرجعون أمّا إنّه إستكبر فهو واضح فأنّه قـال أنـا ربّكم الأعلى، و أيُّ إستكبارٍ أقبح و أشنع من إدّعاء الرُّبوبية، أين التُّراب و ربّ الأرباب.

و ليس الإستكبار إلاّ الخروج عن الحدّ و هو خرج عن حدَّه و إدّعى ما ليس له و قوله: **بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ**، قيل أي بالعدوان أي لم تكن له حجّة تدفع ما جاء بـه موسى.

و قال الرّازي في المقام و إعلم أنّ الإستكبار بالحقّ أنّما هو للّـه تـعالى هـو المتكّبر في الحقيقة أي المبالغ في كبريائه قال عليه السّلام فيما حكى عن ربّـه الكبراياء ردائي و العظمة أزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النّار وكـلّ مستكبرٍ سواه فأنّ إستكباره بغير الحقّ إنتهى.

و به قال الزّمخشري في الكشّاف قبله و الرّازي أخذه منه.

أقول الإستكبار يقال على وجهين:

أحدهما: أن يتَّحرى الإنسان و يطلب أن يصير كبيراً و ذلك متى كان على ما يجب و في المكان الّذي يجب و فـي الوقت الّـذي يـجب فـهو مـحمودٌ غـير مذمومٌ.

الثّانی: أن يتَّشبع فيظهر من نفسه ما ليس له و هذا هو المذموم، فما قاله الزّمخشري و تبعه الرّازي من أنّ الإستكبار بالحقّ أنّما هو للّه تعالى ليس في محلّه إذ لا يطلق الإستكبار عليه تعالى أصلاً فلا يقال أنّ اللّه مستكبرٌ بل يقال أنّ اللّه مستكبرٌ و أن شئت قلت الإستكبار للخلق و التكبُّر للّه تعالى و السرّ فيه أنّ التّاء في الإستكبار أمّا للطَّلب و اللقبول و كلاهما في حقّه تعالى محال فأنّه تعالى لا يطلب التكّبر و لا يقبله إذ الطَّلب يدّل على النّقص و القبول أيضاً كذلك مضافاً إلى أنّ اللّه في صورة القبول يصير محلاًّ للحوادث و كلاهما في حقّه مستحيل و لذا لم يوجد في الأثار و الأيات إستعمال هذه الكلمة في حقّه تعالى و لم يقل أحد بأنّ اللّه من المستكبرين و أمّا المتكّبر فقد يطلق على الخالق و المخلوق فقوله تعالى في فرعون **وَ ٱسْتَكْبَرَ**، يعني طلب الكبر بإدّعائه الأُلوهيّة أو تلبس به بغير الحقّ أي أنّ هذا الطّلب ليس من حقّه لأنّ المخلوق لا ينبغي له أن يطلب مقام الخالق و إدّعى الألوهيّة.

أمّا قوله: **وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ** أي توّهموا بزعمهم الفاسد أنّه لا معاد و لا بعث و لا حشر و لا نشر، و قوله: **لا يرْجعُونَ**، بفتح الياء و كسر الجيم على أنّه مسمّى الفاعل و بضّم الياء و فتح الجيم على الفعل المجهول وكلتا القراءتين لا بأس بها.

فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ ٱلظّالِمِينَ

انَّبذ بفتح النّون و سكون الباء و الذّال الطَّرح أي طرحناهم في اليمّ قيل هو البحر المالح و قيل بحرٌ من وراء مصر يقال له أساف و قيل نهر النّيل ثمّ أشار اللّه تعالى إلى أنّ عاقبة الظُّلم الهلاك والدّمار في الدّنيا و الأخرة، قيل أنّ فرعون لمّا عجز عن معالة أمر موسى و من أمن معه عمد إلى إستعمال القتل و الصَّلب فمن جملة من أصابه القتل هو حزقيل مؤمن أل فرعون، لأنّه كان قد أظهر إيمانه بعد إيمان السَّحرة فصلبه فرعون مع جميعٍ من السَّحرة و صلب

أيضاً زوجته أسية التّي تظاهرت بإيمانها و صلب أولادها لأنّهم إتّبعوها بالإيمان و إستدام القتل و الصَّلب من فرعون في من أمن حتّى أفنى منهم خلقاً كثيراً و قد كانت أسية لمّا أظهرت إيمانها دخل عليها فرعون فقالت له الويل لك يافرعون ما أجرأك على اللّه و أكثر عنادك للحقّ و العدل فدهش فرعون من سماع ذلك منها و قال لها لعلَّك قد إعتراك الجنون الّذي إعتريس غيرك فقالت ما إعتراني جنون و لكن أمنت باللّه ربّي و ربّك و ربّ العالمين فإزداد اللّعين غيظاً فأمر بها فرعون حتّى أوتد يديها و رجليها بأوتادٍ أربعة فدعا موسى أن يخفّف عنها ألم العذاب فإستجاب اللّه له فلم تجد أسية ألماً ولم تحسّ بوجع ثمّ رفعت طرفها نحو السّماء قائلةً **رَبِّ ٱبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا**[١]، فنوديت من السّماء أن أنظري إلى ما فوقك فلمّا نظرت إلى السّماء كشف اللّه عن عينيها فرأت الجنّة و رأت فيها قصراً من درٍّ لا يوصف حسنه فبشروها بأنّه لها فتبّسمت ضاحكة و رأها فرعون تضحك فقال أنظروا إلى الجنون الّذي بها كيف تضحك و هي في أشدّ العذاب و بقيت كذلك حتّى توّفاها ربّها محمودة مبرورة وقس على هذا أنموذجٌ من ظلمه مع زوجته لعنة اللّه عليه.

و أمّا كيفّية غرقه في اليمّ فقد ذكرناها في سورة طٰه و غيرها و حيث أنّ الحوالّة توجب الملالة فنشير إليها في المقام أيضاً على سبيل الإجمال رآىٰ فرعون أنّ القتل لم يجد في ردع النّاس عن الإيمان بموسى فعزم على إبادتهم جميعاً فأوحى اللّه إلى موسى على ما عزم عليه و أمره أن يخرج بقومه شرقاً نحو البحر فجمعهم كلَّهم و خرج بهم يتقدّمهم هو و أخوه هارون و بلغ الخبر فرعون بأنّ موسى قد خرج بقومه من جواره فخاف أن لا يبقى قادراً على إبادتهم و هلاكهم فغافله ذلك و تخوّف سقوط هيبته عند أتباعه فأرسل مناديه و رسله الى المدن و البلاد بجمع الجيوش و العساكر ليلحق بموسى و أتباعه قبل فوات الأوان كما قال اللّه تعالى: **فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ**[٢] و

١- التحريم = ١١ ٢- الشعراء = ٥٣

أجتمعت الجيوش و الجنود و لم يتخلّف أحداً أبداً فأمر فرعون بركوب الخيل و اللّحاق بموسى و رهطه و ركب هو و هامان يتقدّمانهم و عددهم ستمائة ألف راكب و لم يزالوا يجدّون السّير حتّى ظهر سوادهم لقوم موسى من بعيد و لمّا نظر قوم موسى إلى البحر أمامهم و جيوش فرعون في طلبهم و قد قربوا منهم فغلب عليهم الجزع و الفزع حتّى قال بعضهم لبعضٍ فليتنا ما تركنا مصر فهدّأهم موسى عليه السلام: **قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**[١] **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**[٢].

ولم يزل موسى يأمرهم بالثّقة باللّه تعالى حتّى وصلوا إلى البحر **فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ**[٣] فَفَعل موسىٰ ما أمره به ربّه و تمتّ لبني إسرائيل إثنتي عشرة طريقاً على عدد أسباطهم و كلّها جافّة صلدة بفضل اللّه فدخل كلّ واحدٍ من الأسباط في طريقه حتّى خرجوا من الطّرف الأخر و لمّا إنتهى فرعون بقومه إلى البحر و شاهداوا إنفلاقه قال فرعون لمن حوله أنظروا إلى البحر قد إنفلق لعيبتي ألا ترون أنّي أنا ربّكم الأعلى ثمّ أمرهم بدخول السّكك و ملاحقة بني إسرائيل فلم يجبر أحد منهم على ذلك و إمتنعت الخيل عن التّقدم لهول الماء فتّقدم فرعون بنفسه نحو الماء ليتّشجع أصحابه ويحثّهم و لمّا صار القوم كلّهم في البحر و أمامهم فرعون فنظر فإذا الماء قد إلتحمت ولم يبق أمامهم طرقٌ أبداً فغرق القوم بأجمعهم فصاح فرعون بدون شعور و علم أنّ الّذي فعل بهم ذلك هو ربّ موسى و هارون و ربّ العالمين جميعاً:

قال اللّه تعالىٰ: **أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ آمَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓ إِسْرَآئِيلَ وَ أَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ**[٤].

١- الشّعراء = ٦٢
٢- الاعراف = ١٢٩
٣- الشعراء = ٦٣
٤- يُونس = ٩٠

إلاّ أنّ جبرئيل أخذ كفّاً من حمأة البحر و ضرب به على فمه:

قال اللّه تعالى: **آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ**(١).

و هذا معنى قوله فأنظر كيف كان عاقبة الظّالمين.

وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ لَا يُنْصَرُونَ

الأئمّة جمع إمام و هو الّذي يقتّدى به في القول و الفعل.

وإعلم أنّ لفظ الجعل عامٌّ في الأفعال كلّها و هو أعمّ من فعل و صنع و سائر أخواتها و يتّصرف على خمسة أوجه:

الأوّل: يجري مجرى صار وطفق فلا يتعدّى نحو جعل زيد يقول كذا.

الثّاني: يجري مجرى أوجد فيتّعدى إلى مفعولٍ واحدٍ:

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلَ ٱلظُّلُمٰاتِ وَ ٱلنُّورَ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ وَ ٱلْأَفْئِدَةَ**(٣).

الثّالث: في إيجاد شيءٍ من شيءٍ و تكوينه منه:

قال اللّه تعالى: **جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجًا**(٤) و أمثالها.

الرّابع: في تصيير شيءٍ علىٰ حالةٍ دون حالةٍ:

قال اللّه تعالى: **ٱلَّذي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرٰاشًا**(٥).

قال اللّه تعالى: **إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**(٦).

الخامس: الحكم بالشّيء على الشّيء حقّاً كان أو باطلاً أمّا الحقّ:

قال اللّه تعالى: **إِنّٰا رٰادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جٰاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلينَ**(٧).

أمّا الباطل:

١- يُونس = ٩١
٢- الانعام = ١
٣- النحل = ٧٨
٤- الشّورى = ١١
٥- البقرة = ١٢
٦- الزخرف = ٣
٧- القصص = ٧

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ أَنْدٰاداً**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ اَلْبَنٰاتِ**[٢] الآية وغيرها من الأيات.

إذا عرفت معنى الجعل و أقسامها فالجعل في قوله و جعلناهم أئمّة من قسم الخامس و هو الحكم بالشّيء على الشّيء فلى معناه أنّ خلقاناهم كذلك حتّى يلزم الجبر.

و أمّا على مسلك الفلاسفة فهو من الثّالث أعني إيجاد الشّيء و تكوينه بناءً على أنّ الشّرور من جانب الماهيّات دون الوجود لأنّه خيرٌ محض و على هذا فمعنى الكلام أنّا أوجدناهم و خلقناهم و أمّا شرارتهم فمن جانب ماهيّاتهم و لنا معهم بحثٌ ليس المقام مناسباً له و قد أبطلنا هذا القول في الأبحاث العقليّة و لقد أحسن من قال معنى جعلناهم أي بيّنا ذلك من حالهم و سمّيناهم به و هو الحقّ.

و أمّا قوله: **وَ يَوْمَ اَلْقِيٰمَةِ لاٰ يُنْصَرُونَ** معناه لاناصر لهم في القيامة ولا ينصر بعضهم بعضاً.

وَ أَتْبَعْنٰاهُمْ فِي هٰذِهِ اَلدُّنْيٰا لَعْنَةً وَ يَوْمَ اَلْقِيٰمَةِ هُمْ مِنَ اَلْمَقْبُوحِينَ

أي ألحقنا بهم في هذه الدّنيا لعنة بأن لعنّاهم و أبعدناهم من رحمتنا

و قيل معناه ألزمناهم بأن أمرنا بلعنهم قوماً بعد قوم و من كان كذلك فلا جرم يكون في القيامة أيضاً من المقبوحين مع اللّعنة فأنّ الإتباع إلحاق الثّاني بالأوّل فهؤلاء الدّعاة إلى الضّلالة ألحقوا اللّعنة تدور معهم حيثما كانوا و فيه أعظم الزّجر من القبح و قيل المقبوح المشّوه بخلقته لقبيح عمله، هذا و يحتمل أن يكون المراد أنّهم يوم القيامة من شدّة العذاب تتّغير حالهم و صورهم.



١- ابراهيم = ٣٠ ٢- النحل = ٥٧

وَ لَقَدْ اٰتَيْنٰا مُوسَى ٱلْكِتٰابَ مِنْ بَعْدِ مٰآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولٰى بَصٰآئِرَ لِلنّٰاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

و لقد أتينا موسى الكتاب، و هو التّوراة، من بعد مـا أهـلكنا القـرون الأولى، من قوم عاد و ثمود و قوم فرعون و غيرهم ثمّ وصف الكتاب أعني بـه التّـوراة بأنّها بصائر للنّاس و هي جمع بصيرة، يتّبصرون بها و جعلناها سبباً لهدايتهم و هو رحمةٌ و نعمةٌ عليهم لعلّهم يتذكّرون أي لكـي يـتّذكروا بـه و يـتفكّروا فـي أياته، و هذه الأوصاف للكتاب بمنزلة العلّة في إنزاله أي أنزلناه لذلك.

وَ مٰا كُنْتَ بِجٰانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنآ إِلٰى مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَ مٰا كُنْتَ مِنَ ٱلشّٰاهِدِينَ

قيل المراد بجانب الغرّبي جبل الطُّور، و الخطاب للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أي و ما كنت يا محمّد هناك إذ قضيناو حكمنا إلى موسى الأمر و هو النّبوة و مـا كـنت من الشّاهدين الحاضرين.

وَ لٰكِنّآ أَنْشَأْنٰا قُرُونًا فَتَطٰاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَ مٰا كُنْتَ ثٰاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ اٰيٰاتِنٰا وَ لٰكِنّٰا كُنّٰا مُرْسِلِينَ

قيل في وجه الإستدراك، أنّ مـعنى الكـلام ولكـنّا أنشأنـا بـعد الوحـي إلى عهدك يامحمّد قروناً كثيرة فتطاول على أخرهم و هو القرن الّـذي أنت فـيهم، العمر أي أمد إنقطاع الوحي وإندرست العلوم فوجب إرسالك إليهم فأرسـلناك و أتيناك العلم بقصص الأنبياء و قصّة موسى عليه السلام كأنّه قـال و مـا كـنت شـاهداً لموسى و ما جرى عليه و لكنّا أوحينا إليك فذكّر سبب الوحي الّذي هو إطـالة الفترة و دلّ على المسَّبب على عادة اللّه عزّ وجلّ في إختصاراته ثمّ قـال و مـا كنت يا محمّد ثاوياً، أي مقيماً في أهل مـدين تـتلوا عـليهم أيـاتنا و لكـنّا كـنّا مرسلين بإرسال الرُّسل و إنزال الكتب و قيل مـعناه أرسـلناك إلى أهـل مكّـة و أتيناك كتاباً فيه هذه الأخبار و لولا ذلك لما علمتها.

وَ مٰا كُنْتَ بِجٰانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نٰادَيْنٰا وَ لٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مٰآ أَتيٰهُمْ مِنْ نَذيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

أي كما لم تحضر جانب المكان الغرّبي و هو جبل الطُّور إذ أرسل اللّه موسى إلى فرعون و إذ نادينا موسى لمّا أتى الميقات مع السَّبعين هكذا قيل و قال بعضهم إذ نادينا أمرك و أخبرنا بنبوّتك و لكن رحمةً أي جعلناك رحمةً من ربّك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذيرٍ أي في زمن الفترة بينك و بين عيسى و هو خمس مائة و خمسون عاماً (٥٥٠) و محصّل الكلام في هذه الأيات أنّك ما كنت شاهداً حاضراً هناك و لكنّا أخبرناك بها و هو كذلك و فيه شاهد على صدق دعواه في نبّوته.

وَ لَوْلآ أَنْ تُصيبَهُمْ مُصيبَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْديهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنٰا لَوْلآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنٰا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ اٰيٰاتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنينَ

و لولا أن تصيبهم، يعني قريش، أو اليهود مصيبةً، أي عقوبةً و نقمةً بما قدَّمت أيديهم، من الكفر و المعاصي و الباء للسّبب و خصَّ الأيدي بالذّكر لأنّ الغالب من الكسب أنّما يقع بها و جواب لولا محذوف، أي لولا أن يصيبهم عذاب بسبب معاصيهم المتقدّمة، فيقولوا ربّنا لولا، أي هلاّ أرسلت إلينا رسولاً، لما بعثنا الرُّسل، أو لما عاجلناهم بالعقوبة فبعث الرُّسل إزاحة لعذر الكفّار فنتّبع أياتك، نصب على جواب التّحضيض و نكون، عطف عليه، من المؤمنين، المصّدقين بالتّوحيد و النّبوة و المعاد.



فَلَمّٰا جٰآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنٰا قٰالُوا لَوْلآ أُوتِيَ مِثْلَ مٰآ أُوتِيَ مُوسىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمٰآ أُوتِيَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ قٰالُوا سِحْرٰانِ تَظٰاهَرٰا وَ قٰالُوآ إِنّٰا بِكُلٍّ كٰافِرُونَ

أي فلمّا جاء هؤلاء الكفّار الحقّ و هو الرّسول و القرأن الّذي أنزل عليه، من عندنا قالوا أي كفّار مكّة، لولا، أي هلاّ، أوتي، هذا النّبي مثل ما أوتي موسى

من العصا و اليد البيضاء و هلاّ أنزل عليه القرآن جملةٍ واحدة كما أنزلت التّوراة على موسى كذلك، فقال تعالى في جوابهم: **أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِيَ مُوسٰى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا** أي موسى و محمّد في قول إبن عبّاس، و موسى و هارون في قول مجاهد و من قرأ سحران تظاهرا، أراد التّوراة و القرآن أو التّوراة و الإنجيل، أو الإنجيل و القرآن، **إِنَّا بِكُلٍّ** أي بكلّ ما جاؤوا به كافرون، من التّوراة و الإنجيل و القرآن، أو المعنى إنّا كافرون بكلّ ما أمروا به و ذكر أنّه من عند اللّه.

قال الكلبي بعث قريش الى اليهود و سألوهم عن بعث محمّد و شأنه فقالوا إنّا نجده في التّوراة بنعته وصفته فلمّا رجع الجواب اليهم قالوا ساحران تظاهرا و قال قومٌ أنّ اليهود علّموا المشركين و قالوا قولوا لمحمّد لولا أوتيت مثل ما أوتي موسى فأنّه أوتي التّوراة دفعةً واحدة، فهذا الإحتجاج وارد على اليهود أي أو لم يكفروا هؤلاء اليهود بما أوتي موسى حين قالوا في موسى و هارون هما ساحران، **إِنَّا بِكُلٍّ كٰافِرُونَ**، أي بكلّ واحدٍ منهما.

أقول حاصل الكلام في هذه الأيات هو أنّ اللّه تعالى أرسل الرسلّ إزالةً لهذا العذر:

قال اللّه تعالى: **لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَآءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَ لَا نَذِيرٍ**(١).

قال اللّه تعالى: **رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَ كَانَ ٱللّٰهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**(٢).

قال اللّه تعالى: **يَآ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَآءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَ لَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ وَ ٱللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**(٣).

١- المائدة = ١٦ ٢- النّساء = ١٦٥
٣- المائدة = ١٩

و الأصل في ذلك هو أنّ اللّه تعالى لا يعاقب العبد قبل تماميّة الحجّة عليه في الدُّنيا إذ العقاب قبلها ظلمٌ قبيحٌ و اللّه تعالى منزّهٌ عنه و المراد بالحجّة في الأيات قيل هيّ الأنبياء و الرسّل و الاوصياء بعدهم و نعبّر عنهم بالحجج الظّاهرة وللّه تعالى حجّةٌ أخرى و هي العقل و قد عبّر عنه في لسان الأخبار بالحجّة الباطنة و الى ذلك أشار مولانا موسى بن جعفرعليه‌السلام حيث قال لهشام بن الحكم، يا هشام أنّ للّه على النّاس حجّتين حجّة ظاهرة و حجّة باطنة، أمّا الحجّة الظّاهرة فهي الأنبياء و الرسّل و الأئمّة.

و أمّا الحجّة الباطنة فهي العقل، و أنمّا قالعليه‌السلام ذلك لأنّ الحجّة الظّاهرة أعني بها النّبي أو الوّصي لا تكفي في صحّة العقاب يوم القيامة إذا لم يكن المكلّف عاقلاً في الدُّنيا كما أنّ الحجّة الباطنة و هي العقل بدون الحجّة الظّاهرة لا تكفي في صحّة العقاب فالنّبي رسول الظّاهر و العقل رسول الباطن و بالباطن يعرف الظّاهر وإذا كان كذلك فقد تمّت الحجّة بكلا معنيها على المكلّف و حينئذٍ لا يبقى للمكلّف عذراً غداً عند الحساب إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ الإعتذار الّذي حكاه اللّه تعالى عنهم بأنّه هلاّ أوتي النّبي بمثل ما أوتي موسىٰ أو عيسى أو غيرهما من الأنبياء، عاطلٌ باطلٌ، و ذلك لأنّ إتمام الحجّة أنّما بوجود النّبي و أمّا كيّفية المعجزة فهي تدور مدار المصلحة و إقتضاء الزّمان فلا يعقل أن تكون معجزة محمّدصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كمعجزة موسى أو عيسى إلاّ أن يكون زمانه زمانها فهذا القول من الكفّار نشأ من جهلهم أو عنادهم و لا يعدّ من العذر المعقول هذا كلّه مضافاً الى أنّهم أنكروا موسى و عيسى أيضاً و اليه الإشارة بقوله تعالىٰ: **أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ** أو لم يقولوا هذان ساحران و إنّا بكلٍّ كافرون، و فيه تسلية للنّبي في الحقيقة أي أنّهم كذّبوك فقد كذّبوا الأنبياء قبلك أيضاً وليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام ففي الآية إيماءٌ الى أنّ أكثر النّاس يقولون بأفواههم ما ليس

في قلوبهم و هذا من علائم النّفاق و العناد ألم يعلموا هؤلاء الكفّار أنّ نسبة السّحر الى محمّد نسبة السحر لموسى و عيسى و سائر الأنبياء و تكذيبه تكذيبهم إذ الأنبياء من وادٍ واحد فمن نسب الى أحدٍ منهم ما لا يليق به كان ناسباً ذلك الى جميع الأنبياء فأنّ حكم الأمثال واحد.

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

أي قل يا محمّد لهؤلاء اليهود أو كفّار قريش فأتوا بكتابٍ من عند اللّه هو أهدى منهما أي من التّوراة و القرآن حتّى أتّبعه أنا أيضاً إن كنتم صادقين في دعواكم، و ذلك لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ ما ظهر على أيدي الأنبياء من الأيات أنمّا هو من باب السِّحر و من المعلوم أنّ السِّحر لا يهدي إلى الحقّ فأمر اللّه نبيّه أن يقول لهم أن كان كتابي و كتاب موسى و عيسى من جنس السِّحر فأتوا بكتابٍ غير القرآن و التّوراة و الإنجيل ليهديكم الى الحقّ و أنا أيضاً أتّبعه، و يعلق إتيانهم بشرط الصدّق أمرٌ متّحققٌ متيقّنٌ أنّه لا يكون و لا يمكن صدقهم كما أنّه لا يمكن لهم أن يأتوا بكتابٍ من عند اللّه يكون أهدى من الكتابين و يجوز أن يراد بالشّرط آلهتكم بهم.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَيٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ

أي فأن لم يستجيبوا لك يا محمّد أن يأتوا بكتابٍ من عند اللّه هو أهدى منهما، فأعلم أنّما يتّبعون أهواءهم الفاسدة و أميالهم النّفسانية و ما يستحسنونه و يجيبه لهم الشّيطان و أنّه لا حجّة لهم، و من أضلّ ممّن إتّبع هواه بغير هدىً من اللّه، الإستفهام للإنكار أي ليس أضلّ منه أحداً فأنّ من إتّبع هواه بغير هدىً من اللّه فقد عبد هواه حقّاً دون اللّه و من كان معبوده هواه فحاله معلوم و أنّما عدّه من الظُّلم لكونه مشركاً و لا ظلم أقبح و أشنع من الشِّرك باللّه

و لذلك قال: **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ**، أي أنّ اللّه لا يحكم بهدايتهم لأنّهم عادلون عن طريق الحقّ.

و قال إبن عبّاس معنى، **فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا**، فأن لم يؤمنوا بما جئت به من الحجّج ولم يمكنهم أن يأتوابكتابٍ هو أفضل، و الإستجابة تقتضي دعاء و هو لم يدعوا دائماً الى الإيمان فالمعنى فأن لم يستجيبوا لك بعد ما وضح لهم من المعجزات الّتي تضّمنها كتابك إنتهى.

أقول ما ذكره غير لازم و ذلك لأنّ عدم الإستجابة مساوق لعدم الإيمان و هو ظاهر لا خفاء فيه:

وَ لَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

أي وصلّنا لهم القول في الخبر عن أمر الدُّنيا و الأخرة، و قيل و صلّنا لهم القول، بما أهلكنا من القرون قرناً بعد قرنٍ فأخبرناهم إنّا أهلكنا قوم نوح بكذا و قوم هود بكذا و قوم صالح بكذا، **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**، فيخافوا أن ينزل بهم ما نزل بمن كان قبلهم و أصل التَّوصيل من وصل الحبال بعضها ببعضٍ و المعنى إنّا إتَّبعنا القرآن بعضه بعضاً، و قيل معناه فصلّنا لهم القول.

أقول قرأ الجمهور، و صلّنا، مشدّد الصّاد، و قرأ الأخفش بتخفيفها و الضّمير في، لهم، لقريش أو لليهود أو الكفّار جميعاً فعلى قراءة الجمهور معناه تابعنا القرآن موصولاً بعضه ببعضٍ في المواعظ و الزّجر و الدُّعاء الى الإسلام فأنّ التَّوصيل وصل الشّئ بعضه ببعضٍ كما قال الشّاعر:

فقل لبني مروان ما بال ذمّةٍ　　　و حبلٍ ضعيف ما يزال يوَّصل

و أمّا على قراءة التّخفيف فالمعنى وصلنا لهم خبر الدُّنيا بخبر الأخرة.

و الحقّ أنّه لا فرق من حيث المعنى بين القراءتين و المراد بهما الوصل على التّقديرين سواءٌ كان الوصل في الألفاظ أم في المعاني والمخبر به.

ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ

قيل الضّمير في، قبله، عائد على القرآن و هكذا الضّمير في، به، و قيل الأوّل الى القرآن و الثّاني للرّسول فعلى القول الأوّل معنى الكلام الّذين آتيناهم الكتاب و هو التّوراة من قبله أي من قبل نزول القرآن آمنوا به، و على الثّاني آمنوا بمحمّد و المآل واحد فأنّ الإيمان بالقرآن هو الإيمان بمحمّد بعينه و بالعكس، أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ قوماً ممّن أوتوا الكتاب و هو التّوراة من بني إسرائيل من قبل نزول القرآن يؤمنون بالقرآن، كعبد اللّه بن سلام و سلمان و يدخل فيه من أسلم من علماء النّصارى و هم أربعون رجلاً قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينة، إثنان و ثلاثون من الحبشة و ثمانية نفر أقبلوا من الشّام وكانوا أئمة النّصارى منهم بحيراء الرّاهب و إبرهة و الأشرف و عامر و أيمن و إدريس و نافع و أنزل اللّه تعالى فيهم هذه الأية و الّتي بعدها **أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا**، قاله قتادة و منه أيضاً أنّها نزلت في عبد اللّه بن سلام و تميم الدّاري و الجارود العبدي و سلمان الفارسي أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية و قال عروة بن الزّبير نزلت في النّجاشي و أصحابه و وجّه بإثني عشر رجلاً فجلسوا مع النّبي و كان أبو جهل و أصحابه قريباً منهم فلمّا قاموا من عند النّبي تبعهم أبو جهل و من معه فقال لهم خيّبكم اللّه من ركبٍ و قبّحكم اللّه من وفدٍ لم تلبثوا أن صدقّتموه ما رأينا ركباً أحمق منكم و لا أجهل فقالوا في جواب أبي جهل و أصحابه، لنا أعمالنا و لكم أعمالكم، هذا، و يحتمل أن تكون الكناية عن النّبي ﷺ و تقديره، الّذين آتيناهم الكتاب من قبل محمّد و هم اليهود و النّصارى، يؤمنون به لأنّهم كانوا يجدون صفة في التّوراة و الإنجيل و لذلك أردفها بقوله:

وَ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ

يعني و إذا يتلى عليهم القرآن قالوا **ءَامَنَّا بِهِۦٓ** أي صدَّقناه أنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبله أي من قبل نزله، مسلمين به مستمسكين بما فيه، و يحتمل عود الضّمير في، قبله، علىٰ الرّسول و المعنى إنّا كنّا قبل بعثه محمّد ﷺ مسلمين أي منقادين موّحدين، أو مؤمنين بأنّه سيبعث محمّد و ينزل عليه القرآن و يأتي بالمعجزات.

أُولَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَ يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

أُولَٰٓئِكَ إشارة الى المذكورين في الآية السّابقة و هم الّذين وصفهم اللّه بأنّهم كانوا آمنوا بالرّسول قبل مجيئه فقال في هذه الآية أنّهم يؤتون أجرهم مرّتين، **إحداهما**: لفعلهم الطّاعة.

الثّانية: للصبّر عليها لما يوجبه العقل من التّمسك بها و يحتمل أن يكون المراد من قوله: **مَرَّتَيْنِ**، مرَّةٌ قبل البعثة لإعتقادهم، و مرّةً بعدها لإظهارهم الطّاعة و متابعتهم أيّاه و الى الوجه الأوّل أشار بقوله، بما صبروا و الصّبر حبس النّفس عمّا تنازع اليه و لذلك مدح الصّابرين فأنّ الصّبر على الحقّ مرٌّ، إلاّ أنّه يؤدّي الى الثّواب الّذي هو أحلى من الشّهد ولذلك قال رسول اللّه ﷺ أفضل أعمال أمتّي إنتظار الفرج، أي إنتظار الفرج لظهور قائم آل محمّد الّذي يملاء اللّه الأرض به قسطاً و عدلاً بعد ما ملئت ظلماً و جوراً فهؤلاء المنتظرين في عصر الغيبة أيضاً يؤتون أجرهم مرَّتين، فأنّهم صبروا على الإمتناع من المعاصي و على فعل الّطاعات، أو صبروا على الأذى في جنب اللّه و حكم الأمثال واحد.

ثمّ وصف اللّه الصّابرين الّذين أشار اليهم في الآية بأنّهم **يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ**، أي يدفعون بالتوبّة المعاصي لأنّ اللّه تعالى يسقط العقاب عندها، و قيل معناه يدفعون بالكلام الجليل اللّغو من كلام الكفّار، و قيل أنّ

ذلك قبل الأمر تقابلهم و لا يمتنع أن يؤمروا بالإعراض عن مكالمتهم مع الأمر بقتالهم و لا تنافي بينهما على حال هكذا فسَّره في التّبيان.

أقول يستفاد من الآية أنّهم يؤتون أجرهم مرَّتين لأنّهم صبروا على فعل الطّاعات أو الأذى في جنب اللّه هذا أوّلاً و لأنّهم يدرؤن بالحسنة السيّئة، ثانياً، و ممّا رزقناهم ينفقون ثالثاً.

أمّا الصَّبر على الطّاعة فقد قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: **الصّبر ثلاثة صَبرٌ على المعصية و صبرٌ على الطّاعة و صبرٌ على المصيبة**، فمن صبر على الطّاعة فهو من الصّابرين الّذين مدحهم اللّه في كثير من الأيات، و أنمّا يؤتون أجرهم مرَّتين لأنّهم صبروا على الطّاعة، فالأجر ثابت لهم تارةً على نفس الطّاعة و تارةً على الصّبر عليها.

و أمّا الّذين يدرؤن بالحسنة السّيئة، فمعناه أنّهم يدفعون سيّئاتهم بالحسنات بمعنى أنّ حسناتهم أكثر من سيّئاتهم و ليس المراد أنّه لا سيّئات لهم أصلاً و يحتمل أن يكون المراد أنّهم يتوبون الى اللّه و لا حسنة أحسن من التَّوبة و قوله: **مِمَّا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ**، معناه واضح.

وَ إِذٰا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قٰالُوا لَنٰآ أَعْمٰالُنٰا وَ لَكُمْ أَعْمٰالُكُمْ سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ لاٰ نَبْتَغِى ٱلْجٰاهِلِينَ

وإذا سمعوا اللّغو من الكلام من الكفّار و المنافقين، أعرضوا عنه أي أعرضوا عن اللّغو و لم يخاصموا فيه بل قالوا لفاعل اللّغو لنا أعمالنا و لكم أعمالكم أي لنا جزاء أعمالنا و لكم جزاء أعمالكم، **سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ**، قيل معناه، أنّهم يقولون لمن فعل اللَّغو قولاً يسلمون منه و يقولون لا ينتفي أي لا نطلب الجاهلين و لا نجازيهم قيل لغوهم و اللَّغو الفعل الّذي لا فائدة فيه، و قيل و من أحسن الأدب الإعراض عن لغو الكلام قيل أنّ هذه الآيات نزلت في عبد اللّه بن سلام و تميم الدّاري و الجارود العبدي و قد مرَّ الكلام فيه.

إِنَّكَ لٰا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰآءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

قد مرَّ الكلام منّا في معنى الهداية غير مرَّةٍ و قلنا أنّ الهداية تقال على معنيين:

أحدهما: إرائة الطّريق.

ثانيهما: الإيصال إلى المطلوب و الفرق بين المعنيين واضح فأنّ الإيصال الى المطلوب مختَّصٌ باللّه تعالى و أمّا إرائة الطّريق فهي من وظائف المخلوق، فقوله: **إِنَّكَ لٰا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** معناه أنّك لا توصل من أحببت الى المطلوب و لكّن اللّه يهدي أي يوصل من يشاء الى المطلوب، فليست الهداية في هذه الآية إرائة الطّريق لأنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يهدي النّاس بهذا المعنى في حياته فكيف يقال أنّك لا تهدي نعم نفى اللّه تعالى عن النَّبي الهداية بالمعنى الثّاني و هو الإيصال فأنّه يختَّص باللّه تعالى و ذلك لأنّه قادر على التصرُّف في القلوب كيف يشاء كما هو شأن الخالق و لذلك يقال في الدُّعاء: يا مُقّلب القلوب والأحوال و الى هذا المعنى أشار بقوله: **وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰآءُ** و قوله: **وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**، معناه أنّه أعلم بِمن يقبل الهداية و من لا يقبلها كما هو شأن الخالق و أمّا النَّبي فليس كذلك و قال بعض المفسّرين المراد بالهداية هاهنا اللُّطف الّذي يحتاج إليه ليختار عنده الإيمان و ذلك لا يقدر عليه غير اللّه لأنّه إمّا أن يكون من فعله خاصَّته أو بإعلامه لأنّه لا يعلم ما يصلح العبد في دينه إلاّ اللّه تعالى فإذا دبَّر الأمور على ما فيه صلاحه كان لاطفاً به و هذا التَّدبير لا يأتي من أحد سوى اللّه تعالى فلذلك نفى اللّه ذلك عن نبيّه و يويّد ما قلناه قوله: **وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**، و معناه هو أعلم بمن يهتدي باللُّطف ممّن لا يهتدي فهو تعالى يدَّبر الأمور على ما يعلم من صلاح العباد على التَّفصيل من غير تعليمٍ إنتهى ما ذكره في التّبيان في تفسير الآية.

أقول ما ذكره الشّيخ قدس سره في تفسير الآية عن حمل الهداية على اللُّطف لانفهم معناه إذ على ما ذكره قدس سره في معنى الهداية فقوله تعالى: **إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ** معناه نفي اللُّطف عن النَّبي و إثباته لنفسه فقط في قوله: **وَ لَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ**، و نفى اللُّطف عن النبيّ غير معقولٍ لأنّ اللُّطف معناه الرِّفق و المداراة و قد ثبت هذا المعنى للنَّبي أيضاً عقلاً و نقلاً.

أمّا العقل فلأنّ النبيّ لو لم يكن متَّصفاً باللُّطف فلا محالة كان متَّصفاً بضَّده و هو الخشونة و من كان كذلك لا يكون رسولاً و هو ظاهر.

أمّا النَّقل فقد قال اللّه تعالى في كتابه مخاطباً للنَّبي: **لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**(١) نفى اللّه تعالى عن نبيِّه الفظاظة و قساوة القلب و شهد بذلك في كتابه و من المعلوم أنّ الفظاظة و غلظة القلب ضدّ الرِّفق و المداراة و أن شئت قلت ضّد اللُّطف فكيف يمكن أن يقال أنّ النَّبي لم يكن لاطفاً بأمّته.

قال اللّه تعالىٰ: **يآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنآ أَرْسَلْناكَ شاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذيرًا، وَ داعِيًا إِلَى ٱللّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجًا مُنيرًا**(٢).

و كيف يعقل أن يكون المبَّشر و السّراج المنير غير لاطفٍ بالخلق و على هذا فنفى اللُّطف عن النَّبي بالكلّية غير معقولٍ و إذا كان كذلك فمعنى الآية على قول الخصم أنّك لا تلطف بمن أحببت و لكنّ يلطف لمن يشاء، و هذا ممّا لا يساعده العقل و النّقل فألهداية بمعنى اللُّطف بهذا المعنى لا نفهم معناه.

إن قلت ليس مراد القائل باللُّطف ما ذكرت بل مراده منه أنّ اللّه تعالى يدَّبر الأمور على ما فيه صلاح العبد و هذا التَّدبير لا يتآتى من أحد سواه فلذلك نفاه اللّه عن نبَّيه كما ذكره القائل في إستدلاله.

قلت هذا لا يسَّمى باللُّطف بل هو قضاؤه و قدره في حَّق العباد و لا كلام لنا فيه فعلاً و حاصل الكلام إنّا لا ننكر بثبوت اللُّطف فيه تعالى بالنَّسبة الى عباده كيف و قد صرَّح القرآن به:

١- آل عُمران = ١٥٩ ٢- الأحزاب = ٤٦ / ٤٥

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصٰارَ وَ هُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمٰا يَشٰآءُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **انّ ٱللّٰهُ لَطِيفٌ بِعِبٰادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشٰآءُ وَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ كٰانَ لَطِيفًا خَبِيرًا**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **أَلٰا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ**[٥].

فهذه الآيات ناصّة في أنّ اللّه تعالى لطيف خبير بعباده و هذا ممّا لا كلام لنا فيه و إنّما الكلام في مجئ الهداية بمعنى اللُّطف في الآية مع عدم مساعدة اللُّغة و العقل به و ليت شعري ما الباعث على حمل الهداية على اللُّطف ثمّ ما الدّليل عليه من العقل و النّقل و أمّا اللُّطف بالمعنى الّذي ذكره في إستدلاله و هو تدبير الأمور على ما فيه صلاح العبد فقد قلنا أنّه من القضاء و القدر لا من اللُّطف و من فسَّر اللُّطف به من أهل اللُّغة.

قال الرّاغب في المفردات و يعَّبر باللَّطافة و اللُّطف عن الحركة الخفيفة و عن تعاطي الأمور الدَّقيقة و قد يعبّر باللَّطائف عمّا لا الحاسَّة تدركه و يصحّ أن يكون وصف اللّه تعالى به على هذا الوجه و أن يكون لمعرفته بدقائق الأمور و أن يكون لرفقة العباد في هدايتهم إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و أنت ترى أنّ الرَّفق بالعباد في هدايتهم مأخوذٌ في معنى اللُّطف لا أنّ الهداية بمعنى اللُّطف و بعد اللّيتا و اللّتي فالهداية في الآية بمعنى الُطف لا نفهم معناه و لا يفهمه غيرنا أيضاً فتحصّل ممّا ذكرناه أنّ المراد بالهداية فيها في كلا الموضعين بمعنى واحد و هو جعل الإيمان و تثبيته في قلب العبد المعبّر عنه بالإيصال إلى المطلوب و هذا ممّا لا يقدر عليه أحد سوى اللّه تعالى و

١- الأنعام = ١٠٣
٢- يوسف = ١٠٠
٣- الشّورىٰ = ١٩
٤- الأحزاب = ٣٤
٥- المُلك = ١٤

ذلك لأنّ جعل الإيمان و تثبيته في القلب مستلزم لتقليب القلب عمّا هو عليه من الإنكار المسّبب عن عدم القابليّة و هذا أعني تقليب القلب لا يمكن إلاّ لمن خلقه و هذا هو المنّفي عن النّبي في قوله: **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** و الثّابت للّه تعالىٰ في قوله: **وَ لَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ** و الرماد بجعل الإيمان و تثبيته في القلب هو رفع المانع عن قبوله الإيمان لا تعويض القلب و إيجاد قلبٍ أخر فيه و إلاّ يلزم الجبر الّذي حكم ببطلانه العقل و النّقل و على ما ذكرناه لا يلزم الإنقلاب في الماهيّة الّذي حكموا بإستحالته إذ المفروض أنّ القلب بحاله و اللّه تعالى رفع المانع و هذا لا يستلزم لجبر أو الإنقلاب في الماهيّة و للبحث فيه مقامٌ أخر هذا ما خطر ببالي في تفسير الآية و اللّه أعلم.

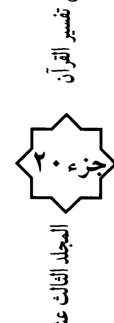
ثمّ أنّ في المقام بحث أخر و هو أنّ العامّة في تفاسيرهم ذهبوا إلى أنّ الآية نزلت في أبي طالب عمّ النّبي حيث أنّ النّبي كان مصّراً على إيمان عمّه أبي طالب فقال اللّه تعالى: **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ.**

قال صاحب الكشّاف في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، قال الزّجاج قد أجمع المسلمون أنّها نزلت في أبي طالب و ذلك أنّ أبا طالب قال عند موته يامعشر بني هاشم أطيعوا محمّداً و صدّقوه تفلحوا و ترشدوا فقال النّبي ﷺ.

يا عمّ أتأمرهم بالنّصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك، قال فما تريد يابن أخي، قال ﷺ أريد منك كلمةً واحدة فأنّك في أخر يوم من أيّام الدّنيا أن تقول لا إله إلاّ اللّه، أشهد بها لك عند اللّه قال يابن أخي قد علمت أنّك لصادق و لكنّي أكره أن يقال جزع عند الموت و لولا أن تكون عليك و علي بني أبيك غضاضة و مسّبة بعدي لقلتها و لأقرّرت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدّة وجدك و نصيحتك و لكنيّ سوف أموت على ملّة الأشياخ عبد المطلّب و هاشم و عبد مناف، قالت قريش وقيل القائل هو حرث بن نوفل بن عنان نحن

نعلم أنّك على الحقّ و لكن نخاف إن إتّبعناك و خالفنا العرب بذلك و أتنّما نحن أكلة رأس، أي قليلون أن يتخطّفونا من أرضنا فألقمهم اللّه الحجر بأنّه مكَّن لهم في الحرم الّذي أمنه بحرمة البيت و أمن مكانه بحرمته إلى أخر ما قال و سيأتي الكلام فيه إنتهى كلامه.

و به قال من تبعه من مفسّريهم كالرّازي و الألوسي و غيرهما و قد سبقهم إلى هذا القول الطّبري في تفسيره و الحاصل أنّهم قد إتّفقوا على أنّ الآية نزلت في أبي طالب و قد ذكر الطّبري عدة أحاديث من كتب العامّة على إثبات مدّعا و هو أي الطّبري من أقدم مفسّريهم و تفسيره كالأصل في تفاسيرهم و هو قد أصَّر على ذلك رغماً لأنف النّبي صلى الله عليه وآله وسلم نعم قال الرّازي في أوّل كلامه هذه الآية لا دلالة في ظاهرا على كفر أبي طالب، ثمّ نقل عن الزّجاج ما نقلناه عن صاحب الكشّاف بعينه مع تفسيره لبعض الألفاظ ونحن لا نريد الدّخول في هذا الموضوع لأنّه خارجٌ عن حريم البحث إلاّ أنّهم لمّا ذكروه في تفاسيرهم و قالوا أنّ الآية نزلت في أبي طالب حيث أنّ النّبي لم يدر على إدخاله في المؤمنين فلا جرم نتّكلم فيه إجمالاً أداءً لحقّ المظلوم بقدر الميسور و نقول لهم مالّذي دعاكم إلى نقل هذه الأكاذيب و حمل كلام اللّه تعالى عليها ألا تخافون المعاد ألا تستحون من اللّه و رسوله و حيث أنّ صاحب الكشّاف قد أتعب نفسه في إثبات كفر أبي طالب و أنّه لم يؤمن حتّى حين الموت فنحن نجيب عمّا نقله في تفسيره و هو يكفي الجميع إن شاء اللّه فنقول:



قوله قال الزّجاج أجمع المسلمون أنّها نزلت في أبي طالب، يقال له من الزّجاج الّذي إدّعى الإجماع من المسلمين فيما إدَّعاه، فأن عني بالمسلمين كلّ مبغضٍ لعلّي إبن أبي طالب و أهل بيت الرّسول فهو حقٌّ و لا كلام لنا معه لأنّهم أي أعداء عليٍّ أجمعوا على كفر أبي طالب و أنّه مات على كفره فقالوا بنزول الآية فيه و غرضهم من هذا الإفتراء أنّ اللّه تعالى شهد في كتابه بكفره و من كان كذلك فحاله معلومٌ.

و نحن نقول أنّ الآية بصدد بيان حكم كلّي و هو أنّ اللّه تعالى يقدر على ما لا يقدر عليه غيره و ليس في الآية ما يدلّ على ما إدّعاه الخصم إلاّ ما نقله عن الزّجاج الخبيث الّذي لا يعرف صدقه و دينه و ما أقبح لرجلٍ يدّعي الدّين و الإيمان و العلم أن يتبع رجلاً بالافتراء على عقبيه في دينه و يحمل كلام اللّه على قوله ولم يعلم أنّ قوله أجمع المسلمون أنّها نزلت في أبي طالب، ما معناه، أليس هذا من قلّة العقل و ضعف الإعتقاد و عدم معرفة الإسلام فإذا كان الزّمخشري و هو من أعيان العامّة و أعلم علمائهم تابعاً في دينه و إعتقاده بما قاله الزّجاج و أمثاله فعلى إسلامه و السّلام أليست الشّيعة من المسلمين و الشّيعة لا تختّص بالإماميّة فقط بل هي تشمل الزّيدية و الإسماعيليّة و الفطمّية و غيرها من الفرق و كلّهم من المنكرين لما إدّعاه الزجّاج فأين الإجماع من المسلمين.

و أمّا قول صاحب الكشّاف أنّ أبا طالب قال عند موته يامعشر بني هاشم أطيعوا محمّداً و صدّقوه تفلحوا و ترشدوا فنسأل صاحب الكشّاف أوّلاً، من نقل لك هذا و المفروض أنّك لم تحضر هناك و لم تسمع من أبي طالب ما نقلته عنه.

ثانياً: أنّ هذا الكلام الّذي نقله عن أبي طالب، يدّل على أنّ هذا إفتراءٌ عليه لأنّ الكلام المنقول عن أبي طالب يكذّب بعضه بعضاً و ذلك لأنّ قوله لبني هاشم أطيعوا محمّداً و صدّقوه تفلحوا و ترشدوا، إقرارٌ من أبي طالب بأنّ محمّداً ﷺ فيما إدّعاه من النبوّة و متابعته توجب الفلاح، و لا نعني بالإيمان إلاّ هذا فكيف يكون القائل المقّر به كافراً و بعبارةٍ أخرى كيف يقول الكافر صدّقوا محمّداً و أطيعوه تفلحوا و ترشدوا أليس هذا الكلام منه دليلاً على إيمانه.

و أمّا قوله: (**فقال النّبي ﷺ ياعمّ أتأمرهُم بالنَّصيحة وتَدَعها لنفسك**)فهي أشبه شيءٍ بكلام المجانين إذ لا يعقل بعد إقرار أبي‌طالب بأنّ

النّبي صادق في دعواه و لذلك أمر بني هاشم بإطاعته و متابعته أن يقول له النّبي يا عمّ أتأمرهم بالنّصيحة و تدعها لنفسك.

و حاصل الكلام أنّ الأمر لا يخلو من وجهين:

أحدهما: أن يكون أبو طالب مصّدقاً و مؤمناً ثمّ بعد ذلك أمر بني هاشم بإطاعته و تصديقه فيما إدّعاه.

ثانيهما: أن لا يكون مؤمناً مصّدقاً للنّبي و مع ذلك أمر بني هاشم بإطاعته، لا سبيل إلى الثّاني لأنّه صرّح بأنّ إطاعته و تصديقه و متابعته توجب الفلاح و الرُّشد و هذا إقرارٌ منه بنبّوته لأنّ غير النبيّ لا يؤمن من الكذب فكيف يقال أنّ متابعته توجب الفلاح فيستفاد من كلامه إيمانه و إذا بطل الإحتمال الثّاني يبقى الأوّل و هو أنّه كان مصدِّقاً بالنّبي و مؤمناً به و هو المطلوب.

و أظهر منه قوله: (**يابن أخي قد علمتُ أنّك لَصادق**) و هذا صريحٌ في إيمانه فأنّ العالم بصدق الرّسول في دعواه مؤمنٌ به قطعاً و أمّا قوله: (**ولكنّي أكره أن يقال جزع عند الموت**) فأنّه لا يشبه بكلام العقلاء فأنّ العاقل يتّبع ما يحكم به عقله و لا يبال من قول النّاس فيه و لا سيّما عند الموت و على فرض التّسليم كلامه هذا يدُّل على إيمانه قلباً و عدم إظهاره لساناً لأجل بعض المصالح و هو لا يضُّرنا إذ الإيمان عبارة عن الإعتقاد بالقلب و أمّا الإظهار باللّسان فقد يوجب على خلاف المصلحة ما في التّقية و لا يبعد أن يكون عدم إظهاره بلسانه لأجل المصالح كما في مؤمن أل فرعون حيث كان مؤمناً بموسى قلباً وإعتقاداً و لم يظهر إيمانه أصلاً و قد ورد في الأخبار الواردة عن أهل البيت أنّ أبى طالب في هذه الأمّة كان كمؤمن أل فرعون في أمّة موسى و أمّا قوله:(**سوف أموت على ملّة الأشياخ عبد المطّلب و هاشم و عبدمناف**) فهو لا يدُّل على كفره و كفرهم كما زعم الخصم و نحن أيضاً نقول أنّه مات على ما مات أجداده عليه من الحنفيّة فكأنّ الزّمخشري و أمثاله لم يعلموا أنّ قبل

البعثة كان النّاس على دين المسيح عليه السّلام و أنّما صاروا مأمورين بقبول الإسلام و متابعة النبيّ بعد البعثة:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱلْإِسْلاٰمُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلاٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى ٱلْاٰخِرَةِ مِنَ ٱلْخٰاسِرِينَ**(٢).

و العامّة حكموا بكفر هؤلاء الأعاظم ورغيرهم ممّن لم يؤمن بالنّبي و ماتوا على ذلك و لم يعلموا كيف يمكن الإيمان بمحمّدٍ صلّى الله عليه و آله و سلّم قبل بعثته بل قبل ولادته و كيف أمرهم اللّه به و النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم لم يوجد بعد و هذا دليل على حماقتهم و عدم تدّبرهم في دينهم و إعتقادهم فتراهم يصّرون على كفر عبد اللّه و عبد المطّلب و هاشم رجماً بالغيب و عناداً للرّسول و أهل بيته فإذا كان عبد اللّه كافراً و الرّسول في صلبه فأبو طالب أولى به و علّيّ في صلبه و لم يعلموا أنّ النبيّ لا يكون في صلب الكافر و رحم الكافرة فإذا كان عبد اللّه هكذا حاله فما ظنّك بغيره و أمّا أبو طالب عليه السلام فقد أدرك النبيّ و نصره و أمن به واقعاً و أن لم يظهر إيمانه ظاهراً لأجل المصلحة في حمايته للرّسول بأمرٍ من اللّه و رسوله على ما ثبت في موضعه و نحن نشير إلى بعض ما ورد عنه و نقله المؤرّخون و أرباب السّير في أشعاره و مدائحه ثمّ أقض ما أنت قاضٍ.

فمنها قوله في أشعاره:

و دعوتني و علمت أنّك ناصحي ... ولقد صدقت وكنت ثمّ أميناً

ولقد علمت بأنّ دين محمّدٍ ... من خير أديان البّرية ديناً

و قال عليه السلام في قصيدة أخرى:

إذا إجتمعت يوماً قريش لمفخرٍ ... فعبد منافٍ سرّها و صميمها

فأن حصلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها و قديمها

و إن فخرت يوماً فأنّ محمّداً ... هو المصطفى من سرّها وكريمها

١- آل عمران = ١٥ ٢- آل عمران = ٨٥

و قال عليه السلام في قصيدةٍ أخرى:

أنت النّبي محمّدُ عزم أغرّ مسّودُ

إلى أن قال:

ولقد عهدتك صادقاً في القول لا تتزيد

ما زلت تنطق بالصّواب و أنت طفلُ أمرد

و قال في قصيدة أخرى:

أتعلم ملك الحبش أنّ محمّداً
نبيٌ كموسى و المسيح بن مريم
أتى بالهدى مثل الّذي أتيا به
فكلٌّ بأمر اللّه يهدي و يعصم
و أنكم تتلونه في كتابكم
و بصدق حديثٍ لا حديث المترجم
فلا تجعلوا للّه نِدّاً و أسلموا
فأنّ طريق الحقّ ليس بمظلمٍ

و قال في موضع أخر:

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً نبيّاً كموسى خطّ في أوّل الكتب

وقال في موضع أخر:

نبيُ أتاه الوحي من عند ربّه و من قال لا يقرع بها سنّ نادمٍ

و الأشعار كثيرة و لنختم الكلام في هذا الباب.

بما ثبت في كتاب الغدير و هو أنّه كان يوماً علىٰ المنبر في مسجد الكوفة و هو يعظ النّاس إذ قال له رجل ياأميرالمؤمنين أنت بالمكان الذّي أن لك اللّه و أبوك معذّبٌ في النّار فتّغير وجه علّي من سوء المقالة و قبح الإفتراء ثمّ قال عليه السلام له، مَه، فضّ اللّه فاك والّذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً لو شفع أبي في كلّ مذنبٍ على وجه الأرض

لشفعه اللّه ثمّ قال أبي معذّبٌ في النّار و إبنه قسيم الجنّة و النّار ثمّ قال عليه السلام أنّ نور أبي طالب يوم القيامة ليطفئ أنوار الخلائق إلاّ خمسة أنوار راجع الغدير[١].

ترى الحديث بمسانيده الصّحيحة و ذكره إبن الجوزي و نحن نقلناه عن كتاب ماذا في التّاريخ[٢] و نظير هذه القصّة موجود في نهج البلاغة أيضاً فهذا ما قاله علّي بن أبي طالب في حقّ أبيه و ما قاله أبو طالب في رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و لولا مخافة الإطناب و خروج الكتاب عمّا نحن بصدده من تفسير كلام اللّه لأشبعنا الكلام في المقام و مع ذلك فقد أطلنا الكلام في الباب و أنّي معتذرٌ من أخواني من الإطالة فيما هو خارج عن موضوع الكتاب و لكنّي لم أقصد به إلاّ نصرة المظلوم و الحماية من الدِّين و رضى و اللّه و رسوله و في خاتمة البحث نقول لصاحب الكشّاف و أمثاله:

نحن بما عندنا و أنت بما عندك راضٍ و الرّأي مختلفُ

اللّهم أحشرنا مع أبي طالب و أحشرهم مع الزجّاج و أمثاله فأنّ من أحبَّ حجراً حشره اللّه معه و صلّى اللّه على محمّدٍ وأله الطّاهرين.

وَ قَالُوٓا۟ إِنْ نَتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا اٰمِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن الكفّار **إِنْ نَتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ**، أعني به الإسلام الّذي جاء به محمّد صلى الله عليه وآله وسلم **نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ**، أي يتّخطفنا العرب من مكّة و لا طاقة لنا بالعرب فلم يقبل اللّه منهم العذر و قال في جوابهم، **أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا اٰمِنًا**، و هو بيت اللّه الحرام الّذي من دخله كان أمناً و بعبارةٍ أخرى

١- ص ٣٨٨ ج ٧
٢- ج ١ ص ٢٧٥

أنّا جعلنا الحرم أمناً لحرمة البيت مع أنّهم كفّار يعبدون الأصنام حتّى أمنوا على نفوسهم و أموالهم فلو أمنوا باللّه و رسوله لكان أحرىٰ بأن يؤمنهم اللّه من شرّ الأشرار ثمّ وصف الحرم بقوله: **يُجْبىٰ إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ** أي يجلب من سائر البلاد ثمرات كلّ شئٍ إليه و في إشارة إلى أنّ اللّه تعالى حافظٌ للحرم و ساكنيه من الأفات و البليّات فهذا العذر منهم غير مقبول **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ،** بأنّ من رزقهم و أمّنهم فيما مضى حال كفرهم فهو يرزقهم لو أسلموا و يمنع شرّ الكفّار عنهم بطريق أولى في إسلامهم.

وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَليلًا وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثينَ

و كم من قريةٍ، أي من أهل قريةٍ إستّحقوا العقاب، **بَطِرَتْ مَعيشَتَها،** أي أبطرتها معيشتها، و البطر و الأشر واحد و هو شقّ العصا بتضييع حقّ نعم اللّه و الطُّغيان فيها بجحدها و الكفر بها و قوله: **فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ** إلى أخر الآية يعني مساكن الّذين أهلكهم اللّه لم تسكن فيها من بعدهم إلاّ قليلاً و ورث اللّه تعالى مساكنهم لأنّه لم يبق منهم أحد فيها نعوذ باللّه من غضب الجبّار.

و في الآية إشارة إلى أنّ عاقبة الظُّلم و الكفر و الطُّغيان و العناد ليست إلاّ الهلاك و الخسران في الدّنيا و الأخرة أنّ ربّك لبالمرصاد.



وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرىٰ حَتّىٰ يَبْعَثَ فى أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ اٰياتِنا وَ ما كُنّا مُهْلِكِي الْقُرىٰ إِلَّا وَ أَهْلُها ظالِمُونَ

لمّا أخبر اللّه تعالى في الآية السّابقة بهلاك كثيرٍ من أهل القرى الّتي بطرت معيشتها أخبر في هذه الآية أن إهلاكهم بعد تمامية الحجّة عليهم و ظلمهم بعد ذلك و ذلك لأنّ العدل يقتضي أن يكون العذاب بعد الحجّة لا قبلها و المراد بها في المقام الحجّة الظّاهرة و هي الأنبياء و الرّسل و الأئمة الأوصياء لهم كما

ورد في الحديث عن موسى إبن جعفرعليه السلام قال إنّ للّـه عـلى النّـاس حـجّتين حجّة ظاهرة و حجّة باطنة.

أمّا الحجّة الظّاهرة فهي الأنبياء و الرُّسل و الأئمة.

و أمّا الباطنة فهي العقل و أنّما لم يذكر العـقل فـي الآيـة مـع أنّـه أشـرف و أعظم من الحجّة الظّاهرة إذ به تعرف الحجّة، لأنّه من المسلّمات و لذلك قـيل أنّ العقل من شرائـط العـامة للـتكليف فـمن لا عـقل له لا تكـليف له و مـن لا تكليف له لا يحتاج الى الحجّة الظّاهرة و الأنبياء أنّما بعثوا للعقلاء لا للمجانين إذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير ألفاظ الآية فنقول كلمة، ما، نافية بمعنى ليس أي أنّ اللّه تعالى لم يهلك القرى حتّى بعث فيها رسولاً و قوله: **فِىٓ أُمِّهَا،** فالأُمّ الأصل قال أهل اللُّغة أمّ الشّيء أصله، و **الهاء** ترجع على القرى أي في أمّ القرى و ذكروا في أمّها، قولان:

أحدهما: أنّ المراد بأمّ القرى مكّة المكـرّمة، و المـعنى الأخـر أنّ المـراد بـه معظم القرى في سائر الأمكـنة لأنّ مـعظم القـرى بـالنّسبة الى القـرى الصـغيرة بمنزلة الأصل و أنّما قالوا ذلك لأنّ جميع الأنبياء لم يـبعثوا فـي مكّـة المكـرّمة كما هو ظاهر، و في قوله: **يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا،** إشارة الى وظـيفة الرّسـول و المراد بالأيات الأيات التشّريعية الموجودة في الكـتاب المـنزّل عـلى النّـبي أو الأعمّ منها.

و من التّكـوينيّات أعـني بـها الأوصـياء فأنّـهم أعـني الأوصـياء فـي صـدر التّكوينيّات بعد الأنبياء فالرّسول يتلوا على الأمّة الأحكام التشريعيّة و يـعرفّهم الوصّي بعده.

و قوله: **وَ مَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ** فالماء أيضاً نافية أي لم نهلك القرى إلاّ بعد ظلم أهلها و حاصل الكلام في الآية أنّ العـذاب و الإهـلاك يـتّوقف عـلى أمرين:

أحدهما: بعث الرّسول.

ثانيهما: صدور الظُّلم.

و لا يكفي في نزول العذاب أحدهما و هو واضح.

وَ مَآ أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ زِينَتُهَا وَ مَا عِنْدَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

كلمة، ما، موصولة بمعنى، الّذي، و المعنى الّذي أعطيتكم من شيئ، فمتاع الحياة الدُّنيا، أي هو شيءٌ تنتفعون به في الحياة الدُّنيا و تتزّينون به و ما عند اللّه من الثّواب و نعيم الجنّة خيرٌ و أبقى من هذه النِّعم لأنّها باقية و الباقي خير من الفاني أفلا تعقلون، ذلك و تَّفكرون فيه هذا تفسير ألفاظ الآية.

و أعلم أنّ المستفاد من الآية أمران:

أحدهما: أنّ الدُّنيا و ما فيها زائلة دائرة لا بقاء لها.

الثّاني: أنّ ما عند اللّه خير و أبقى أي لا زوال له.

أمّا الأصل الأوّل فهو من الواضحات و لذلك ورد الذّم للدُّنيا في كثير من الأيات و الأثار:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَ ٱلْاٰخِرَةُ خَيْرٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَ ٱلْبَنِينَ وَ ٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنْطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَ ٱلْفِضَّةِ وَ ٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَ ٱلْأَنْعَامِ وَ ٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ ٱللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَا مَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْاٰخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**(٥).

١- آل عمران = ١٨٥
٢- النّساء = ٧٧
٣- آل عمران = ١۴
۴- الأنعام = ٣٢
۵- التّوبة = ٣٨

قال اللّه تعالىٰ: **أَرَضِيتُمْ بِالْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْاٰخِرَةِ**[١] و غيرها من الأيات.

و قال الشّاعر:

أنّــما الدُّنــيا كـظلٍّ زائـلٍ أو كفيفٍ بات فيها و أرتـحل

وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لو كانت الدُّنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة، و لنعم ما قيل فيها:

رأيت خـيال الظِّل أعـظم عـبرةٍ لمــن كــان فــي الحــقالق راقــي

شخوصاً و أصواتاً يخالف بعضها لبــعضٍ و أشكــالاً يــغير وفــاقٍ

تــجيُو تــمضي بــابةُ بــعد بــابةٍ و تــفنى جـميعاً و المـحرّك بـاقٍ

و قال الأخر:

مــا أنــعم اللّــه عــلى عــبده بــنعمةٍ أوفــى مــن العــافية

وكــلُّ مــن عــوفي فــي جســمه فأنّ فــي عــيشةٍ راضــية

والمــال حــلوُ حســنُ جــيّدُ عــلى الفــتى لكــنّه عــارية

مــا أحســن الدُّنــيا ولكــنّها مــع حســنها غــدّارةُ فــانية

و الأثار و الأخبار في ذمّها كثيرة قد مرَّ في تـضاعيف الكتاب كثير مـنها و الّذي يستفاد من الأيات و الأخبار هو أنّ الذّم لها يرجع إلى فنائها و أنّها لا يبقى علىٰ حالٍ من الأحوال و العقل يحكم بأنّ ما لا بقاء له لا ينبغي الإعتماد عليه و لذلك ترى الأنبياء و من تبعهم لم يعتمدوا عليها بل العقلاء أيضاً كذلك.

و أمّا الأصل الثّاني و هو أنّ و ما عند اللّه باقٍ و خير فهو أيضاً ممّا لا كـلام فيه فأنّ ما عند اللّه باقٍ ببقاء اللّه كما أنّ ما في الدّنيا فانٍ بفناء الدّنيا و المراد بما عند اللّه هو الثّواب المترّتب على العمل الصّالح في الأخرة من الجنّة و نـعمها و قد أشير إلى ذلك أيضاً في كثير من الأيات:

١- التّوبة = ٣٨

قال اللّه تعالىٰ: **مٰاعِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمٰا عِنْدَاللّٰهِ بٰاقٍ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقٰى**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَلْاٰخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقٰىٓ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَلْبٰاقِيٰاتُ اَلصّٰالِحٰاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوٰابًا**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَلْبٰاقِيٰاتُ اَلصّٰالِحٰاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوٰابًا وَ خَيْرٌ مَرَدًّا**[۵].

و الأصل في بقاء ذلك كلّه و كونه خيراً هو قوله تعالى: **وَ اَللّٰهُ خَيْرٌ وَ أَبْقٰىٓ**[۶].

فمن أخذ الفاني و ترك الباقي فهو ليس بعاقلٍ حقّاً و لذلك قال في أخر الآية أفلا تعقلون.

أَفَمَنْ وَعَدْنٰاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاٰقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنٰاهُ مَتٰاعَ اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيٰا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ اَلْقِيٰمَةِ مِنَ اَلْمُحْضَرِينَ

الهَمَزة للإستفهام الإنكاري أي ليس كذلك أشار اللّه تعالى في هذه الآية إلى صنفين من النّاس، صنفٌ وعدهم اللّه وعداً حسناً و هو ثواب الجنّة جزاءً على طاعتهم في الدّنيا ثمّ أنّهم بعد موتهم لاقوا ما وعدهم اللّه من الثّواب.

و ثنفٌ أخر متّعهم اللّه بمتاع الحياة الدُّنيا و هم يوم القيامة من المحضرين في النّار بسبب معاصيهم و إنغمارهم في لذّات الدّنيا و عدم توّجههم إلى الأخرة.

أيكون هذا مثل ذلك، ليس كذلك قطعاً لأنّ الصّنف الأوّل دخل الجنّة و الصّنف الأخر دخل النّار.

١- النّحل = ٩۶
٢- طه = ١٣١
٣- الأعلىٰ = ١٧
۴- الكهف = ۴۶
۵- مريم = ٧۶
۶- طه = ٧٣

قال إبن عبّاس نزلت في حمزة بن عبد المطلب و في أبي جهل بن هشام و قيل نزلت في النّبي و أبى جهل و قيل غير ذلك و الصّحيح أنّها نزلت في المطيع و العاصي فأنّ كلّ عاصٍ متّع في الدّنيا بالعافية و الغنى وله في الأخرة النّار ولكّ مؤمنٍ صبر على بلاء الدّنيا ثقةً بوعد اللّه وله في الأخرة الجنّة، فهو من مصاديق الآية.

وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ

أي يوم يناديهم اللّه يوم القيامة فيقول لهؤلاء المشركين أين شركائي الذّين كنتم تزعمون في الدّنيا حتّى ينصرونكم و يشفعون لكم.

قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ

قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ، أي حقّت عليهم كلمة العذاب و هم الرّؤساء، **رَبَّنَا هَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ**، أي دعوناهم إلى الغّي فقيل لهم أغويتموهم، قالوا أغويناهم كما غوينا، يعني أضللناهم كما كنّا ضالّين، تبرّأنا إليك، أي تبّرأ بعضنا من بعضٍ، ما كانوا إيّانا يعبدون، أنّما كانوا يعبدون أهوائهم و يطيعون شهواتهم.

وَ قِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ

أي قيل لهم أدعوا شركائكم الذّين عبدتموهم من دون اللّه، **فَدَعَوْهُمْ**، أي دعوا شركائهم فلم يستجيبوا لهم و رأوا العذاب و في قوله: **لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ**، قولان:

أحدهما: لو أنّهم كانوا يهتدون ما رأوا العذاب.

الثّاني: لو كانوا يهتدون لرأوا العذاب.

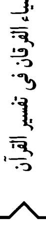
وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ فَيَقُولُ مٰاذٰآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ

و المعنى يوم يناديهم اللّه يوم القيامة فيقول لهؤلاء الكفّار و المشركين ماذا أجبتم المرسلين، فيما دعوكم إليه من توحيد اللّه و عدله و عبادته.

و حاصل الكلام في هذه الأيات من قوله: **وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكٰآءِيَ**، إلى قوله: **أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ**، هو السّؤال عن التّوحيد و النبُوّة و فيه إشعار بأنّهما أي التوحّيد و النبوّة ركنان أصيلان في الدّين و سائر الأحكام فرعٌ عليهما و هو كذلك فأنّ من لم يعرف اللّه كيف يعرف نبيّه و من لم يعرفهما فهو خارجٌ عن مدار البحث لأنّه كافرٌ محض.

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْبٰآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاٰ يَتَسٰآءَلُونَ

فعميت أي خفيت و سترت عليهم الأخبار يومئذٍ و قيل معناه تعمى عليهم الحجج فلا يسأل بعضهم بعضاً شبَّه إنسداد طريق الأخبار عليهم بالعمي عن الأبصار كما تنسّد طرق الأرض على الأعمى و معنى إنسداد طريق الأخبار عليهم أنّهم لم يجيبوا عمّا سئلوا عنه لإنقطاعهم عن الحجّة و هو لا نافي قوله فهم لا يتسألون لأنّ مواطن القيامة مختلفة فلا محالة تختلف فيها حالهم من حيث السّؤال و عدمه و هكذا في الجواب.



فَأَمّٰا مَنْ تٰابَ وَ اٰمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحًا فَعَسىٰٓ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ

أي من تاب من الشّرك و الكفر أو تاب من المعاصي و رجع عنها إلى الطّاعات و أتى بالأعمال الصّالحات فعسى أن يكون من المفلحين، إن دام على الطّاعة و الإنقياد إذ قد يجوز أن يزول فيما بعد فيهلك، و قيل أنّ، عسى، من اللّه في جميع القرأن واجبة.



وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مٰا يَشٰآءُ وَ يَخْتٰارُ مٰاكٰانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحٰانَ ٱللّٰهِ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ

كلمة، ما، في قوله: **مٰا كٰانَ** قيل أنّها موصولة و قيل أنّها نافية، فمعنى الآية على الأوّل أنّ ربَّك يخلق ما يشاء من الخلق و يختار الّذي كان لهم أي للنّاس فيه إختيار و بعبارةٍ أخرى يختار الّذي كان لهم الخيرة فدلّ ذلك على شرف إختيار اللّه لهم.

علىٰ الثّاني: معنى الكلام ليس لهم الخيرة على اللّه بل للّه الخيرة عليهم لأنّه مالكٌ حكيمٌ في تدبيرهم فالإختيار مسلوبٌ عنهم و ثابتٌ للّه فقط و على هذا فالوقف على قوله: **وَ يَخْتٰارُ**، ثمّ أنّهم إختلفوا في المعنى المراد بالإختيار فقال بعضهم ليس لهم إختيار في جعل الحكم في الأحكام الشرعيّة.

و قيل معناه، ما كان لهم الخيرة في أن يختاروا الأنبياء فيبعثوهم، و قال مجاهد لا يتسائلون بالأنساب و القرابات، و قيل لا يتسائلون بما فيه حجج و غير قيل ذلك.

و قال القرطبى في تفسيره لهذه الآية هذا متَّصل بذكر الشُّركاء الّذين عبدوهم و أختاروهم للشّفاعة و المعنى أنّ الإختيار في الشفّاعة للّه تعالى لا لهم، و قيل هو جواب الوليد بن المغيرة حين قال (لولا نزِّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم) يعني نفسه زعم، و عروة بن مسعود الثّقفي من الطّائف و قيل هو جواب اليهود إذ قالوا لو كان الرّسول إلى محّمد غير جبرئيل لآمنّا به إنتهى.

و عن إبن عبّاس أنّه قال، و ربّك يخلق ما يشاء من خلقه و يختار من يشاء لطاعته و قال الآخر يختار من يشاء لنبوّته، و قال الآخر و يختار الأنصار لدينه هذه خلاصة الأقوال حول الآية و الّذي يقوّي في النَّظر أنّ كلمة، ما، للموصل لا معنى له قولهم فدَّل بذلك على شرف إختيار اللّه لهم لا يناسب المقام إذ ليس البحث في أنّ مختار اللّه أشرف أم مختار الخلق و إنّما البحث في أصل الإختيار المشار إليه في الآية و أنّه ما هو و المراد به و توضيح ذلك إجمالاً.

أنّه لا شكّ أنّ العبد فاعلٌ مختار في أفعاله و أقواله و هذا ممّا لا كلام فيه عند العدليّة و أمّا عند الأشاعرة القائلين بالجبر فليس له إختيار أصلاً و الفعل فعل اللّه لا فعل العبد في الحقيقّة فعلى هذا فعل العبد لا يخلو حاله من أمرين لا ثالث لهما:

أحدهما: أن يكون الفعل له على القول بالإختيار.

الثّاني: أن يكون الفعل للّه على مسلك الجبر و على التّقديرين ما ذكروه لا يتّم أمّا على القول بالجبر فواضح إذ لا فعل للعبد حقيقتاً حتّى يقال أنّ إختيار اللّه ممّا كان لهم الخيرة أشرف و أفضل بل الفعل منسوبٌ إلى الحقّ واقعاً فأيُّ شيءٍ إختاره اللّه ممّا كان للعبد فيه الخيرة و المفروض سلب الإختيار منه بالكلّية و هذا على مسلك الجبر واضح و أمّا على القول بثبوت الإختيار للعبد في أفعاله و أقواله فالأمر أوضح لأنّ العبد إذا أراد أن يأكل أو يشرب أو يقوم أو يقعد أو أطاع اللّه أو عصاه يفعل ما أراد قطعاً كما هو معنى الإختيار ففي المفروض إختيار اللّه لا معنى له و إلاّ يلزم الجبر و ذلك لأنّ إختيار اللّه في الّذي للعبد فيه إختيار، إن كان موافقاً لإختيار العبد فهو تعالى لم يختر شيئاً، و إن مخالفاً له مانعاً عن وجوده فهو الجبر، فثبت و تحقق أنّ كلمة، ما، للموصول لا معنى له عقلاً و شرعاً هذا كلّه مضافاً إلى أنّ الأمر لو كان كما ذكروه فحقّ العبارة أن يقال و يختار ممّا كان لهم الخيرة، أي يختار من الّذي كان لهم الخيرة لأنّ المختار بعض الأفعال لا كلّها.

بعبارةٍ أخرى أنّ اللّه لا يختار من الّذي لهم فيه الخيرة جميعه بل يختار بعضه من بعضٍ و لا يدّل على هذا شيء من الكلام و حيث لم يقل، ممّا، و قال، ما، فالموصول لا معنى له و هو المطلوب.

إذا عرفت هذا فنقول، كلمة، ما، في الآية للنّفي قطعاً و على هذا فالوقف على قوله: **وَ يَخْتَارُ**، و المعنى ليس للنّاس إختيار فيما إختاره اللّه و بعبارةٍ

أخرى أنّ اللّه يختار الّذي ليس للعبد فيه إختيار فكما أنّه يخلق ما يشاء من خلقه كذلك يختار ما يشاء و لا مرَّد له هذا بناءً على أن يكون الموقف على قوله: **وَ يَخْتٰارُ**، و يحتمل أن يكون الوقف على قوله: **مٰا يَشٰآءُ**، و الواو في يختار للعطف أو الإستئناف و المعنى و ربّك يخلق ما يشاء في خلقه و يختار ما كان لهم الخيرة و أمّا ما كان لهم فيه حقّ الإختيار فلا يختاره اللّه و الفرق بين المعنيين هو أنّه إذا كان الوقف على، و يختار، فالمعنى ما كان للنّاس فيما إختاره اللّه لهم الإختيار، و إذا كان الوقف على، ما يشاء، فالمعنى أنّه تعالى يختار الّذي ليس للنّاس فيه الخيرة كبعثة الأنبياء مثلاً وكيف كان يستفاد من الآية أمران:

أحدهما: أنّه تعالى يخلق في خلقه ما يشاء كما قال تعالى: **إِذٰآ أَرٰادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**[١] و ليس لأحدٍ الإنكار عليه تعالى و هذا ممّا لا كلام فيه.

الثّاني: أنّه تعالى يختار لخلقه من الأحكام وليس لأحدٍ الإنكار عليه أيضاً أو يختار من الخلق للنبوّة فليس لأحدٍ أن يقول لم أختاره مثلاً و الحاصل كما أنّه لا يجوز الرَّد عليه تعالى في إيجاده الخلق كذلك لا يجوز الرَّد عليه فيما فعله في حقّ العبيد فهو تعالى مختار في جميع أفعاله بقولٍ مطلق فكما أنّه يخلق ما يشاء يختار من يشاء من خلقه للنّبوة و الإمامة و هو لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون و هذه الآية دالّة على أنّ النّاس مختارون في أفعالهم و أقوالهم التّي جعلها تحت إختيارهم من الأكل و الشّرب و الطّاعة و العصيان و غيرهما ممّا هو من أفعالهم و أمّا ما إختاره اللّه تعالى من النبوّة و الإمامة و جعل الأحكام التكليفيّة فليس للخلق فيه إختيار فلا يجوز لهم إختيار النّبي و الوصّي و جعل الحكم الشّرعي و أمثالها ممّا هو خارج عن وظيفة العبد و هذا ممّا لا خفاء فيه.

١- يس = ٨٢

و أمّا قوله في أخر الأية، **سُبْحٰانَ ٱللّٰهِ وَ تَعٰالٰى عَمّٰا يُشْرِكُونَ**، فقد ظهر معناه ممّا ذكرناه و هو أنّه تعالى منزهٌ عن النّقائص و لا ينبغي الشّرك به فأنّ ما سواه مخلوق له و المخلوق لا يكون شريكاً لخالقه للزومه تقدُّم الشّيء على نفسه و هو محال، قال محمود الورّاق:

توَّكل على الرّحمن في كلّ حاجةٍ أردت فأنّ اللّـه يقضي و يقدر
إذا ما يرد ذو العرش أمراً بعبده يصيبه و ما للعبد ما يتَّخير
و قد يهلك الإنسان من وجه حذره و ينجو بحمد اللّه من حيث يحذر

و قال بعضهم:

العبد ذو ضجرٍ و الرَّب ذو قدرٍ و الدَّهر ذو دولٍ و الرِّزق مقسومُ
و الخير أجمع فيما إختار خالقنا و في إختيار سواه اللّؤم و الشّؤم

وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ مٰا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مٰا يُعْلِنُونَ

أي هو تعالى عالم بما يخفونه و ما يظهرونه يقال أكننت الشّيئ في صدري أي أخفيته، و كنته بغير ألف رضنته و قيل أكننت و كننت لغتان، و أمّا أنّه تعالى عالم بالسِّر و العلن فهو ثابت عقلاً و نقلاً.

أمّا عقلاً فلأنّه لو لم يكن عالماً بشيئٍ فلا محالة جاهلاً به لعدم الواسطة بين العلم و الجهل و إذا كان جاهلاً فهو ناقص في ذاته لأنّ الجهل نقصٌ، و النّقص من شئون الممكن و الوجب منزّهٌ عنه و بعبارةٍ أخرى كلّ ناقصٍ فهو ممكنٌ و كلّ ممكنٍ مخلوق.

و أمّا نقلاً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّ ٱللّٰهَ قَدْ أَحٰاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أَنَّ ٱللّٰهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**.

و أمثالها وقد سبق البحث فيه مفصّلاً غير مرّةٍ.

١- الطلاق = ١٢

وَ هُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَ ٱلْأٰخِرَةِ وَ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

ثمّ أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه لا إله إلاّ هو، و هو التّوحيد و له الحمد و الشّكر على نعمه في الدّنيا و الأخرة و له الحكم لا لغيره و إليه ترجعون، بعد الموت **إِنّا لِلّٰهِ وَ إِنّآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ** و إذا كان كذلك فهو المستّحق للعبادة في جميع السّموات و الأرض و أنّه يستحقّ الثّناء و الحمد و المدح و التّعظيم على ما أنعم به على خلقه في الدّنيا و الأخرة، و له الحكم بينهم بالفصل بما يميّز به الحقّ من الباطل و منه المبدأ و إليه المنتهى.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ، وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ



لمّا أخبر اللّه تعالى في الآية السّابقة عن التّوحيد بقوله و هو اللّه لا إله إلاّ هو، إستدلّ في هذه الأيات على إثبات المدّعى فكأنّه قيل ما الدّليل على أنّه لا إله إلاّ هو، فأجاب اللّه تعالى بقوله: **أَرَأَيْتُمْ** إلى أخر الأيات و هذه البراهين كلّها حسيّة لا يمكن لأحدٍ الإرتياب فيها و هي ثلاثة:

أوّلها: قوله: **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا** و معنى سرمداً أي دائماً إلى يوم القيامة، بلا نهارٍ و لا ضياءٍ، من إلهٌ غير اللّه يأتيكم بضياء تبصرون فيه، **أَفَلَا تَسْمَعُونَ**، أي أفلا تقبلون و تتفكّرون فيه، و قيل معنى أفلا تسمعون أفلا تسمعون هذه الحجّة التّي أقمناها لكم، كيفيّة الإستدلال هي أنّه لا شكّ في وجود اللّيل لأنّه محسوس و لا شكّ أيضاً في أنّ اللّيل ليس له ضياء و من المعلوم أنّ له فاعلٌ لا محالة لأنّا نرى أنّه ينتهي إلى

الصُّبح و يجئ الضّياء بعد الظُّلمة و ليس الفاعل له إلاّ اللّه الّذي خلق السّموات و الأرض و ما فيهما فلو كان هناك إلهٌ أخر غير اللّه فلا محالة يكون قادراً على رفع الظُّلمة، إذ لو لم يكن قادراً فهو ناقص في قدرته و النّاقص الضّعيف لا يكون خالقاً و حيث أنّا نرى أنّه ليس هناك من يقدر على رفع الظُّلمة علمنا أنّ اللّه تعالى هو الخالق الّذي ينبغي أن يعبد لا غيره و هو المطلوب.

ثانيهما: قوله **أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا**، و تقريب الإستدلال في الأيتين واحد، فكما أنّه لا يمكن لأحدٍ أن يأتي بضياءٍ بعد اللّيل غير اللّه تعالى كذلك لا يمكن لأحدٍ أن يأتي باللّيل بعد النّهار غير اللّه و إذا كان كذلك فلا إله إلاّ هو و في قوله: **أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ**، إشارة إلىٰ أنّ تعاقب اللّيل و النّهار ليس من الأمور العقليّة المحضة بل هو حسيّة يراه كلّ أحدٍ بعينه هذا إذا حمنا الأبصار على الإبصار بالعين و أمّا إذا حملناه على الإبصار القلبي فالمعنى أفلا يتدَّبرون فيه و كيف كانت لا شكّ أنّ اللّيل و النّهار و تعاقبهما و تتابعهما على النّظم الخاصّ من أدلّ الدّلائل و أوضح البراهين الحسيّة على المدّعى لمن كان له فهمٌ و عقلٌ و أمّا المجانين فلا كلام لنا معهم.

ثالثها: قوله **وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ** أي من نعم اللّه الّتي أنعم اللّه بها عليكم، أنّ **جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ**، أي في اللّيل، ولتبتغوا، و تطلبوا من فضله في النّهار، و أنّما قال ذلك لأنّ اللّيل جعل للسّكون فيه و جعل النّهار للتصرّف و الحركة في تجارةٍ أو زراعةٍ أو صنعةٍ أو غير ذلك ممّا يجلب به الرّزق و من المعلوم أنّ الإنسان في بقاءه يحتاج إلى أمرين:

أحدهما: الإشتغال بالكسب لأجل المعاش.

الثّاني: الإستراحة بعد التّعب و المشّقة و اللّه تعالى جعل النّهار للأوّل و اللّيل للثّاني و لولا ذلك لما يقدر الإنسان على إدامة حياته و في قوله: **لَعَلَّكُمْ**

تَشْكُرُونَ، أي لكي تشكرون إشارة الى أنّ الشّكر على النِّعمة واجب عقلاً و إذا كان اللّيل و النّهار مع ما فيهما من المنافع و اللذّات من النِّعم بل أحسنها و أفضلها فللعاقل أن يشكر ربّه و لا يكفر به و من كفر فأنّ اللّه غنيٌّ عن العالمين.

وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكٰآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ

في دار الدّنيا أنّهم شركائي من الأصنام و الأوثان و غيرهما و قد مضى تفسير الآية و أنّما كرّرت الآية لأنّ الأولى للتقرير و الثّانية للتَّعجيز عن إقامة البرهان لما طولبوا به بحضرة الأشهاد و مقام التّقرير و الإثبات غير مقام التَّعجيز عن الجواب فلمّا قرّر لهم في الآية الأولى أثبتت لهم في الثّانية العجز و الضّعف في مقام الجواب و هو ظاهر.

وَ نَزَعْنٰا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنٰا هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ فَعَلِمُوٓا أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلّٰهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ

قال في المفردات نزع الشئ جذبه من مقرّه كنزع القوس عن كبده و يستعمل ذلك في الإعراض و منه نزع العدواة والمحبّة من القلب الى أن قال نزع فلان كذا أي سلب إنتهى.

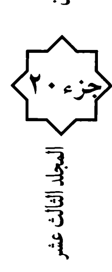
و أنّما أتى بالماضي دون المستقبل مع أنّ القيامة ما وقعت لأنّ المستقبل إذا كان و قوعه محقّقاً فهو في حكم الماضي كقوله تعالى: **اِقْتَرَبَتِ ٱلسّٰاعَةُ** و المراد بالشَّهيد الّذي يشهد على تلك الأمّة هو نبيّها الّذي يشهد عليها بما فعلوه و قيل هؤلاء الشّهداء هم عدول الأخرة الّذين لا يخلو زمانٌ منهم يشهدون على النّاس بما فعلوا من المعاصي قال اللّه تعالى مخاطباً لنبيَّه:

قال اللّه تعالى: **فَكَيْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنٰا بِكَ عَلٰى هٰٓؤُلآءِ شَهِيدًا**(١).

١- النّساء = ٤٢

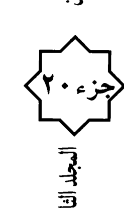
و قد ورد في بعض الأخبار أنّ الشّهيد في الأمّة الإمام في كلّ عصرٍ و زمان و الرّسول شاهدٌ على الكلّ، يقول اللّه تعالى: **وَ نَزَعْنٰا** أي أخرجنا و أحضرنا من كلّ أمّةٍ من الأمم شهيداً يشهد عليها **فَقُلْنٰا هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ**، أي جيئوا بـه إن كنتم صادقين في قولكم و عملكم، فعلموا أنّ الحقّ للّه و أنّه ليس إلهٌ إلاّ هو و ضلَّ عنهم ما كانوا يفترون، أي بطل ما عبدوه مـن دون اللّـه، و إفـتراءهـم هـو إدّعاءهم الإلهية مع اللّه تعالى.

■



إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَ
اٰتَيْنَاهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ
أُولِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ اٰتَيٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ
ٱلْاٰخِرَةَ وَ لَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَ أَحْسِنْ
كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَ لَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي
ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ
إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِيٓ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ
قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ
قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعًا وَ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ
قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا
مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَ
قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ
لِمَنْ اٰمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا وَ لَا يُلَقَّيٰهَآ إِلَّا
ٱلصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَ بِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا
كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَ مَا كَانَ
مِنَ ٱلْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَ أَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ
بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَوْلَآ أَنْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا
لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ
ٱلدَّارُ ٱلْاٰخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا

فِى ٱلْأَرْضِ وَ لاٰ فَساٰداً وَ ٱلْعاٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جاٰءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهاٰ وَ مَنْ جاٰءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئاٰتِ إِلَّا ماٰ كاٰنُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْاٰنَ لَراٰدُّكَ إِلىٰ مَعاٰدٍ قُلْ رَبِّىٓ أَعْلَمُ مَنْ جاٰءَ بِالْهُدىٰ وَ مَنْ هُوَ فى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَ ماٰ كُنْتَ تَرْجُوٓا أَنْ يُلْقىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتاٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكاٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَ لاٰ يَصُدُّنَّكَ عَنْ اٰياٰتِ ٱللّٰهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَ ٱدْعُ إِلىٰ رَبِّكَ وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَ لاٰ تَدْعُ مَعَ ٱللّٰهِ إِلٰهًا اٰخَرَ لآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هاٰلِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾



◀ اللّغة

قاٰرُونَ: إسم أعجّمي لا ينصرف.

فَبَغىٰ: البغي طلب العُلو بغير حَّق و منه قيل لولاة الجور، بغاة.

ٱلْكُنُوزِ: جمع كنز و هو عبارة عمّا يخّبأ تحت الأرض.

لَتَنُوٓأُ: يقال ناء بحمله ينوه نوحاً إذا أنهض به مع ثقله عليه.

ٱلْعُصْبَةِ: الجماعة و قيل ما بين العشرة الى الأربعين.

فَخَسَفْناٰ: الخسف ذهابٌ في الأرض في جهة السِّفل.

فِئَةٍ: الفئة الجماعة.

يَصُدُّنَّكَ: الصَّد المنع و الباقي واضح.

◀ الإعراب

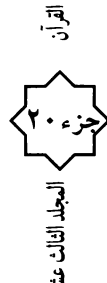
مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ ما، بمعنى، الّذي، في موضع نصب بآتينا، و إن، و إسمها و خبرها صلة، الّذي، و لهذا كسرت، إن، مِنَ ٱلْكُنُوزِ يتعلّق، بآتينا و إِذْ قَالَ لَهُ ظرفٌ له فِيمَآ آتَيٰكَ ما، مصدّرية أو بمعنى، الّذي و هي في موضع الحال عَلَىٰ عَلم في موضع الحال مِنْ قَبْلِهِ ظرفٌ لأهلك و مَن مفعول أهلك مِنَ ٱلْقُرُونِ يتعلّق بأهلك و من لابتداء الغاية و يجوز أن يكون حالاً من مِن مِن زِينَته حال من ضمير الفاعل في، خرج، وَيْلَكُمْ مفعول محذوف أي ألزمكم اللّه ويلكم وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ (وَي) عند البصرّيين منفصلة عن الكاف و الكاف متصلّة، بأن، و معنى وَي، تعجُّب تِلْكَ ٱلدَّارُ مبتدأ ونَجْعَلُهَا خبر أَعلَم من جاء من، في موضع نصب إِلَّا وَجْهَهُ إستثناء من الجنس أي إلاّ إيّاه.

◀ التَّفسير

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَ آتَيْنَاهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ قارون كان من قوم موسى عليه السّلام.

قال إبن إسحاق، كان موسى إبن أخيه و قارون عمّه و قال إبن جريح كان إبن عمّه لأمه و أبيه، فبغى قارون على قومه بكثرة ماله و البغي طلب العلّو بغير حقٍّ و منه قيل لولاة الجر، بغاة، ثمّ أنّ قارون إسم أعجمّي لا ينصرف و روي أنّه كان عالماً بالتّوراة فبغى على موسى و قصد تكذيبه في نبوّته و الإفساد عليه قال بعض أرباب السّير كان قارون يقرأ التّوراة في جملة المؤمنين و لم يكن أحسن صوتاً منه و كان موسى يحبّه كثيراً و كان أعلم بني إسرائيل بعد موسى و هارون و كان صاحب أموال لا تحصى و كان إذا خرج على قومه

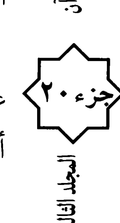


يخرج معه أربعة آلاف فارس و إذا سافر من بلدٍ الى بلدٍ حمل معه مفاتح كنوزه فتَّكبر و أستطال على بني إسرائيل كما أخبر اللّه تعالى عنه ثمّ أنزل اللّه تعالىٰ على موسى يأمره بأخذ الزّكوة من أرباب الأموال فأتى موسى هارون و بلَّغه أمر ربَّه كما أنّه بلّغ ذلك كأنّه بني إسرائيل فأبى قارون و أمتنع من دفع الزّكٰوة و جعل يقول لبني إسرائيل أنّ موسى قد أمركم فأطعتموه في كلّ شئٍ حتّى طمع في أموالكم يريد أن يأخذها منكم و أخذ يدعوهم لإمتناع دفعً الزّكاة من أموالهم و عن إطاعة موسى فأطاعوا قارون و قالوا أنت كبيرنا و سيَّدنا فلا نخالف لك أمراً و جعل يدعوهم الى التَّفرق من موسى و التنكُّر لما دعاهم إليه من دفع زكاة أموالهم إنتهى ما ذكره.

و قيل معنى كان من قومه أي ممّن آمن معه ولم يكن من قوم بني إسرائيل، و هذا القول ضعيف لا يعتمد عليه لإجماعهم على أنّه كان من بني إسرائيل و كيف كان لاشكّ أنّه بغى عليهم و ذكروا من أنواع بغيه الكفر و الكبر و حسده على موسى على النبوّة و لهارون على الذَّبح و القربان و ظلمه على بني إسرائيل حين ملَّكه فرعون عليهم، و قوله: **وَ ءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ**، قيل في معناه أظفره اللّه بكنزٍ من كنوز يوسف و قيل سمَّيت أمواله كنوزاً إذ كان ممتنعاً من إداء الزّكاة و بسبب ذلك عادى موسى عليه السّلام أوّل عداوته، و قيل المراد هنا مقاليد خزائنه.

و قال السّدي هي الخزائن نفسها و قال الضّحاك ظروفه و أوعيته و عن إبن عبّاس و الحسن أنّ المفاتح هي الأموال قال إبن عبّاس كانت خزائنه تحملها أربعون أقوياء و كانت أربع مائة ألف يحمل كلّ رجلٍ عشرة ألاف.

و نقل عن أبي مسلم أنّه قال المراد بالمفاتح العلم و الإحاطة كقوله تعالى: **وَ عِنْدَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ** و المراد و أتيناه من الكنوز ما أن حفظهما و الإطلاع عليها ليثقل على العصبة أي هذه الكنوز لكثرتها و إختلاف أصنافها يتعب حفظها القائمين على حفظها.



أقول ما ذكره لا دليل عليه مضافاً إلى أنّه خلاف ظاهر الآية و العرف و اللُّغة و هكذا ما ذكره غيره من أنّ مفاتحه أو خزائنه تحملها أربعون أقوياء و أمثال ذلك من الاقوال التّي لا يساعدها العقل و النّقل و الّذي دلَّت الآية عليه هو أنّ اللّه أعطاه من الكنوز ما أنّ مفاتحه كذا و كذا و هو كناية عن كثرة كنوزه و أمواله و أمّا كميّة الأموال و كيفيّتها فلا يعلمها إلاّ هو و أمّا قوله تعالى: **إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ**، فهو إشارة إلى أنّه كان مسروراً فرحاً بماله و لذلك بغى على قومه و تكّبر عليهم و لذلك قالوا له لا تفرح أي لا تفرح بمالك أنّ اللّه لا يحبّ الفرحين بالمال فأنّ الدّنيا وما فيها فانية لا بقاء لها و ما لا بقاء له لا يفرح العاقل به و أنّما قالوا له ذلك لأنّه أظهر التّفاخر و الفرح بما أوتي من الكنوز، قال الشّاعر:

ولست بمفراحٍ إذ الدّهر سرَّنى   و لا جازعٌ من صرفه المتحول

وَ ٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَ لَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَ أَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَ لَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ

الواو للعطف أي قال له قومه و إبتغ أي و إطلب فيما أتاك اللّه من المال الدّار الأخرة أي إصرف المال في طريق الأخرة و المراد صرف المال في الدُّنيا لأجل الوصول إلى مقاماتها العاليّة و إن شئت قلت في طلب مرضاته لا في طريق سخطه و غضبه و في الآية أشير إلى أمورٍ مهمّة جليلة لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً:

أحدها: قوله **وَ ٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ**، ففيه إشارة إلى أنّ الدّنيا و ما فيها مقدّمة للأخرة كما قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: **الدُّنيا مزرعة الأخرة**، فالدُّنيا دار العمل و الأخرة دار الجزاء قال أميرالمؤمنين اليوم عمل و لا حساب و غداً حسابٌ و لا عمل فكلّ ما يزرع في الدّنيا يحصد في الأخرة إن

خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً فالعاقل العارف بحقيقة الدّنيا ينظر إليها بنظر الألي أي يجعلها مرآتاً للأخرة لعلمه بأنّه لم يخلق لها بل خلق للبقاء لا للفناء و إن شئت قلت خلق للأخرة لا للدّنيا الفانية و إذا كان كذلك فينبغي أن لا يعتمد عليها لكونها في معر الفناء و على هذا فما أنعم اللّه به على عباده في الدّنيا ينبغي أن يصرف في طريق رضاه لا في طريق سخطه فأنّ حقيقة الشّكر صرف العبد جميع ما أعطاه اللّه في طريق رضى اللّه و هو واضح.

ثانيها: قوله **وَ لاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ اَلدُّنْيا**، و في هذا الكلام إشارة إلىٰ نقطةٍ خفيّة و هي أنّ لكلّ إنسانٍ حظٌّ ونصيبٌ من الدّنيا مادام كونه فيها و قد إختلف المفسّرون في معناه فقال إبن عبّاس معناه أن يعمل فيها بطاعة اللّه، و قال الحسن معناه أن يطلب الحلال، وقال الأخر معناه أن لا تضيع عمرك في الدّنيا بأن لا تعمل صالحاً فيها لأخرتك و عليه فنيب الإنسان فيها عمره و عمله الصّالح فيها.

و قال مالك هو الأكل والشُّرب بلا سرف، و قيل أريد بنصيبه الكفن أي لا يكون نصيبك منها إلاّ الكفن و الباقي تتركه للوارث و إلى هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله:

نصيبك ممّا تجمع الدّهر كلّه ردأن تأوى فيهما و حنوطُ

و قال صاحب الكشّاف معناه أن تأخذ منه ما يكفيك و يصلحك و الأقوال كثيرة و لكلٍّ وجهٌ و الجامع بين جميع الأقوال هو أنّ المراد بالنَّصيل اليقظة الّتي هي ضدّ الغفلة فأنّ اليقظة فيها منشأ الخيرات و البركات كما أنّ الغفلة منشأ الشّرور و الأفات و المراد باليقظة هو التَّوجه بوظائف العبوديّة في جميع شئونه و أحواله و صرف ما أنعم اللّه عليه فيما ينبغي أن يصرف.

ثالثها: قوله **وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اَللّٰهُ إِلَيْكَ**، فيه إشارة إلى أنّ اللّه تعالىٰ محسن و يحبّ الإحسان، أمّا أنّه محسن فهو واضح لا خفاء فيه و أمّا أنّه يحبّ

الإحسان فلأنّه تعالى متَّصفٌ به فلو لم يكن الإحسان محبوباً له لم يكن متّصفاً به و الحاصل أنّ الصّفات الثّابتة للّه تعالى من العلم و القدرة و العدل و الصِّدق و غيرها كلّها محبوبٌ له تعالى فكلّ من إتَّصف من عباده بها فهو محبوبٌ له تعالى إذا عرفت هذا فنقول الإحسان يقال على وجهين:

أحدهما: الإنعام على الغير.

الثّاني: إحسان في فعله و اللّه تعالى محسنٌ بكلا المعنيين لأنّه تعالى محسنٌ إلى الغير و مع ذلك محسنٌ في فعله و من جملة إحسانه إعطائه المال إلى من يشاء من عباده و إذا كان كذلك ينبغي للعبد أن يتَّصف به بقدر الإمكان فأنّ التَّخلق بأخلاق اللّه و أفعاله من و ظائف العبد فإذا أحسن اللّه بعبده و أعطاه من النِّعم ما أعطاه من المال و العلم و القدرة و غيرها فالمتَّرقب من العبد إحسانه إلى غيره من أبناء نوعه و هذا هو الشّكر العملي الّذي يجب على العبد عقلاً و حيث أنّ اللّه تعالى أحسن إلى قارون بإعطاء المال و قارون لم يحسن بالإنفاق إلى غيره بل تكَّبر على القوم و إفتخر بماله عليهم فقالوا له ما حكى اللّه عنهم.

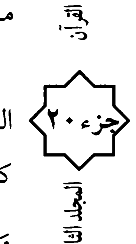
رابعها: قوله وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ، و هذا هو الوصف الثّالث له أعني به الفساد في الأرض.

قال بعض المفسّرين معناه لا تطلب الفساد بمنع ما يجب عليك من الحقوق و إنفاق الأموال في المعاصي، و قيل معناه لا تطلب الفساد أي ما أنت عليه من البغي و الظُّلم و الّذي يختلج بالبال هو أنّ الإمساك و البخل من إعطاء المال إلى من يستّحقه يوجب الفساد في الأرض لأنّه من تضييع حقّ الفقير و من ضيَّع حقّ غيره فهو من مصاديق المفسدين و كيف كان لا شكّ أنّ قارون كان ظالماً مفسداً و مع ذلك لم يعترف به ظاهراً كما حكى اللّه تعالى عنه بقوله: إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أي قال قارون في جواب قومه أوتيت

هذه الأموال على علم بأنّي مستّحقٌ له لعلمي بالتّوراة، و قال بعضهم لأنّي أعمل الكيميا، و قيل لعلمي بوجوه المكاسب و غير ذلك من الأقوال و الجامع أنّي أستّحق بذلك فقال اللّه تعالى في جوابه **أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعًا وَ لَا يُسْـَٔلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ** الظّاهر أنّ الإستفهام في قوله: **أَوَ لَمْ يَعْلَمْ**، للإنكار أي هو يعلم أنّ اللّه تعالىٰ **قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ**، أي من قبل قارون في الأيّام السّالفة و القرون الماضية، **مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ**، أي من قارون، قوّةً، **وَ أَكْثَرُ جَمْعًا**، من حيث الأموال **وَ لَا يُسْـَٔلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ**، قيل في الكلام تقديمٌ و تأخير تقديره لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم فالهاء و الميم **للمُجرمين** كما قال تعالى: **فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْـَٔلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لَا جَانٌّ**[١].

أقول إختلفوا في قراءة، يسألون، فقرأ الجمهور مبنيّاً للمفعول و على هذه القراءة فالياء مضمومة، و قرأ بعضهم الفعل مبنيّاً للفاعل و عليها فالياء مفتوحة و الضّمير في، ذنوبهم، على قول الجمهور عائد على، من أهلك القرون، و على فالمعنى على قراءة الجمهور لا يسأل عن ذنوب من أهلكه اللّه، المجرمون أي أنّ المجرم لا يسأل عن ذنب المجرم، و على القراءة الشّاذة معنى الكلام لا يسأل المجرمون الّذين أهلكهم اللّه عن ذنوبهم لعلمهم بها.

و قال بعض المفسّرين الفعل مبنّيٌ للمفعول كما عليه الجمهور و معنى الكلام أنّ اللّه إذا عاقب المجرمين فلا حاجة به أن يسألهم عن كميّة ذنوبهم و كيفيّتها لأنّه تعالى عالم بكلّ المعلومات فلا حاجة إلى السّؤال.



فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

١- الرّحمٰن = ٣٩

أي فخرج قارون على قومه في زينته التّي كان يتَّزين بها و قيل خرج على قومه في الدّيباج الأحمر على الخيل و معه أعوانه و أنصاره و خدمه و غير ذلك من الأقوال التّي لا دليل عليها و الحقّ أنّه خرج على زيّ المترفين المتكبّرين و أمّا كيفيّته فاللّه أعلم بها، وكيف كان فلمّا رأه الّذين يريدون الحياة الدّنيا من الكفّار و المنافقين و ضعفاء العقول و الإيمان، قالوا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون، من الأموال أنّه أي قارون لذو حظٍّ عظيم، في الدّنيا، و الحظّ، النَّصيب، و أنّما قالوا ذلك لأنّ أبناء الدّنيا لا يريدون إلاّ الدّنيا و متاعها و لا حظّ لهم من العقليّات و المعنويّات و محاسن الأداب و الأخلاق و كرائم الصّفات التّي بالإتّصاف بها يصير الإنسان إنساناً واقعاً و لم يعلموا أنّ الدّنيا و ما فيها لا قيمة لها لكونها فانية زائلة لا بقاء لها و قد قال اللّه تعالى:

وَ مَا هٰذِهِ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأٰخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوٰانُ[1].

و غيرها من الأيات التّي وردت في ذمّ الدنيا مضافاً إلى حكم العقل و قد مرَّ الكلام فيها غير مرَّةٍ، هذا شأن أبناء الدنيا.

و أمّا الّذين لهم حظٌّ من العلم و العقل فلا يريدونها كما حكى اللّه تعالى عنهم بقوله:



وَ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللّٰهِ خَيْرٌ لِمَنْ اٰمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا وَ لَا يُلَقّٰيهَآ إِلَّا ٱلصَّابِرُونَ

و قال الّذين أوتوا العلم و علموا معايبها و مضّارها و عرفوا مكرها و زوالها، ويلكم، الويل لكم فيما تقولون و تطلبون، ثواب اللّه فى الأخرة خيرٌ من زخارف الدّنيا و ما فيها، لمن أمن و عمل صالحاً فيها، و لا يلّقيها إلاّ الصّابرون

١- العنكبوت = ٦۴

أي مايلقي مثل هذه الكلمة إلاّ الصّابرون على أمر اللّه في دار الدّنيا و قال بعضهم، معناه و ما يلّقى نعمة اللّه من الثّواب إلاّ الصّابرون.

فَخَسَفْنٰا بِهِ وَ بِدٰارِهِ اَلْأَرْضَ فَمٰا كٰانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ مٰا كٰانَ مِنَ اَلْمُنْتَصِرِينَ

يقال خسف اللّه به الأرض خسفاً أي غاب به فيها، و خسف القمر إذا ذهب ضوءه أو نقص فقوله تعالى فخسفنا به الأرض أي بقارون، و بداره، الأرض معناه غيّبناه مع داره في الأرض، و ما كان له فئةٍ، أي جماعة، **يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ**، أي يمنعونه من عذابه، **وَ مٰا كٰانَ**، أي فرعون، من المنتصرين، قيل معناه أنّه كما لم يكن له من ينصره لم يكن هو أيضاً ممّن ينتصر بنفسه لضعفه من ذلك و قصوره عنه و حاصل الكلام أنّ من خذله اللّه و أدلّه فلا ناصر له قطعاً إذ لم يقدر أحد على دفع العذاب أو رفعه و هو معلوم لا خفاء فيه إذ لو كان المخلوق قادراً على ذلك لكان أقوى من خالقه، و هو كما ترى.

و أمّا كيفيّة خسفه و علّته، فقيل أنّ قارون بعد ما أبى عن دفع زكاة ماله إلى موسى أو حسده عليه أراد أن يصنع مكيدةً لموسى ليظهر نقصه أمام النّاس لينفروا عنه فجاء إلى بغيةٍ من بغايا بني‌إسرائيل و كانت ذات حسنٍ و جمالٍ فائق فبذل لها مائة ألف درهم على أن يقذف موسى و ترميه بالزّنا معها في مجمعٍ من بني‌إسرائيل حتّى يتنكّروا له و ينفّضوا من حوله و قال قارون لها تجيئين غداً إلى موسى و عنده بني‌إسرائيل يتلوا عليهم التّوراة و ترفعين صوتك بذلك فقبلت المرأة الفاجرة ذلك و أخذت الدّراهم و إنصرفت و لمّا كان الغد جمع قارون بني‌إسرائيل ثمّ بعث إلى موسى ليأتيهم للمظّلة و الوعظ و الأمر و النّهي فخرج موسى إليهم و هم براحٍ من الأرض مجتمعين فيها فقام فيهم خطيباً وكان فيما قال يابني‌إسرائيل من سرق قطعنا يده و من إفترى

جلّدناه ثمانى و من زنى وليست له إمرأة جلّدناه مائة و من زنى و له إمرأة رجمناه حتّى يموت، فناداه قراون و قال و إن كنت أنت يا موسى قال عليه السّلام نعم و إن كنت أنا فقال اللّعين أنّ بني إسرائيل يزعمون أنّك فجرت بفلانة قال موسى عليه السلام أنا، قال قارون نعم أنت فإسّودت الدّنيا في وجه موسى من هذا الإفتراء غيظاً و غضباً ثمّ قال موسى أدعوها، فلمّا حضرت قال لها موسى أنا فعلت بك ما يقول قارون و من معه، و أشار إلى قارون و أتباعه، أسألك بالّذي فلق لابحر و أنزل التّوارة إلاّ صدقت فهدى اللّه تعالى تلك البغية الفاجرة و لحقها التّوفيق من اللّه تعالى و جعلت تحدّث نفسها و تقول لئن أحدث اليوم توبة أفضل من أن توكن لي جميع أموال قارون و أنزه نبيّاً من أنبياء اللّه عن التّلويث و الباطل، فنادت برفيع صوتها في الجواب و قالت يانبّي اللّه أنّهم كذبوا في دعواهم عليك و أنّ قارون قد أعطاني مائة ألف درهم على أن أقذفك بالزّناء و الباطل و معاذ اللّه أن أفعل هذا معك يانبّي اللّه أكرمك اللّه و إصطفاك نبيّاً و نزّهك عن كلّ دنيّةٍ و نقيصة فلم تتم كلامها حتّى إرتعدت فرائص قارون اللّعين و نكس رأسه و علم أنّه وقع في مهلكة و إستشاط موسى غضباً حتّى خرَّ على الأرض ساجداً يبكي في سجوده و يناجي ربّه و قال يا ربِّ إنّ عدّوك قد آذاني و أراد فضيحتي اللّهم إن كنت رسولك فأغضب لي و سلطّني عليه فأوحى اللّه تعالى أن إرفع رأسك و مر الأرض بما شئت تطعك فرفع رأسه عن الأرض و قال يا بني إسرائيل أنّ اللّه تعالى قد بعثني الى قارون كما بعثني الى فرعون فمن كان معه فليثبت مكانه و من كان معي فليعتزل.

فأحسَّت الجموع بالشَّر لمّا رأوا غضب موسى و لحقوا بموسى بأجمعهم و إعتزلوا قارون حتّى لا يبقى معه إلاّ رجلان فدخل قصره مع الرَّجلين و سدّ الأبواب على نفسه، إلاّ أنّ موسى تبع قارون الى قصره فلمّا رآه قارون علم أنّه

قد أوتي العذاب، فقال يا موسى أسألك بالرَّحم الّتي بيننا، قال موسى يا بن آوى لا تزدني من كلامك ثمّ قال يا أرض خذيه و صاحبيه فأخذته الى كعابهم ثمّ قال ثانياً يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم و جعل يكرّر بالأخذ حتّىٰ بلغت أعناقهم ثمّ إنطبقت عليهم و خسفت بهم و في كلّ ذلك هم يتضرّعون إليه و يناشدونه و هو لا يلتفت إليهم لشّدة غضبه، فأوحى اللّه تعالى إلى موسى يعيَّره بعمله حيث لم يرحمهم قال ياربّ أنّ قارون دعاني بغيرك ولو دعاني بك لأجبته قال تعالى يا موسى و عزّتي و جلالي لو إيّاي دعوا مرَّةً واحدة لوجدني قريباً مجيباً و لكنّهم لمّا دعوك و كلّتهم إليك ثمّ أنّه لما خسف بقارون و صاحبيه و أصبح بنو إسرائيل يتناجون أنّ موسى أهلك قارون ليستبدّ بأمواله و كنوزه فلمّا بلغ ذلك موسى، دعا ربّه حتّى خسف بداره و أمواله هذا ما ذكروه في كيفيّة خسفه و كيف كان ففي قصّة موسى و قارون مواعظ و موارد للإعتبار لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً:

أحدها: أنّ الدّنيا و زخارفها و متاعها توجب الطّغيان و التمرُّد و التكبُّر و العجب و غير ذلك من رذائل الأخلاق للإنسان إذا لم تكن له قابليّة و إستعداد و أنّما قيّدنا الحكم بذلك لأنّ الإنسان الحقيقي و هو الّذي عرف الدّنيا و عيوبها و أنّها فانية لا بقاء لها ليس كذلك إلاّ انّه قليل و قد قيل أنّ النّادر كالمعدوم و قال اللّه تعالى: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ ٱلشَّكُورُ** ألا ترى أنّ سليمان بن داود عليه السّلام أعطاه اللّه الدّنيا و ما فيها من الأموال و الكنوز و سخَّر له الوحش و الطّير و الجنّ و الإنس و غير ذلك كما قال اللّه تعالى حكايةً عنه:

قال اللّه تعالى: **رَبِّ ٱغْفِرْ لي وَ هَبْ لي مُلْكًا لا يَنْبَغي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدي**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ وَ اتَيْناهُ ٱلْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ ٱلْخِطابِ**[٢].

١- ص = ٣٥
٢- ص = ٣٠

هذا كلّه مضافاً إلى مقام النّبوة و عظيم الزُّلفة و مع ذلك لم يزد هذا الإ عطاء له إلاّ شكراً لخالقه و معطيه و ذلك لأنّه عليه السّلام كان عارفاً بعدم إعتبار الدُّنيا و ما فيها و ما كان كذلك لا ينبغي الإعتماد عليه.

ثانيها: أنّ النّعمة من المنعم توجب الشُّكر له عقلاً و لذلك إتّفق العقلاء على وجوب شكر المنعم فكلّما زاد اللّه النّعمة ينبغي للعبد أن يزيد على شكره و إلاّ تكون النِّعمة أفةً و وبالاً عليه في الدّنيا و الأخرة و لذلك ترى أكثر النّاس من الأغنياء يكفرون و لا يشكرون و إذا كان كذلك فالرّضا بقسم اللّه و القناعة بما رزقه اللّه أصلح و أسلم للعبد في الدّارين و بعبارةٍ أخرى عدمه أولى من وجوده إذ في المال مظَنّة الهلاك.

ثالثها: أنّ المال و الأولاد و غيرهما من متاع الدّنيا فتنة و إختبار للعبد قال اللّه تعالى: **أَنَّمَآ أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ** و الفتنة هنا الإختبار و الإمتحان و من المعلوم أنّ الخروج من عهدة التّكليف صعبٌ مصتصعبٌ و إذا كان كذلك فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بماله و أولاده و لا لغيره أن يغبط به على صاحبه و قصّة الثّعلبة في زمان رسول اللّه ﷺ مشهورة حيث أنّه منع عن إداء الزّكاة لمّا طلبها الرّسول منه و لم يؤدّها و قد كان قبل ذلك من الأخيار و الصُّلحاء وكم له نظير في كلّ عهدٍ و زمانٍ و إذا كان كذلك فعدمه أولى من وجوده و لنعم ما قيل بالفّارسية:

تيغ دادن در كف زنگى مست   به كه آرد علم را ناكس بدست

و بالجملة آفات المال كثيرة.

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَنْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ

أي لمّا خسف اللّه بقارون و بداره في الأرض ولم يبق منه عينٌ و لا أثر في دار الدّنيا ألا اللّعنة و لا في الآخرة إلاّ العذاب ندم الّذين تمنّوا مكانه بالأمس حين خرج قارون عليهم في زينته و هم الّذين كانوا يؤيّدون الحياة الدّنيا و إنّما ندموا لأنّهم رأوا ما فعل اللّه بقارون من الخسف و علموا أنّ المال يوجب الطُّغيان و هو يوجب الخسران و الهلاك في الدّارين لمن يريد الحياة الدّنيا و لذلك قالوا و **وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَ يَقْدِرُ،** إختلفوا في قوله: **وَيْكَأَنَّ** على أقوال:

فقال بعضهم هي بمنزلة، ألاّ كأنّه، و أما كأنّه، و قيل هي ويك أنّ اللّه، كأنّه قال ينّبهك بهذا إلاّ أنّه حذف.

و قال الأخرون هي بمنزلة، ويلك، إلاّ أنّه حذف اللاّم تخفيفاً و نصب، أنّه بتقدير أعلم إنّه لا يفلح و هذا القول ضعيف لأنّ العلم لا يضمر و يعمل.

و عن الفرّاء أنّه قال سألت إمرأة زوجها عن أبيه فقال، ويك، أنّه وراء الحائط، و معناه ألا ترينه وراء الحائط، و قيل المعنى أنّ اللّه يبسط الرّزق لمن يشاء و يقدر، لا لكرامةٍ عليه كما بسط لقارون، و يقدر أي يضيق، لا لهوانةٍ عليه كما ضيق على أنبيائه، نقله الشّيخ في التّبيان إنتهى.

و ذهب الكسائي و يونس و أبوحاتم و غيرهم إلى أنّ أصله ويلك فحذف اللاّم و الكاف في موضع جرّ بالإضافة و الأقوال كثيرة و هذا القول الأخير أقوى الأقوال و على هذا أصل الكلام، ويلك أنّه، فحذف اللاّم فصار و يكأنّه، فالمعنى ويلك أنّ اللّه يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده و يقدر أي و يضيق على عبده كلّ ذلك على سبيل المصلحة لأنّه أعرف بمصالح عباده منهم أنفسهم و هذا هو الحقّ الّذي لا ريب فيه و ذلك لأنّه تعالى خالقهم و موجدهم و الخالق أعرف بخلقه عقلاً منه نفسه في جميع الشّئون و منها الرّزق فما أعطاه اللّه أعطاه على وفق المصلحة التّي رآها في حقّه قلَّ أو كثر و هذا معنى

قوله: **وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ،** أي بحسب مشيّئته و حكمته لا لكرامةٍ عليه في البسط و لا لهوانةٍ عليه في الضّيق.

و قوله: **لَوْلَآ أَنْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا،** أي أنّ اللّه تعالى قد منَّ اللّه علينا بعدم البسط في الرِّزق إذ لو بسط علينا لخسف بنا كما خسف بقارون، **وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ،** بالنعمّة لعدم شكرهم عليها و طغيانهم بها و حاصل الكلام أنّ العبد إذا رضى بقضاء اللّه و قدره و لا يتّمنى كثرة المال فهو أولى له أسلم لدينه و دنياه و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله بعد هذه الأية:

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَ لَا فَسَادًا وَ ٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

العُلّو بضّم العين واللاّم ضدّ السّفل و هو الإرتفاع قال اللّه تعالى: **وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ** أي إرتفع و خرج عن حدّه و لا شكّ أنّ المال و الأولاد و الجاه و بالجملة الدّنيا و زخارفها توجب العلّو و الفخر و لازم ذلك هو الفساد في الأرض و من كان كذلك فهو لا يدخل الجنّة و لا يصل إلى مقاماتها العاليّة التّي أعدّت للمتّقين، قيل أنّما قبح طلب العلّو في الأرض لأنّه ركونٌ إليها و تركٌ لطلب العلّو في الأخرة فلا جرم لا حظّ له منها إلاّ الوبال و الخسران لأنّه باع أخرته بدنياه فما ربحت تجارته و ما كان من المهتدين.

مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَ مَنْ جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

قال الرّاغب في المفردات الحسنة يعبّر بها عن كلّ ما يسُّر من نعمةٍ تنال الإنسان في نفسه و بدنه و أحواله و السيّئة تضّادها و هما من الألفاظ المشتركة كالحيوان الواقع على أنواع مختلفة كالفرس و الإنسان و غيرهما إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و قد يقال أنّ الحسنة كلّ فعلٍ أو قولٍ حكم العقل و الشّرع بحسنه و السَّيئة بخلافها إذا عرفت هذا فإعلم أنّ هذا الحكم في الآية الشّريفة ممّا إمتَّن اللّه تعالى به على عباده حيث جعل ثواب الحسنة خيراً منها و جزاء السَّيئة مثلها:

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ جٰآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ اٰمِنُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أُولٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمٰا صَبَرُوا وَ يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ اَلسَّيِّئَةَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَسْتَوِى اَلْحَسَنَةُ وَ لاَ اَلسَّيِّئَةُ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَلْحَسَنٰاتِ يُذْهِبْنَ اَلسَّيِّئٰاتِ**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ اَلَّذي كٰانُوا يَعْمَلُونَ**(۵).

و الأيات كثيرة و لعلّ المراد بكون الجزاء أحسن في الحسنات كثرة الثّواب لقوله تعالى: **مَنْ جٰآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِها**(۶) والوجه فيه هو التّرغيب إلىٰ الحسنات و فعل الخيرات و الإجتناب عن المعاصي و قد يستفاد من الأخبار أنّ اللّه تعالى يجزي العبد علىٰ نيّة الخير و أن لم يفعل و لا يعاقبه على نيّة الشّر قبل العمل و حاصل الكلام هو أنّ جعل الأحكام و الشّرائع لترغيب العباد إلىٰ فعل الخير و هو ظاهر.

إِنَّ اَلَّذي فَرَضَ عَلَيْكَ اَلْقُرْاٰنَ لَرٰادُّكَ إِلىٰ مَعٰادٍ قُلْ رَبّيٓ أَعْلَمُ مَنْ جٰآءَ بِالْهُدٰى وَ مَنْ هُوَ فى ضَلالٍ مُبينٍ

جزء ٢٠

الآية خطاب للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول اللّه تعالى لنبيّه أنّ الّذي فرض عليك القرأن أي أوجب عليك الإمتثال بما يضمنه القرأن و أنزله عليك لرادّك إلى

١- النّمل = ٨٩
٢- القصص = ۵۴
٣- فصّلت = ٣۴
۴- هُود = ١١۴
۵- الزُّمر = ٣۵
۶- الأنعام = ١۶٠

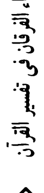
معاد، أي إلى المرجع يوم القيامة، أو إلى الجنّة، أو إلى الموت و أكثر أقوال المفسّرين أنّه أراد إلى مكّة قاهراً لأهلها، ثمّ قال له، قل يا محمّد ربّي أعلم من جاء بالهدى و من هو في ضلالٍ مبين، أي ظاهر و المعنى أنّ ربّي يعلم المستّحق للثّواب ممّن لم يجئ به و ضلّ عنه فلا يخفى عليه الكافر و المؤمن و من هو على الهدى و من ليس كذلك ففي هذا الكلام إشارة إلى سعة علمه تعالى و أنّه لا يخفى عليه شئ و هو بكلّ شئٍ عليم.

وَ مٰاكُنْتَ تَرْجُوٓا أَنْ يُلْقىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتٰابُ إِلّٰا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكٰافِرِينَ

كلمة، ما، للنّفي بمعنى، ليس، و المعنى كان رجائك أن يلقى إليك الكتاب و هو القرأن رحمةً من ربّك عليك و إذا كان كذلك فلا تكونَّن ظهيراً أي معيناً و ناصراً للكافرين.

وَ لٰايَصُدُّنَّكَ عَنْ اٰيٰاتِ ٱللّٰهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَ ٱدْعُ إِلىٰ رَبِّكَ وَ لٰا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

أي لا يمنعك الكفّار عن أيات اللّه و العمل بها، بعد إذ أنزلت، الأيات إليك و أدع إلى ربّك، أي و أدع النّاس إليه و لا تكونَّن من المشركين الّذين يتّخذون معبوداً سواه.



وَ لٰا تَدْعُ مَعَ ٱللّٰهِ إِلٰهًا اٰخَرَ لآ إِلٰهَ إِلّٰا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هٰالِكٌ إِلّٰا وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

و المعنى لا تدع مع اللّه إلهاً أخر في قضاء حاجتك بأن تستدعي حوائجك من جهته و ذلك لأنّه لا إله في عالم الوجود إلاّ هو و لا معبود سواه لا شريك له، كلّ شئٍ أي كلّ موجودٍ هالكٌ و فان إلاّ ذاته المقدّسة التّي لا سبيل للفناء إليه و له الحكم على عباده لا لغيره كائناً ما كان و إليه ترجعون لقوله تعالى: **إِنّٰا**

لِلّٰهِ وَ إِنّٓا إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ و أنت تعلم أنّ الخطاب للرّسول ظاهراً و المقصود غيره من أفراد الأمّة كغيرها من الأيات فأنّ أيات الخطاب من قبيل قولهم إيّاك أعني و إسمعي ياجارة، و قد أشرنا إلى هذه الدّقيقة فيما مضى غير مرّةٍ و حاصل الأيات هو التّوجه إلى المعبود و العمل بأحكامه التّي حكم بها و هذا ممّا لا شكّ فيه.

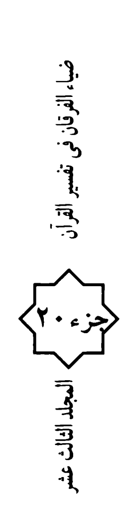
■



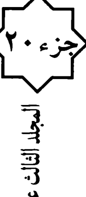
سُورَةُ ٱلْعَنْكَبُوتِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓا أَنْ يَقُولُوٓا اٰمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَ لَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللّٰهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللّٰهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللّٰهِ لَاٰتٍ وَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَ مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللّٰهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَ وَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَ إِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ اٰمَنَّا بِاللّٰهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ



ٱللّٰهِ وَ لَئِنْ جٰآءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنّٰا كُنّٰا
مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ ٱللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِمٰا فِي صُدُورِ
ٱلْعٰالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَ لَيَعْلَمَنَّ ٱللّٰهُ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ
لَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنٰافِقِينَ ﴿١١﴾ وَ قٰالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ اٰمَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنٰا وَ لْنَحْمِلْ خَطٰايٰاكُمْ وَ
مٰا هُمْ بِحٰامِلِينَ مِنْ خَطٰايٰاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ
لَكٰاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقٰالَهُمْ وَ أَثْقٰالاً مَعَ
أَثْقٰالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ عَمّٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ
﴿١٣﴾ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحًا إِلٰى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ
أَلْفَ سَنَةٍ إِلّٰا خَمْسِينَ عٰامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفٰانُ وَ
هُمْ ظٰالِمُونَ ﴿١۴﴾ فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ أَصْحٰابَ ٱلسَّفِينَةِ وَ
جَعَلْنٰاهٰآ اٰيَةً لِلْعٰالَمِينَ ﴿١۵﴾ وَ إِبْرٰاهِيمَ إِذْ قٰالَ
لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ وَ ٱتَّقُوهُ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١۶﴾ إِنَّمٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ
أَوْثٰانًا وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ ٱللّٰهِ لٰا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ ٱللّٰهِ
ٱلرِّزْقَ وَ ٱعْبُدُوهُ وَ ٱشْكُرُوا لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿١٧﴾ وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مٰا
عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلٰاغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا
كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللّٰهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى
ٱللّٰهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا
كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللّٰهُ يُنْشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْاٰخِرَةَ



إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَ لَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَ لِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

◀ اللّغة

يُفْتَنُونَ: يختبرون من قولهم فتن فلاناً يفتنه من باب ضرب، خبره و أحرقه و أصّله يقال فتن الصّائغ الذّهب أذابه ليختبره و ليميّز الجيّد من الرّدّيء.

أَجَلَ ٱللَّهِ: الأجل بفتح الجيم المدّة المضروبة.

فَأُنَبِّئُكُمْ: النبّأ الخبر.

خَطَايَاكُمْ: جمع خطيئة.

أَثْقَالَ: جمع ثقل بكسر الثّاء المثلّة و هو ضدّ الخفّة.

يَفْتَرُونَ: الإفتراء الكذب.

فَلَبِثَ: يقال لبث بالمكان إذا قام فيه ملازماً له.



◀ الإعراب

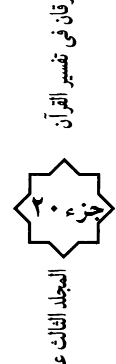
أَنْ يُتْرَكُوا أن و ما عملت فيه تسدّ مسدّ المفعولين و أَنْ يَقُولُوا يكون بدلاً من أن يتركوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ما، مصدريّة أو بمعنى، الّذي، أو نكرة موصوفة و هي فاعل ساء مَنْ كَانَ يَرْجُوا من شرطيّة و الجواب، فأنّ أجل اللّه حُسْنًا منصوب بوصيّنا، وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مبتدأ لَنُدْخِلَنَّهُمْ الخبر مِنْ خَطَايَاهُمْ حال من شيئ و أَلْفَ سَنَةٍ ظرف و الضّمير في جَعَلْنَاهَا للعقوبة.

◀ التّفسير

الٓمٓ، أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓا أَنْ يَقُولُوٓا اٰمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ

و قد مرّ الكلام غير مرّةٍ أنّ الحروف المقطّعة في أوائل السُّور من رموز القرأن أو السُّورة و لا يعلم معناها و المراد بها إلاّ اللّه تعالى فكلّ ما قيل فيها أو يقال لا يعتمد عليه و هذا ممّا أجمع المفسّرون عليه و الألف في قوله: **أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ** قيل للإستفهام التّوبيخي و المعنى أيظُّن النّاس كذلك و قيل للإنكار أي ليس الأمر كذلك و كيف كان فمعنى الآية أنّ اللّه تعالى يقول على وجه التّوبيخ لهم أيظُّن النّاس أن يتركهم اللّه إذ قالوا أمنّا باللّه و برسوله و اليوم الأخر و هم لا يفتنون أي لا يختبرون في الدّنيا و قيل الحسبان و الظنّ واحد، و قوله: **أَحَسِبَ**، معناه التوهُّم و التخيُّل، و قيل الحسبان مشتقٌّ من الحساب و حاصل المعنى أنّهم يعاملون معاملة المختبر لتظهر الأفعال التّي يستّحق عليه الجزاء.

قال مجاهد معنى، يفتنون، يبتلون في أنفسهم و أموالهم و قيل معناه يصابون بشدائد الدّنيا و غير ذلك من الأقوال التّي لا فائدة في نقلها لأنّ الكلّ إلى الإختبار إلاّ أنّ أنواع الأختبار متفاوتة فالعالم يختبر بعلمه و الغنّي بماله و الفقير بفقره و المريض بمرضه و هكذا و يستفاد من الآية أنّ الحكم بالإختبار عامّ في حقّ جميع النّاس و ذلك لأنّ كلمة النّاس تشمل الجميع أو بإعتبار الأغلب في الحسبان لا في الإفتنان فأنّه لا إستثناء فيه لأحدٍ حتّى الأنبياء و المرسلين و في المقام بحث لا بأس بالإشارة إليه لكثرة نفعه و هو أنّه ربّما يظّن أنّ الإختبار من اللّه تعالى لا معنى له لعلمه بحال عبيده و لا يخفى عليه شئ و من المعلوم أنّ الإختبار و الإمتحان أنّما هو لأجل حصول علم المختبر بحال المختبر فإذا كان المختبر عالماً بحاله كاملاً فأيُّ إحتياج إلى الإختبار أليس هو من قبيل تحصيل الحاصل الّذي إتفقّ العقلاء على كونه عبثاً لا فائده فيه و أن



قال قائل أنّ اللّه جاهل بحال العبد قبل العمل و لذلك يختبره فهو ممّن لا دين له إذ لم يعرف اللّه.

أقول الإختبار يتصوّر على قسمين:

الأوّل: إختبار شخصٍ شخصاً أخر مثل أن يختبر زيدٌ عمرواً ليعرف أمانته و صداقته و منشأ هذا الإختبار لا يكون إلاّ الجهل بصداقة عمرو و أمانته و ذلك لأنّ الإنسان لا يعرف من أبناء نوعه إلاّ ماهو الظّاهر منهم و أمّا الأمور الباطنة فهي مجهولة مستورة عليه فلا محالة يمتحنه ليطمئنّ قلبه فيما أراد من الصدّاقة و الأمانة و هذا ممّا لا شكّ فيه و لا كلام لنا فيه فعلاً فأنّه من الواضحات.

الثّاني: إختبار اللّه عبده بما شاء و أراد و هذا هو المبحوث عنه في المقام و هذا الإختبار ليس منشأه الجهل بحال المختبر قطعاً كيف و هو خالق العبد و الخالق أعرف بحال المخلوق ظاهراً و باطناً منه نفسه لأنّه خلقه و أوجده فلو فرضنا جهل الخالق ببعض صفات المخلوق و أفعاله الصّادرة منه لزم أن لا يكون لها خالق و هو خلاف الغرض فأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه إذا عرفت هذا فقد دريت أنّ ما ذكره المشتكل يجري في المقام و إذا كان كذلك فلقائلٍ أن يقول ما الوجه في هذا الإختبار و المفروض أنّه تعالى عالمٌ بجميع صفات العبد و أخلاقه و أفعاله قبل الوجود و بعده و بالجملة أنّ اللّه تعالى عالم بجميع ما يفعله العبد من أوّل عمره إلى أخره من الأفعال الحسنة و السيّئة و جميع حركاته و سكناته و نيّاته قبل إيجاده فلا يخفى عليه شئ إذ لولا ذلك لزم الجهل و الجاهل بحاتل العبد لا يكون خالقاً له مضافاً إلى أنّ الجهل نقصٌ و هو ينافي مقام الواجب الّذي ثبت أنّه قد أحاط بكلّ شئٍ علماً و إذا كان كذلك فما معنى الآية و أمثالها ممّا دلّ على ثبوت الإختبار فنقول:

الإختبار منه تعالى يكون لأحد أمرين:

أحدهما: أن يعرف العبد قدره.

ثانيهما: أن يعرفه غيره، و توضيحه إجمالاً:

هو أنّ الإنسان قد يتخيّل و يظنّ أنّه مؤمنٌ و لا يعلم أنّه ليس به فهو لا يعرف نفسه إلاّ بعد الإمتحان فأنّ عند الإمتحان يكرم الرّجل أو يهان و الأصل فيه هو أنّ الإنسان إذا لم يكن معصوماً فهو دائماً في جهل المركّب و هو من الأمراض السّارية و دواءه ليس إلاّ الإختبار ألا ترى أنّ الإنسان إذا كان فقيراً لا مال له يعيّر الأغنياء و يذمّهم بالبخل و قلّة الإنفاق فإذا قيل له أنت أيضاً كذلك في صورة الغنّي لا يقبل قول القائل و هكذا في العدالة و الأمانة و غيرها من الصّفات و ليس هذا إلاّ جهله بحاله فبالإختبار يخرج منه و يعلم ما لم يعلم قبله و السرّ في ذلك أنّه خفيت عليه نقطةٍ و هي التمكُّن و القدرة فمن لا مال له لا قدرة له على الإنفاق و لذلك يقول لو كنت صاحب المال كنت كذا و كذا و بعد وصوله إلى القدرة بسبب المال يرى أنّ إنفاق المال صعبٌ مشكل فيظهر له أنّ ما ظنّه سابقاً كان ناشئاً من جهله و هذا فائدة الإختبار و أمثاله كثيرة.

نقل أرباب التّواريخ أنّ عبد الملك بن مروان كان قبل خلافته في عداد الزّهاد و الصلّحاء و كثيراً ما كان يقرأ القرآن في المساجد و قد نقم على يزيد بن معاوية بقتله أولاد الرّسول و لمّا وصلت النَّوبة إليه و صار حاكماً على النّاس أنسى من قبله في الظُّلم و قتله الأخيار و كفى في ظلمه أنّ أحد ولاته على المسلمين حجّاج بن يوسف الثّقفي لعنة اللّه عليه و على من أقرّه و من المعلوم أنّ الإنسان يمتحن بعد القدرة و أمّا قبلها فلا يقدر على شئٍ فالسّالبة منتفيّة بإنتفاء موضوعه هذا كلّه في غير المعصوم و هو الوجه الأوّل في قولنا أن يعرف العبد قدره.

و **أمّا الوجه الثّاني:** و هو أن يعرفه غيره فهو لا يجري إلاّ في الأنبياء و الأوصياء و ذلك لأنّ المعصوم لمكان عصمته فهو منزّهٌ عن الجهل بحاله لأنّ

اللّه تعالى قد عصمه منه فالإختبار في حقّه لا يكون إلاّ لأجل معرفة النّاس إيّاه و فيه أيضاً فوائد لا تحصى و السرّ فيه هو أنّهم في قالب البشر يأكلون و يشربون و ينكحون و يمشون في الأرض كغيرهم من أفراد البشر فخفي الأمر على أكثر النّاس و زعموا أنّه لا فرق بينهم و بين الأنبياء و الأوصياء كما نطق به القرأن في كثير من الأيات و ليس ذلك إلاّ أنّهم لم يعرفوهم با لنورانيّة فيختبرهم اللّه ليعرفوا ما جهلوه و أنكروه و لذلك ترى كلّ نبيٍ أو وصّيٍ في كلّ عصرٍ و زمانٍ إبتلاه اللّه بما ينكشف به مقامه و منزلته عند النّاس فهذا هو سرّ الإمتحان فيهم عليهم السّلام هذا كلّه بناءً على أنّ المراد، بالنّاس في الآية جميع أفراد البشر من الأنبياء و غيرهم.

و أمّا إن قلنا أنّ المراد بالنّاس، المعهودين منهم أعني بهم الأمم و أتبّاع الأنبياء فالأمر أوضح و حيث إنّا حملنا النّاس على جميع الأفراد ليشمل الأنبياء أيضاً فقلنا ما قلنا و ظاهر الآية يقتضي ذلك إذ لا دليل على تخصيص النّاس بغير الأنبياء بعد ماثبت الإختبار في حقّهم أيضاً بل أكثر و أشدّ ممّا هو في حقّ غيرهم و اللّه أعلم.

وَ لَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللّٰهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ ٱلْكٰاذِبِينَ

في الآية إشارة الى أنّ هذا الحكم أعني به إختبار النّاس لا يختّص بأمّةٍ دون أمّة بل هو حكم كلّي يشمل الجميع من آحاد النّاس و ذلك لأنّ حكم الأمثال واحد و المعنى و لقد إختبرنا الّذين من قبلهم أي من قبل كفّار قريش من الأمم السّالفة، و أمّا قوله: **فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللّٰهُ** الى آخر الآية فقد إختلف كلمات المفسّرين فيه و ذلك لأنّ قوله: **فَلَيَعْلَمَنَّ** يدلّ ظاهراً على أنّ اللّه إمتحنهم ليعلم الصّادق منهم من الكاذب و هو صريح في أنّ اللّه تعالى لم يكن عالماً بحالهم قبل الإختبار.

قال الزّمخشري في تفسير الكلام ما هذا لفظه، **فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ**، بالإمتحان **ٱلَّذِينَ صَدَقُوا** في الإيمان (وليعلّمن الكاذبين) فيه.

فأن قلت كيف و هو عالمٌ بذلك فيما لم يزل.

قلت لم يزل يعلمه معدوماً و لا يعلمه موجوداً إلاّ إذا وجد و المعنى و ليميّزن الصّادق منهم من الكاذب و يجوز أن يكون وعداً و وعيداً كأنّه قال و ليثيّبن الّذين صدقوا و ليعاقبّن الكاذبين إنتهى كلامه.

أقول و أنت ترى أنّ كلامه صريح في أنّ اللّه لا علم له بالموجود قبل وجوده بل هو عالم بَعدمه فأنّ قوله لم يزل يعلمه معدوماً و لا يعلمه موجوداً إلاّ إذا وجد، صريح فيما قلناه عنه و هذا كلام عارٍ عن التحصيل و لا غرّو فيه فأنّ الزّمخشري و أمثاله لا علم لهم بالمعقولات و لذلك قالوا ما قالوا من عند أنفسهم و ليت شعري ما الّذي دعاهم الى ذلك و قد إتّفق أهل العقول على أنّ علم البارئ بالأشياء قبل وجودها و بعد وجودها على حدٍّ سواء و ليس كتابنا هذا موضوعاً لهذه الأبحاث، و لا كلامه قابلاً للرّد لأنّه قال ما قال لجهله و من كان كذلك فلا يعبأ بقوله ولم يعلم الزّمخشري أنّ علمه تعالى لو كان كما ذكره فأيّ فرقٍ بين علمه تعالى و علمنا، فإنّا نعلم أيضاً عدم الشّئ و لا نعلم وجوده إلاّ إذا وجد أليس كلّ قبل صدور الفعل منه عالماً بعدمه و بعد صدوره و وجوده عالماً بوجوده فأنّ الأب مثلاً قبل وجود الولد يكون عالماً بعدمه و لذلك إذا سأل عنه يقول ليس لي ولد، و أمّا بعد وجوده يكون عالماً بوجوده فإذا كان اللّه تعالى كذلك فأيّ فرقٍ بين علمه و علم العوام من النّاس فما ذكره عاطل باطل يدلّ على مبلغ علمه في العقلّيات و معرفة اللّه و صفاته و للبحث فيه مقام آخر و الّذي نقول و عليه إجماع العقلاء و الأديان هو أنّ اللّه تعالى بجميع الأشياء قبل وجودها و بعد وجودها إذا عرفت هذا.

فنقول العلم إدراك الشّئ بحقيقته و مرجع ذلك هو إنكشاف المدرك و الإكشاف هو الظُّهور بعينه و على هذا فقوله: **فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ**، معناه فليظّهرن اللّه

لرسوله صدق الصّادق و كذب الكاذب قاله بعض المفسّرين و هذا ممّا لا إشكال فيه ظاهراً إلاّ أنّه يستفاد من الآية على قراءة المشهور و هي فتح الياء في، يَعلم، بصيغة المعلوم و ذلك لأنّ يعلم يدلّ على الظُّهور لا على الإظهار نعم لو قال فليعلَّمن الّذين صدقوا، ولم يذكر كلمة، اللّه، لكان لما ذكره وجه و أمّا مع ذكر الكلمة فالمعنى أنّ اللّه تعالى هو المظهر و لازم ذلك ضمّ الياء، في، **فلَيعلّمَن**، من أعلم إعلاماً لا من علم يعلم و لا يبعد أن تكون القراءة الصّحيحة هي ضمّ الياء إذ لا دليل على صحّة قراءة المشهور إذ ربّ مشهور لا أصل له و رأيت في بعض التّفاسير إستنادها الى علّي عليه السّلام و تبعه الزُّهري و على هذا فلا إشكال في الآية و يصير معنى الكلام أنّ العلّة في الإختبار هي أن يظهر اللّه لرسوله الصّادق من الكاذب، و في المقام إحتمال آخر و هو أنّ العلم و إن كان سابقاً على وجود المعلوم إلاّ أنّ فائدة ذكر العلم هي التنبيّه بالسَّبب على المسبّب و هو الجزء كأنّه قال لنعلمنّهم فلنجازينّهم بحسب علمنا فيهم و اللّه أعلم.

و للرّازي في تفسير الآية كلام لا بأس بنقله و عباراته قال و في قوله: **فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا** وجوه:

الأوّل: قول مقاتل، فليريّن اللّه.

الثّاني: فليظهرّن اللّه.

الثّالث: فليميّزن اللّه فالحاصل على هذا هو أنّ المفسّرين ظنُّوا أنّ حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدّد علم اللّه و اللّه عالمٌ بالصّادق و الكاذب قبل الإمتحان فكيف يمكن أن يقال يعلمه عند الإمتحان.

فنقول الآية محمولة على ظاهرها و ذلك أنّ علم اللّه صفة يظهر فيها كلّ ما هو واقع فقبل التّكليف كان اللّه يعلم أنّ زيداً مثلاً مطيع و عمرواً سيعصى ثمّ وقت التّكليف و الإتيان، يعلم أنّه مطيع و الآخر عاص و بعد الإتيان يعلم أنّه أطاع و الآخر عصى و لا يتغيّر علمه في شيءٍ من الأحوال و أنّما المتغيّر

المعلوم و نبيّن هذا بمثالٍ من الحيّات و للّه المثل الأعلى و هو أنّ المرآة الصّافية الصّقيلة إذا علقّت من موضع و قبل بوجهها جهة ولم تحرّك ثمّ عبر عليها زيد لابساً ثوباً أبيض ظهر فيها زيد في ثوبٍ أبيض و إذا عبر عليها عمرو في لباس أصفر يظهر فيها كذلك فهل يقع في ذهن أحد أنّ المرآة في كونها حديداً تغيّرت أو يقع له أنّها في تدويرها تبدَّلت أو يذهب فهمه أنّها في صقالتها إختلفت أو يخطر بباله أنّها عن مكانها إنتقلت لا يقع لأحدٍ شيئ من هذه الأشياء و يقطع بأنّ المتغيّر الخارجات فأفهم علم اللّه من هذا المثال بدا على من هذا المثال فأنّ المرآة ممكنة التغيّر و علم اللّه غير ممكن عليه ذلك، فقوله: **فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا** يعني ممّن يعلم اللّه أن يطيع الطّاعة فيعلم أنّه مطيع بذلك العلم **وَ لَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ** يعني من قال أنا مؤمن و كان صادقاً عند فرض العبادات يظهر منه ذلك و يعلم و من قال ذلك منافقاً كذلك يبيّن إنتهى ما أردنا نقله عنه في المقام و أنّما نقلنا كلامه بطوله إذ من المحتمل أنّ من بعدنا يفهم منه غير ما فهمناه و كيف كان فما ذكره في المقام لا يرفع الإشكال بل يزيد عليه فأنّ قوله أنّ علم اللّه صفة فهو حقّ لا شكٍّ فيه و أمّا أنّ تشبيهه الصّفة بالمرآة و أنّه يظهر فيها كلّ ما هو واقع كما هو واقع ففيه نظر و ذلك لأنّ الصّفة هناك عين الذّات مصداقاً و أن تغايرها مفهوماً و إذا كان كذلك فما يحكم به على الصفّة يحكم به على الذّات و لازم ذلك هو كون الذّات مرآتاً لما ذكره و حيث أنّ العوارض الّتي أشار اليها من الحوادث فيلزم أن تكون الذّات محّلاً للحوادث و حيث أنّ الحوادث متغيّرة مختلفة فلا محالة يسري الحدوث منها الى الذّات إذ لا يعقل أن يكون الحادث عارضاً على غير الحادث.

و بعبارةٍ أخرى إذا كان الّذات محّلاً للحوادث فهو قابل لها و ما يقبل الحادث لا يكون إلاّ حادثاً و ما كان حادثاً فهو مسبوق بالعلّة أو بالعدم و ما كان كذلك فهو مخلوق و هو كما ترى و أمّا قوله و لا يتّغير علمه في شيئ من

الأحوال و أنّما المتّغير المعلوم، ففيه أنّ هذا يتّم بناء على كون الصِّفة زائدة على الذّات و أمّا على القول بعينيّة الصّفات فالعلم يتغيّر بتغيُّر المعلوم إذ المفروض أنّ مصداقاً و تغيُّر الحال يستلزم تغيُّر المحَّل و المحَّل هو الذّات على المفروض هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول، أي دليلٍ دلَّ على أنّ العلم لا يتغيّر بتغيُّر المعلوم أليس العلم عبارة عن إدراك حقيقة الشّئ على مسلك الفلاسفة في العلم الحصولي و حضور المدرك لدى المدرك في العلم الحضوري فأن قال قائل أنّ علم اللّه بالأشياء حصولّي أي أنّه يحصل عند الصُّورة الحاصلة لدى العاقل فصورة البياض مثلاً غير صورة السّواد و صورة الشّجر غير صورة الحجر و هكذا و لا نعنى بالتغيّر إلاّ هذا، و أن قال أنّ علم اللّه حضّوري كما هو الحقّ و عليه إتّفاق الفلاسفة، فنقول حضور المدرك و هو الشّجر مثلاً غير حضور الحجر و حضور البياض غير حضور السّواد فالعلم يتغيّر بتغيّر المعلوم قطعاً و في المقام بحث خارج عن طور الكتاب.

و محصّل الكلام أنّ ما ذكره الرّازي يتّم بناءً على كون الصّفات في الواجب زائدة على الذّات كما هو كذلك فينا و أمّا على العينيّة فحكمها واحد و اللّه أعلم بحقائق الأمور و الّذي يقوّي في النّفس في حلّ الإشكال هو ما ذكرناه من أنّ قوله: **لَيَعْلَمَنَّ**، بضّم الياء من الإعلام لا بفتحها على ما هو المشهور و قد قلنا أنّ المشهور لا دليل لهم و لا سيّما أنّ هذه القراءة منسوب إلى أميرالمؤمنين عليه السلام و أهل البيت أدرىٰ بما فيه.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ

قال في التّبيان أي أيظُّن الذّين يفعلون القبائح و المعاصي أن يفوتونا كما يفوت السّابق لغيره ثمّ قال، ساء ما يحكمون أي بئس الشّئ الذّي يحكمون بظنّهم أنّهم يفوتونا إنتهى.

و قال صاحب الكشّاف، أن يسبقونا، أن يفوتونا يعني أنّ الجزاء يلحقهم لا محالة و هم لم يطمعوا في الفوت و لم يجد ثوابه في نفوسهم و لكنّهم لغفلتهم و قلّة فكرهم في العاقبة و إصرارهم على المعاصي في صورة من يقدر ذلك و يطمع فيه إنتهى.

و قال الرّازي بيَّن أنّ من كلّف بشيءٍ و لم يأت به يعذّب و أن لم يعذب في الحال فسيعذّب في الإستقبال و لا يفوت اللّه شيء في الحال و لا في المأل إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول ظاهر كلامهم أنّ قوله تعالى: **يَسْبِقُونَا،** معناه يفوتونا و على هذا فالسّبق في الآية بمعنى الفوت مجازاً لا حقيقةً فأنّ السّبق في الأصل التقدُّم في السّير ثمّ يتَّجوز به في غيره و ما نحن فيه من هذا القبيل و لنا في المقام إحتمالٌ أخر.

و هو أنّ السَّبق بمعنى التّقدم لا بمعنى الفوت و معنى الكلام أنّهم يعملون السيّئات و يظنُّون أن يسبقونا بعملهم ولم يعلموا أنّا علمنا ذلك منهم من قبل و لم يخف علينا شيء من أعمالهم قبل صدورها منهم و بعبارةٍ أخرى كلّ عملٍ يصدر من العبد كان مسبوقاً بعلمنا و من ظنَّ أو يظنّ غير ذلك فهو باطل فأنّ اللّه تعالى عالم بالأشياء قبل وجودها و بعد وجودها و لا يخفى عليه شيء لا في الأرض و لا في السّماء.

مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَاٰتٍ وَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

الرّجاء ظنٌّ يقتضي حصول ما فيه مسّرة و الرّجاء و الخوف يتلازمان إذ الخوف عبارة عن التألّم من توقُّع مكروهٍ ممكن الحصول و ما يمكن حصوله يمكن عدم حصوله أيضاً و ما كان حصوله مكروهاً كان عدم حصوله محبوباً فكما أنّه يتألّم بتوقّع حصوله يرتاح بتوقّع عدم حصوله أيضاً فالخوف عن شيءٍ وجوداً يلزمه الرّجاء عدماً و عنه عدماً يلزمه الرّجاء وجوداً و قس عليه

إستلزام الرّجاء للخوف فهما متلازمن و أن أمكن غلبة أحدهما نظرا إلى كثرة حصول أسبابه فكما أنّ الخوف من متعلّقات قوّة الغضب و أنّ الممدوح منه من فضائلهما لكونه مقتضى العقل و الشّرع و باعثاً للعمل من حيث الرَّهبة فكذا الرّجاء متعلّق بها و من فضائلها لكونه مقتضاهما و باعثاً للعمل من حيث الرّغبة إلاّ أنّ الخوف لترتّبه على ضعف القلب يكون أقرب إلى طرف التّفريط و أمّا الرّجاء لترتُّبه على قوّة القلب يكون أقرب إلى طرف الإفراط و أن كان كلاهما ممدوحين، ثمّ لابدّ أن يحصل أكثر أسباب حصول المحبوب حتّى يصدق إسم الرّجاء على إنتظاره و أمّا إنتظار ما لم يحصل شيءٍ من أسبابه فيسمّى غروراً و حماقة كتوقُّع من ألقى بذراً في أرضٍ سبخة لا يصلها الماء و إنتظار ما كان أسبابه مشكوكة يسمّى تمنيّاً و توضيح ذلك أنّ الدّنيا مزرعة الأخرة و القلب كالأرض و الإيمان كالبذر و الطّاعات هي الماء الّذي يسقي به الأرض و تطهير القلب من المعاصي و الأخلاق الذّميمة بمنزلة تنقية الأرض من الشّوك و الأحجار و النّباتات الخبيثة و يوم القيامة هو وقت الحصاد فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء و صاحب الزّرع التَّنمية فإذاً إسم الرّجاء أنّما يصدق على إنتظار محبوبٍ تمّهدت جميع أسبابه الدّاخلة تحت إختيار العبد و هو فضل اللّه تعالى بصرف القواطع و المفسدات فالأيات و الأحاديث الواردة في مدح الرّجاء و في سعة عفو اللّه و جزيل رحمته و وفور مغفرته أنّما هي مخصوصة بمن يرجو الرّحمة و الغفران بالعمل الخالص المعدّ لحصولها و ترك الإنهماك في المعاصي فأحذر أن يغّرك الشّيطان و يمنعك من العمل و يقنعك بمحض الرّجاء و الأمل و أنظر إلى حال الأنبياء و الأوصياء و الأولياء و إجتهادهم في العبادات و الطّاعات فأنّ في ذلك عظةٌ لمن إتعظّ و عبرة لمن إعتبر إذا عرفت هذا فنقول:

معنى الآية من كان يرجو لقاء اللّه، حقّاً، و إستَّعد لذلك بسبب الأعمال و الطاعات.

فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ الأجَل بفتح الألف و الجيم و سكون اللاّم المدّة المضروبة للشّئ و أنّما أضافه إلى نفسه و قال أجل اللّه و لم يقل أجل العبد مثلاً لأنّه تعالى هو الّذي أجّل لكلّ شئ أجلاً و وّقت وقتاً فالأجل و أن كان ظاهراً للعبد إلاّ أنّه للّه واقعاً، و معنى الكلام أنّ الأجل أي الوقت الذّي وقّته اللّه للثّواب و العقاب أتٍ لا محالة و المراد لقاء ثوابه و رحمته و غفرانه **وَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ،** أي سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ، بما تضمرونه و تخفونه فيجازكم بحسب ذلك.

وَ مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ

الجهاد مشتّق من الجهد و الجهد الطّاقة و المشقّة و قيل الجهد بالفتح المشقّة و بالضّم الواسع و قيل غير ذلك و كيف كان قال الرّاغب في المفردات الجهاد و المجاهدة إستفراغ الوسع في مدافعة العدّو و هو على ثلاثة أضرب:

مجاهدة العدّو الظّاهر، و مجاهدة الشيطّان، و مجاهدة النّفس و تدخل ثلاثتها في قوله تعالى: **وَ جَاهِدُوا فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ**[1] والأيات في مَدح الجهاد كثيرة كما لا يخفى قال أميرالمؤمنين عليه السلام فى فضل الجهاد:

و من خطبة له عليه السلام (٢٧)

اَمّا بَعْدُ فَاِنَّ الْجِهادَ بابٌ مِن اَبْوابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللهُ لِخاصَّةِ اَوْلِيائِهِ، وَهُوَ لِباسُ التَّقْوىٰ وَدِرْعُ اللهِ الْحَصِينَةُ، وجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغبَةً عَنْهُ اَلْبَسَهُ اللهُ ثَوبَ الذُّلِّ وَشَمْلَةَ الْبَلاءِ، وَدُيِّثَ بِالصَّغارِ والقَماء، وضُرِبَ علىٰ قَلْبِهِ بِالأسهابِ، وأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهادِ وَسِيمَ الْخَسْفُ ومُنِعَ النِّصْفُ إنتهىٰ.

و الظّاهر أنّ ما ذكره عليه السّلام من أثار الجهاد هو الجهاد للعدّو و هو أحد أقسام الجهاد و شرائطه مقررة في كتب الفقهيّة و أمّا الآية فهي ناظرة إلى مطلق

١- الحجّ = ٧٨

الجهاد الشّامل للأقسام الثّلاثة و قد وردت الأيات في مدحها و الأمر بها جميعاً.

في جهاد العدّو:

قال اللّه تعالى: **يٰٓ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جٰاهِدِ ٱلْكُفّٰارَ وَ ٱلْمُنٰافِقِينَ وَ ٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ**[١].

قال اللّه تعالى: **فَلٰا تُطِعِ ٱلْكٰافِرِينَ وَ جٰاهِدْهُمْ بِهِ جِهٰادًا كَبِيرًا**[٢].

قال اللّه تعالى: **لٰا يَسْتَوِى ٱلْقٰاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ وَ ٱلْمُجٰاهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللّٰهِ**[٣].

قال اللّه تعالى: **وَ فَضَّلَ ٱللّٰهُ ٱلْمُجٰاهِدِينَ عَلَى ٱلْقٰاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا**[٤].

و الأيات كثيرة و قال في الجهاد بالأموال.

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللّٰهِ**[٥].

قال اللّه تعالى: **اِنْفِرُوا خِفٰافًا وَ ثِقٰالًا وَ جٰاهِدُوا بِأَمْوٰالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللّٰهِ**[٦] و غيرها من الأيات.

و أمّا مجاهدة الشّيطان فهي ممّا لا خفاء فيه بل هي الأصل و لا نحتاج إلى ذكر الأيات و حاصل الكلام أنّ أقسام الجهاد كثيرة و المطلوب نفس الجهاد في سبيل اللّه سواء كان بالنّفس أم بالمال و العلم و الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر و هكذا و الآية ناظرة إلى الجميع و أمّا قوله تعالى: **لِنَفْسِهِ**، فهو إشارة إلى أنّ نفع الجهاد و ثمرته يرجع إلى المجاهد لا إلى اللّه تعالى و قوله: **إِنَّ ٱللّٰهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعٰالَمِينَ**، بمنزلة العلّة للحكم كأنّه قيل كيف يرجع النّفع إلى

١- التّوبة = ٧٣ و التّحريم = ٩
٢- الفرقان = ٥٢
٣- النّساء = ٩٥
٤- النّساء = ٩٥
٥- الأنفال = ٧٢
٦- التّوبة = ٤١

المجاهد و المفروض أنّ اللّه تعالى أمره به. فقيل في الجواب لأنه تعالى غنيّ عن العالمين فلو كان النّفع راجعاً إليه يلزم إحتياجه و كلّ محتاج فهو ممكن الوجود إذ لا نعني بالممكن إلاّ الفقر بل هو نفسه لا أنّ الفقر عارضٌ عليه:

قال أميرالمؤمنين عليه السلام:

و من خطبة له عليه السلام (١٩٢)

قوله عليه السلام: امّا بَعْدُ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ حِيْنَ خَلَقَهُمْ غَنِياً عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ لِأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ الخ.

و هذا حكمٌ عقليّ لا خلاف فيه و على هذا فمن جاهد فأنّما يجاهد لنفسه و هو المطلوب و المراد بالنّفع هو العزّة في الدّنيا و الثّواب في الأخرة.

وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ

قد تكلّمنا في معنى الإيمان و أنّه عبارة عن الإعتقاد بالقلب و الإقرار باللّسان و العمل بالأركان غير مرّة في تضاعيف الكتاب و قلنا أنّ العامّة فسّروا الإيمان بالإعتقاد فقط و هذه الآية و أمثالها تدلّ على إشتراط العمل فيه و أنّ مجرد الإعتقاد القلبي لا يكفي في تحقّقه و ترتّب الثّواب عليه و ذلك لأنّ اللّه تعالى علّق تكفير السيّئات و الجزاء على الإيمان الّذي يتحقّق في قالب العمل الصّالح و لولا إشتراطه فيه فأيّ فائدة في ذكر العمل و هو واضح و المراد بالعمل الصّالح العمل الّذي حكم العقل و الشّرع بحسنه.

و أمّا قوله: **لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ**، أي سيّئاتهم الّتي إقترفوها قبل ذلك فمن قال بالإحباط قال تبطل الحسنة السّيئة لكون الحسنة أكبر منها حتّى يصير بمنزلة ما لم يعمل و إستدلّ بقوله تعالى حيث قال: **إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ**[١].

١- هود = ١١٥

و الإحباط هو إبطال الحسنة السَّيئة و من المعلوم أنّ كلّ حسنةٍ طاعة للّه و لكّ سيّئةٍ هي معصيته.

و قوله: **لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**، قيل معناه أحسن ماكانوا يعملون طاعاتهم للّه لأنّه لا شئ في ما يعمله العباد أحسن من طاعاتهم للّه تعالى و قال قومٌ معناه و لنجزينّهم بأحسن أعمالهم و هو الّذي أمرناهم به دون المباح الذّي لم نأمرهم به و لا نهيناهم عنه.

قال صاحب الكشّاف إمّا أن يريد قوماً مسلمين صالحين قد أساءوا في بعض أعمالهم و سيّئاتهم مغمورة بحسناتهم فهو تعالى يكفّرها عنهم أي يسقط عقابها بثواب الحسنات و يجزيهم أحسن الّذي كانوا يعملون أي أحسن جزاء أعمالهم، و إمّا قوماً مشركين أمنوا و عملوا الصّالحات فاللّه عزّ وجلّ يكفّر سيّئاتهم بأن يسقط عقاب ما تقدّم لهم من الكفر و المعاصي و يجزيهم أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام إنتهى كلامه.

أقول معنى الآية لا خفاء فيه و فيها ترغيبٌ و تحريص على الحسنات و إيماء إلى لطف الرّب و عنايته بعباده و هو كذلك.

وَ وَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَ إِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

قيل معنى الكلام أمرناه أن يفعل حسناً و ألزمناه ذلك.

قال الزّمخشري وصّىٰ حكمه حكم أمر في معناه و تصرّفه يقال و صّيت زيداً بأن يفعل خيراً كما نقول أمرته بأن يفعل و منه بيت الإصلاح.

و زبـانيّة وصّت بـينها   بأن كـذب القـراطف والقـرون

كما لو قال أمرتهم بأن ينتهبوها و منه قوله تعالى و وصّى بها إبراهيم بنيه أي وصّاهم بكلمة التّوحيد و أمرهم بها إنتهى ما قال.

أقول ما ذكره لا بأس به إلاّ أنّ الحقّ أن يؤخذ الوعظ فيها.

قال الرّاغب في المفردات الوصيّة التقدُّم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظٍ من قولهم أرضٌ واصية متصلّة النّبات إنتهى و كيف كان يقول اللّه تعالى و وصَّينا الإنسان، و هو حكمٌ عامّ يشمل جميع أفراد البشر و قوله تعالى: **بِوالِدَيْهِ**، أي الأب و الأم، و قوله حسناً، أي وصيّناه أن يفعل بهما حسناً قولاً و فعلاً، ثمّ خاطب الإنسان أي كلّ واحدٍ من النّاس فقال: **وَ إِنْ جاهَداكَ**، يعني الوالدين، لتشرك بي في العبادة ما ليس لك به علم فلا تطعهما في ذلك إلّي مرجعكم، جميعاً يوم القيامة، فأنبئكم، و أخبركم، بما كنتم تعملون به، في دار الدّنيا و فيه إشارة أنّ حقّ اللّه مقدّم على جميع الحقوق فلا أمر لأحدٍ في قبال أمره إذ لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق و هو واضح.

عن كتاب المحاسِن، عن الباقر عليه السلام قال: سئل رسول اللّه من أعظم حقّاً على الرّجل قال صلى الله عليه وآله وسلم والده إنتهى.

و عنه عليه السلام: أنّ الرّجل يكون بارّاً بوالديه و هما حيّان فإذا ماتا ولم يستغفر لهما كتب عاقّاً لهما و أنّ الرّجل يكون عاقاً لهما في حياتهما فإذا ماتا و أكثر الإستغفار لهما فكتب بارّاً إنتهى.

و عن الكاظم عليه السلام قال: سئل رسول اللّه ما حقّ الوالد على الولد قال صلى الله عليه وآله وسلم لا يسميّه بإسمه و لا يمشي بين يديه و لا يجلس قبله و لا يستّسب له إنتهى.

و عنه عليه السلام قال: أنّ رجلاً أتى النّبي فقال يا رسول اللّه أوصني فقال صلى الله عليه وآله وسلم لا تشرك باللّه شيئاً و إن حرّقت بالنّار و عذّبت إلاّ و قلبك مطّمئنٌ بالإيمان و والديك فأطعهما و برّ بهما حيَّين أو ميَّتين و إن أمراك أن تخرج من أهلك و مالك فأعمل فأنّ ذلك من الإيمان إنتهى.

و عن معمّر بن خلاّد قال: قلت لأبي الحسن الرّضا عليه السلام أدعوا للوالدين إذا كانا لا يعرفان الحقّ قال عليه السلام: أدع لهما و تصدّق عنهما

و إن كانا حيَّين لا يعرفان الحقّ فدارهما فأنّ رسول اللّه قال أنّ اللّه بعثني بالرَّحمة لا بالعقوق إنتهى. و الأحاديث كثيرة[١].

وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّالِحِينَ

أي في جملة الصالحين الّذين فعلوا الطّاعات و تركوا المعاصي خالصاً لوجه اللّه و هم الأنبياء و الأوصياء ومن يحذوا حذوهم قيل المقصود أنّه تعالى يجازيهم ثواب الجنَّة و من المعلوم أنّ الصّالحين في الجنَّة فهكذا من عمل الصّالحات فأنّ الملاك موجودٌ فيهم و أيُّ ثوابٍ أعظم و أنفع منه في الأخرة، جعلنا اللّه منهم إن شاء اللّه.

وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ اٰمَنَّا بِاللّٰهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللّٰهِ وَ لَئِنْ جَآءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ ٱللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَالَمِينَ

كلمة، من، للتّبعيض أي بعض النّاس كذلك قال المفسّرون، الفتنة في الآية بمعنى العذاب و عليه فمعنى الآية أنّ بعض النّاس يدّعي الإيمان باللّه و برسوله فإذا أوذي من ناحية المشركين لأجل إظهاره الإيمان جعل عذاب النّاس كعذاب اللّه يوم القيامة و لم يعلم أنّ عذاب اللّه أشدّ، **وَ لَئِنْ جَآءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ**، يقول للمؤمنين أنّا معكم أو ليس اللّه الهمزة للإنكار أي أنّ اللّه أعلم بما في صدور الهالمين من الإيمان و النّفاق و محصّل الكلام في معنىٰ الآية هو أنّ النّاس في تظاهرهم بالإيمان على صنفين.

صنفٌ أمنوا باللّه و رسوله و جميع ما جاء به النبيّ حقّاً أي ظاهراً و باطناً و هم المؤمنون حقّاً و لا كلام لنا معهم فعلاً.

١- مشكاة الأنوار ص ١٥٨

وصنفٌ أخر يتظاهرون بالإيمان بألسنتهم دون قلوبهم ثمّ جعل اللّه لهم في الآية علامة يعرفون بها و هي أنّهم إذا أوذوا في اللّه بسبب تظاهرهم بالإيمان من ناحية الكفّار كما كان كذلك في صدر الإسلام لم يقدروا على تحمُّل الأذىٰ و يرجّحون الإنكار على الإقرار و يخلّصون بذلك أنفسهم من عذاب الدُّنيا ظنّاً منهم أنّ عذاب النّاس إيّاهم كعذاب اللّه في الأخرة ولم يعلموا أنّ عذاب اللّه أشدُّ و أنّهم نجوا من عذاب النّاس و وقعوا في عذاب اللّه و هذا شأن المنافق بعينه كما أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنّا كُنّا مَعَكُمْ** أي إنّا من المؤمنين و لا نعني بالمنافق إلاّ هذا. و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالى: **و مِن النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ وَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِين. يُخادِعُون اللّهَ وَ الّذينَ آمَنُوا وَ ما يَخْدَعُونَ إلاّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ. في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** إلى أن قال **وَ إِذا لَقُوا الّذينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا و إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ. اَللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ و يَمُدُّهُمْ في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ. أُولٰئِكَ الّذينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدىٰ فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ**[١].

و الأيات في ذمّ النّفاق كثيرة و قد ثبت عقلاً و نقلاً أنّ ضرر النّفاق أكثر من ضرر الكفر و مع ذلك كان عدد المنافقين في صدر الإسلام أكثر من عدد المؤمنين و الآن أيضاً كذلك.

وَ لَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الّذينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ

أي أنّ اللّه تعالى عالمٌ بالمؤمنين و المنافقين و لا يخفى عليه شئٌ من أحوالهم و يحتمل أن يكون العلم هنا بمعنى الظُّهور و الكشف عن المَواقع أي

١- البقرة = ٧ إلى ١٧

أنّ اللّه ليظهرّن المؤمنين و المنافقين إمّا في الدّنيا و إمّا في الآخرة أمّا في الدّنيا بسبب أعمالهم و أمّا في الآخرة بوقوعهم في العذاب و خلودهم في النّار.

وَ قٰالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنٰا وَ لْنَحْمِلْ خَطٰايٰاكُمْ وَ مٰا هُمْ بِحٰامِلِينَ مِنْ خَطٰايٰاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ

حكى اللّه في هذه الآية عن الكفّار أنّهم قالوا للمؤمنين، إتّبعوا سبيلنا، في الكفر و أتركوا الإيمان **وَ لْنَحْمِلْ خَطٰايٰاكُمْ**، يوم القيامة و هو من قبيل قول القائل، إفعل كذا و ذنبه عليّ، ثمّ قال تعالى: **مٰا هُمْ بِحٰامِلِينَ مِنْ خَطٰايٰاهُمْ** أي أنّهم كذّبوا في قولهم هذا و ليسوا بحاملين من خطاياهم و الظّاهر أنّ كلمة، من، تبعيضيّة أي أنّهم لا يحملون بعض الخطايا فضلاً عن كلّها، و أمّا نفي الحمل عنهم، فلعلّ الوجه فيه أنّه لا تزر وازرةٌ وزر أخرى، أو أنّهم ينكرون هذا يوم القيامة و الحاصل أنّهم أي الكفّار لم يريدوا بقولهم هذا إلاّ إغفال المؤمنين و إدخالهم في الكفر كما هو شأن المنافق و الكافر أعاذنا اللّه من شروره و كيده و لعمري هذا داءٌ لا دواء له إلاّ الإيمان الواقعي و من لا إيمان له و لا يخاف اللّه فحاله معلومٌ.

وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقٰالَهُمْ وَ أَثْقٰالاً مَعَ أَثْقٰالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ عَمّٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ

قال بعض المفسّرين معناه أنّهم يحملون خطاياهم في أنفسهم الّتي لا يعملونها بغيرهم و يحملون الخطايا الّتي ظلموا بها غيرهم فحسن لذلك فيه التفصّيل الّذي ذكره اللّه إنتهى.

و قال صاحب الكشّاف **وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقٰالَهُمْ** أي أثقال أنفسهم، و أثقالاً، يعني أثقالاً آخر غير الخطايا الّتي ضمنوا للمؤمنين حملها و هي أثقال الّذين كانوا سبباً في ضلالهم إنتهى.

و أمّا قوله: **وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ عَمّٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ** قيل في وجه الإفتراء ثلاثة أوجه:

أحدهما: كان في قولهم: **وَ لْنَحْمِلْ خَطٰايٰاكُمْ** صادراً عنهم لإعتقادهم أن لا خطيئة في الكفر ثمّ يوم القيامة يظهر لهم خلاف ذلك فيسئلون عن ذلك الإفتراء.

ثانيهما: أنّ قولهم: **وَ لْنَحْمِلْ خَطٰايٰاكُمْ** عن إعتقاد أن لا حشر فإذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسئلون و يقال لهم أما قلتم أن لا حشر.

ثالثها: لمّا قالوا إن تتّبعونا نحمل خطاياكم يوم القيامة يقال لهم فأحملوا خطاياهم فلا يحملون فيسئلون و يقال لهم لم إفتريتم و قلتم في الدّنيا ما قلتم.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحًا إِلىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاّٰ خَمْسِينَ عٰامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفٰانُ وَ هُمْ ظٰالِمُونَ

قيل أنّه أوّل نبيّ بعد جدّه، إدريس و كان إسمه عبد الغّفار و إنّما سمّي نوحاً لكثرة نواحه و بكائه خمسمائة سنة خوفاً من اللّه تعالى و كان تحسّره على ضلالة أمّته و هو أوّل الأنبياء الخمسة أولوا العزم المبعوثين الى الجّن و الإنس كافّة و الأربعة بعد نوح هم إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و هو سيّدهم و أفضلهم و كان نبّي اللّه نوح جسيماً عظيم القدر و المشهور أنّه عاش ألف و خمسمائة سنة و قيل أكثر ثمّ أنّه لبث في قومه يدعوهم الى اللّه و كان عمره ثمان مائة و خمسين سنة على ما قيل و أقام في قومه يدعوهم الى اللّه تسع مائة و خمسون سنة لما ذكره اللّه في كتابه، قالوا لمّا بعث الى قومه أخذ يدعوهم الى اللّه ليله و نهاره و يعظهم و يحذّرهم العذاب سرّاً و جهاراً و هم لا يزدادون إلاّ كفراً و طغياناً تصكّون أسماعهم عن أقواله و يهربون فراراً من مواعظه حتّى مضى عليه كذلك ثلاث مائة سنة فهّم أن يدعوا إليهم فنزلت ملائكة من السّماء يسئلونه أن يؤخّر الدّعاء عليهم فأجابهم و قال أجلّتهم

ثلاث مائة سنة و أقام يدعوهم حتّى إنقرض منهم قرن و خلفهم قرنٌ آخر أعتى و أطغى و أكفر و أخبث منهم و لم يؤمن به طول تلك المدَّة إلاّ أفراد يسيرون و شر ذمة قليلة لعلّهم لم يبلغوا عشرة أنفار ثمّ همّ أن يدعوا على سائر قومه الكفّار إذ هبط ملائكة من السّماء يسئلونه أن يؤجّل الدّعاء على قومه فأجابهم و قال أجلّتهم ثلاث مائة سنة و أقام على دعوتهم الى اللّه و صبر على أذا هم حتّى إنقرض الفرق الثّاني من قومه و أستخلفهم قرنٌ ثالث أطغى و أشّد كفراً و عناداً من القرنين الأوّلين الى أن كمل الفرق الثّالث و بلغت مدَّة دعوته لهم تسع مائة سنة و كان مجموع من آمن به خلال هذه المدَّة ثمانون نفراً أو ما يقارب ذلك و أمّا سائر النّاس بما فيهم زوجته، واغلة، و إبنه، كنعان، فقد كانوا على غير عقيدته و أجتمعت كلمة الكفّار على إيذاء شيعته الّذين آمنوا به و أتّبعوه حتّى كثرت شكاياتهم الى نوح عليه السلام ممّا ينالهم من تلك الطّواغيت و كثر إلحاحهم عليه يسئلونه الدّعاء على الكفّار و الفرج لهم الى أن نزل عليه جبرئيل و أمره من اللّه تعالى أن يتّزوج بعمورة بنت ضمران المؤمنة الصّالحة فأنّها مؤمنة بك و مخلصة لك، ثمّ أنّ نوحاً عليه السلام بعد ما يئس من إيمان قومه و إلحاح قومه المؤمنين عليه بالدّعاء دعا على قومه فهبط عليه جبرئيل عليه السلام و قال له أنّ اللّه تبارك و تعالى قد أجاب دعوتك فقل لشيعتك المؤمنين أن يغرسوا نوى التّمر حتّى إذا أثمر إن شئت فرجت عنكم فشكر نوح ربّه و حمده و عرَّف شيعته بما أمروا به فإستبشروا بذلك و غرسوا النوّى و الكفّار يرون بهم يسخرون منهم و من نوح و جعلوا يتّعهدونه ثمّ أنّه لمّا بلغ النّخل و أثمر أتوا نوحاً و سألوه ينجز لهم بالعذاب فناجى نوح ربّه في ذلك و أوحى اللّه إليه أن يأمر قومه أن يغرسوا النّوى ثانية و بعد أن يثمر إن شاء اللّه فرج عنهم فلمّا بلّغهم نوح ذلك إرتّد ثلث أصحابه عن دينه و رجعوا إلى كفرهم ظنّاً منهم أنّ نوحاً قد أخلف وعده و غرس الباقون النّوى حتّى أتوا نوحاً يطالبونه

بالوعد فناجى نوح ربّه في ذلك و عاد الوحي إليه مرّةً أخرى في جوابه بأن يأمر قومه بغرس النّوى ثالثة و لمّا بلّغهم نوح بذلك إرتّد أيضاً من شيعته ثلثٌ أخر إلى الكفر و لم يبق منهم إلاّ المصّفى النّقي الخالص الممتحّن منهم و هم الثؤلث الأخير فغرسوا النّوى و لمّا أدرك النّخل و أثمر أقبل إليه المؤمنون الخلّص من أصحابه و قالوا له يانبيّ اللّه نحن لا نشكّ في أنّك صادق و مرسل فعلت ما وعدت أو لم تفعل فإسأل ربّك تنجيز الوعد فأنّه لم يبق منّا إلاّ القليل فتّوجه نوح إلى ربّه و صلّى و ناجى و قال ياربّ لم يبق من أصحابي إلاّ هذه العصابة و أنّي أخاف عليهم الهلاك إن تأخّر الفرج عنهم فعند ذلك أجابه اللّه في دعوته فقال له الآن أسفر الصُّبح عن اللّيل حين صرح الحقّ عن محضه و صفى من الكدر بإرتداد من كان خبيثاً فأنّي قد وعدتهم أن أستخلفهم خصّة في الأرض و أمكّن لهم دينهم و أبدّل خوفهم بالأمن ثمّ أمر اللّه سبحانه نوحاً بعمل السّفينة ثمّ أنّه لمّا فرغ من عمل السّفينة في مدّة ثمانين سنة أمر اللّه يناتدي في البهائم و الحيوانات بأن تحضر بأجمعها عنده فحضرت بقدرة اللّه فأمره اللّه أن يحمل في السّفينة من كلّ صنفٍ زوجين أثنين و كان مجموع المؤمنين الّذين إستقاموا معه ثمانين نفر أو أقلّ فدخلوا السّفينة بأجمعهم ماعدا إبنه الكافر و إسمه (كنعان) و زوجته أمّ كنعان و إسمها (غائلة) و هي لم تؤمن به في حياتها و كانت تنسبه إلى الجنون و كان يوم ركوبه أوّل رجب فإرتفعت السَّفينة فوق الماء بعد ركوبهم فيها و نظر نوح إلى إبنه كنعان و هو يغمره الماء و هو يناديه فلم يلتفت إليه حتّى هلك مع الهالكين قيل كانت مدّة سير السّفينة ستّة أشهر حتّى طافت الأرض كلّها فهلك من هلك و بقي من بقي و إلى ما ذكرناه أشار اللّه تعالى بقوله: **فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ** و قد مرَّ الكلام في قصّة نوح غير مرّةٍ سابقاً و إلى ذلك أشار اللّه تعالى أيضاً بقوله:

فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَصْحَابَ ٱلسَّفِينَةِ وَ جَعَلْنَاهَآ اٰيَةً لِلْعَالَمِينَ

و الآية العلامة و المعنى أنّا جعلنا السّفينة أية و علامة على قدرته تعالى بعد مهلته إيّاهم، أنظر إلى صبره تعالى في إنزال العذاب و لطفه و عنايته بعباده كيف يمهلهم بعد إستحقاقهم العذاب لعلّهم يرجعون عن كفرهم و ظلمهم و مع ذلك فأنّه تعالى بالمرصاد و لا يمكن الفرار من حكومته.

وَ إِبْرٰاهِيمَ إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ وَ ٱتَّقُوهُ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

أشار اللّه تعالى إلى قصّة إبراهيم بعد قصّة نوح، و هو أي إبراهيم عليه السلام كان من أولي العزم أيضاً و هو جدّ نبيّنا محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم و إذا كان يوم القيامة يأتي النّداء من قبل اللّه سبحانه يا محمّد نعم الأب أبوك إبراهيم و نعم الأخ أخوك علّي بن أبي طالب و لا شكّ أنّ إبراهيم أفضل من جميع الأنبياء بعد نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و قد إتفقّت كلمة جميع أهل الأديان المختلفة من اليهود و النّصارى و المسلمين و غيرهم على نبوّته و تعظيمه و جعل النبوّة في صلبه و ذريّته و جعل نبيّنا من ولده و نسله و كان إبراهيم عليه السلام قدوةً و إماماً و معلّماً للخير من غير مربّ و معلّم سوى اللّه تعالى و إنفرد في عصره بالتّوحيد و جميع أهل عصره كفرة كما قال تعالىٰ:

إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ كٰانَ أُمَّةً قٰانِتًا لِلّٰهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ[1].

و كان عليه السلام كثير السّجود على الأرض و كثير الصّلاة على نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و كثير الخضوع لربّه و كان مضيافاً يحبّ الضّيوف و واجداً لسائر الكمالات علىٰ نحو الأتّم و كان مولده في قريةٍ من قرى الكوفة بالعراق يقال لها، لوثاربا، و كان أبوه تارخ من أهلها و كانت أمّه و أمّ نبيّ اللّه لوط، أختين صالحتين و هما بنتان لنبيّ كان إسمه لاخج و كان منذراً لا مرسلاً و كانت و لادته في عصر

١- النّحل = ١١٩

الملك الجبّار العاتي، نمرود، بن كنعان و كان مع قومه يعبدون الأصنام و قد ذكرنا سابقاً كيفيّة ولادته عليه السلام بما لا مزيد عليه و كانت ولادته في اليوم الأوّل من ذي الحجّة قيل أقام في الغار ثلاث عشرة سنة و كان أوّل ما خرج إلى قومه رأهم يعبدون الأصنام فخالفهم في ذلك و جعل يعيب عليهم عبادتهم حتّى فشا أمره و كانت أمّه قد نقلته إلى بيتها مع أولادها في كفالة عمّه أزر لأنّ والده تارخ قد مات و هو في بطن أمّه و لمّا رأه عمّه أزر إعترض على أمّه قائلاً من هذا الّذي قد بقي حيّاً في سلطان الملك و هو يقتل أولاد النّاس لعلَّ والدة إبراهيم كانت زوجة لعمّه بعد أبيه قالت إبن أخيك تارخ ولدته وقت كذا و كذا فقال ويحك إن علم الملك به زالت منزلتنا عنده قالت لا عليك إن لم يشعر به بقىٰ لنا ولدنا و إن شعر به كفيتك الإحتجاج عنه فلمّا نظر أزر إلىٰ إبراهيم أوقع اللّه المحبّة له في قلبه إلى أخر القصّة على ما مرَّ ذكره سابقاً فقوله تعالى: **وَ إِبْرٰاهِيمَ إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ وَ اِتَّقُوهُ** إشارة إلىٰ أنّه دَعا قومه إلى التّوحيد و إستدلّ على ذلك بقوله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون، كيفيّة الإستدلال أنّ العاقل العالم بعواقب الأمور لا يعبد ما لا نفع فيه لأنّه يدلّ على الجهل و الحماقة و حيث أنّ الأصنام من الجمادات لا شعور لها فكيف ينتفع بها غيرها و ما كان كذلك لا ينبغي التوجّه إليه و أنّما علَّق الحكم على الشّرط بقوله: **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** لأنّ من لا علم له بذلك فهو مجنونٌ لا يلتفت إليه و بعبارةٍ أخرى لا يخلو حالهم عن أمرين:

أحدهما: أنّهم يعبدونها مع العلم بأنّها لا تنفع.

ثانيهما: مع عدم العلم، فأن كان الأوّل فكيف يعبدونها مع العلم بعدم النّفع فيها أليس هذا عبثاً و لغواً و العالم العاقل لا يختار إلاّ ما هو خيرٌ له و ليس هو الاّ اللّه الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات.

و إن كان الثّاني أي لا علم لهم بذلك فهم في زمرة المجانين لأنّ من لا يعلم أنّ الجماد لا يقدر على شئ فهو مجنون في الواقع و هم لا يعترفون بـه و هـو واضح و لذلك أردف اللّه تعالى حكايةً عنه بقوله:

إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ أَوْثٰانًا وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱلرِّزْقَ وَ ٱعْبُدُوهُ وَ ٱشْكُرُوا لَهُٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

كلمة، أنّما، تفيد الحصر أي ليس ما تعبدون مـن دون اللّـه إلاّ أوثـاناً جـمع وثن، و هو ما يعبدون من دون اللّه كائناً ما كان و قيل أنّه ما يـعمل مـن حـجرٍ وطينٍ.

و قوله: **وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا**، أي تعملون أصناماً و سمّاها إفكاً لإدّعائهم أنّـها ألهة و قيل معناه و تـصنعون كـذباً، و المـقصود أنّـها مـصنوعكم و مـخلوقكم فكيف تعبدونها و تسمّونها ألهة، و في قوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَـعْبُدُونَ** إلى قـوله: **رِزْقًا**، إشارة إلى أنّ الخالق المعبود هـو الّـذي خـلق الخـلق و يـرزقهم و أمّـا الأصنام الّذين تعبدونها لا يملكون لكم رزقاً، لأنّ إعـطاء الرّزق مـوقوف عـلى الحياة أوّلاً، و الشّعور ثانياً و العلم بكيفيّة الرّزق على أسـاس المـصلحة ثـالثاً و الجماد لا حياة له و لا شعور فكيف يرزقكم و هو لا يعلم معنى الرّزق أصلاً و قـوله: **فَابْتَغُوا عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱلرِّزْقَ** إلى أخـر الآيـة فـالفاء للـتّفريغ أي إذا كـان معبودكم مخلوقاً لكم و لا يقدر على شئٍ فهو كـالمعدوم أي وجـوده و عـدمه سيان فإبتغوا أي فأطلبوا عند اللّه الّذي خـلقكم الرّزق و أعـبدوه و أشكـروا له إليه ترجعون بعد الموت لقوله تعالى: **إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰٓا إِلَيْهِ راجِعُونَ** و أنّما قال ذلك لأنّ الّرازق يستحقّ أن يكون معبوداً و كلّ معبودٍ يسـتحقّ الشّكـر لأنّ المـعبود الرّازق منعمٌ على عبده بـالإيجاد و الرّزق و قـد ثـبت أنّ شكـر المـنعم واجب عقلاً.

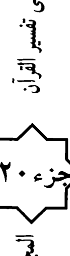
و في قوله: **إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** إشارة إلى البعث و الحشر و من المعلوم أنّ كلّ شيءٍ يرجع إلى أصله.

وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مٰا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلاٰغُ ٱلْمُبِينُ

الواو للعطف و المعنى إن نذبُّوني فيما أخبركم به من عند اللّه و ما أدعوكم إليه من إخالص عبادته و ترك عبادة الأصنام و الأوثان فلا عجب فيه فقد كذَّب الأنبياء أممٌ من قبلكم و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الأسلام كما أنّه ليس أخرها و ما على الرّسول في كلّ عصرٍ و زمانٍ إلاّ البلاغ، أي إبلاغ الحكم من الخالق إلى الخلق و ليس له إجبار الخلق على الطّاعة و الإنقياد فأنّ البشر مختار في قوله و فعله في دار الدّنيا و أنّما أراد اللّه بذلك إتمام الحجّة على النّاس ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيا من حيّ عنها.

أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللّٰهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللّٰهِ يَسِيرٌ

الإستفهام للتّوبيخ و التّقريع و يحتمل أن يكون إنكاريّاً أي أنّهم يرون ذلك و مع ذلك يعبدون غير اللّه وكيف كان فمعنى الآية أو لم يروا بأعينهم أو بقلوبهم فأنّ الرّؤية تارةً تكون بالبصر و تارةً بالقلب و على الثّاني فهي بمعنى العلم أي أو لم يعلموا و على التّقديرين لا خفاء في معنى الآية لأنّ اللّه تعالى مبدء الخلق بالإيجاد و معيده بالموت و هذا محسوسٌ و معقولٌ.



و قوله: **إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللّٰهِ يَسِيرٌ** معناه أنّ الإيجاد و الإعادة على اللّه سهلٌ لعموم قدرته و أنّه **إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**[١] ومن المعلوم أنّ الإعادة مثل الإبداء في السّهولة بل هي أسهل لأنّ المادّة فيها موجودة بخلاف الإبداء و الإيجاد و في الآية إشارة إلى أنّ المعبود ينبغي أن يكون قادراً علىٰ

١- يس = ٨٢

كلّ شيءٍ إذ العجز نقصٌ و فيه و الأصنام و الأوثان من سنخ المخلوق بل هي من أضعفٍ المخلوقات فكيف تكون مستحقّةً للمعبوديّة و حيث أنّه أي الحكم بكونه تعالى مبدأً و معيداً يحتاج إلى الإثبات.

قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنْشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

في الآية إشارة إلى أنّ الحكم من المحسوسات التّي لا تحتاج إلى دليلٍ من العقل فأنّ المحسوس مقدّم على المعقول فمن أنكر المحسوس أنكر المعقول بطريق أولى و أنّما قلنا أنّ الحكم من المحسوسات لأنّ اللّه تعالى أحاله على النّظر فقال لنبيّه قل، لهم سيروا في الأرض فأنظروا كيف بدأ الخلق أي كيف خلقهم وأوجدهم و قد أشار اللّه تعالى إلى هذا في كثيرٍ من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلِ ٱنْظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَلَمْ يَنْظُرُوٓا إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَ زَيَّنَّاهَا**(۳).

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ**(۴) و الآيات كثيرة.

و حاصل الكلام أنّ مسئلة الإيجاد لا خفاء فيها و هي محسوسة و لا تحتاج الى دليلٍ آخر فأنّه من توضيح الواضحات و أمّا قوله تعالى: **ثُمَّ ٱللَّهُ يُنْشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ** فأنّها و أن لم تكن محسوسة ظاهراً إلاّ أنّها ترجع إلى الحّس و ذلك لأنّ حكم الأمثال واحد فأن كان الإبداء ممكناً محسوساً فالإعادة أيضاً

۱- الرُّوم = ۵۰
۲- يُونس = ۱۰۱
۳- ق = ۶
۴- الأعراف = ۱۸۵

كذلك لأنّها من الإيجاد ثانياً و أن كان إيجاد الدّنيا و ما فيها بيد اللّه و قدرته فكذلك النّشأة الآخرة و الى ما ذكرناه أشار اللّه تعالى بقوله: **إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**.

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَآءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَآءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ

إذا ثبت أنّ اللّه تعالى هو الخالق للخلق فالمخلوق تحت قدرته يحكم فيه بما يشاء و هو حكمٌ عقّلي لا شكّ فيه و من جملة المخلوق الإنسان فصَّح قوله: **يُعَذِّبُ مَنْ يَشَآءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَآءُ** فهو لا يسئل عمّا يفعل و هم يسئلون و قوله: **وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** معناه إليه تحشرون و ترجعون يوم القيامة **إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ**، و إنّما عبرّ بالقلب ولم يقل ترجعون مثلاً لنقطةٍ و هي أنّ القلب نفى حالٍ بحالٍ يخالفها و نشأة الآخرة تخالف نشأة الدّنيا فالإنتقال من الدّنيا إلى الآخرة هو قلب الوجود الى وجود آخر و اللّه أعلم.

وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَ لاٰ فِى ٱلسَّمٰآءِ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ

كلمة، ما، نافية بمعنى ليس أي لستم بمعجزين ربّكم أي لا تفوتونه أنت هربتم من حكمه و قضاءه في الأرض الفسيحة و لا في السّماء التّي هي أفسح منها و أبسط لو كنتم فيها قيل معناه و لا من في السّماء كما قال حسّان بن ثابت:

أمن يهجو رسول اللّه منكم و يمدحه و ينصره سواءُ

تقديره و من يمدحه و ينصره سواء أم لا يتساوون و قيل لا تعجزون أمره الجاري في السّماء و الأرض أن يجري عليكم فيصيبكم ببلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السّماء.

أقول معنى الآية ظاهر و المقصود منها هو إثبات عجز الإنسان و أنّه لا يقدر على دفع الضّر عن نفسه و لا يمكن له الفرار من حكم اللّه و قضاءه فينبغي أن لا يغتّر بطول الأمهال في دار الدّنيا.

و أمّا قوله: **وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ** أي ليس لكم وليّ و لا ناصر من دون اللّه يدفع عنكم عقابه إذا أراد بكم فالولّي هو الّذي يتولّى المعونة بنفسه و النّصير قد يدفع المكروه عن غيره تارةً بنفسه و تارةً يأمر بذلك.

أقول هذا الحكم أيضاً ثابت بالعقل و لا يقبل الشكّ لأنّ اللّه تعالى هو القادر الّذي لا يعرضه العجز و الضّعف و ما سواه ليس كذلك مضافاً إلى أنّ ما سواه مخلوق له و هو لا يقدر على شيءٍ من عند نفسه فأنّ اللّه تعالى هو الّذي أعطاه القدرة و إذا كان كذلك فنصرته في الحقيقة نصرة اللّه و بعبارةٍ أخرى كلّ ما يصل من العبد إلى غيره فهو بمشيّئة اللّه و إرادته فثبت و تحقّق أنّ النّاصر و المعين في الواقع هو اللّه و هو المطلوب.

وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَ لِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

الظّاهر أنّ المراد بالأيات في الآية الشّريف الأيات التّشريعية و المراد بالكفر بها إنكارها و من المعلوم أنّ الأصل فيها هو القرأن فمن أنكر القرأن و أنّه كتابٌ منزل من عند اللّه فهو الكافر بالأيات و حيث أنّ إنكار الأيات مرجعه إلى إنكار النبوّة و هو إلى إنكار اللّه فالكافر بالأيات كافرٌ باللّه هذا و يمكن أن يكون المراد بها الأعمّ من الأيات التشريعيّة و التكوينيّة الّتي في رأسها الأنبياء و الأوصياء و كيف كان فالمأل فيهما واحد.

و أمّا قوله تعالىٰ: **وَ لِقَائِهِ**، فقد فسّره المفسّرون بالثّواب و العقاب يوم الجزاء أي لقاء ثوابه و عقابه و من المعلوم أنّ إنكار الثّواب و العقاب هو إنكار المعاد بعينه و منكر المعاد كافرٌ قطعاً.

و قوله: **أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي** فالمشار إليه هو الكفّار بالأيات و المعاد أي أنّهم يئسوا من رحمتي لإنكارهم الأيات و المعاد و من كان كذلك

فهو مستحقّ للعذاب و في الكلام إشارة إلى أنّ اليأس من رحمة اللّه يوجب العذاب لانّه من أشدَّ الذّنوب و أكبر الكبائر و قد وردت الأيات و الأخبار في قبحه و ذمّه كما لا يخفى على أحدٍ.

■

فَمٰا كٰانَ جَوٰابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَنْ قٰالُوا ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجيٰهُ ٱللّٰهُ مِنَ ٱلنّٰارِ إِنَّ في ذٰلِكَ لَاٰيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَ قٰالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ أَوْثٰانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَ مَأْويٰكُمُ ٱلنّٰارُ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَاٰمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قٰالَ إِنّى مُهٰاجِرٌ إِلٰى رَبّىٓ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزيزُ ٱلْحَكيمُ ﴿٢٦﴾ وَ وَهَبْنٰا لَهُۥٓ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنٰا في ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَ ٱلْكِتٰابَ وَ اٰتَيْنٰاهُ أَجْرَهُ فِى ٱلدُّنْيٰا وَ إِنَّهُ فِى ٱلْاٰخِرَةِ لَمِنَ ٱلصّٰالِحينَ ﴿٢٧﴾ وَ لُوطًا إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفٰاحِشَةَ مٰا سَبَقَكُمْ بِهٰا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعٰالَمينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجٰالَ وَ تَقْطَعُونَ ٱلسَّبيلَ وَ تَأْتُونَ في نٰاديكُمُ ٱلْمُنْكَرَ فَمٰا كٰانَ جَوٰابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَنْ قٰالُوا ٱئْتِنٰا بِعَذٰابِ ٱللّٰهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصّٰادِقينَ ﴿٢٩﴾ قٰالَ رَبِّ ٱنْصُرْني عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدينَ ﴿٣٠﴾ وَ لَمّٰا جٰآءَتْ رُسُلُنٰآ إِبْرٰاهيمَ بِالْبُشْرٰى قٰالُوٓا إِنّٰا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهٰا كٰانُوا ظٰالِمينَ ﴿٣١﴾ قٰالَ إِنَّ فيهٰا لُوطًا قٰالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فيهٰا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كٰانَتْ مِنَ ٱلْغٰابِرينَ ﴿٣٢﴾ وَ لَمّآ أَنْ جٰآءَتْ رُسُلُنٰا لُوطًا

سِيٓءَ بِهِمْ وَ ضٰاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَ قٰالُوا لٰا تَخَفْ وَ لٰا تَحْزَنْ إِنّٰا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كٰانَتْ مِنَ ٱلْغٰابِرِينَ «٣٣» إِنّٰا مُنْزِلُونَ عَلىٰٓ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ ٱلسَّمٰاۤءِ بِمٰا كٰانُوا يَفْسُقُونَ «٣٤» وَ لَقَدْ تَرَكْنٰا مِنْهٰآ اٰيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ «٣٥» وَ إِلىٰ مَدْيَنَ أَخٰاهُمْ شُعَيْبًا فَقٰالَ يٰا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ وَ ٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْاٰخِرَ وَ لٰا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ «٣٦» فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ «٣٧» وَ عٰادًا وَ ثَمُودَا وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسٰاكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَ كٰانُوا مُسْتَبْصِرِينَ «٣٨» وَ قٰارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ لَقَدْ جٰاۤءَهُمْ مُوسىٰ بِٱلْبَيِّنٰاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَ مٰا كٰانُوا سٰابِقِينَ «٣٩» فَكُلًّا أَخَذْنٰا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنٰا عَلَيْهِ حٰاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنٰا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنٰا وَ مٰا كٰانَ ٱللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ «٤٠» مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ أَوْلِيٰاۤءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنْكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَ إِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنْكَبُوتِ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ «٤١» إِنَّ ٱللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَ هُوَ



ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَ تِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَ أَقِمِ ٱلصَّلٰوةَ إِنَّ ٱلصَّلٰوةَ تَنْهٰى عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَ ٱلْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

◀ اللُّغة

أَوْثَانًا: الأوثان جمع، وثن، و هو حجارة كانت تعبد.

ٱلْفَاحِشَةَ: الفحش و الفحشاء و الفاحشة ما عظم قبحه من الأقوال و الأفعال و المراد بالفاحشة في الآية اللّواط.

ٱلْغَابِرِينَ: أي من الباقين، والغابر الباقى.

رِجْزًا: أصل الرّجز الإضطراب.

ٱلرَّجْفَةُ: بفتح الرّاء زعزعة الأرض تحت القدم.

جَاثِمِينَ: الجاثم البارك على ركبتيه مستقبلاً بوجهه الأرض، و فى هو الموت.

فَصَدَّهُمْ: أي منعهم، و الصّد المنع.

◀ الإعراب

أَوْثَانًا مفعول ثان أو حال مَوَدَّةَ الخبر على قراءة من رفع و التّقدير و مودّة، و قيل، و أثاناً، مفعول، و مودّة، بالنّصب مفعول له، و بالرّفع على إضمار مبتدأ و يجوز أن يكون النّصب على الصّفة أيضاً، أي ذوي مودّة و قيل ما، في إنّما،

مصدريّة، و مودّةٌ، بالرّفع الخبر **وَلُوطٌ** معطوف على نوح و إبراهيم **مُنَجُّوكَ** الكاف في موضع جرّ عند سيبويه و على هذا ينتصب، أهلك بفعلٍ محذوف أي و ننّجي أهلك **مٰا يَدْعُونَ** هي إستفهام في موضع نصب بيدعون لا بيعلم، و قيل، ما، بمعنى الّذي و يجوز أن تكون مصدريّة، و نافية، و من، زائدة و شيئاً مفعول، يدعون، **نَضْرِبُهٰا** حال من الأمثال و الباقي واضح من حيث الإعراب.

◄ التّفسير

فَمٰا كٰانَ جَوٰابَ قَوْمِهِ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا اُقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجٰاهُ اللّٰهُ مِنَ النّٰارِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

في هذه الآية دلالة على أنّ جميع ما تقدّم حكاية ما قال إبراهيم لقومه و أنّهم لمّا عجزوا عن جوابه عدلوا إلى أن قالوا أقتلوه أو حرّقوه بالنّار قيل في الكلام حذفٌ و تقديره أنّهم أوقدوا ناراً و طرحوه فيها فأنّجاه اللّه من النّار أنّ في ذلك لأيةً و علامةً لقومٍ يؤمنون باللّه و أنّه تعالى ينصر عبده إذا شاء و أراد و قد مضى الكلام في قصّة إبراهيم في سورة الأنبياء و نشير إلى قصّة الإحراق في المقام إجمالاً فنقول:

لمّا أراد نمرود إحراقه بالنّار أمر قومه بجمع الحطب فإشتغلوا ليلاً و نهاراً كباراً و صغاراً بجمع الحطب بل كان مرضاهن يوصي بكذا من ماله لشراء الحطب لإحراق إبراهيم و كانت المرأة منهم تشتغل بالغزل و تشتري حطباً بما تحصله من الأجرة إلى أن بلغوا ذلك ما أرادوا و لمّا إلتهبت النيرّان و إرتفعت إلى عنان السّماء حتّى لا يقدر أحد أن يقرب منها تحيَّروا في قذف إبراهيم فيها حتّى أتاهم إبليس و تمثّل لهم بصورة أدّمي و علّمهم أن يتّخذوا المنجنيق فقذفوه فيها و هو يسبّح اللّه و يقدّسه مطّمئناً من غير فزعٍ و لا خوفٍ و قد كان نمرود بنى لنفسه بناءً مشرفاً على غار إبراهيم فصعد ينظر إليه كيف تأخذه النّار

و هو في الهواء قبل أن يصل إليها من شدّة لهبها و قد ورد في الخبر أنّه حين دفعوا إبراهيم فوق المنجنيق ضجَّت ملائكة السّموات و الأرض ضارعين إلى ربّهم و في مقدّمتهم جبرائيل و كانوا يقولون يا ربّنا خليلك إبراهيم يحرق بالنّار و قد سلَّطت عليه عدّوه و ليس في الأرض أحد يعبدك غيره فأوحى اللّه إلىٰ جبرئيل أسكت أنّما يقول هذا عبدٌ مثلك يخاف الموت و هو عبدي أخذه إن شئت و أجيبه إذا دعا و قيل أنّ الملائكة إستأذنوا ربّهم في نصرة إبراهيم فأذن اللّه لهم في ذلك فهبطت إليه الملائكة أفواجاً أفواجاً يستأذنوه في إطفاء النّار بمياه البحار و إغراق القوم و إهلاكهم بالخسف و الرّياح و هو عليه‌السلام لا يأذن لهم بشيءٍ و أتاه جبرائيل و قال له ياإبراهيم هل لك حاجة فقال أمّا إليك فلا و أمّا ربّ العالمين فنعم فقال جبرائيل فأطلب منه فقال إبراهيم عليه‌السلام علمه بحالي يغنيه عن سؤالى حسبي اللّه و كفى عند ذلك أهبط اللّه عليه تعالى خاتماً مكتوباً فيه ستّ كلمات، لا إله إلاّ اللّه محمّدٌ رسول اللّه لا حول و لا قوّة إلاّ باللّه، فوَّضت أمري إلى اللّه، أسندت ظهري إلى اللّه حسبي اللّه و أمره أن يختتم به و لمّا قذفوا به فوق النّار جعل يقول، ياا للّه يا أحد يا صمد، يا من لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد نجّني من النّار برحمتك فصدر الأمر من الملك الجليل إلى الأمين جبرائيل أن يتَّلقاه في الهواء و هو يهوي إلى النّار وأن ينزله في و سطها رويداً رويداً براحة و صدر الخطاب المهيب من الرَّب العظيم إلى النّار و أنزله في جوف النّار على سرير و فراشٍ و أنبت حوله أشجار خضراء نضرة ذات الثّمار و غمر ما حوله بالنُّور و كان ذلك في يوم الأربعاء، و الخطاب.

قوله تعالىٰ: **قُلْنَا يا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**[1].

فلمّا إستّقر إبراهيم على السّرير فتح عينيه و رأى حوله الأشجار و الأنهار و جلس معه جبرائيل يحادثه و يؤنسه و أشرف عليه نمرود من مرتفعه العالي

١- الأنبياء = ٦٩

فإذا هو مع شيخ في روضة خضراء يتّحدثان فدهش نمرود و عجب و إلتفت إلى عمّ إبراهيم أزر فقال له ما أكرم إبنك على ربّه ثمّ قال نمرود من يتّخذ إلهاً فليتّخذ مثل إله إبراهيم و شاع خبر إبراهيم بين النّاس فقال عظيمٌ من عظمائهم إنّي عزمت على النّار أن لا تحرقه فلم يتّم كلامه حتّى خرج إليه عمودٌ من النّار فأحرقه في ساعته هذا معنىٰ قوله تعالىٰ: **فَأَنْجِيهُ ٱللّٰهُ مِنَ ٱلنَّارِ.**

و أمّا قوله: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** فهو حقٌّ و صدق و من أصدق من اللّه قيلاً فأنّ العاقل إذا أخرج من ذهنه التّعصب و العناد و حبّ الدّنيا الذّي يعمي و يصمّ يعتبر من هذه القصّة و أمثالها ممّا ذكر في القرأن حقّ الإعتبار و يعلم علماً قاطعاً أنّ اللّه ينصر عبده، كما قال تعالى: (إن تصروا اللّه ينصركم فأنّه على كلّ شيءٍ قدير) و بالإجابة جدير و أيّة علامةٍ و أيةٍ أحكم و أدّل على وجود الخالق العزيز من هذه الآية و أمثالها و أنّما خصّ ذلك بالمؤمن لأنّ غير المؤمن خارجٌ عن البحث و لا كلام لنا معه ألا ترىٰ أنّ قوم نمرود رأوا ذلك و لم يعتبروا أصلاً.

وَ قَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَ مَأْوٰيكُمُ ٱلنَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ

أي و قال إبراهيم لقومه أنّما إتّخذتم من دون اللّه أوثاناً، لا شعور لها لتنّودوا بها في الحياة الدّنيا و تتضرّعوا إليها ثمّ يوم القيامة يتبرّأوا بعضكم من بعضٍ ويلعن بعضكم بعضاً و مستقرّكم النّار و ما لكم من ينصركم و يدفع عذاب اللّه عنكم.

إن قلت كيف يتحقّق التّلاعن و التّبرؤ بين الأوثان و من عبدها في الدّنيا و الأوثان لا شعور لها.

قلت التّلاعن بين عبدة الأوثان لا بين العابد و المعبود فيتبرّأ النّاس من نمرود و أعوانه و بالعكس و يلعن بعضهم بعضاً و هكذا عبدة الأصنام و قيل أنّ اللّه قادر على إيجاد الكلام فيها وكيف كان يستفاد من الآية أنّ الإعراض عن الحقّ و الإقبال إلى الباطل في دار الدّنيا يوجب الحسرة و النّدامة يوم القيامة و هذا ممّا لا شكّ فيه و أيضاً لا يوجد هناك ناصرٌ و معين سوى اللّه تعالى.

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

أي فآمن لإبراهيم عليه السلام لوط و قال إبراهيم إنّي مهاجر إلى ربّي، أي إلى حيث أمرني بالهجرة إليه و هو أرض فلسطين و أنّما قال ذلك لأنّه كان في قريةٍ سمّي بالكوثى من سواد الكوفة و كانت ولادته فيها.

و أمّا كيفيّة القضيّة، لمّا جعل اللّه النّار برداً و سلاماً على إبراهيم على ما مرّ ذكره خرج إبراهيم بعد أيّام من النّار سالماً معافىٰ و أقام إبراهيم بين ظهراني قومه يتحمّل أذاهم إلى أن أمن لوط و أخته سارة.

قال صاحب الكشّاف كان لوط إبن أخت إبراهيم و هو أوّل من أمن به حين رأىٰ النّار لم تحرقه، و المشهور عند أرباب السِّير أنّه أي لوط كان إبن خالته، و هو الحقّ و أمّا سارة و هي التّي أمنت به بعد لوط فكانت أخته أي أخت لوط فعلى قول الزّمخشري كان لوط و أخته سارة ولدا أخته و على المشهور ولدا خالته و حيث أنّ سارة صارت زوجة إبراهيم بالإتّفاق فكيف يمكن أن تكون إبنته أخته اللّهم إلاّ أن يقال أنّ سارة بنت خالته و لوط كان إبن أخته ولم نعرف قاتلاً به فأنّ المشهور أنّ سارة كانت أخت لوط و كيف كان لمّا آمن لوط و سارة به قيل تزّوج إبراهيم بسارة و كانت صاحبة ماشية كثيرة و أرضٍ واسعة فملّكته جميع ما كانت تملكه فقام إبراهيم بإصلاح الأرض و كثرت له الماشية و الزَّرع حتّى لم يكن أغنى منه فخاف نمرود على ملكه و سلطانه و أن يغتّر به قومه فأمره بالخروج من بلاده و أراد أن يغتصب منه ماله و ماشيته فحاجَّه إبراهيم و

قال إن إتخذت ماشيتي و مالي فأنّ حقّي عليكم أن تردّوا عليَّ ما ذهب من عمري الّذي أنفقته في إصلاحها و جمعها و أختصموا بذلك إلى قاضي نمرود فقضى لإبراهيم بأن يردُّوا عليه ما إنقضى من عمره أو يدعوه و ما شيته و ماله و أخبروا بذلك نمرود فأمرهم أن يخلوا سبيله و سبيل ماشيته و أمواله و أن يخرجوه بجميع ما يملك فنفذُّوا أمره و نفوه الى بلاد الشّام و خرج معه لوط و سارة و كان إبراهيم شديد الغيرة على عرضه و خاصَّة لأنّ زوجته سارة كانت موصوفة بالحسن فصنع لها صندوقاً و أجلسها فيه و شدَّ عليه الإغلاق و جعل لها قبَّة محّلاً للتنفُّس و سار الى أن خرج من سلطان نمرود و دخل في سلطان رجلٍ من القبط يقال له (غرارة) الى أن إنتهى الى العاشر الّذي يعشر مال كلّ من يمُّر في بلاده و هو بمثابة الجمرك اليوم فأعترضه و أخذ من جميع ماشيته و أمواله العشر حتّى إنتهى إلى الصَّندوق الّذي فيه سارة و أمر بفتحه فقال له إبراهيم قل ما شئت فيه من ذهبٍ و فضَّةٍ حتّى ندفع عشره و لا نفتحه فأبى العاشر إلاّ فتحه ففتحه إبراهيم و هو مغضبٌ لفتحه فلّما بدت سارة و رآها العاشر قال له ما هذه المرأة قال زوجتي و إبنة خالتي قال العاشر فما دعاك إلى أن خبأتها في هذا الصَّندوق قال عليه السلام صيانة العرض قال العاشر لست أدعك حتّى أعلم الملك بحالها فبعث رسولاً إلى الملك يعلمه بذلك فأمر الملك أن يأتوه بالصّندوق الّذي فيه سارة و لّما أرادوا حمل الصَّندوق تعلّق به إبراهيم و قال لست أفارقه فمضوا بإبراهيم و جميع من معه حتّى دخلوا على الملك فأمره الملك بفتح الصَّندوق فقال إبراهيم أيّها الملك أنّ فيه زوجتي و أنا مفتدٍ بجميع ما معي فأبى الملك إلاّ فتحه و لمّا فتحه وقع نظره على سارة لم يملك حلمه حتّى مدَّ يده اليها فأرتعدت فرائص إبراهيم غيرةٍ و حميّةً على عرضه فقال اللّهم أحبس يده عن إمرأتي فلم يكمل دعاءه حتّى يبست يد الملك و لم ترجع اليه فدهش من ذلك و قال له أنّ إلهك هو الّذي فعل بي هذا قال نعم قال

الملك أنّ إلهك لعظيمٌ قدير فأدع أن يردّ عليّ يدي فأن أجابك لم أتعرض لها بسوء فقال إبراهيم إلٰهي ردّ عليه يده ليكف عن حرمي فشفيت يد الملك وردّت اليه فأقبل يطيل الى سارة الى أن غلب عليه سفهه و عاد بيده نحوها و عاد إبراهيم الى دعاءه فأستجيب دعاءه و يبست يد الملك كأوّل مرّةٍ فقال لإبراهيم أنّ إلٰهك لقدير و أنّك لغيور فأدع إلهك يردّ عليَّ يدي فأن فعل لم أعَد قال إبراهيم أسأله ذلك على أنّك إن عدت لم تسألني أن أسأله قال نعم فدعا إبراهيم ربّه و قال اللّهم إن كان صادقاً فردّ يده عليه فرجعت يده و عظم إبراهيم في نفس الملك و هابه و أكرمه و أتّقاه و قال له أنت في أماني فأنطلق حيث شئت و لكن لي اليك حاجة قال وما هي قال أحبّ أن تأذن لي أن أخدمها جاية قبطية عندي جميلة عاقلة تكون خادمة لزوجتك فأذن إبراهيم فدعا الملك بها فوهبها لسارة و كانت تلك هاجر أمّ إسماعيل فأنطلق إبراهيم بها و بجميع ما معه و ممّا يروىٰ أنّ الملك خرج وراء إبراهيم يشيّعه الى خارج البلد فأوحى اللّه الى إبراهيم أن قدِّم الملك فأنّه رئيس قومه يجب تعزيزه فوقف إبراهيم و أمر الملك بالتقدّم أمامه فقال الملك و لما فعلت ذلك قال إنّ إلٰهي أمر بتقديمك لمنزلتك عند قومك و إكراماً لك فأزداد الملك إعجاباً و تعظيماً لإبراهيم و لإله إبراهيم و قال أنّ إلٰهك لعظيمٌ حكيمٌ يستّحق العبادة فقيل أنّ الملك بعد ذلك أسلم و آمن بإبراهيم و ربّه و كان من السُّعداء الفائزين، و سار إبراهيم حتّى نزل بأرض فلسطين و خلّف لوطاً في الشّامات و أقام مع زوجته سارة دهراً طويلاً و هذا معنى قوله: **إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ**.

وَ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَ ٱلْكِتَابَ وَ ءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَ إِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ

لمّا أقام إبراهيم عليه السلام و سارة في أرض فلسطين مكث مع زوجته فيها دهراً طويلاً لم يولد لهما ولد حتّى بلغ إبراهيم من العمر مائة و عشرين سنة و بلغت

سارة تسعين سنة فقال لسارة لو بعتني هاجر لعلَّ اللّه أن يرزقنا منها ولداً يكون لنا خلفاً فأجابته سارة الى ذلك و باعته هاجر و قيل وهبتها فحملت بإسماعيل و لمّا ولدته إغتّمت سارة من ذلك و غلب عليها ما يأخذ النّساء من الغيرة حتّى جعلت تؤذيه فشكى إبراهيم ما تفعله سارة معه الى ربّه فأمر اللّه تعالى جبرائيل أن ينزل بالبراق و يحمل إبراهيم و هاجر و إبنها إسماعيل عليه السلام و يسير بهم الى مكّة المكرّمة فأنزلهم في موضع البيت بين جبال شامخة ليس فيها أنيسٌ و لا ماء و لا زرع و البيت يومئذٍ ربوة من المدر و الى هذا أشار اللّه تعالى في كتابه حيث قال حكايةً عنه:

رَبَّنآ إِنّيٓ أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتي بِوادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ(١).

و قد ذكرنا هناك كيّفية القصّة فلا نعيدها من الإطالة و أمّا أنّه تعالى و هبه إسحاق فقد مرَّ الكلام في سورة هود عند قوله تعالىٰ:

وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ، قالَتْ يا وَيْلَتىٰ ءَأَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هٰذا بَعْلي شَيْخًا إِنَّ هٰذا لَشَيْءٌ عَجيبٌ(٢).

و أمّا قوله: **وَ جَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ** ففيه إشارة الىٰ أنّ النبوّة بعد إبراهيم إنتقلت الى ذريّته و من المعلوم أنّ أولاد إبراهيم كان منحصراً في إسماعيل و إسحاق و كلاهما من الأنبياء بعده إذ لم يصرّح في الآية بأحدهما بل قال في ذريّته و الذريّة تطلق عليهما نعم بعد موتهما كانت النبّوة في أولاد إسحاق و لتفصيل الكلام في الباب موضع آخر و الّذي إتفّق عليه الكلّ أنّ الأنبياء بعده يعني بعد إبراهيم كانوا من ولده و الأصل فيهم بعد إبراهيم إسماعيل و إسحاق و إذا جعلت النبوّة في ذريّة فالكتاب أيضاً كذلك لأنّ

١- إبراهيم = ٣٧ ٢- هود = ٧١ و ٧٢

المراد بالكتاب و هو يشمل جميع الكتب المنزلة على الأنبياء بعده و منها القرآن فأنّ نبيّنا من ذريّة إبراهيم لأنّ نسبه ينتهي إلى إسماعيل عليه السلام و لذلك قال صلى الله عليه و آله و سلم أنا إبن الذّبيحين، و هما، إسماعيل، و عبد اللّه ثمّ مدح اللّه تعالى إبراهيم و قال: **وَ ءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ** ولعَلّ الأجر هو ماذكره في الآية من جعل النبوّة و الكتاب في ذريّته و أيّ أجرٍ أعظم منه و المفروض أنّه لا مقام فوقها و قال الجبائي هو ما أمر اللّه به المكلّفين من تعظيم الأنبياء.

و قال إبن عبّاس الأجر في الدّنيا الثّناء الحسن و الولد الصّالح.

و قال البلخي و ذلك يدلّ على أنّه يجوز أن يثيب اللّه في دار التّكليف ببعض الثّواب، و أنت ترىٰ أنّ كلّ ما ذكروه لا يساعده العقل ولا النّقل و أمّا ما ذكرناه و أخترناه فهو جامعٌ شامل فأنّ مقام النُّبوّة فيه و في ذريّته من أعلى المقامات مضافاً إلى أنّ النّبي واجد لجميع الأوصاف الّتي ذكروها و لا مقام فوقها إلاّ مقام الألوهيّة و أمّا أنّه في الآخرة لمن الصّاحين فهو أيضاً لا مقام فَوقه في الآخرة و هو ظاهر.

وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ

قلنا أنّ لوط النّبي أوّل من آمن بإبراهيم و هاجر معه و هو أخو سارة زوجة إبراهيم و أبوه، هارون، و قد كان لوط رجلاً سخّياً كريماً يقري الضّيوف إذا نزلوا به و كان يحذّرهم قومه لأنّهم كانوا بخلاء يكرهون نزول الضّيف بهم و كانوا على قريةٍ على طريق السيّارة من الشّام إلى مصر و كان إبراهيم قد أقام لوطاً عندهم يدعوهم الى اللّه تعالى و يعظهم و يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر و يحذّرهم عذاب اللّه، أمّا قومه فكانوا لا يتّنظفون من الغائط و لا يتّطهرون من الجنابة و كانت مجالسهم في أندية تشتمل على أنواع المناكير

كالشّتم و السّخف و القمار و ضرب المعازف و كشف العورات لبث لوط في قومه ثلثين سنة يدعوهم الى اللّه و يحذّرهم عذابه و نقمته و تزوّج منهم و صار قومه من أفضل الأقوام فحسدهم إبليس اللّعين و طلبهم طلباً شديداً وكان من عاداتهم أن يخرج الرّجال بأجمعهم الى العمل في ظاهر البلد و خارجها و لا يبقى إلاّ النّساء و كانت بلادهم عامرة كثيرة الشّجر و النّبات و الخير و كانت طريق القوافل الى اليمن و الشّام و غيرهما و كان فيها أربع مدن، هي، سدوم، و صدام، و واندا، و عميرا، أو عمورة و كان أعظمها سدوم الّتي يسكنها لوط و كانت تلك البلدان قريبة من مسكن إبراهيم في الأردن و كانت القوافل تمُّر ببلاد قوم لوط فتناولت من زروعهم و ثمارهم فجزعوا عن ذلك لبخلهم و ضاقت صدورهم فأتاهم إبليس في صورة شيخ و قال لهم هل أدُّلكم على شئٍ أن فعلتموه لم يمُّر بكم أحد فقالوا نعم قال إذا مرَّ بكم أحد فأنكحوه في دبره و أسلبوه ثيابه ثمّ إنصرف و جاءهم ثانية بصورة شابّ أمرد حسن الوجه و مكّنهم من نفسه حتّى وثبوا عليه و فجروا به فطاب لهم ذلك و مارسوه مع كلّ من كان يمُّر بأرضهم و لو من دون رغبةٍ ليتّحذّر النّاس من هم فشاع أمرهم في القرى و حذّرهم القوافل فإبتلاهم اللّه بداء الأبنة حتّى صاروا يعرضون أنفسهم على الرّجال في البلاد و يسألونهم النّكاح في أدبارهم و يبذلون المال على ذلك و كانت زوجة لوط كافرة باللّه و بزوجها مثل زوجة نوح كما أخبر اللّه تعالى عنها في سورة التّحريم حيث قال:

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَ ٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا(١).

و لمّا تمادى القوم في الكفر و الطّغيان وطالت المدّة بهم ضاق لوط بهم ذرعاً و غمّاً فعند ذلك دعا عليهم بالهلاك و نزول العذاب و هذا هو المراد بالفاحشة المشار إليها في الآية و أيّة فاحشةٍ أفحش من هذا العمل القبيح.

١- التّحريم = ١٠

و أمّا قوله: **مٰا سَبَقَكُمْ بِهٰا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعٰالَمِينَ** فمعناه واضح و ذلك لأنّ قوم لوط أوَّل من إرتكب هذا الأمر الشّنيع ولم يعلم ذلك من أحدٍ قبل لوط ثمّ أظهر لوط الفاحشة كما حكىٰ اللّه عنه بقوله:

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجٰالَ وَ تَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نٰادِيكُمُ ٱلْمُنْكَرَ فَمٰا كٰانَ جَوٰابَ قَوْمِهِ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا ٱئْتِنٰا بِعَذٰابِ ٱللّٰهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصّٰادِقِينَ

قرأ بعضهم، إنّكم، بلا الهَمَزة، و الأخرون، أئنّكم، معها، فعلى قراءة الأولى، أراد أنّ لوطاً أخبرهم بذلك منكراً لفعلهم لا مفيداً لهم لأنّهم كانوا يعلمون ما فعلوه.

و على القراءة الثّانية فالهمزة للإستفهام الإنكاري دون الإستعلام و المراد بالفاحشة هاهنا ما كانوا يفعلونه من إتيان الذّكران في أدبارهم لا مطلق الفاحشة و الدّليل عليه قوله: **أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجٰالَ**، و المراد بقطع السَّبيل فيه قولان:

أحدهما: أنّ السَّبيل الطّريق و المعنىٰ تقطعون الطّريق لأخذ الأموال.

الثّاني: أنّ المراد سبيل الولد بسبب إتيان الذّكران في الأدبار.

و في المقام قولٌ ثالث، و هو أنّ المراد العمل الخبيث لأنّهم كانوا يلبون الغرباء، و الأقوى في النّظر أنّ المراد بقطعهم السَّبيل هو قطع مرور القوافل أي أنّ عملكم غدا يوجب أن لا تمرّ القوافل من أرضكم و فيه ضررٌ عظيم في منافعكم، و أن كان الوجه الثّاني و هو قطع سبيل التّوالد و التّناسل أيضاً لا بأس به.

و أمّا قوله: **وَ تَأْتُونَ فِي نٰادِيكُمُ ٱلْمُنْكَرَ** أي في مجلسكم الّذي يجتمعون فيه و هو إسم جنس إذ أنديتهم في مدائنهم كثيرة و لا يسمّىٰ نادياً إلاّ مادام فيه أهله فإذا قاموا عنه لم يطلق عليه ناد إلاّ مجازاً، و المنكر ما تنكره العقول و الشّرائع.

قال إبن عبّاس كانوا يضرطون في مجالسهم و قال مجاهد كانوا يأتون الرّجال في مجالسهم و قيل غير ذلك من القبائح.

و قوله: **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ** الفاء للتّفريع أي إذا كانوا كذلك ولم يقبلوا مواعظ لوط فما كان جوابهم لنبيّهم إلاّ أنّ قالوا أئتنا بعذاب اللّه إن كنت من الصّادقين، في إدّعائك و الحاصل أنّهم إستكبروا و أصَّروا على طغيانهم و أعمالهم القبيحة و لم تنفعهم نصائح لوط و تخويفه إيّاهم من عذاب اللّه فلا جرم يئس لوط منهم و إستنصر اللّه كما قال تعالى **قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ** الذّين فعلوا المعاصي و إرتكبوا القبائح و أفسدوا في الأرض و المعنى أكفني شرّهم و أذاهم و يحتمل أن يكون المراد أهلكهم و أنزل عذابك عليهم كما أشار إليه بعض المفسّرين إذ لا معنى للإستنصار من اللّه على المفسد الطّاغي إلاّ إنزال العذاب عليه و الحاصل أنّه دعا على قومه و أظهر العجز عن إصلاحهم فأجابه اللّه تعالى كما قال:

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ

أخبر اللّه تعالى أنّه لمّا جاء إبراهيم رسل اللّه و هم من الملائكة، بالبشرىٰ، يبشّرونه بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب على ما مرَّ الكلام فيه، قالوا، أي الرُّسل لإبراهيم، إنّا مهلكوا أهل هذه القرية، أي بعثنا اللّه لإهلاكهم و هم قوم لوط لأنّهم كانوا ظالمين، قيل نزل جبرائيل بأمر اللّه تعالىٰ مع ثلاثة أخرين و ساروا حتّى إنتهوا إلى قرية لوط و وقفوا عليه في زيّ غلمان بهيئةٍ حسنة و هو حينئذٍ بقرب القرية يحرث زرعاً له فسألهم لوط من أنتم قالوا نحن أبناء السَّبيل أضفنا اللّيلة قال لوط أنّ أهل هذه القرية قوم سوء لعنهم اللّه و أهلكهم ينكحون الرّجال و يسلبون الأموال فقالوا أضفنا اللّيلة فقال لوط نعم و تقدّمهم يمشي و هم خلفه و كان اللّه تعالى قد أمر جبرائيل أن لا يعذّب القوم حتّىٰ

يشهد لوط عليهم ثلاث شهادات و كان لوط في بعض الطّريق ندم على ضيافتهم خوفاً من سوء عمل قومه فأخذ يخاطبهم قائلاً لهم أين تريدون فما رأيت أجمل منكم قطّ قالوا أرسلنا سيّدنا إلى ربّ هذه البلدة قال لوط أو لم يبلغ سيّدكم ما يفعل هذه البلدة ثمّ جعل يحذّرهم و يقول لهم أنّكم تأتون أشرار خلق اللّه فإلتفت جبرائيل إلى أصحابه و قال هذه واحدة، ثمّ توَّجه إليهم لوط ثانياً بعد فترةٍ و قال لهم أنّكم تأتون شرار خلق اللّه فقال جبرائيل هذه ثانية ثمّ مضى حتّى إنتهوا إلى باب المدينة فإلتفت إليهم و قال له أنّكم تأتون شرار خلق اللّه فقال جبرائيل هذه ثالثة ثمّ قال لهم لوط أنّ لي إليكم حاجةٍ قالوا و ما هي قال تصبرون هاهنا حتّى يختلط الظّلام فلا يراكم القوم فلعلّم تسلمون من شرّهم فأجابوه إلى ذلك و جلسوا على باب المدينة و بعث لوط بإبنه إلى بيته ليأتي بخبزٍ و ماء لعشاء ضيوفه و بعباءةٍ و غطاء يتّقون بهما البرد و المطر لأنّ المطر كان قد هطل فلمّا ذهب شطر من اللّيل قام لوط و قال لضيوقه قوموا فقاموا و دخلوا المدينة و أخذ لوط يمشي بحذاء الحائط مستخفياً و أمرهم كذلك فقالوا سيّدنا أمرنا أن نمُّر في وسط الطّريق و لمّا قربوا من بيته سبقهم لوط إلى زوجته و قال لها قد أتاني أضياف في هذه اللّيلة فأكتمي على ذلك حتّىٰ أعفو عنك ما كان منك فأجابته الملعونة ظاهراً ولكنّها أبطلت النّفاق و لمّا دخل الرُّسل البيت قامت المرأة على سطح البيت و أوقدت النّار كعادتها لتعلم قومها فلمّا رأوا النّار أقبلوا إلى بيت لوط من كلّ ناحيةٍ فقام لوط في وجههم و وضع يده على باب الدّار يناشدهم اللّه أن يرجعوا عن ضييوفه ولم يزالوا يتهاجمون و هو يدافعهم و أبى القوم إلاّ طغياناً و كفراً إلى أن تكاثروا عليه و كسروا باب داره و دخلوها فوقف لوط جانباً متّحسراً على ضيوفه و هو يقول: **قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**(1) ثمّ قال جبرائيل يالُوط

١- هُود = ٨٠

دعهم يدخلوا فلمّا توّسطوا الدّار و همُّوا بالتَّعرض للرُّسل هوى جبرائيل بإشارةٍ من إصبعه نحوهم فعميت أبصارهم و ذهبت عيونهم من وقتهم، و لمّا رأى لوط ذلك دهش عجباً و توجّه نحو الرُّسل و سألهم من أنتم قالوا إنّا رسل ربّك و قال جبرائيل أنا جبرائيل قال لوط بماذا أمرتم قالوا بهلاك القوم ثمّ أمر جبرائيل بخروج لوط في اللّيل مه أهله إلاّ إمرأته كانت من الغابرين فأخذ كفّاً من التّراب و ضرب به وجوه أهل المدينة فعميت عيونهم كلّهم و كانت اللّيلة الأخيرة من الشّهر فلمّا إنتصف اللّيل سار لوط ببناته ولم يرهم أحد من القوم ولم يعلم بهم إلاّ إمرأته و لمّا حان الفجر نزل جبرائيل بأمر ربّه و ضرب بجناحه الأرض على ما حوى شرقيها و بجناحه الأيسر علىٰ ما حوى غربيها فإقتلعها من الأرض و عرج بها حاملاً لها بين جناحيه و رفعها في الجوّ ثمّ قلَّبها فجعل عاليها سافلها و أمط عليهم من حجارةٍ من سجّيل و هلك القوم عن أخرهم أجمعين و ما هي من الظّالمين ببعيد و قد ذكرنا في سورة هود كيفيّة القضيّة بنحوٍ أبسط و أنّما أشرنا إليها في المقام بمناسبة الآية و أنّ الحوالة توجب الملالة إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير الأيات.

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ

أي قال إبراهيم للملائكة أنّ فيها، أي في البلدة أو القرى، لوطاً، قالوا، أي الملائكة، نحن أعلم بمن فيها، في القرية، لننجينّه و أهله، من العذاب، إلاّ إمرأته كانت من الغابرين، الباقين في الظّلمة و هي تهلك لا محالة لكونها من أعوان الظّالمين.

وَ لَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ

أي سئ بالملائكة من ناحية القوم، و ضاق بهم ذرعاً، لمّا علم من عظم البلاء النّازل بهم فلمّا رأته الملائكة على تلك الصّفة قالوا، يالوط، لاتخف و لا

تحزن، من العذاب، إنّا منّجوك أي مخلّصوك و مخلصوا أهلك، إلاّ إمرأتك كانت من الغابرين، الباقين **إِنَّا مُنْزِلُونَ** بأمر اللّه تعالى: **أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا**، و عذاباً، من السّماء **بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**، و قد بيّنا كيّفية مجئ الملائكة و ما وقع بينهم و بين القوم بما لا مزيد عليه.

وَ لَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

في هذه الآية إشارة الى لزوم التّدبر و التفكّر في هذه القضيّة و أمثالها و ينبغي التّنبيه على أمورٍ:

أحدها: أنّ اللّه تعالى رؤوفٌ بعباده و لأجل ذلك أرسل الأنبياء اليهم و جعل الشّرائع و التّكاليف لهم للوصول الى سعادة النشأتين و البلوغ الى كمالهم المترقّب منهم كلّ ذلك على أساس قاعدة اللُّطف فيجب على المكلّفين الإتّباع و الطّاعة أداءً لبعض الحقوق الواجبة من الخالق المفيض.

الثّاني: أنّ الظُّلم و العصيان و الفساد و أمثال ذلك توجب الخسران في الدّارين. **وَ مَا ظَلَمَهُمُ ٱللّٰهُ وَ لٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**[1].

الثّالثة: أنّ اللّه تعالى بمقتضى لطفه و كرمه قد يمهل العبد في دار الدُّنيا لعلَّه يتذّكر أو يخشى، فلا ينبغي للعبد أن ليغتر بها فأنّ الإغترار يوجب الغفلة و هي رأس الخطايا.

الرّابعة: أنّ اللّه تعالى لا يعذّب العبد في الدُّنيا و الأخرة قبل تماميّة الحجّة و أمّا بعدها فلا عذر للعبد، و الحجّة الباطنة العقل، و الظّاهرة الأنبياء و الرُّسل: **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيٰى مَنْ حَيَّ عَنْ**[2].

الخامسة: أنّ اللّه تعالى على كلّ شيٍ قدير و أنّه تعالى و أن كان متّصفاً بالرَّحمة و الشفقّة بل سبقت رحمته غضبه إلاّ أنّه مع ذلك أشدّ المعاقبين في موضع النّكال و النّقمة و لذلك خلق الجنّة برحمته و خلق النّار بغضبه و لا

١- آل عمران = ١١٧ ٢- الانفال = ٤٢

قرابة بينه و بين أحد فجعل الجنّة لمن أطاعه و لو كان عبداً حبشيّاً و جعل النّار لمن عصاه ولو كان سيّداً قرشياً فالملاك هو العمل لقوله تعالى: **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللّٰهِ أَتْقٰيكُمْ**(١).

وَ إِلٰى مَدْيَنَ أَخٰاهُمْ شُعَيْبًا فَقٰالَ يٰا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ وَ ٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَ لاٰ تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

لمّا أشار اللّه تعالىٰ الىٰ قِصّة إبراهيم و لُوط أشار الى قصّة شعيب النّبي و بعدها الى قصّة قارون و فرعون كلّ ذلك على سبيل الإجمال بعد التّفصيل الّذي مرَّ ذكرها في سورة الأنبياء و هود و القصص و غيرها.

فنقول كان شعيب النّبي عليه‌السلام ينتسب الى إبراهيم الخليل عليه‌السلام بعد أربعة آباء و كانت أمّه بنت لوط و كان في قومه منذ صغره موّحداً يخفي دينه في قومه و هم مشركون و قد أرسله اللّه تعالى مرّتين، مرّة الى أصحاب الأيكة و مرّةً الى أهل مدين.

أمّا أصحاب الأيكة، فهي قرية كانت كثيرة الأشجار، و كان لأهل، مدين و هي قرية في طريق الشّام ملكٌ جبّار لا يطيقه ملكٌ من الملوك و كانوا في سعةٍ من العيش فأمرهم ملكهم بإحتكار الطّعام و نقص الميكال و الميزان فأطاعوه و بخس النّاس أشياءهم و أفسدوا في الأرض و عتوا على اللّه فأرسل اليهم شعيباً يعظهم و يذكّرهم.

و أقام شعيب بينهم مدّة يدعوهم الى اللّه فلم يؤمن به إلاّ شرّ ذمّةٌ قليلة و بلغ خبره الى الملك فبعث ينهاه و يحذّره فأجابه شعيب أنّ اللّه أوحى إلّي أنّ الّذي يصنع ما تصنعه أيّها الملك يقال له ملك فاجر فغضب الملك و أمر قومه بإخراجه من القرية، و أمّا أهل الأيكة ففعلوا ما فعل أهل مدين فأرسل اللّه اليهم حرّاً شديداً أخذ بأنفاسهم و صارت مياههم جميعاً لا يستطيعون شربها و

١- الحجرات = ١٣

خرجوا الى البريّة فأرسل اللّه إليهم ناراً فأحرقتهم عن أخرهم فأخذهم عذاب يوم الظلّة و كانت مدّة عمر شعيب مائتين و أثنتين و أربعين سنة و أقام مشتغلاً بالعبادة و البكاء فأوحى اللّه إليه أنّي موّفيك على حبّك و بكائك لي أن أخدمك كليمي موسى إبن عمران فيكون ذلك دليلاً على كرامتك عندي فصار موسى أجيراً عنده و زوجّه إبنته صفوراء كما مرَّ سابقاً فقوله: **وَ إِلٰى مَدْيَنَ أَخٰاهُمْ شُعَيْبًا** أي أرسلناه إليهم، فقال، شعيب، لهم **يٰا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ وَ ٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْاٰخِرَ**، و هو القيامة، **وَ لاٰ تَعْثَوْا**، أي لا تضطربوا بحال الجهالة و قد ذكرنا وجه الفساد فيهم.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ

أي كذّبوه في إدّعائه النّبوة و لم يقبلوا قوله: **فَأَخَذَتْهُمُ**، أي القوم، الرَّجفة و هي زعزعة الأرض تحت القدم و إن شئت قلت الزَّلزلة و هي إضطراب الأرض، **فَأَصْبَحُوا فِي دٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ**، أي ميّتين بعضهم على بعض و قيل باركين على ركبهم و الجاثم البارك على ركبتيه مستقبلاً بوجهه الأرض.

وَ عٰادًا وَ ثَمُودَا وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسٰاكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَ كٰانُوا مُسْتَبْصِرِينَ

أشار اللّه تعالى إلى قصّة عاد و ثمود أمّا عاد فعم قوم هود و أمّا ثمود فهم قوم صالح و قد بيَّنا ما وقع بهم من العذاب في سورة هود و هكذا ذكرنا قصّة صالح و ناقته مفصّلاً فلا نعيدها خوفاً من الإطالة و التكرار و قوله: **وَ كٰانُوا مُسْتَبْصِرِينَ**، أي ما كانوا متّعظين بمواعظ أنبيائهم بل أنكروا نبوّتهم ولم يؤمنوا بهم و فعلوا ما فعلوا فوقعوا فيما وقعوا من الخزي في الدّنيا و الأخرة.

وَ قٰارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ لَقَدْ جٰآءَهُمْ مُوسٰى بِالْبَيِّنٰاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَ مٰا كٰانُوا سٰابِقِينَ

إستكبر قارون بماله و فرعون و هامان بملكهم و سلطنتهم و تسلّطهم على النّاس مع أنّ موسى قد جاءهم بالبيّنات الدّالة على صدق مدّعاه و قد مرَّ الكلام فيهم مفصّلاً بما لا مزيد عليه.

فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ ٱللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لٰكِنْ كانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

الفاء للتّفريع أو الجزاء أي إذا علمت ما ذكرناه من أحوال العصاة و الطُّغاة و أنّهم لم ينتفعوا بمواعظ الأنبياء بل زادوا على طغيانهم و ظلمهم فجميعهم أخذوا بذنوبهم و معاصيهم فمنهم، كلمة، من للتّبعيض أي أخذنا بعضهم بالرّيح العاصفة التّي فيها حصاء و هي الحصى الصّغار و هم قوم لوط، و منهم من أخذته الصّيحة و هم قوم هود و شعيب، و منهم من خسفنا به الأرض و هو قارون و من تبعه و منهم من أغرقنا، و هم قوم فرعون.

ثمّ قال تعالىٰ: **وَ ما كانَ ٱللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ** و فيه إشارة إلى أنّ أعمالهم صارت باعثة على نزول العذاب عليهم و أنّ اللّه ليس بظّلامٍ للعبيد و قد صرَّح بذلك في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما ظَلَمَهُمُ ٱللّٰهُ وَ لٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما ظَلَمُونا وَ لٰكِنْ كانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ لا يَظْلِمُ ٱلنّاسَ شَيْئًا وَ لٰكِنَّ ٱلنّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِرًا وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ**(۵).

١- آل عمران = ١١٧
٢- الأعراف = ١۶٠
٣- يُونس = ۴۴
۴- الكَهف = ۴٩
۵- النّساء = ۴٠

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ ظَلَمُوٓا أَنْفُسَهُمْ**[١].

و الأيات في الباب كثيرة جدّاً و الّذي يستفاد من جميع الأيات هو أنّ العقاب و الثّواب يتّرتبان على نفس العمل فأن كان العمل صالحاً يترتّب عليه الثّواب و أن كان قبيحاً يترتّب عليه العقاب فلا يلومَّن الإنسان إلاّ نفسه و أن شئت قلت أنّ العمل سببٌ لما يتّرتب عليه فإذا وجد السَّبب وجد المسَّبب و إلاّ يلزم أن لا يكون السَّبب سبباً و هو خلاف الفرض.

و أمّا أنّ اللّه لا يظلم أحداً فهو من الأصول العقليّة التّي لا شكّ فيها و ذلك قبيحٌ من أيّ شخصٍ صدر و قبحه ذاتّي له لا ينّفك عنه و فعل القبيح يستحيل على اللّه تعالى عقلاً و هذا ممّا لا كلام فيه عند جميع العُقلاء.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ أَوْلِيآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنْكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَ إِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنْكَبُوتِ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ من إتّخذ أي إختار لنفسه وليّاً ينصره عند الحاجة في الوهن و الضَّعف فهو مثل العنكبوت الّذي تتَّخذ بيتاً لتأوي إليه فكما أنّ بيت العنكبوت في غاية الوهن و الضّعف فكذلك حال من إتَّخذ من دون اللّه وليّاً و ناصراً يعتمد عليه شبَّه اللّه تعالى هذا بذاك و هو من تشبيه المعقول بالمحسوس فكما أنّ بيت العنكبوت لا يصلح للإعتماد عليه كذلك الولّي إذا كان غير اللّه و الوجه فيه أنّ ما سوى اللّه فقيرٌ ذليلٌ كائناً ما كان و من المعلوم أنّ إستمداد الفقير من الفقير من قبيل ضمّ المعدوم بالمعدوم و هو لا يسمن و لا يغني و وجه الشَّبه في هذا التّشبيه هو أنّ العنكبوت دويبةٌ تسبَّح في الهواء و لذلك يقال أنّ أوهن البيوت بيت العنكبوت إذ لا أساس لبيته و لذلك لا يقيها حرّاً و لا برداً و لا قصد أحدٌ إليها فكذلك من إتَّخذ و ليّاً لنفسه من

١- هُود = ١٠١

الأصنام و الأوثان و غيرها فأنّ ما سوى اللّه مخلوق و هو لا يقدر أن يدفع عنهم شيئاً و قد ثبت أنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له.

و أمّا قوله: **لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ** فهو إشارة إلىٰ أنّ الجاهل لا يدري ما يفعل و أمّا العالم فليس كذلك.

إِنَّ ٱللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

ثمّ قال تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ**، أي من دون اللّه و قوله: **مِنْ شَيْءٍ** أي سواء كان صنماً أو وثناً أو غير ذلك **وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ** في إنتقامه الذّي لايغالب في ما يريده، **ٱلْحَكِيمُ**، في جميع أفعاله و أحواله، و يستفاد من قوله: **مِنْ شَيْءٍ** أنّ إتّخاذ الولّي من غير اللّه لا يختّص بالصّنم والوثن بل يعُم جميع الأشياء من دون اللّه فيدخل في الحكم من إعتمد على غير اللّه في أموره و هو واضح و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله:

وَ تِلْكَ ٱلْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ وَ مٰا يَعْقِلُهٰآ إِلَّا ٱلْعٰالِمُونَ

أي لا يدركها إلاّ من كان عالماً بعواقبها.

خَلَقَ ٱللّٰهُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ

الخلق أصله التّقدير المستقيم و يستعمل في إبداع الشّئ من غير أصلٍ و لا إحتذاء فقوله: **خَلَقَ ٱللّٰهُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ** أي أبدعهما من غير أصلٍ و لا إحتذاء بدلالة قوله: **بَدِيعُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ**(١) و قد يُستعمل في إيجاد الشّئ أيضاً نحو:

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَ ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَةٍ**(٣).

١- البقرة = ١١٧
٢- النّساء=١
٣- النحل = ۴

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقْنَا ٱلْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ**[١].

و أمثال ذلك من الأيات و ليس الخلق الإبداعي إلاّ من اللّه تعالى و لهذا قال في الفصل بينه تعالى و بين غيره:

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**[٢].

و أمّا الخلق الّذي يكون بالإستحالة فقد جعله اللّه تعالى لغيره في بعض الأحوال كعيسىٰ عليه السلام حيث قال تعالىٰ:

وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي[٣].

و الخلق لا يستعمل في كافّة النّاس إلاّ على وجهين:

أحدهما: في معنى التّقدير.

الثّاني: في الكذب كقوله: **وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا** و أمّا السّموات فهي جمع سماء و السّماء من كلّ شيءٍ أعلاه كما قال الشّاعر:

و أحمر كالدّيباج أمّا سماءه فريّاً و أمّا أرضه فمحولُ

و لذلك قيل كلّ سماءٍ بالإضافة إلى ما دونها فسماء و بالإضافة إلى ما فوقها فأرض إلاّ السّماء العليا فأنّه سماء بلا أرض و بما ذكرناه في معنى السّماء ظهر لك معنى الأرض أيضاً و قوله: **بِالْحَقِّ** قيل معناه على وجه الحكمة دون العبث الّذي لا فائدة فيه و أنّه قصد بها الدّلالة على توحيده:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما خَلَقْنَا ٱلسَّماءَ وَ ٱلْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلًا سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ ٱلنّارِ**[٥].

أقول أصل الحقّ المطابقة و الموافقة كمطابقة رجلٍ الباب في حقّه لدورانه على إستقامةٍ و الحقّ يقال على أربعة أوجهٍ:

١- المؤمنون =١٢
٢-النحل = ١٧
٣- المائدة = ١١٠
٤- ص = ٢٧
٥- آل عمران = ١٩١

الأوّل: يقال لموجد الشّيئ و خالقه بسبب ما تقتضيه الحكمة و لهذا قيل في اللّه تعالى هو الحقّ كما قال تعالىٰ: **فَذٰلِكُمُ اَللّٰهُ رَبُّكُمُ اَلْحَقُّ**(١).

الثّاني: يقال للموجد بفتح الجيم أعني به المخلوق بحسب مقتضى الحكمة و لهذا يقال فعل اللّه تعالى حقٌّ و ما نحن فيه من هذا القبيل.

الثّالث: يقال في الإعتماد للشّيئ المطابق لما عليه ذلك الشّيئ في نفسه كقولنا إعتقاد فلان في البعث و الثّواب و العقاب حقّ.

الرّابع: يقال للفعل و القول الواقع بحسب ما يجب و بقدر ما يجب و في الوقت الّذي يجب كقولنا فعلك حقّ و قولك حقّ إذا عرفت هذا في الحقّ فالباطل يقابله فكلّ ما ليس بحقٍّ فهو باطل إذ لا واسطة بين الحقّ و الباطل و السِّر في كون فعل اللّه حقّاً هو أنّه لو لم يكن حقّاً لكان باطلاً لا محالة لعدم الواسطة بينهما و الباطل لا يصدر إلاّ من الباطل كما أنّ الحقّ لا يصدر إلاّ من الحقّ.

و أمّا قوله: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ** معناه أنّ في هذا الخلق لأيةً و علامةً على التّوحيد للمؤمنين الّذين أمنوا به و أمّا غير المؤمن فلا و قد مرَّ الكلام في السَّموات فيما مضى بما لا مزيد عليه.

اَتْلُ مٰآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ اَلْكِتٰابِ وَ أَقِمِ اَلصَّلٰوةَ إِنَّ اَلصَّلٰوةَ تَنْهٰى عَنِ اَلْفَحْشٰآءِ وَ اَلْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اَللّٰهِ أَكْبَرُ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تَصْنَعُونَ



أُتْلُ، بضّم الألف أمرٌ من تلى يتلو، بمعنى التّلاوة و هي القراءة أمر اللّه نبيّه بتلاوة ما أوحي إليه من الكتاب و الغرض تلاوته على المكلّفين و العمل بما تضّمنه هكذا قيل ثمّ أمره بإقامة الصّلاة الّتي هي تنهى عن الفحشاء و المنكر، و أنّما قال و أقم الصّلاة و لم يقل صلّ مثلاً لأنّ إقامة الصّلاة معناها الإتيان بها جامعةً لشرائطها المقرّرة، من طهارة اللّباس و البدن و إباحة المكان و حضور

١- يونس = ٣٢

القلب مع مراعاة الإذكار و الأفعال على نهة الشّرع و الصّلاة كذلك تنهى عن الفحشاء و المنكر لا فعلها و الإتيان بها كيف إتّفق ألا ترى أنّا نصلّي ولكن صلاتنا لا تنهى عنهما و لأجل هذا أمر اللّه تعالى بإقامة الصّلاة في كثيرٍ من الأيات قال اللّه تعالى في وصف المتّقين:

ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلٰوةَ(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ ءَاتُوا ٱلزَّكٰوةَ وَ ٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ ءَاتُوا ٱلزَّكٰوةَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَقَامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ ءَاتَوُا ٱلزَّكٰوةَ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِذَا ٱطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلٰوةَ وَ ءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكٰوةَ**(٧).

و الأيات كثيرة و أنت ترى أنّ اللّه تعالى في الأيات النازلة في الباب أمر بإقامة الصّلوة و هو دليل على أنّ مطلوب الشّارع الإقامة بها لا نفس الفعل و هو ظاهر و أنّما ذكر الصلوة في الآية و أمر نبيّه بها دون سائر الواجبات من الصّوم و الحجّ و الزّكٰوة و غيرها لأنّها من أعظم الواجبات و أهمّها بعد الإيمان باللّه و رسوله بل الإيمان لا يتحقق إلاّ بها، و مع ذلك هي أوّل واجب في الشّرع و قد روي أنّ النّبي بعث يوم الأثنين و صلّى في يوم البعثة و لذلك أنّها لا تسقط بحالٍ، و قد ورد إن قبلت قبل ما سواها و إن ردّت ردّ ما سواها، و أوّل ما يسأل العبد بعد الموت الصّلاة و غير ذلك ممّا ورد في فضلها و حيث إنجّر الكلام إلى هاهنا فلا بأس بالإشارة إلى بعض ما ورد فيها من الأخبار.

١- البقرة = ٣
٢- البقرة = ٤٣
٣- البقرة = ٨٣
٤- البقرة = ١١٠
٥- البقرة = ٢٧٧
٦- النّساء = ١٠٣
٧- المائدة = ١٢

روي أنّ النّبى دخل المسجد و فيه أناس من أصحابه فقال صلى الله عليه و آله و سلم أتدرون ما قال ربّكم قالوا اللّه و رسوله أعلم قال صلى الله عليه و آله و سلم:

أنّ ربّكم يقول إنّ هذه الصّلوات الخمس المفروضات من صلّاهنّ بوقتهنّ و حافظ عليهنّ لقيني يوم القيامة وله عندي عهدٌ أدخله به الجنّة و من لم يصلّيهنّ لوقتهنّ و لم يحافظ عليهنّ فذلك إلّي إن شئت عذّبته و إن شئت غفرت له إنتهى.

و قال الصّادق عليه السلام: إنّ العبد إذا صلّى الصّلوة في وقتها و حافظ عليها إرتفعت بيضاء نقيّة تقول حفظتني حفظك اللّه و إن لم يصلّيها بوقتها و لم يحافظ عليها إرتفعت سوداء مظلمة تقول ضيعتني ضيَّعك اللّه إنتهى.

و عن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر يقول: إنّ أوّل ما يحاسب به العبد الصّلاة فإن قبلت قبل ما سواها و إنّ الصّلاة إذا إرتفعت في وقتها رجعت إلى صاحبها و هي بيضاء مشرقة تقول حفظتني حفظك اللّه الحديث.

و قال الصّادق عليه السلام: إنّ شفاعتنا لا تنال مستّخفاً بالصّلاة إنتهى.

و عن أبي جعفر قال بينا رسول اللّه جالس في المسجد إذ دخل رجل فقام و صلّى فلم يتّم رحوعه و لا سجوده فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: نقر كنقر الغراب لأن مات هذا و هكذا صلواته ليموتَّن على غير ديني إنتهى.

و قال الصّادق عليه السلام: إنّه ليأتي على الرّجل خمسون سنة ما قبل منه صلاة واحدة فأيّ شئٍ أشدّ من هذا و اللّه إنّكم لتعرفون من جيرانكم و أصحابكم من لَو كان يصلّي لبعضكم ما قبلها منه لإستخفافه بها إنّ اللّه لا يقبل إلاّ الحسن فكيف يقبل ما إستَّخف به إنتهى.

و الأحاديث كثيرة و فيما ذكرناه كفاية و ليعلم أنّ المراد بـإقامتها المـحافظة عليها و شدّة الإعتناء بها بأن يداوم عـليها و لا يـتركها و أن يأتـي بـمقدّماتها و أفعالها على الوجه الكامل على ما قرّر فـي الشّـريعة و الأحـاديث نـقلناها عـن أيات الأحكام للجزائري[١].

و قد مرَّ الكلام في الصّلاة و أدابها و شرائطها غير مـرّةٍ فـيما مـضى و أنّـما أشرنا إلى بعض الأيات و الأخبار في المقام تيّمناً و تبرُّكاً بها و تأكيداً لما مضى و هذا أخر الكلام في الجزء العشرين و يتلوه الجزء الحادي و العشرون، أوّله، و لا تجادلوا أهل الكتاب، و المرّجو من اللّه تعالى أن يوفّقنا لإتمام بقيّة الأجـزاء كما وفّقنا إلى الآن إنّه خير ناصرٍ و معين بحقّ محمّد و أله الطّاهرين أمين ربّ العالمين.

■

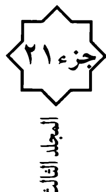
١- ص ٢٨

الجزء

الحادى والعشرون

وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلٰهُنا وَ إِلٰهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿۴۶﴾ وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هٰؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ ﴿۴۷﴾ وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿۴۸﴾ بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ في صُدُورِ الَّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴿۴۹﴾ وَ قالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذيرٌ مُبينٌ ﴿۵۰﴾ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ في ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿۵۱﴾ قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْني وَ بَيْنَكُمْ شَهيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ ﴿۵۲﴾ وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ

ٱلْعَذٰابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ ﴿۵۳﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذٰابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكٰافِرِينَ ﴿۵۴﴾ يَوْمَ يَغْشٰيهُمُ ٱلْعَذٰابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿۵۵﴾ يٰا عِبٰادِىَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِنَّ أَرْضِى وٰاسِعَةٌ فَإِيّٰاىَ فَاعْبُدُونِ ﴿۵۶﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذٰآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنٰا تُرْجَعُونَ ﴿۵۷﴾ وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعٰامِلِينَ ﴿۵۸﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿۵۹﴾ وَ كَأَيِّنْ مِنْ دٰآبَّةٍ لاٰ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللّٰهُ يَرْزُقُهٰا وَ إِيّٰاكُمْ وَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿۶۰﴾ وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰواٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللّٰهُ فَأَنّٰى يُؤْفَكُونَ ﴿۶۱﴾ ٱللّٰهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰآءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللّٰهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿۶۲﴾ وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰآءً فَأَحْيٰا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهٰا لَيَقُولُنَّ ٱللّٰهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ ﴿۶۳﴾ وَ مٰا هٰذِهِ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيٰآ إِلاّٰ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ ٱلدّٰارَ ٱلْاٰخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوٰانُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ ﴿۶۴﴾ فَإِذٰا رَكِبُوا فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمّٰا نَجّٰيهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذٰا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿۶۵﴾ لِيَكْفُرُوا



بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَ يُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَ إِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

◀ اللّغة

وَ لَا تُجَٰدِلُوٓا: الجدال فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج فيه و في ذلك دلالة على حسن المجادلة.

يَجْحَدُ: الجحد الإنكار.

لَٱرْتَابَ: الإرتياب الشكّ.

بَغْتَةً: أي غفلةً و فجأةً.

غُرَفًا: غرف، بضّم الغين المعجمة و فتح الرّاء جمع غرفة و هي الموضع العال.

يُؤْفَكُونَ: أي يصرفون.

وَ لِيَتَمَتَّعُوا: التمتّع التلذّذ.

◀ الإعراب

إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إستثناء من الجنس أَنَّآ أَنزَلْنَا هو فاعل، يكفهم وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا في موضع رفع بالإبتداء لَنُبَوِّئَنَّهُمْ الخبر أو في موضع نصب بفعلٍ دلَّ عليه الفعل المذكور غُرَفًا مفعول ثانٍ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا خبر إبتداء محذوف و

كَأَيِّنْ مِنْ دٰ آبَّةٍ في موضع رفع بالإبتداء و من دابّةٍ تعيين **لاٰ تَحْمِلُ** نعت الدّابة **ٱللّٰهُ يَرْزُقُهٰا** جملة خبر كأيّن و انت الضّمير على المعنى.

◀ التّفسير

وَ لاٰ تُجٰادِلُوٓا أَهْلَ ٱلْكِتٰابِ إِلاّٰ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوٓا آمَنّٰا بِالَّذِيٓ أُنْزِلَ إِلَيْنٰا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلٰهُنٰا وَ إِلٰهُكُمْ واٰحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

الجِدال بكسر الجيم المفاوضة على سبيل المنازعة و المغالبة و أصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله و منه الجديل فكأنّ المتجادلين يفتل كلّ واحدٍ الاخر عن رأيه و قيل الأصل في الجدال الصّراع و إسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة و هي الأرض الصُّلبة، و المراد بأهل الكتاب هو إتّباع الملل و الأديان السّالفة من اليهود و النّصارى و المجوس ان كان لهم الكتاب كما هو أحد الأقوال في الباب و الإستثناء في قوله: **إِلاَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا**، إستثناء من الجنس و في معناه وجهان:

أحدهما: لا تجادلوهم بالحسنى بل بالغلظة لأنهم يغلظون لكم و على هذا فيكون مستثنى من الّتي هي أحسن لا من الجدال.

الثّاني: لا تجادلوهم البتّة أحكموا فيهم بالسّيف لفرط عنادهم و معنى الآية أنّ اللّه نهى المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب إلاّ بالّتي أي بالمجادلة الّتي هي أحسن كما أمر نبيّه أيضاً بذلك حيث قال:

أُدْعُ إِلٰى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ[١].

و لعلّ الوجه هو أنّ المجادلة كذلك تكون أوقع في القلوب من الجدال

١- النحل = ١٢٥

بالغلظة و من المعلوم أنّ الجدال مع أهل الكتاب لتجبيب قلوبهم و إلقاء الحقّ فيها و هذا لا يتحققّ إلاّ بالملاطفة و حسن الكلام في المخاطبة المعبّر عنه بالحكمة و الموعظة الحسنة و هذا محسوس فضلاً عن كونه معقولاً و لا يحتاج الى إطالة الكلام فيه و أمّا إستثناء الظّالمين من هذا الحكم أعني به المجادلة على وجه الأحسن، فالوجه أنّ الظّالم معاندٌ للحقّ و لذلك لا يقبل الحقّ فالجدال على وجه الأحسن لا يفيده قطعاً فينبغي أن يخاطب بما هو أهله من الغلظة و أحياناً بالتّهديد و القتل و غير ذلك ألا ترى أنّ أبا جهل و أبالهب و أمثالهما من الظّالمين المعاندين في صدر الإسلام لم يقبلوا المعجزات من النبيّ فضلاً عن الموعظة الحسنة ولم يكن دواءٌ دائهم إلاّ القتل و حيث أنجرّ الكلام الى الجدال في الدّين فلا بأس بالإشارة الى ما لابدّ منه من مراعات المجادل ما هو أحسن في هذا الكتاب كما أمر اللّه به رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم روي في كتاب الإحتجاج ما هذا لفظه.

فصلٌ في ذكر ما جاء عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم من الجدال و المحاجّة و المناظرة و ما يجري مجرى ذلك مع من خالف الإسلام و غيره.

قال أبو محمّد الحَسَن بن علّي العسكري عليه السلام ذكر عند الصّادق عليه السلام الجدال في الدّين و أنّ رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم و الأئمة عليهم السّلام قد نهوا عنه فقال الصّادق عليه السلام لم ينه عنه مطلقاً و لكنّه نهىٰ عن الجدال بغير الّتي هي أحسن أما تسمعون اللّه يقول: وَ لَا تُجَادِلُوٓا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. و قال اللّه: أُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ[١].

فالجِّدال بالّتي هي أحسن قد قرنه العلماء بالدّين و الجدال بغير الّتي هي أحسن محرّم حرَّمه اللّه على شيعتنا و كيف يحرّم اللّه الجدال جملة و هو يقول: وَ قَالُوا لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ

١- النحل = ١٢٥

نَصٰارىٰ تِلْكَ أَمٰانِيُّهُمْ قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ[١].

فجعل علم الصِّدق و الإيمان بالبرهان و هل يؤتى بالبرهان إلاّ بالجدال الّتي هي أحسن.

قيل يا بن رسول اللّه فما الجدال الّتي هي أحسن و بالّتي ليست بأحسن قال عليه السلام أمّا الجدال بغير الّتي هي أحسن بأن تجادل به مبطلاً فيورد عليك باطلاً فلا تردّه بحجّةٍ قد نصبها اللّه ولكن تجحد قوله أو تجحد حقّاً يريد بذلك المبطل أن يعيّن به باطله فتجحد ذلك الحقّ مخافة أن يكون له عليك فيه حجّة لأنّك لا تدري كيف المخلص منه فذلك حرام على شيعتنا أن يصيروا فتنةً على ضعفاء أخوانهم و على المبطلين أمّا المبطلون فيجعلون ضعف الضّعيف منكم إذا تعاطى مجادلته و ضعفٌ في يده حجّة على باطله و أمّا الضُّعفاء منكم فتغمّ قلوبهم ممّا يرون من ضعف المحقّ في يد المبطل و أمّا الجدال بالّتي هي أحسن فهو ممّا أمر اللّه به نبيّه أن يجادل به من جحد البعث وبعد الموت و إحياؤه له فقال اللّه حاكياً عنه: **وَ ضَرَبَ لَنٰا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قٰالَ مَنْ يُحْيِ ٱلْعِظٰامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ**[٢] فقال اللّه تعالىٰ في الرَّد قل يامحمّد**يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنْشَأَهٰآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ، ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نٰارًا فَإِذٰآ أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ**[٣] إلىٰ أخر السُّورة.

فأراد اللّه من نبيّه أن يُجادل المُبطل الّذي قال كيف يجوز أن يبعث هذه العظام و هي رميمٌ، قل يحيها الّذي أنشأها أوّل مرّةٍ فيعجز من إبتداه لا من شيءٍ أن يعيده بعد أن يبلى بل إبتداءه أصعب عندكم من إعادته.

١- البقرة = ١
٢- يس = ٧٨
٣- يس = ٨٠ / ٧٩

ثمّ قال: **ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا**، أي إذا أكمَن النّار في الشّجر الأخضر الرّطيب ثمّ يستخرجها فعرَّفكم على أنّه إعادة ما بلى أقدر ثمّ قال: **أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِقٰادِرٍ عَلىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلىٰ وَ هُوَ ٱلْخَلّٰاقُ ٱلْعَلِيمُ**(١) أي إذا كان خلق السّموات و الأرض أعظم و أبعد في أوهامكم و قدركم أن تقدروا عليه من إعادة البالي فكيف جوَّزتم من اللّه خلق هذا الأعجب عندكم و الأصعب لديكم و لم تجوّزوا ما هو أسهل عندكم من إعادة البالي.

قال الصّادق عليه السلام فهو الجدال بالتّي هي أحسن لأنّ فيها قطع عذر الكافرين و إزالة شبههم و أمّا الجدال بغير التّي هي أحسن فان تجحد حقّاً لا يمكنك أن تفرق بينه و بين باطلٍ من تجادله و أنّماتدفعه عن باطله بأن تجحد الحقّ فهذا هو المحرّم لأنّك مثله جحد هو حقّاً و جحدت حقّاً أخر إنتهى.(٢)

أقول لولا خوف الإطالة لذكرت لك إحتجاج النّبي صلى الله عليه وآله وسلم مع زعماء خمسة أديان، اليهود، و النّصارى، و الدّهرية، و الثنويّة، و مشركوا العرب و قد ذكره الطّبرسي قدس سره في الإحتجاج بطوله و تفصيله إن شئت الوقوف عليه فعليك بمراجعة الإحتجاج فأنّه موضوع لهذه الأبحاث الشّريفة.

إذا عرفت معنى الجدال بالتّي هي أحسن و كيفيّته فلنرجع إلى تفسير الآية و نقول بعد ما أمر اللّه نبيّه بالجدال بالتّي هي أحسن و إستثنى منه الجدال مع الظّالمين بقوله: **إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا** لما ذكرناه من أنّ الظّالم لعناده لا يقبل الحقّ، قال تعالى: **وَقُولُوٓا آمَنَّا** إلى أخر الأية. فبيَّن لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم كيفيّة الجدال بالتّي هي أحسن فقال: **قُولُوٓا**، للكفّار، أمنّا بالّذي أنزل إلينا من الكتاب وأُنزل إليكم أيضاً، أي نحن مؤمنون بجميع ما أنزل اللّه على أنبيائه من التّوراة و الإنجيل و

١- يس = ٨١

٢- الإحتجاج /ص/ ٧

الزّبور و الصّحف و غيرها هذا أوّلاً و ثانياً، إلهنا و إلهكم واحد، إذ لا إله إلاّ اللّه الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن كفواً أحد، فلا فرق بيننا و بينكم في الإعتقاد بمبدأ واحد و هو اللّه تعالى إلاّ أنّكم لا تقرّون و لا تعتقدون بما أنزل إلينا من الكتاب و الأحكام فالإختلاف بيننا و بينكم في المنّزل إليكم و من المعلوم أنّ رفع هذا القدر من الإختلاف سهلٌ يسير على من أنصف من نفسه و أخرج عن قلبه العناد و اللّجاج إذ المفروض أنّ جميعنا منقادون مسلمون للّه الواحد القهّار و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى في مواضع أخر حيث قال:

قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ[1].

و هذا الإحتجاج ممّا يقبله العقل السّليم و أن كان مخالفاً للحقّ.

وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ فَٱلَّذِينَ اٰتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هَٰؤُلَآءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مَا يَجْحَدُ بِاٰيَاتِنَآ إِلَّا ٱلْكَافِرُونَ

و المعنى كما أنزلنا الكتاب من التّوراة و الإنجيل و غيرهما على من قبلك من الرُّسل كذلك أنزلنا إليك الكتاب و هو القرأن فالّذين أتيناهم الكتاب من قبل من اليهود و النّصارى يؤمنون به أي يؤمنون بما أنزلنا إليك و ذلك لما هو مذكورٌ في كتبهم من البشارة و أوصاف النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لو علموا به و أنصفوا من أنفسهم، و من هؤلاء، يعني أهل مكّة من المشركين.

مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ أي بالقرأن أو بما أنزل إليك و حيث أنّ كلمة، من، للتّبعيض يستفاد من الكلام أنّ منهم من لا يؤمن به و هو كذلك فأنّ مفهوم الكلام حيث أنّ اللّه أتى بكلمة، من، التّبعيضية يدلّ على ما ذكرناه.

۱- آل عمران = ۶۴

و قوله: **وَ مٰا يَجْحَدُ بِآيٰاتِنٰآ إِلَّا ٱلْكٰافِرُونَ** كلمة، ما، للنّفي و الجحد الإنكار أي لا ينكر أياتنا إلاّ الكافرون، لأنّ كلّ من جحد بأيات اللّه من المكلّفين فهو كافر معانداً كان أو غير معاند هكذا فسّروا الكلام.

و قال صاحب الكشّاف في قوله: **وَ مٰا يَجْحَدُ بِآيٰاتِنٰآ**، مع ظهورها و زوال الشُّبهة عنها إلاّ المتوغّلون في الكفر المصمّمون عليه إنتهى.

أقول أنّما فسّروا الكلام هكذا لأنّهم حملوا قوله: **وَ مِنْ هٰٓؤُلَآءِ** على كفّار مكّة أي و من هؤلاء المشركين من يؤمن به أي بالكتاب و أنّه من عند اللّه و منهم من يجحد و ينكر هذا و هم الكافرون.

و لقائلٍ أن يقول ليس في الآية من أهل مكّة عينٌ و لا أثر و أنّما المذكور فيها أهل الكتاب فقط و أهل مكّة لم يكونوا فيهم بل كانوا مشركين و قد ثبت أنّ المشار إليه لابدّ من تقدّم ذكره ليصحّ أن يشار إليه و ما نحن فيه ليس كذلك و بعبارةٍ أخرى أي دليلٍ دلَّ على أنّ المراد من هؤلاء هو أهل مكّة و إذ ليس فليس و إذا كان كذلك فالحقّ في المقام أن يقال أنّ، هؤلاء، إشارة إلى أهل الكتاب الّذي تقدّم ذكره، و المعنى و اللّه أعلم أنّ من أهل الكتاب من يؤمن بما أنزل إليك و منهم من لا يؤمن بل يجحد و أولئك هم الكافرون المعاندون للحقّ و يؤيّد ما ذكرناه أنّ المعنى على ما فسرّوه لا يستقيم و ذلك لأنّ التّقسيم بالإيمان و الإنكار أنّما هو في أهل الكتاب ضرورة أنّ أهل الكتاب جميعاً لم يؤمنوا به بل بعضهم أمن و بعضهم لم يؤمن و لازم ما ذكروه في تفسير الكلام هو إيمانهم جميعاً و هو كما ترى خلاف العقل و النّقل و أنّما قلنا ذلك لأنّ المفسّرين خصّوا التّقسيم بأهل مكّة و لا نعلم من أين ثبت لهم ذلك و الأخبار و الأثار تدلّ على عدم إيمان أكثر أهل الكتاب من اليهود و النّصارى و غيرهما فتأمل.

وَ مٰا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتٰابٍ وَ لٰا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتٰابَ ٱلْمُبْطِلُونَ

قالوا في معنى الآية يعني أنّك لم تكن تحسن القراءة قبل أن يوحى إليك بالقرأن، **وَ لَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ**، أي و ما كنت أيضاً تخطّ بيمينك و فيه إختصار و تقديره ولو كنت تتلوا الكتاب و تخطّه بيمنك، **إِذًا لَّارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ**، أي كانوا يشكّون في نبّوتك.

قال صاحب الكشّاف في قوله: **لَّارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ**، أي من أهل الكتاب و قالوا الّذي نجده في كتبنا أميّ لا يكتب و لا يقرأ و ليس به أو لإرتاب مشركوا مكّة و قالوا لعلّه تعلّمه أو كتبه بيده ثمّ قال ما لفظه.

فأن قلت لم سمّاهم مبطلين ولو لم يُكن أميّاً و قالوا ليس بالّذي نجده في كتبنا لكانوا صادقين مُحقّين و لكان أهل مكّة أيضاً علىٰ حقٍّ في قولهم لعلّه تعلّمه أو كتبه فأنّه رجل قارئ كتب.

قلت سمّاهم مبطلين لأنّهم كفروا به و هو أميّ بعيدٌ من الرَّيب فكأنّه قال هؤلاء المبطلون في كفرهم به لو لم يكن أميّاً لإرتابوا أشدّ الرّيب فحين ليس بقارئٍ كاتب فلا وجه لإرتيابهم إنتهىٰ ما ذكره.

أقول قال الرّاغب في المفردات الرَّيب أن تتّوهم بالشّئ أمراً مّا، فينكشف عمّا تتوهّمه إنتهى.

فعلى هذا يدخل الرَّيب في التوهُّم بخلاف الشكّ و هذا هو الفرق بينهما و كيف كان فمعنى الآية علىٰ ما ذكره المفسّرون لو كنت تتلوا الكتاب و تخطُّه بيمينك يتوهّهم المبطل أعني به من كان بصدد إبطال النّبوة أنّ الكتاب لم ينزل من اللّه تعالىٰ بل كتبه مدّعي النبوّة بيده و أنّما عبَّر بالإرتياب لأنّه بعد الدقّة و التّأمل فيه ينكشف له بطلان توهّمه هذا كلّه تفسير ألفاظ الآية و حيث أنّ الموضوع أعني به التّلاوة و الكتابة من أهمّ الموضوعات في باب الإعتقادات و لذلك صار معركة الأراء بين المسلمين من العامّة و الخاصّة فذهب أكثر المفسرين من العامّة بل كلّهم إلاّ شرذمة قليلة إلى أنّ النّبي ﷺ كان أميّاً بمعنى أنّه لم يكن قادراً على التّلاوة و الكتابة أصلاً.

و أمّا الخاصّة أعني بهم أتباع أهل البيت قد أجمعوا على كونه ﷺ قادراً عليها إلاّ أنّه تركهما لأجل المصالح المترتبة عليه و إذا كان كذلك فلا بأس بالإشارة إلى ما لابدّ من ذكره في المقام ليتّضح الحال فنقول:

لا شكّ أنّ التّلاوة و القراءة و الكتابة من الكمالات للإنسان و لذلك ترى أنّ العقلاء لا يعتنون بمن لا يقرأ و لا يكتب و يحكمون بأنّه من العوام لا يليق بالتّخاطب و الجدال و إذا كانت الكتابة و التلاوة من الكمالات فعدمهما نقص لعدم الواسطة بين الكمال و النّقص و الدّليل على كون عدمهما من النّقائص مضافاً إلى ما ذكرناه هو أنّ من لا يقرأ و لا يكتب مقرّ و معترفٌ بالنّقص و لذلك يتصدّى لرفع النّقص عن نفسه بقدر الإمكان ليتّصف بهما و هذا ممّا لا شكّ فيه و لا يحتاج إلى إقامة البرهان بل هو بالمحسوسات أشبه منه بالمعقولات ثمّ نقول لكلّ واحدٍ منهما مقامان مقام الإستعداد و القوّة، و مقام الفعليّة و الظهور كما هو الشّأن في جميع الأوصاف من العدالة و الشجاعة و السخاوة و الأمانة و غيرها و من المعلوم أنّ مقام القوّة مقدّمٌ على مقام الفعليّة كما أنّ الهيولى مقدّم على الصُّورة تقدّم المعروض على العارض و الموصوف على الصّفة و المحلّ على الحال و بين المقامين من النِّسب عموم و خصوص مطلقاً فكلّ كاتبٍ قاريً و ليس كلّ قاريٍ بكاتب إذا عرفت هذه المقدّمة النّافعة فنقول:

النبيّ هو الإنسان الّذي إصطفاه اللّه من أفراد البشر لإرشاد النّاس و هدايتهم إلى ما هو كمال لهم فلا محالة يكون إنساناً كاملاً من جميع الجهات واجداً لجميع الصّفات إذ معطي الشّيً لا يكون فاقداً له، و قلنا أنّ القراءة و الكتابة من الكمالات فلو كان فاقداً لهما يكون ناقصاً و النّاقص لا يصلح للنّبوة عقلاً لأنّ من كان من أفراد الأمّة واجداً لهما فهو أفضل من النّبي الفاقد لهما و تقديم المفضول على الفاضل قبيح عقلاً هذا أوّلاً.

ثانياً: كيف يعلّمهم الكتاب و هو لا يقرأ الكتاب و حاصل الكلام أنّ العقل السّليم لا يحكم بأن يكون معلّم البشر لا يحسن القراءة و الكتابة و أن يكون جاهلاً بهما و الجهل من أقبح الصّفات بل هو أمّ الفساد و الشّرور نعم ظهور الكتابة و القراءة لا بأس بنفيه عنه و ليس هو من النّقائص كما أنّ الشجاعة لم تظهر منه صلّى الله عليه و آله و سلّم مع أنّه قد ثبت أنّ النّبي أشجع النّاس كما أنّه أعلم النّاس و أعدلهم و أرحمهم و هكذا و الذّي أثبتناه في حقّه هو وجود الصّفة فيه لا بروزها و ظهورها في الخارج إذ ربّما يكون الشّخص واجداً لصفةٍ و لكن لا يظهر بها بل يخفيها لأجل المصالح و المفاسد فإذا كان في ظهور الشّئ مفسدة فيكون في خفائها مصلحة و إذا كان في ظهوره مصلحة ففي خفاءه مفسدة و ما نحن فيه من قبيل الأوّل فعدم الظّهور لا يدلّ على عدم الوجود أو عدم القدرة فنفي القراءة و الكتابة عنه صلّى الله عليه و آله و سلّم لا يدلّ على عدم وجودهما أو عدم قدرته على إظهارهما و الآية الشّريفة تدلّ على أنّ النّبي لم يتلوا ولم يخطّ بيمينه و هذا ممّا تقول به.

و أمّا أنّه صلّى الله عليه و آله و سلّم لم يكن قادراً عليهما أو لم يكن متّصفاً بهما فلا دلالة لها عليه و على المدّعي الإثبات و هذا الّذي قلنا به ثابت للنّبي قبل البعث و بعده.

قال السّيد المرتضىٰ قدّس سرّه على ما حكى عنه في البحار ما هذا لفظه:

هذه الآية تدلّ على أنّ النّبي ما كان يحسن الكتابة قبل النّبوّة فأمّا بعدها فالّذي نعتقده في ذلك التّجويز لكونه عالماً بالقراءة و الكتابة و التّجويز لكونه غير عالم بهما من غير قطع على أحد الأمرين، و ظاهر الآية يقتضي أنّ النّفي قد تعلّقً بما قبل النّبوّة دونً ما بعدها فلا تعَّلق له بالرّيبة و التهمّة فيجوز أن يكون قد تعلَّمها من جبرئيل بعد النّبوة إنتهى كلامه قدّس سرّه.

أقول الآية لا تدلّ علىٰ ما ذكره قدّس سرّه بل أنّها تدلّ على نفي التّلاوة و الخطّ قبل النّبوة من حيث الظُّهور لا من حيث الوجود و بعبارةٍ أخرى هي تدلّ على أنّ

النّبي ما كان يتلوا الكتاب و لا غيره و لا تدلّ على أنّ النّبي لم يقدر عليها و المدّعى هو القدرة عليها لا إظهارها و عدمه و لا فرق فيه بين القبل و البعد فكأنّه قدّس سرّه إستظهر ما ذكره من قوله تعالى: **مِنْ قَبْلِهِ** بإرجاعه الضّمير إلى البعث و ليس كذلك فأنّ الضمير في، قبله، يرجع إلى الكتاب لا الى البعث الذّي لم يتقدّم ذكره لا لفظاً و لا معنىً في الآية.

و أمّا قوله قدّس سرّه فالّذي نعتقده في ذلك التّجويز لكونه عالماً بهما و غير عالم بهما من غير قطع علىٰ أحد الأمرين، فنقول في الجواب أنّا نعتقد التّجويز لكونه عالماً بهماً على سبيل القطع إلاّ أنّه لم يكن مأموراً بإظهارهما قبل نزول الكتاب و الوحي لأجل المصلحة التّي رأها اللّه في ترك الإظهار و المفسدة التّي كانت في الإظهار لئلا يرتاب المبطل كما صرّح به الآية بل نقول كان النّبى صلّى الله عليه وآله وسلّم عالماً بالكتاب و الأحكام أيضاً قبل نزول الكتاب من حين ولادته لكن لم يكن مأموراً بإظهار علمه قبل مضّي أربعين سنة من عمره فأنّ اللّوح المحفوظ في عالم التكوين هو صدر النّبي و الوصّي و قد ثبت أنّ أميرالمؤمنين عليه السّلام قرأ بعد ولادته سورة المؤمنين بعد شهادته بالتّوحيد و الرّسالة و إذا كان الوصّي قبل نزول الكتاب عالماً به فالنّبي أولى به و بعد اللتيا و اللاتي نقول إعتقادنا في النبيّ و الوصيّ هو علمهما بجميع ما يحتاج إليه البشر في أمر دينه و دنياه و إتّصافهما بجميع الكمالات النّفسانية و برائتهما من الجهل و النقص من حين ولادتهما إلى أخر العمر و أمّا إظهار العلم و الكمال فهو منوطٌ بالمصلحة و عدم وجود المفسدة و للبحث فيه مقامٌ أخر.

بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ

قال في التّبيان، قيل معناه بل هي أياتٌ واضحات في صدور العلماء بأنّه أميّ لا يقرأ و لا يكتب، على صفته في التّوراة و الإنجيل في قول إبن عبّاس و قال الحسن بل القرأن أيات بيّنات في صدور العلماء إنتهى.

و قال صاحب الكشّاف أيضاً نظير ذلك و فسرّ الصدُّور بصدور العلماء و الحفّاظ و عدّه من خصائص القرأن الخ.

و قال الرّازي قوله: **فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ**، إشارة إلى أنّه ليس من مخترعات الأدميين لأنّ من يكون له كلامٌ مخترع يقول هذا من قلبي و خاطري و إذا حفظه من غيره يقول أنّه في قلبي و صدري فإذا قال في صدور الّذين أوتوا العلم لا يكون من صدر أحدٍ منهم و الجاهل يستحيل منه ذلك فلا ظهور له من الصَّدر و يلتحقون عند هذه الأمّة بالمشركين فظهوره من اللّه إنتهى كلامه.

أقول ما ذكرناه و نقلناه عنهم هو قول جميع المفسّرين أخذه بعضهم من بعضٍ من غير تأمّلٍ في معنىٰ الآية من غير توَّجهٍ منهم الى كلمة، بلْ، الّتي هي للإستدارك و الّذي نفهم من الآية و اللّه أعلم.

هو أنّ اللّه تعالى لمّا نفى في الآية السّابقة التّلاوة أي تلاوة الكتاب بقوله: **وَ مٰا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتٰابٍ** إستدرك ذلك بقوله: **بَلْ هُوَ آيٰاتٌ بَيِّنٰاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ** و توضيح ذلك إجمالاً أنّه لمّا نفىٰ التّلاوة عن النّبي صلى الله عليه و آله و سلم فلقائلٍ أن يقول إذا كان النّبي كذلك فمن أين ظهر الكتاب على يديه و كيف نعلم أنّه كلام اللّه و المفروض عدم علم النّبي لكونه أميّاً لا يقرأ و لا يكتب فقال اللّه تعالى في الجواب ليس الأمر كما توهّمتم و ظننتم أنّه أي النّبي لم يكن عالماً به، بل هو أي القرآن آيات بيّنات واضحات في صدور الّذين أوتوا العلم، أعني بهم النّبيّ و أوصياء، و المعنى أنّ الكتاب كان في صدر النّبي و قلبه من أوّل الأمر إلاّ أنّه لم يؤمر بإظهاره قبل وقته، فلمّا إقتضت المصلحة أخرجه من القوّة الى الفعل، و هذا بعينه ما حقّقناه و أثبتناه في الآية السّابقة و أن شئت.

قلت هذه الآية موضحةً لما قبلها و مثبتةٌ علم النّبي بالكتاب قبل البعثة أيضاً و يدّل على ما ذكرناه.

ما رواه في أصول الكافي عن أحمد بن مهران بأسناده عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر يقول في هذه الأية، بل هو آيات بيّنات في صدور الّذين أوتوا العلم، فأومىٰ بيده الىٰ صدره إنتهى.

و عنه عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله: **بَلْ هُوَ اٰيٰاتٌ بَيِّنٰاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ** قال هُم الأئمة عليهم السّلام إنتهىٰ.

و بأسناده عن هارون بن حمزة عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: سمعته يقول بل هو آيات بيّنات في صدور الّذين أوتوا العلم، قال عليه السلام هم الأئمة خاصّة إنتهى.

و بأسناده عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام و أبي عبد اللّه البرقي عن أبي الجهم عن أسباط عن أبي عبد اللّه في قوله تعالىٰ: **بَلْ هُوَ اٰيٰاتٌ بَيِّنٰاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ** قال عليه السلام نحن إنتهى.

و الأحاديث في الباب كثيرة نقل شطراً منها في تفسير نور الثّقلين و ما نقلناه منه [١].

إن قلت، الأخبار المنقولة و غيرها تدلّ على أنّ المراد بصدور الّذين أوتوا العلم، هو صدور الأئمة و ليس من صدر النّبي فيها ذكر مع أنّ الكلام في النّبي لا في الأئّمة.

قلت ما ثبت للأئّمة ثابتٌ للنّبي أيضاً على وجه الأوّلوية لأنّ علمهم من علمه و لعدم القول بالفصل و أنّ نورهم واحد هذا ما فهمناه من الآية و العلم عند اللّه.

و أمّا قوله: **وَ مٰا يَجْحَدُ بِاٰيٰاتِنٰآ إِلَّا ٱلظّٰالِمُونَ** فالظّاهر أنّ المراد بالأيات هو آيات الكتاب أعني بها الأيات التشّريعية ولو حملناها على معناها العامّ الشّامل للأيات التّشريعية و التّكوينيّة لا بأس به و في رأس الأيات التّكوينيّة

١- نور الثّقلين ج ۴ ص ١۶۵

الأنبياء و الأوصياء الّذين إنكارهم إنكار التّشريعيّات، فمن أنكر النّبي و أوصياءه أنكر الكتاب و الأحكام و المراد بالظّلم في الآية الظّلم على النّفس أو الظّلم على النّبي و من قام مقامه و هو واضح لا خفاء فيه.

وَ قٰالُوا لَوْلاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيٰاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا اَلْآيٰاتُ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ إِنَّمٰا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ

حكى اللّه تعالى عن الكفّار أنّهم قالوا، لولا أنزل عليه آيات من ربّه، لو كان صادقاً في دعواه، مثل ناقة صالح، و فلق البحر و قلب العصا لموسى عليه السلام و إحياء الأموات لعيسى، و هكذا، فقال اللّه تعالى لنبيّه قل لهم، أي قل للكفّار أنّما الأيات عند اللّه تعالى و **إِنَّمٰا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ**، و المعنى أنّ اللّه تعالى ينزلها و يظهرها بحسب ما يعلم من مصالح خلقه و أمّا أنا فمنذرٌ و مخوّف من معصية اللّه مبيّنٌ لكم طريق الحقّ من الباطل.

أقول ما قالوا في تفسير الآية لا بأس به إلاّ أنّ حمل الأيات على ما ذكروه لا دليل عليه و الأحسن حملها على مطلق العلامة الدالّة على صدق مدّعي النبوّة سواء كان من قبيل المحسوسات أم المعقولات و أن كان قولهم هذا كذبٌ منهم إذ أيّة آيةٍ أعظم و أظهر من القرآن كما أشار اللّه تعالى اليه بقوله:

أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنّٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ اَلْكِتٰابَ يُتْلىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

الإستفهام للإنكار أي يكفيهم ذلك لو تأمّلوا فيه و أخرجوا من قلوبهم العناد و اللّجاج و ذلك لأنّ القرآن من أكبر المعجزات من حيث الفصاحة و البلاغة و الأخبار عن الماضين و الأحكام الشرعيّة و المواعظ و النّصائح البالغة و بالجملة كلّ ما يحتاج اليه البشر الى يوم القيامة في دينه و دنياه كما أخبر اللّه تعالى به في قوله:

لَا رَطْبٍ وَ لَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ[١].

و قال: **قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَ ٱلْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**[٢].

و لا نعني بالآية و العلامة و المعجزة أو ماشئت فسَّمه إلاّ هذا فأنّ المعجزة عبارة عن الإتيان بما يعجز الخلق عن الإتيان بمثله و القرآن هكذا نعم إعجاز القرآن من الأمور العقليّة فلا يدركه إلاّ العاقل و أمّا العوام من النّاس فلا يدركون إلاّ المحسوسات و لا حظّ لهم من المعقولات إلاّ يسيراً و لعلّه لأجل هذه الدّقيقة حمل المفسّرون الأيات في الآية على الأيات المحسوسات مثل ناقة صالح و فلق البحر و غير ذلك.

و أمّا قوله: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** فهو من أوصاف القرآن فأنّه رحمة من اللّه تعالى للخلق.

قال اللّه تعالىٰ: **فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **هٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**[٦].

و الأيات الدّالات على كون القرآن رحمة كثيرة، و قوله، و ذكرى، هو الوصف الثّاني له و معناه أنّه ممّا يتذّكر به و يعتبر بقصصه و أمثاله هكذا قيل.

و أنا أقول ما ذكروه لا بأس به إذ هو أحد مصاديق الذّكر، و الحقّ أنّ الذّكرى

١- الانعام = ٥٩
٢- الإسراء = ٨٨
٣- الأنعام = ١٥٧
٤- الأعراف = ٥٢
٥- الأعراف = ٢٠٣
٦- يُونس = ٥٧

مبالغة في الذّكر و قال الرّاغب في المفردات، و الّذكرىٰ كثرة الذّكر و هو أبلغ من الذّكر و على هذا فقوله و ذكرى لقومٍ يؤمنون، معناه أنّهم يذكرون اللّه كثيراً به، إمّا بقرائته و تلاوة آياته و إمّا بالتأمل في آياته و الإعتبار بها و كيف كان لا شكّ أنّ القرآن من أحسن الأذكار و أكبرها لمن كان أهلاً له.

قال اللّه تعالىٰ: **فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَابِ**[٤] وغيرها من الأيات.

و أنّما خصّه بالمؤمنين لأنّ غير المؤمن بمعزلٍ عن هذه الأمور.

قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللّٰهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ

أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار الّذين أنكروا نبوّتك و أنّ هذا الكتاب منزل من اللّه اليك، كفى باللّه بيني و بينكم شهيداً، أي شاهداً فأنّ الشّاهد و الشّهيد واحد إلاّ أنّ في الشّهيد مبالغة و الشّهادة هي الخبر بالشّئ عن مشاهدةٍ تقوم به الحجّة في حكمٍ من الأحكام في الشّرعِ و لذلك لا يكون خبر من لا تقوم به الحجّة في الزّنا مثلاً شهادة و يكون قذفاً.

و أيّة شهادةٍ أقوم للحجّة من شهادة اللّه الّتي لا يحتمل الكذب أصلاً و لذلك قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللّٰهِ قِيلًا**[٥]، وحيث أنّ الشّاهد لابدّ له من

١- الأنعام = ٦٨
٢- الأنعام = ٩٠
٣- هُود = ١١٤
٤- الزّمر = ٢١
٥- النساء = ١٢٢

العلم بما يشهد به علماً كان مأخذه الحسّ أعني المشاهدة بـالبصر و الإسـتماع بالسَّمع و إلاّ لا تقبل شهادته قال تعالى: **يَعْلَمُ مٰا فِى ٱلسَّمٰواٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** أي لا يخفىٰ عليه شيئ فلا محالة شهادته من أحسن الشّهادات و أقواها و أن شئت قلت شهادته شهادة كلّ الموجودات لأنّه الخالق لها، ثمّ قال تعالى: **وَ ٱلَّـذِينَ اٰمَنُوا بِالْبٰاطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللّٰهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخٰاسِرُونَ** في الدُّنيا و الأخرة) و محصّل الكلام هو أنّ اللّه هو الحاكم العدل الّذي لا يظلم أحداً.

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذاٰبِ وَلَوْلآ أَجَلٌ مُسَمًّى لَجٰآءَهُمُ ٱلْعَذاٰبُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن الكفّار بأنّهم يستعجلون في نزول العذاب عليهم كأنّهم قالوا للنّبي لو كنت صادقاً فيما أوحيّت من النبوّة و نزول العـذاب على المكذّبين فلم لم ينزل العذاب علينا فأجاب اللّه تعالى عـلى لسـان النّبي بأنّ نزول العذاب له أجلّ و زمان معيّن مـقدّر فـي عـلم اللّـه و لولا ذلك لنـزل العذاب عليهم فأنّ الأمور مرهونة بأوقاتها.

ثمّ قال تعالىٰ: **وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ** أي و ليأتينّهُم العذاب فجأةً و هم لا يشعرون، بوقت مجيئه.

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذاٰبِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكٰافِرِينَ

أي أنّهم يطلبون منك العذاب و لا يعلمون أنّ جـهنّم لمـحيطةٌ بـالكافرين، إحاطةً لا يمكن لهم الفرار منها يحتمل أن يكون معنى الكلام أنّها محيطةٌ بـهم في هذه الدّنيا إلاّ أنّهم لإنـغمارهم فـي الشّـهوات النـفسانيّة و اللّـذات الحسيّة الفانية و الآمال الطويلة لا يشعرون بها فأنّ النّاس نيام إذا ماتوا إنتبهوا، و يحتمل أن يكون المراد بالإحاطة إحاطتها يوم القيامة و الجامع أنّـهم بسـبب كـفرهم و عنادهم لا مفرّ لهم عنها ثمّ أشار اللّه تعالى بقوله:

يَوْمَ يَغْشٰيهُمُ ٱلْعَذٰابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

قال الرّاغب في المفردات، غشي غشية و غشاءً إتيان ما قد غشيه أي ستره و الغشاوة ما يغطّيٰ به الشّئ و معنى الآية يوم يسترهم العذاب و هو كناية عن احاطته بهم من فوقهم و من تحت أرجلهم أي من فوق رؤسهم و تحت أقدامهم و يقول بلسان الحال لهم ذوقوا ما كنتم تعملون في الدّنيا أي أنّ العذاب المسلّط عليكم نتيجة أعمالكم و ما ربّك بظلاّم للعبيد فمن يعمل مثقال ذرّةٍ خيراً يره و من يعمل مثقال ذرّةٍ شرّاً يره.

يٰا عِبٰادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِنَّ أَرْضِي وٰاسِعَةٌ فَإِيّٰايَ فَاعْبُدُونِ

ذهب أكثر المفسّرين الى أنّ الآية نزلت فيمن كان مقيماً بمكّة من المؤمنين و أوذوا بأيدي المشركين، أمرهم اللّه بالهجرة منها الى المدينة و المعنى جانبوا أهل الشّرك و أطلبوا أهل الإيمان و قيل أنّ أرضي واسعة، بسعة الرّزق في جميع الأرض، و قيل أرض الجنَّة واسعة عليكم و قيل غير ذلك من الاحتمالات و الحقّ أنّ اللّه تعالى في هذه الآية بيَّن لعباده المؤمنين حكماً كليّاً في جميع الأزمنة و جميع العباد و تخصيصه بمورد دون موردٍ لا دليل عليه و لتوضيح المقال نذكر مقدّمة نافعة هي الأصل و العلَّة لصدور الحكم فنقول لاشكّ أنّ اللّه تعالى خلق الخلق و لا خالق سواه فهو خالق السّموات و الأرض و ما فيها من الموجودات بأنواعها و أصنافها من الجماد و النّبات و الحيوان و الإنسان و الملائكة و الجنّ و غيرهما و هذا ممّا لا كلام فيه و من جملة الموجودات الإنسان المكلّف بالتّكاليف الّشرعية بحيث لو تركها عمداً فقد عصى اللّه و أستحقّ به العذاب إذا عرفت هذا فنقول، الإنسان موظَّفٌ من قبل الشّارع بالعمل بالتّكاليف أعني به الإتيان بالواجبات و ترك المحرّمات في صورة الإستطاعة و القدرة و هذا ممّا لا محيص عنه فلو فرضنا أنّه لا يقدر على

العبادة في مكانٍ و يقدر عليها في مكانٍ آخر يجب عقلاً و شرعاً عليه الهجرة لإداء الوظيفة في صورة الإمكان فلو بقى على حاله في مكانه و لم يهاجر عصى و لا عذر له يوم القيامة فأن أرض اللّه واسعة و الرّازق في جميع الأمكنة و الأزمنة هو اللّه تعالى و هذا ممّا يحكم به العقل و يرغّب إليه الشرع و لا يحتاج الى إقامة البرهان و لذلك أمر اللّه تعالى عباده بالهجرة الى مكانٍ أليق و أنسب للعبادة.

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ

إعلم أنّ النَّفس بفتح النُّون و سكون الفاء و السّين قد جاء في القرآن على وجوه:

أحدها: بمعنى العقوبة و منه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يُحَذِّرُكُمُ ٱللّٰهُ نَفْسَهُ وَ ٱللّٰهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ**(١) أي يحذّركم عقوبته.

ثانيها: بمعنى العلم و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لآ أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ**(٢) أي و لا أعلم ما في علمك.

ثالثها: بمعنى الرُّوح و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ تَرىٰ إِذِ ٱلظّٰالِمُونَ فِي غَمَراتِ ٱلْمَوْتِ وَ ٱلْمَلآئِكَةُ باسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنْفُسَكُمُ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **ٱللّٰهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ ٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها**(٤) يعني يتّوفى الأرواح.

رابعها: بمعنى القلب و منه:

١- آل عُمران = ٣٠
٢- المائدة = ١١٦
٣- الأنعام = ٩٣
٤- الزُّمر =٤٢

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ تُبْدُوا مٰا فِيٓ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحٰاسِبْكُمْ بِهِ اَللّٰهُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمٰا فِي نُفُوسِكُمْ**[٢]. ففي هذه الأيات و أمثالها النّفس بمعنىٰ القلب.

خامسها: بمعنى الجسم و البدن و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا ظَلَمَهُمُ اَللّٰهُ وَ لٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**[٣] يعني أجسادهم.

سادسها: بمعنى الإنسان و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنٰا عَلٰى بَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ**[۴] يعني من قتل إنساناً بغير إنسانٍ.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ فِيهٰآ أَنَّ اَلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ**[۵] يعني أنّ الإنسان بالإنسان.

و غير ذلك من الأيات إذا عرفت موارد إستعمال اللّفظ فقد علمت أنّ النّفس في الآية بمعنى الرُّوح أي كلّ روحٍ ذائقة الموت و المراد بموت الرُّوح هو إنفصاله عن الجسم فأنّ الموت الفراق و ليس المراد به إعدامه و فنائه بالكليّة فالمعنى كلّ روحٍ ذائقة الفراق عن جسمه و هذا لا يختصّ بالإنسان بل يعمّ كلّ ذي روحٍ في عالَم الخلق و من المعلوم أنّه لا مخلوق إلاّ و له روح فأنّ بقاء الموجود و حياته بالرُّوح فكلّ موجود ذي روح ينتهي بالأخرة إلى الموت فما لا روح له لا موت له كالواجب تعالى و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله:

كُلُّ مَنْ عَلَيْهٰا فٰانٍ، وَ يَبْقٰى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو اَلْجَلاٰلِ وَ اَلْإِكْرٰامِ[۶].

١- البقرة = ٢٨۴
٢- الاسراء = ٢۵
٣- آل عمران = ١١٧
۴- المائدة = ٣٢
۵- المائدة = ۴۵
۶- الرّحمٰن = ٢٧ / ٢۶

و قوله: **ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ** إشارة إلى ما هو الحقّ من أنّ كلّ شئٍ يرجع إلى أصله و السرّ فيه هو أنّ الوجود للموجود لا يخلو حاله من وجهين:

أحدهما: أن يكون من ذاته بذاته لذاته.

الثّاني: أن يكون من غيره.

فالأوّل: لا فناء له و هو الواجب الوجود لأنّه لم يأخذ الوجود من غيره.

الثّاني: هو الممكن الوجود لأنّه أخذ الوجود من غيره فهو مخلوق لغيره فالوجود فيه عارية و أن شئت قلت و ديعة و أمانة و كلّ وديعة لا محالة ترجع إلى صاحبها، فلابدّ يوماً أن تردّ الودائع، و لذلك فالرّجوع إلى الأصل حكمٌ عقليّ.

ثانياً: أنّ الوجود إذا كان إفاضةً من الغير فهو محكوم بالفناء قطعاً، لحدوثه و كل حادثٍ باطل في نفسه.

ألا كُلّ شئٍ ما خَلا اللّه باطلُ ‌ ‌ ‌ ‌ وكلّ نعيمٍ لا محالة زائلُ

إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ.

وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعٰامِلِينَ

قد مرَّ الكلام في معنىٰ الإيمان و أنّه لا يتّحقق إلاّ بالعمل الصّالح بل الإيمان هو العمل فلا نعيد الكلام بذكره حذراً من الإطالة.

و أمّا قوله: **لَنُبَوِّئَنَّهُمْ،** أصل البواء مساواة الأجزاء في المكان خلاف النّبوة التّي هي منافاة الأجزاء، يقال بوّأت له مكاناً سوّيته قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ بَوَّأْنٰا بَنِيٓ إِسْرآئِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ**[1] و **الغُرف** بضمّ الغين و فتح الرّاء و سكون الفاء جمع غرفة و هي البناء العالي ولذلك سميت منازل الجنّة غرفاً و معنى الآية أنّ الّذين أمنوا و عملوا الصّالحات في الدّنيا لنزلّنهم من الجنّة التّي وعدها اللّه للمتّقين غرفاً أي منازل عاليات تجري من تحتها الأنهار لأنّ الغرف تعلو عليها

١- يُونس = ٩٣

خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ، أي نعم الثّواب و الأجر للعاملين بطاعة اللّه و أيُّ أجرٍ أعظم و أنفع منه ثمّ أنّ اللّه تعالى أثبت لهم وصفين بهما نالوا ما نالوا من الثّواب فقال:

ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

الصَّبر في اللّغة الإمساك في ضيقٍ يقال صبرت الدّابة حبسها بلا علف و صبرت فلاناً خلفته خلفةً لا خروج له منها و في الإصطلاح حبس النّفس على ما يقتضيه العقل و الشّرع أو عمّا يقتضيان حبسها عنه فالصّبر لفظٌ عامّ و ربّما خولف بين أسمائه بحسب إختلاف مواقعه فأن كان حبس النّفس لمصيبةٍ سمى صبراً لا غير و يضادّه الجزع و قد يعبّر عنه بالصَّبر على المصيبة و أن كان حبس النّفس لطاعةٍ يسمّى بالصَّبر على الطّاعة و أن كان حبس النّفس عن الحرام يسمّى بالصَّبر على المعصية و هو أعلى درجاته ويليه في الدَّرجة الصّبر على الطّاعة و أهون الأقسام الصَّبر على المصيبة و قد مرَّ الكلام فيه غير مرّةٍ و كيف لا شكّ أنّه من أعلى المقامات و أحسن الصّفات بل يستفاد من الأخبار أنّه بمنزلة الرّأس من الجسد للإيمان فكما أنّه لا خير في جسدٍ لا رأس معه لا خير في إيمانٍ لا صبر معه و قد مدح اللّه الصابرين في كثير من الآيات:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**[2].

و أمثالها من الأيات كثيرة جدّاً و لنذكر بعض الأخبار الواردة في الباب.

ما رواه في مشكاة الأنوار عن الصّادق عليه السلام أنّه قال عليه السلام: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يأتي على النّاس زمانٌ لا ينال فيه الملك إلاّ بالقتل و التّجبر، و لا الغنى بالغصب و البخل، ولا المحبّة إلاّ بإستخراج

١- يُوسف = ٩٠ ٢- النّساء = ٢٥

الدّين و إتّباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزّمان فصبر على البغضة و هو يقدر علىٰ المحبّة و صبر على الفقر و هو يقدر على الغنى و صبر على الذُّل و هو يقدر على العز أتاه اللّه ثواب خمسين صديقاً ممّن صدق به إنتهىٰ.

و عن الباقر عليه السلام قال: من صبر و إسترجع و حمد اللّه عند المصيبة فقد رضي بما صنع اللّه و وقع أجره على اللّه و من لم يفعل ذلك جرى عليه القضاء و هو ذميمٌ و أحبط اللّه أجره إنتهى.

و عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عجباً للمؤمن أنّ اللّه عزّ وجلّ لا يقضي به قضاءً إلاّ كان له خيراً، أن إبتلى صبر و أن أعطي شكر إنتهىٰ[١].

و أمّا التّوكل على اللّه فمعناه إيكال الأمر إليه و الأيات و الأخبار في مدحه أيضاً كثيرة فمن الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ عَلَى ٱللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ وَ كَفَىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً**[٦] و غيرها من الأيات.

و أمّا الأخبار:

ما رواه في مشكاة الأنوار عن الباقر عليه السلام قال: النّبي من أحبَّ أن يكون إتقى النّاس فليتوكل على اللّه إنتهى.

١- مشكاة الأنوار ص ٢١ و ٢٢
٢- آل عمران = ١٢٢
٣- الطّلاق = ٣
٤- آل عمران = ١٥٩
٥- النّمل = ٧٩
٦- الأحزاب = ٣

و قال الباقر عليه السلام: من توّكل على اللّه لا يغلب و من إعتصم باللّه لا يهزم إنتهى.

و قال عليه السلام: من إنقطع إلى اللّه كفاه اللّه مؤونته و رزقه من حيث لا يحتسب و من إنقطع إلى الدّنيا وكله إليها إنتهى[1].

وَ كَأَيِّنْ مِنْ دٰآبَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللّٰهُ يَرْزُقُهٰا وَ إِيّٰاكُمْ وَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

و كأين، قيل أصلها، أيّ دخلت عليها كاف التشّبيه و صار فيها معنى، كم، و المعنى و كم من دابّةٍ و التّقدير عند الخليل و سيبويه، كالعدد أي كشيءٍ كثيرٍ من العدد من دابّةٍ قال مجاهد يعني الطّير و البهائم تأكل بأنواعها و لا تحملً شيئاً.

و قال الحسن، تأكل لوقتها و لا تدّخر لغدٍ، و قيل لا تحمل رزقها أي لا تقدر على رزقها.

و قال صاحب الكشّاف أي لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله، **ٱللّٰهُ يَرْزُقُهٰا وَ إِيّٰاكُمْ**، أي لا يرزق تلك الدّواب الضّعاف إلاّ اللّه و لا يرزقكم أيضاً أيّها الأقوياء إلاّ هو و أن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم و كسبها لأنّه لو لم يقدركم و لم يقدّر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدّواب التّي لا تحمل.

أقول معنى الآية واضح لا يحتاج إلى هذه التّكلفات و ذلك لأنّ اللّه تعالى أخبر في هذه الآية أنّ تحصيل الرّزق و الوصول إليه مقدرٌ من عند اللّه فهو تعالى يرزق الضّعيف كما يرزق القويّ و ذلك لأنّ الرّزق قد قسّمه اللّه عادل بينهم فلا يأكل أحد رزق الأخر و لا يمكن لأحدٍ تحصيل الرّزق أكثر ممّا قدّر له و رازق القوّي رازق الضّعيف.

روي أنّ سليمان بن داود عليه السلام كان على ساحل البحر ينتظر بعض جنوده فرأى نملةً تحمل حبّة حنطة و هي تسعى نحو الماء فتّعجب من قصدها الماء

١- مشكاة الأنوار ص ١٧ و ١٨

مع أنّها تهرب منه إن وقعت فيه قهراً فما أن وصلت إلى شاطي البحر حتّى خرجت ضفدع فدنت من النّملة ثمّ فتحت فاها فدخلت النَّملة في فيها بإختيارها فأطبقت الضّفدع فمها عليها و غاصت في البحر فما لبثت إلاّ برهة يسيرة حتّى رجعت الضّفدع فقفزت إلى البّر ثمّ خرجت فاها فخرجت النَّملة من فيها و ليس معها حبَّة الحنطة فلمّا نظر سليمان النَّملة تقدّم إليها و سألها عن شأنها مع الضّفدع و أين ذهبت معها و كيف أرجعتها و أين وضعت حبّة الحنطة فقالت له النّملة إعلم يانبّي اللّه أنّه يوجد في قعر هذا البحر صخرة مجوّفة في وسطها دودة عمياء لا تستطيع الخروج منها لطلب معاشها و قد وكلّني اللّه تعالى برزقها و سخَّرني مع هذا الضّفدع لتأمين معاشها فأنا أحمل طعامها من البّر و هذا الحيوان ينقلني في فمه إليها فإذا وصل بي إلى الصَّخرة وضع فمه على ثقبها ثمّ قذفت بي إلى داخلها فأوصل الحبَّة إلى الدّودة فأضعها في فمها ثمّ أعود إلى هذا الحيوان فيحملني إلى البّر ثانية و هذه قصّتي يانبّي اللّه فدهش نبّي اللّه سليمان عليه السلام من تلك القصّة فزاد في تمجيد اللّه سبحانه ثمّ سألها هل سمعت لها تسبيحاً فقالت نعم سمعتها تردد دائماً هذا الدّعاء يا من لا ينساني في جوف هذه الصَّخرة تحت هذه اللُّجة من رزقه لا تنسى عبادك المؤمنين من رحمتك الواسعة إنتهى.

أقول أنظر الى هذه القصّة فأفهم معنى الآية فأنّ هذه الدوّدة المذكورة في هذه القصّة و هي في جوف الصّخرة العظيمة تحت البحر و هي مع ذلك عمياء كيف يرزقها اللّه تعالى بقدرته الكاملة و لا يغفل عنها و كيف تسبّح اللّه تعالى و تقدّسه أداءً لبعض حقوقه الواجبة فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً.

ثمّ امعن النّظر في حال الإنسان الّذي له عقل و فهم كيف يكفر بأنعم اللّه و يعبد غيره حتّى قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ**.

و أمّا قوله في آخر الآية **وَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ**، فمعناه واضح فأنّ اللّه تعالى سامع الدّعوات و قاضي الحاجات لا يخفى عليه شيئ لا في الأرض و لا في السّماء.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللّٰهُ فَأَنّىٰ يُؤْفَكُونَ

أي لأن سألت هؤلاء الكفّار المنكرين للتّوحيد و النبوّة من خلق السّموات و الأرض و أنشأها و أوجدها من العدم الى الوجود و من سخّر الشَّمس و القمر و ساقهما الى الغرض المختّص قهراً، ليقولّن هؤلاء الكفّار في الجواب، أنّ الخالق لهما و المسخِّر للشّمس و القمر هو اللّه الواحد الأحد، فأنّى يؤفكون، الإفك كلّ مصروفٍ عن وجهه الّذي يحقّ أن يكون عليه و منه قيل للرّياح العادلة من المهّاب مؤتفكات و المعنى أنّى يصرفون عن الحقّ في الإعتقاد الى الباطل و من الصِّدق في المقال الى الكذب و من الجميل في الحقّ الى القبيح، و منه قوله تعالىٰ: **أَجِئْتَنٰا لِتَأْفِكَنٰا عَنْ اٰلِـهَتِنٰا** أي لتعرفنا عن عبادة الأصنام و الأوثان و المقصود أن كان خالق السّموات و الأرض و المسخِّر للشّمس و القمر هو اللّه فلم يعبدون غيره.

ٱللّٰهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاۤءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللّٰهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ

هذا إحتجاج آخر على الكفّار المنكرين و هو أنّ اللّه الّذي خلق السَّموات و الأرض هو الّذي يبسط أي يوسّع الرّزق لمن يشاء، **وَ يَقْدِرُ**، أي يضيق مثل ذلك على حسب المصلحة، **إِنَّ ٱللّٰهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**، أي هو عالمٌ بكلّ شئ فيعلم المصالح و المفاسد فأن كانت المصلحة في بسط الرِّزق يبسطه و أن كانت في الضّيق فكذلك يقدر عليه و ذلك لأنّ ترك المصلحة مفسدة و هي قبيحة لكونها من مصاديق الظّلم و هو تعالى منزّهٌ عنه ففي الآية السّابقة أشار اللّه تعالى الى مقام خالقيّته للسّموات و الأرض و تسخير الشّمس و القمر و في هذه الآية أشار الى مقام رازقيّته لكلّ ما يدُّب على الأرض و منه هؤلاء الكفّار

المنكرين لتوحيده فكأنّه قال أنّ اللّه خلقكم و رزقكم و أمّا الأصنام و الأوثان و غيرها لم يخلقكم ولم يرزقكم فكيف تقولون بألوهيّتها.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

و هذا إحتجاج آخر و الفرق بينه و بين ما مضىٰ هو أنّ الخالقيّة و الرّازقية من المعقولات و أمّا هذا الإحتجاج فهو من المحسوسات فأنّ الماء المنزّل من السّماء الّذي يعبّر عنه بالمطر محسوس لا يحتاج الىٰ التعقّل و التفكّر و كذلك حياة الأرض به فأنّ كلّ فردٍ من أفراد البشر و أن كان من الجهّال العوام الّذين لا يعلمون الحرّ من البرّ، يعلم أنّ حياة الأرض بالمطر و نزول المطر ليس تحت إختيار البشر و ذلك لأنّه يرىٰ بالحسّ و العيان أنّ الأرض تصير مخضّرة بسبب المطر و لا يحتاج الى فكرٍ و تأمّلٍ و أنمّا قال في آخر الأية **قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** فالّذي نفهم من هذا الكلام و اللّه أعلم، هو أنّه تعالىٰ أمَرَ نبيّه بأن يقول: **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ**، أي جنس الحمد أو كلّ الحمد للّه الّذي أقررتم بخالقيّته و راقيّته و أنّه المنزل للمطر لحياة الأرض بعد موتها و بذلك الإقرار قد تمّت الحجّة عليكم يوم القيامة، و في قوله: **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**، كلمة، بل، للإستدراك فكأنّه إستدرك ما قال بأنّ الحجّة قد تمّت عليهم فقال: **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**، أي ليست لهم قوّة التعقّل ليدركوا بها ما أقرّوا به من الإقرار بخالقيّته و رازقيّته و أنّه المنزل للمطر و لم يعلموا أنّ الإنكار بعد الإقرار لا يسمع من أحدٍ و لو كان الإنكار ضمنيّاً لم يوجد في الخارج فكأنّهم من المقرّين واقعاً و أن كانوا من المنكرين ظاهراً و العلم عند اللّه.

وَ مَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأٓخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

قد مرَّ الكلام منّا في الدُّنيا و ماهيّتها و عواقبها و ما يترتّب علىٰ حبّها غير مرّةٍ في تضاعيف الأيات و مع ذلك نتكلّم فيها إجمالاً.

فنقول الدُّنيا بضمّ الدّال و سكون النُّون من الدُّنو و هو القرب و جمع الدُّنيا الدُّني، بضمّ الدّال و فتح النّون نحو الكبرى و الكبر و قيل هي من الدني و هو الخسّه و ذلك لدنائتها و حقارتها و الأشهر هو الأول.

قال في المجمع الدُّنيا من الدُّنو بمعنى القرب لأنّه عاجلٌ قريب، و قال في المنجد، الدُّنيا أيضاً حياة الحاضرة نقيض الأخرة و كيف كان قد ورد في ذمّها ما قد ورد من الأيات و الأخبار و ذلك لما يندرج تحته جميع المهلكات الباطنة من الغِّل و الحسد و الرّياء و النّفاق و التّفاخر و حبّ الدّنيا و حبّ النّساء و كفىٰ في ذمّ الدُّنيا قوله صلّى الله عليه و آله و سلّم: **حُبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئةٍ** و هذا ممّا لا كلام فيه و أنّما الكلام في أنّ الدّنيا ما هي بعد إجماعهم على ذمّها و هذا هو مورد البحث في جميع الأيات و آلآثار فينبغي أوّلاً المعرفة بها ثمّ التكلّم فيها قال بعض العارفين ليست الدّنيا عبارة عن الجاه و المال فقط بل هما حظّان من حظوظها و أنّما الدّنيا عبارة عن حالتك قبل الموت كما أنّ الأخرة عبارة عن حالتك بعد الموت و كلّما لك فيه حظّ قبل الموت فهو دنياك و ليعلم النّاظر أنّ الدّنيا أنّما خلقت للمرور منها إلىٰ الأخرة و أنّها مزرعة الأخرة في حقّ من عرفها إذ يعرف أنّها منزلٌ من منازل السّائرين إلى اللّه و هي كرباطٍ بني علىٰ الطّريق أعدّ فيها العلف و الزّاد و أسباب السَّفر فمن تزَّود لأخرته و إقتصر منها علىٰ قدر الضّرورة من المطعم و الملبس و المنكح و سائر الضّروريات فقد حرث و بذر و سيحصد في الأخرة ما زرع و من إشتغل بلذاتها و حظوظها هلك.

قال اللّه تعالىٰ: **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَ ٱلْبَنِينَ وَ ٱلْقَنَاطِيرِ**[1].

۱- آل عمران = ۱۳

و قد عبَّر العزيز عن حظّك منها بالهوى.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ، فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ**(١)

إنتهىٰ كلامه.

أقول أن أردت الوقوف على حقيقتها و مضّارها و أفاتها فعليك بكتاب نهج البلاغة إذ لم يعرفها أحد بعد رسول اللّه مثل ما عرفها أميرالمؤمنين ولم يتَّكلم في أفاتها و خطراتها و مضّارها كما تكلَّم فيها أميرالمؤمنين عليه‌السلام أحد في الإسلام و قد أشبعنا الكلام في شرحنا المسمّى بمفتاح السّعادة في شرح نهج البلاغة عند شرح كلماته بما لا مزيد علهى فأنّ هذا الشّرح ثمينٌ جدّاً و الحمد للّه علىٰ ما و فَّقنا لإتمامه في مجلّدات كثيرة و أرجو من اللّه تعالى أن يوَّفقني لاءتمام هذا السَّفر الجليل أعني به تفسير كلام اللّه بحقّ محمّدٍ و أله الطّاهرين و لنرجع إلىٰ تفسير ألفاظ الآية فنقول:

كلمة، ما، للنّفي بمعنىٰ ليس وقَد ثَبَت أنّ الإستثناء يفيد الحصر فأن كان من الاثبات يفيد الحصر في النّفي مثل جائني القوم إلاّ زيد حيث أنّه حصر عدم المجيئ في زيد و أن كان من النّفي يفيد الحصر في المثبت مثل ما جائني القوم إلاّ زيدٌ فقد حصر المجيئ في زيد و ما نحن فيه من هذا القبيل و المعنى ليست الدُّنيا إلاّ لهوٌ و لعبٌ فقد حصر الحياة الدّنيا فيهما، و الفرق بين اللَّهو و اللّعب هو أنّ اللّهو ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه و يهمّه يقال لهوت بكذا و لهيت عن كذا إشتغلت عنه بلهوٍ و يعبّر عن كلّ ما به إستمتاعٌ باللّهو و من قال أنّ اللّهو المرأة و الولد فتخصيصٌ لبعض ما هو زينة الحياة الدّنيا التّي جعل لهواً و لعباً، و أمّا اللّعب فهو كلّ فعلٍ صدر عن فاعله من غير قصدٍ يقال لعب، فلام إذا كان فعله غير قاصدٍ به مقصداً صحيحاً إذا عرفت معنى اللّهو و اللَّعب فإعلم أنّ اللّه تعالىٰ حصر الحياة الدّنيا بهما معاً لا بواحدٍ منهما لأنّ أفعال العباد في الدّنيا لا

١- النازعات = ٤١ / ٤٠

تخلو عنهما، أمّا أنّها تشغل الإنسان عمّا يعينه و أمّا أنّها تصدر من الفاعل عن غير قصد مقصداً صحيحاً، و توضيح الكلام إجمالاً.

أنّ الإنسان لم يخلق للدّنيا قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: **خلقتم للبقاء لا للفناء،** أي خلقتم للأخرة لا للدُّنيا الفانية و من المعلوم أنّ كثيراً من الأفعال الصّادرة عن العباد تشغل الإنسان عن الأخرة، أو أنّ الأفعال تصدر من العبد و لا مقصد له لأنّ الدّنيا لا بقاء لها و ما لا بقاء له لا يكون مقصداً صحيحاً فثبت و تحقّق أنّ كلّ فعل صدر من الإنسان في الدّنيا للدُّنيا إمّا من اللّهو و إمّا من اللّعب اللّهم إلاّ أن يكون الفعل لأجل الأخرة فأنّه خارج عن مفاد الآية كأفعال الأنبياء و الأوصياء و الصُّلحاء لأنّها لم تصدر عنهم لأجل الدّنيا و حياتها الفانية بل صدرت لأجل الأخرة و هو واضح.

و لذلك ترى الأيات و الأخبار في ذمّها كثيرة.

قال اللّه تعالىٰ: **ازُيّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيٰا وَ يَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءامَنُوا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيٰآ إِلَّا مَتٰاعُ ٱلْغُرُورِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا وَ غَرَّتْهُمُ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيٰا**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **أَرَضِيتُمْ بِالْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا مِنَ ٱلْاٰخِرَةِ**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيٰوةَ ٱلدُّنْيٰا، وَ ٱلْاٰخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ**[۵]

و الأيات كثيرة.

أمّا الأثار فمنها:

قال الباقر عليه السلام لجابر: ياجابر ما الدّنيا و ما عسىٰ أن يكون الدّنيا،

١- البقرة = ٢١٢
٢- آل عمران = ١٨۵
٣- الأنعام = ٧٠
۴- التّوبة = ٣٨
۵- الأعلىٰ = ١۶/١٧

هل هي إلاّ طعام أكلته أو ثوبٌ لبسته أو إمرأة أصبتها، ياجابر أنّ المؤمنين لم يطمّئنوا إلىٰ الدّنيا ببقائهم فيها و لم يأمنوا قدومهم الأخرة، ياجابر، الأخرة دار قرارٍ و الدّنيا دار فناء و زوالٍ و لكن أهل الدّنيا أهل غفلةٍ إلى أن قال عليه السلام فأنزل الدّنيا كمنزلٍ نزلته ثمّ إرتحلت عنه أو كمالٍ وجدته في منامك فإستيقظت و ليس معك منه شئ أنّي ضربت لك هذا مثلاً لأنّها عند أهل اللُّب و العلم باللّه كفئ الظّلال إلى أخر كلامه عليه السلام(١).

و عن كتاب المحاسن عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: سبحان من لو كانت الدّنيا خيراً كلّها لما إبتلى فيها من أحبَّ سبحان من لو كانت الدّنيات كلّها شرّاً لما نجى منها من أراد إنتهى.

و عنه عليه السلام قال: جعل الشّر كلّه في بيتٍ و جعل مفتاحه حبّ الدّنيا و جعل الخير كلّه في بيتٍ و جعل مفتاحه الزُّهد في الدّنيا إنتهىٰ.

و عنه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم مالي و للدّنيا و ما أنا و الدنيا أنّما مثلي و مثلها كمثل راكبٍ رفعت له شجرة في يوم صيف فنام تحتها ثمّ راح و تركها إنتهىٰ.

و عنه عليه السلام: قال الباقر مثل الحريص علىٰ الدّنيا مثل دودة القز كلّما إزدادت من القّز علىٰ نفسها لغاً كان أبعد لها من الخروج حتّى تموت همّاً إنتهىٰ.

و الأخبار في الباب كثيرة و فيما ذكرناه كفاية(٢).

و لنذكر في ختام البحث ما ذكره صاحب المناقب في الباب.

قال أنّ أميرالمؤمنين مَرَّ علىٰ قذر بمزبلةٍ و قال هذا ما بخل به الباخلون.

١- تحف العقُول ص ٢٨٦

٢- مشكاة الأنوار ص ٢٦٤ و ٢٦٥

و يروي أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام كان في بعض حيطان فدك و في يده مسحاة فهجمت عليه إمرأة من أجمل النّساء فقالت يابن أبي طالب أن تزوّجتني أعينك عن هذه المسحاة و أدلك على خزائن الأرض و يكون لك الملك ما بقيت قال لها فمن أنت حتّى أخطبك من أهلك قالت أنا الدّنيا فقال عليه السلام أرجعي فأطلبي زوجاً غيري فلست من شأني و أقبل على مسحاته و أنشأ:

لقد غاب من غرّته دنياً دنيّة ... و ما هي أن غرّت قروناً بباطلٍ

أتتنا على زيّ العروس بزينةٍ ... و زينتها في مثل تلك الشّمائل

فقلت لها غرّي سواي فإنّني ... عزوفٌ عن الدّنيا و لست بجاهلٍ

و ما أنا و الدّنيا و إنّ محمّداً ... رهينٌ بقفرٍ بين تلك الجنادل

وهبها أتتني بالكنوز و درّها ... و أموال قارون و ملك القبائل

أليس جميعاً للفناء مصيرها ... و يطلب من خزّ انهابالطّوائل

فغرّي سواي إنّني غير راغب ... لما فيك من عزٍّ و ملكٍ و نائل

و قد قنعت نفسي بما قد رزقته ... فشأنك يادنيا و أهل الغوائل

فإنّي أخاف اللّه يوم لقاءه ... و أخشىٰ عذاباً دائماً غير زائلٍ

روي عن عمران بن حصين قال كنت عند النّبي صلى الله عليه و آله و سلم و عليٌّ إلىٰ جنبه إذ قرأ النّبي هذه الأية: **أَمَّنْ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذاٰ دَعاٰهُ وَ يَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاۤءَ ٱلْأَرْضِ**[1] قال فإرتعد عليٌّ فضرب النّبي علىٰ كتفيه و قال مالك ياعلّي قال قرأت يا رسول اللّه هذه الآية فخشيت أن أبتلى بها فأصابني ما رأيت فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: لا يحبّك إلاّ مؤمن و لا يبغضك إلاّ منافق إلى يوم القيامة[2].

١- النمل = ۶١

٢- المناقب لأبي شهر أشوب ج ٢ ص ١٠٢ و ١٠٣

هذا تمام الكلام في قوله: **وَ مَا هٰذِهِ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ** على وجه الإختصار.

أمّا قوله تعالىٰ: **وَ إِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْاٰخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** فالوجه فيه واضح لأنّ الدّار التّي ليس فيها موتٌ هي دار الحيوان واقعاً إلاّ أنّ أكثر النّاس لا يعلمون و لذلك علّق الحكم على الشّرط قال أبو عبيدة الحيوان و الحياة واحد، و يحتمل أن يكون المراد أنّ الحياة الدُّنيا تزول كما يزول اللّهو و اللَّعب و ما كان في معرض الزّوال و الفناء فلا وجود له حقيقةً و أمّا الدّار الأخرة و الحياة فيها لا زوال لها فهي الحياة الواقعيّة التّي لا فناء لها و كيف كان فالمعنى واضح لمن عرف الدّنيا و الأخرة.

فَإِذَا رَكِبُوا فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجّيٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ

الفُلك بضّم الفاء و سكُون اللاّم و الكاف السَّفينة و يستعمل ذلك للواحد و الجمع يذّكر و يؤنّث.

قال اللّه تعالىٰ: **فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ**. فجاء به مذّكراً.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِى ٱلْبَحْرِ**.

قال اللّه تعالىٰ: **حَتّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ**[١].

فجمع، و هذا إحتجاج أخر على الكفّار و ذلك أنّهم إذا ركبوا في السّفينة وهاجت بها الرّياح و خافوا الهلاك، دعوا اللّه، هؤلاء الكفّار و لا يدعون الأصنام و الأوثان لعلمهم بأنّها لا تقدرون على شيءٍ، فلمّا نجّاهم اللّه إلى البّر و زال عنهم خوف الغرق إذا هم يشركون به و يعبدون أصنامهم و أوثانهم وجه الإحتجاج في هذه الآية ظاهر و هو أنّهم في الشّدائد يدعون اللّه و بعده

١- يونس = ٢٢

يعبدون الأصنام و هذا يدلّ على أنّ الأصنام وجودها كالعدم و إذا كان كذلك فما معنى خضوعهم لها.

لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

أي أنّهم يفعلون ما ذكرناه من الإشراك معه في العبادة ليجحدوا نعم اللّه التّي أعطاهم إيّاها، **وَ لِيَتَمَتَّعُوا**، أي ليتلذّذوا في الدّنيا ثمّ قال مهدأً لهم، **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**، في الأخرة جزاء ما يفعلونه من الأفعال من طاعةٍ أو معصيةٍ فأنّ اللّه تعالى يجازيهم بحسبها يوم القيامة و في الآية دلالة على أنّ الكفر بالنّعمة يوجب العذاب كما قال تعالى: **وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**[١].

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَ يُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ

الإستفهام للإنكار أي أنّهم يرون ذلك و يحتمل أن يكون للتّهديد أو التّوبيخ و المراد بالحرم هو مكّة المكّرمة بإعتبار البيت و قد أشار اللّه تعالى إلى ذلك حيث قال:

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا[٢].

قال اللّه تعالى: **فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا**[٣].

قال اللّه تعالى: **وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا**[٤].

و قوله: **وَ يُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ** أي يتناول النّاس من حوالي مكّة بسرعةٍ و تؤخذ أموالهم و منه خطف البصر لسرعته و المقصود تنبيههم على جميل صنع اللّه بهم و سبوغ نعمه عليهم بأن جعلهم في أمنٍ لا يغزوهم أحد و

١- ابراهيم = ٧
٢- البقرة = ١٢٦
٣- آل عمران = ٩٧
٤- إبراهيم = ٣٥

لا يستلب منهم مع كونهم قليلي العدد في مكانٍ لا زرع فيه و هذه الأمور من أعظم النِّعم التّي كفروا بها و هي نعمة لا يقدر على إعطائها غير اللّه تعالى و مع ذلك أنّهم كفروا باللّه و عبدوا الأصنام و أنكروا النّبوّة و فعلوا ما فعلوا من الأفعال القبيحة و إلى هذا المعنى أشار اللّه بقوله: **أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ** و هو الأصنام و بنعمة اللّه يكفرون، و حاصل الكلام في الآية هو أنّ اللّه تعالى جعل الحرم أمناً، و هم ساكنون فيه و دفع شرّ الأعداء عنهم و أعطاهم من النِّعم ما لا يقدر عليه إلاّ اللّه و مع ذلك لم يشكروا له بل عبدوا الأصنام و هذا يدلّ على خبث باطنهم و سوء سريرتهم و لذلك قال:

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللّٰهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ

أمّا إفترائهم على اللّه كذباً، فهو إنكارهم أيات اللّه و أنّهم أضافوا إليه ما لم يقله و لم يأمر به من عبادة الأوثان و غيرها.

و أمّا تكذيبهم الحقّ لمّا جاءهم، فالمراد تكذيبهم الرّسول و القرأن و الأحكام، ثمّ قال تعالىٰ: **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى** أي مكاناً، و مقاماً للكافرين، و الهمزة للإستفهام الإنكاري أي نعم أنّ جهنّم مثوىً لهم حقّاً لأنّهم ظلموا أنفسهم و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد.



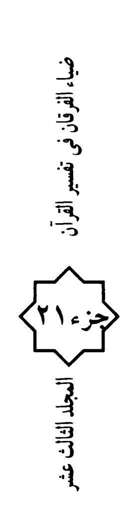
وَ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَ إِنَّ ٱللّٰهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ

ليس المراد بالجهاد في الآية الجهاد مع الكفّار بالسّيف و السّنان فقط بل المراد به الجهاد بمعناه العامّ الشّامل له و لغيره من أقسام الجهاد و في رأسها الجهاد مع النّفس الأمارّة بالسُّوء الّذي يعبّر عنه بالجهاد الأكبر في الأخبار و عن كتاب تهذيب الأحكام عن جعفر بن حفص بن غياث قال سألت أبا عبد اللّه عن الجهاد أسنَّةٌ هو أم فريضة فقال عليه السّلام:

الجهاد على أربعة أقسام (أوجُه) فجهادان فريضة، و جهاد سنّة لا يقام إلاّ مع فرض، و جهاد سنّة، فأمّا أحد الفرضين مجاهدة الرّجل نفسه عن معاصي اللّه و هو من أعظم الجهاد، و مجاهدة الّذين يلونكم من الكفّار فرض، و أمّا الجهاد الّذي هو سنّة لا يقام إلاّ مع فرض فأنّ مجاهدة العدّو فرض على جميع الأمّة ولو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب و هذا هو من عذاب الأمّة و هو سنّة على الإمام وحده أن يأتي العدّو مع الأمّة فيجاهدهم و أمّا الجهاد الّذي هو سنّة فكلّ سنّةٍ أقامها الرّجل و جاهد في إقامتها و بلوغها فالعمل و السّعي فيها من أفضل الأعمال لأنّها إحياء سنّةٍ إنتهیٰ[1].

أقول و قد مرَّ البحث في الجهاد و بيّنا هناك أقسام الجهاد من الجهاد بالسّيف و الجهاد بالمال و الجهاد بالقلم و هكذا في رأسها الجهاد مع النّفس، و أمّا قوله تعالىٰ: **لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**، فالسُّبل بضّم السّين واحدها سبيل و هو الطّريق و حيث أضيف إلىٰ اللّه فهو طريق الحقّ و أن أضيف إلى الشّيطان فهو طريق الباطل فمعنى الكلام أنّا نرشدهم إلى طريق الحقّ، و إنّ اللّه لمع المحسنين، بمنزلة التّعليل لقوله: **لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**، كأنّه قيل و لم ذلك فقال تعالى: **إِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ**، و أيُّ إحسانٍ أفضل و أعظم من الجهاد في سبيل الحقّ إلاّ أنّ الجهاد في سبيل الحقّ مشكلٌ جدّاً.

■

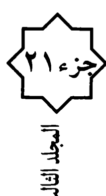


سُورَةُ ٱلرُّومِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَ هُمْ
مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلّٰهِ
ٱلْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللّٰهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَآءُ وَ هُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللّٰهِ لَا يُخْلِفُ ٱللّٰهُ وَعْدَهُ
وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ
ظٰهِرًا مِنَ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَ هُمْ عَنِ ٱلْاٰخِرَةِ هُمْ
غٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيٓ أَنْفُسِهِمْ مَا
خَلَقَ ٱللّٰهُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا
بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ
بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي
ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَ
عَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنٰتِ فَمَا كَانَ ٱللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لٰكِنْ كَانُوٓا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ

أَسَآؤُا ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَنْ كَذَّبُوا بِاٰيَاتِ ٱللّٰهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللّٰهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَ يَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا وَ كَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَ يَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَ أَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِاٰيَاتِنَا وَ لِقَآءِ ٱلْاٰخِرَةِ فَأُولٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ ٱللّٰهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَ مِنْ اٰيَاتِهِٓ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَ مِنْ اٰيَاتِهِٓ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَ مِنْ اٰيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَ مِنْ اٰيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهَارِ وَ ٱبْتِغَآؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِٓ



إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَ مِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًاوَ يُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَ ٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

◄ اللّغة

بِضْعِ: بكسر الباء و سكون الضّاد و العَين، و قيل بفتح الباء هو في العدد ما بين الثّلاث الىٰ التّسع و قيل الىٰ العشرة.

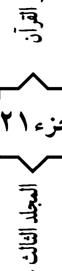
أَثَارُوا ٱلْأَرْضَ: أي حرثوها للزراعة و العمارة.

يُبْلِسُ: بضّم الياء من أبلس يبلس إبلاساً و الإبلاس الحزن المعترض من شدّة اليأس و منه إشتقّ إبليس على ما قيل.

يُحْبَرُونَ: الحبرة المسرّة.

تَنْتَشِرُونَ: الإنتشار التفرُّق.

وَ ٱبْتِغَآؤُ كُمْ: الابتغاء الطّلب.



◄ الإعراب

مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ المصدر مضاف الى المفعول فِي بِضْعِ يتعلّق، بيغلبون، مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ مبنيّان علىٰ الضّم في المشهور يَوْمَئِذٍ منصوب، بيفرح، وَعْدَ ٱللَّهِ هو مصدر مؤكّد أي وعد اللّه وعداً ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَآؤُا ٱلسُّوٓأىٰ يقرأ بالرّفع و النّصب فمن رفعه جعله إسم كان و الخبر، السّوأى و من نصبه جعله خبر كان مقدماً على اسمه و هو الّذين و قراءة النصب اولى لانّ فيها

مراعاة اللفظ من حيث التذكر و التانيث. أَنْ كَذَّبُوا في موضع نصب مفعولاً له أو في موضع جرٍّ بتقدير الجّار، و السّوأى، فعلى تأنيث الأسوء و هي صفة لمصدرٍ محذوف و التَّقدير أساؤا الإسائة السّوأى حِينَ تُمْسُونَ الجمهور على الإضافة عَشِيًّا معطوف على حينٍ مِنَ ٱلْأَرْضِ فيه وجهان:

أحدهما: هو صفة لدعوة.

الثّاني: أن يكون متعلّقاً بمحذوف تقديره خرجتم من الأرض و دلَّ على المحذوف، إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ.

◄ التَّفسير

الٓمٓ

قد مرَّ الكلام في الحروف المقَّطعة و قلنا أنّه لا يعلمها إلاّ اللّه.

غُلِبَتِ ٱلرُّومُ

المشهور علىٰ ضّم الغين بصيغة المجهول و عليه المصاحف و قرأ أبو سعيد بفتح العين بصيغة المعلوم و هو مردودٌ عند جميع المفسّرين قيل في سبب نزول الآية أنّ كسرى بعث جيشاً الى الرُّوم و أمرّ عليهم رجلاً و أختلفوا في إسمه فسار إليهم بأهل فارس و ظفر و قتل و ضرب و قطع زيتونهم و كان إلتقاءهم بأذرعات و بصرىٰ و كان قد بعث قيصر رجلاً أميراً علىٰ الرُّوم و قال مجاهد إلتقت بالجزيرة و قال السّدي بأرض الأردن و فلسطين و شقَّ ذلك على المسلمين لكونهم مع الرُّوم أهل الكتاب و فرح بذلك المشركون لكونهم مع المجوس و هم ليسوا بأهل كتاب و أخبر رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّ الرُّوم سيغلبون في بضع سنين و نزلت أوائل الرُّوم فصاح أبوبكر بها في نواحي مكّة، **الٓمٓ، غُلِبَتِ ٱلرُّومُ، فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ** فقال ناسٌ من مشركين قريش زعم

صاحبك أنّ الرُّوم ستغلب القصّة و إنّما لم نذكرها لعدم الإعتماد على ما ذكروه في كيفّيتها و لا دليل على صحّتها و الّذي دلّ عليه القرآن هو أنّ الرُّوم صارت مغلوبة في بادي الأمر.

فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ

المراد بأدنىٰ الأرض و هو أقربها الى فارس، أذرعات و بصرىٰ و هي ما بين بلاد العرب و الشّام على ما قيل و قال بعضهم المراد به الأردن و فلسطين.

قال إبن عطّية أن كانت الواقعة بأذرعات فهي من أدنىٰ الأرض بالقياس الى مكّة و أن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس الى أرض كسرىٰ و أن كانت بالأردن فهي أدنى الى أرض الرُّوم.

و قوله: **وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ** تقديره من بعد غلبتهم، فحذف الهاء للإضافة كما قال و أقام الصّلاة، و التّقدير و إقامة الصّلاة و المعنى، **وَ هُمْ**، أي الرُّوم من بعد غلبتهم أي غلبة فارس عليهم سيغلبون، الغلب و الغلبة مصدر ان مثل الحلب و الحلبة، و معنىٰ الغلبة الإستيلاء و حاصل المعنى أنّ الرُّوم أي أهلها بعد كونهم مغلوبين في بادئ الأمر سيغلبون في المستقبل ثمّ أوضح اللّه ذلك بقوله

فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ

قلنا في شرح اللّغات أنّ **البِضع** بكسر الباء ما بين ثلاث سنين إلى عشر، و أمّا ما زاد على العشرة لا يقال له بضع، فكان كما أخبر اللّه تعالى و كان في ذلك معجزة ظاهرة للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و قيل أنّ جماعة من الصّحابة راهنوا أبَي بن أبىخلف و قيل راهنوا أباسفيان أن لم يصّح الخبر و وافقوهم على أربع سنين فلمّا أخبروا النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال زيد و هم في الخطر و إستزيدوا في الأجل، ففعلوا فغلبت الرُّوم لفارس قبل المدّة و قد بيّنا سبب ذلك في أوّل السُّورة.

و قوله: **لِلّٰهِ ٱلْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ** إشارة إلىٰ أنّ الأمر بيد اللّه تعالىٰ في المغلوبيّة و الغالبيّة، **وَ يَوْمَئِذٍ** أي يوم غلبة الرُّوم على فارس، في الأجل المضروب يفرح المؤمنون كما فرح المشركون في غلبة فارس على الرُّوم، و أنّما قال يفرح المؤمنون لأنّ الرُّوم أهل كتاب فكان هذا أي ما أخبر القرأن به من غلبة الرُّوم في الأجل المقرّر من علم الغيب الّذي أخبر اللّه عزّ و جلّ به في كتابه، و الحقّ أنّ فرحهم أنّما كان لإنجاز وعد اللّه تعالى إذ كان فيه دليل على النّبوّة لأنّه تعالى أخبر بما يكون في بضع سنين فكان فيه.

بِنَصْرِ ٱللّٰهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشٰآءُ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ

الباء للسَّبب أي بسبب نصر اللّه و المعنىٰ انّ النَّصر من عند اللّه لمن يشاء من عباده و هو العزيز في إنتقامه من أعدائه، الرّحيم لمن اناب اليه و قيل في معنى الآية و بنصر اللّه أي الرُّوم على فارس أو المسلمين على عدّوهم أو في أن صدق ما قال الرّسول من أنّ الرُّوم ستغلب فارس أو في أن يسلّط الظّالمين بعضهم على بعض حتّى تفانوا أو تناكصوا، و كيف كان لا شكّ انّ النّصر من اللّه في جميع الأمور و جميع الحالات فأنّ اللّه يقدّر و لعبد يدَّبر.

وَعْدَ ٱللّٰهِ لٰا يُخْلِفُ ٱللّٰهُ وَعْدَهُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّٰاسِ لٰا يَعْلَمُونَ

و إنتصب وعد اللّه على أنّه مصدر مؤكّد لمضمون الجملة الّتي تقدّمت و هو قوله: **سَيَغْلِبُونَ** و قوله: **يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ** و قيل تقدير الكلام أنّ ما ذكره اللّه تعالىٰ من أنّ الرُّوم ستغلب فارس في ما بعد، وعدٌ وعده اللّه لا يخلف اللّه وعده و الحاصل أنّ اللّه أخبر في هذه الآية انّ الّذي وعده لا خلاف فيه ففي الآية إشارة إلى عدم جواز الخلف في الوعد و ذلك لأنّه لا يخلف وعده و قد وردت به أيات.



قال اللّه تعالىٰ: **رَبَّنآ إِنَّكَ جامِعُ ٱلنّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فيهِ إِنَّ ٱللّـهَ لا يُخْلِفُ ٱلْميعادَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ ٱللّٰهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللّٰهُ عَهْدَهُ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **حَتّٰى يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ لا يُخْلِفُ ٱلْميعادَ**[٣] و غيرها من الأيات.

و الوجه فيه أنّ خلف الوعد قبيح عقلاً و اللّه تعالى منزّهٌ عنه و لذلك أمر عباده بعدم الخلف في الوعد و العهد و الميثاق.

فقال في وصف المؤمنين: **وَ ٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا**[٤].

و قال اللّه: **وَ ٱلَّذينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ**[٥].

و قد وردت به الأخبار أيضاً كما هو واضح.

و أمّا قوله: **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّاسِ لا يَعْلَمُونَ** أي لا يعلمون أنّ اللّه لا يخلف وعده، و لا يعلمون قبحه.

يَعْلَمُونَ ظاهِرًا مِنَ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ ٱلْاٰخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ

قال صاحب الكشّاف قوله: **ويَعْلَمُونَ** بدل من قوله لا يعلمون و في هذا الإبدال من النّكتة أنّه أبدله منه و جعله حيث يقوم مقامه و يسُد مسدّه ليعلمك أنّه لا فرق بين عدم العلم الّذي هو الجهل و بين وجود العلم الّذي لا يتجاوز الدّنيا إنتهىٰ.

أقول لا نفهم من كلامه شيئاً يعتدّ به بل نقول أنّه غير مستقيم و البدليّة لا معنىٰ لها لتعدّد الموضوع في الأيتين، فأنّ قوله: **لا يَعْلَمُونَ** معناه لا يعلمون أنّ اللّه لا يخلف وعده، أو لا يعلمون قبح الخلف و قوله يعلمون معناه يعلمون

١- آل عمران = ٩
٢- البقرة = ٨٠
٣- الرّعد = ٣١
٤- البقرة = ١٧٧
٥- المعارج = ٣٢

ظاهراً من الحياة الدّنيا و هو شئ أخر و بعبارةٍ أخرىٰ جهلهم تعلّق بقبح الخلف من اللّه و علمهم تعلّق بالدّنيا و زخارفهم و أيّ ربطٍ بين الموضوعين حتّى يقال أنّه يقوم مقامه و يسدّ مسدّه أو يقال عدم العلم يعني الجهل و وجود العلم يعني كذا وكذا ثمّ أيّة نكتة في هذا الإستنباط الّذي لا يساعده العقل و أيّة منافاةٍ بين العلم بشئٍ هو من المحسوسات و عدم العلم بشئٍ هو من المعقولات و حاصل الكلام أنّ الأيتين في محلّهما و كلّ واحدةٍ منهما لا ربط لها بالأخر من حيث المعنى فالقول بالبدليّة لا معنى له إذا عرفت هذا فلنرجع إلى معنىٰ الآية و نقول:

يعلمون أي الكفّار ظاهراً من الحياة الدّنيا و لا يعلمون أنّ هذه الحياة فانية لا دوام لها و الحياة الباقية التّي لا فناء لها هي حياة الأخرة فللحياة ظاهرٌ و باطن ظاهرها الفناء و باطنها البقاء و أمّا قول صاحب الكشّاف يفيد أنّ للدنيا ظاهرا و باطناً، أيضاً كلام بلا محصّل فأنّ الدّنيا لا باطن لها و الذّي يمكن أن يقال له ظاهراً و باطن هو الحياة من حيث الفناء و البقاء فظاهرها الفناء كما هو محسوس و باطنها البقاء و هو الحياة التّي لا فناء لها أعني بها حياة الأخرة فمن النّاس من يعلم ظاهرها و يقول ليس بعدها شئ و منهم من يعلم باطنها و يعتقد بالأخرة و حياتها و قوله: **وَ هُمْ عَنِ ٱلْاٰخِرَةِ هُمْ غٰافِلُونَ**، معناه حصرهم الحياة بالحياة الدُّنيوية التّي لا بقاء لها و غفلتهم عن الأخرة و حياتها الدّائمة التّي لا فناء لها أبداً هذا ما فهمناه من الآية الشّريفة و اللّه تعالى أعلَم.

أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيٓ أَنْفُسِهِمْ مٰا خَلَقَ ٱللّٰهُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰآ إِلّٰا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنّٰاسِ بِلِقٰآءِ رَبِّهِمْ لَكٰافِرُونَ

الإستفهام للتّوبيخ و الفكرة قوّة مطرقة للعلم إلى المعلوم و في إصطلاح الفلاسفة هي ترتيب أمور معلومة لتحصيل المجهول، و التّفكُّر جولان تلك القوّة بحسب نظر العقل و ذلك للإنسان دون الحيوان و لا يقال إلاّ فيما يمكن

أن يحصل له صورة في القلب و لهذا روي، **تَفَكَّرُوا في ألاء اللّه و لا تُفكّروا في اللّه** إذ كان اللّه منزّهاً أن يوصف بصورةٍ، و الأنفس جمع نفس و المراد به في المقام القلب لا الرُّوح فأنّ النّفس كما تطلق على الرُّوح تطلق على القلب أيضاً و معنى الآية أو لم يتفكّروا هؤلاء الكفّار في قلوبهم ما خلق اللّه السّموات و الأرض و ما بينهما إلاّ بالحقّ، كلمة، ما، في ما خلق اللّه للنّفي و في ما بينهما موصولة أي ليس خلق السموات و الأرض و الّذي بينهما من الموجودات إلاّ بالحقّ دون الباطل أي لم يخلقهما و ما بينهما عبثاً فأنّ العبث من مصاديق اللّهو و اللّعب و اللّه تعالى منزّهٌ عنهما و ضدّ الباطل هو الحقّ و قد مرَّ معنىٰ الحقّ غير مرّةٍ و قوله تعالىٰ: **وَ أَجَلٍ مُسَمًّى**، أي ما خلقهما باطلاً و عبثاً بغير غرضٍ صحيح و حكمة بالغة و لا لتبقى خالدة، فأن الأجل المدّة المضروبة و في هذا الكلام إشارة بل صراحة بأنّ السّموات و الأرض و ما بينهما من الموجودات من الجنّ و الإنس و الملائكة و الحيوان و النّبات و الجماد لها أجل و مدّة معيّنة في علم اللّه تعالى لا يعلمه إلاّ هو و ذلك لقوله تعالى: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَ ٱلْإِكْرَامِ**[١] ففي الآية إعلام بفناء المخلوق، **وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ**، أي بلقاء ثواب اللّه و عقابه لكافرون، أي ينكرون صحّة ذلك و لا يعترفون به و يظهر من كلام صاحب الكشّاف أنّ لقاء ربّهم الأجل المسمّىٰ أي أنّهم ينكرون الأجل المسمّىٰ، و لقائل أن يقول أن كان المراد باللّقاء هو الأجل المسمّىٰ، فذكره عبث و زيادة في الآية فلو قال و أنّ كثيراً من النّاس به لكافرون، لكان أولىٰ و أخصر مع إفادة المعنى و حيث أنّه تعالى ذكر اللّقاء يستفاد منه أنّه غير الأجل المسمّىٰ و هذا هو الحقّ فأنّ الأجل المسمّىٰ عبارة عن المدّة المضروبة للعمر و الحياة.

١- الرّحمٰن = ٢٧ / ٢٦

و أمّا اللّقاء فهو لقاء الثّواب و العقاب في الأخرة و لا ملازمة بينهما حتّى يقال هو هو ألا ترىٰ أنّ الكافر بل كلّ عاقلٍ لا ينكر الأجل و لا شكّ أنّ المخلوق مصيره الى الموت و الفناء، و أمّا لقاء الرّب أعني به ثوابه و عقابه في الأخرة لا يقول به إلاّ المؤمن المعتقد بالأخرة و القيامة فكلّ من إعتقد بالقيامة إعتقد بالأجل المسّمىٰ و لا عكس فكيف يقال أنّ المراد باللّقاء الأجل المسمّىٰ بل نقول أنّ الآية تدلّ علىٰ أنّ المتفكّرين يعتقدون بالأجل المسمّىٰ و كثيراً منهم كافرون بالحساب و العقاب و الثّواب و لا يبعد إستفادة هذا المعنىٰ من الآية.

أَوَ لَمْ يَسيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كٰانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثٰارُوا ٱلْأَرْضَ وَ عَمَرُوهآ أَكْثَرَ مِمّٰا عَمَرُوهٰا وَ جٰآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا كٰانَ ٱللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

أشار اللّه تعالى في الآية السّابقة الى التفكُّر و في هذه الآية إلى السير في الأرض، لنكتةٍ دقيقةٍ خفيّة و هي أنّ الإنسان قد يحصل له العلم من طريق العقل و الفكر و قد يحصل له العلم من طريق المحسوسات و من ليس كذلك فهو ليس بإنسان واقعاً بل هو أضلّ من الحيوان أيضاً لأنّ الحيوان لا عقل له و لكن الحسّ موجود فيه فأنّه يبصر و يسمع و يذوق و يشمّ و يلمس، فهو يعتني بحسّه حتّى الإمكان و لا يخالفه و إن لم يحصل له علم بذلك و إذا كان الإنسان كذلك فما الفرق بينه و بين الحيوان بل هو أضلّ لأنّ عدم حصول العلم بسبب الحسّ عن العاقل أقبح من عدمه من غير العاقل و هو الحيوان فهو أضلّ منه إذا عرفت هذا.

فنقول أنّ اللّه تعالى دعاهم الى التّفكر أوّلاً و الى السيّر في الأرض ثانياً فكأنّه قال إن لم يتفكّروا فى صحّة ما قلنا أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف

كان عاقبة الّذين من قبلهم من الأمم السّالفة الّذين كانوا أشدّ منهم قوّةً و أثاروا الأرض و عمروها.

أكثر ممّا عمروها و جاءتهم رسلنا بالبيّنات فلم يقبلوها، و قد ثبت أنّ حكم الأمثال واحد، فما كان اللّه ليظلمهم، لأنّه منزّه عنه و لكن كانوا هؤلاء الكفّار أنفسهم يظلمون، حيث أنّهم لم يتّفكروا في خلق السّموات و الأرض و لم يعتبروا عمّا نزل على الأمم السّالفة من العذاب بعد تماميّة الحجّة عليهم قبل العذاب.

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَآؤُا ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا بِاٰيَاتِ ٱللّٰهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ

سوایٰ، علی وزن فعلیٰ، تأنيث أسوء، و السُّوء بضمّ السّين كلّ ما يغمّ الإنسان من الأمور الدنيوية و الأخرويّة و من الأحوال النّفسية و الدّينية و الخارجة من فوات مالٍ و جاهٍ و فقد حميم.

قال اللّه تعالیٰ: **إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَ ٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ**(١).

قال اللّه تعالیٰ: **لِيُكَفِّرَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ**(٢).

قال اللّه تعالیٰ: **وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ**(٣).

و عبرّ عن كلّ ما يقبح بالسُّوآي و لذلك قول بالحسنیٰ كما:

قال اللّه تعالیٰ: **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا**(٤).

قال اللّه تعالیٰ: **وَ يَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**(٥).

و السّيئة الفعلة القبيحة و هي ضدّ الحسنة إذا عرفت هذا فمعنى الآية أنّ

١- النّمل = ٢٧
٢- الزّمر = ٣٥
٣- فُصّلت = ٢٧
٤- يُونس = ٢٦
٥- النّجم = ٣١

عاقبة المسيئين و هم الّذين يفعلون القبائح و الأفعال السّيئة في الدّنيا، أن كذبوا بأيات اللّه و إستهزؤوا بها و يستفاد من الآية أنّ تكذيب الأيات و الإستهزاء بها من ثمرات المعاصي و هو كذلك ألا ترى أنّ الزّاني أو شارب الخمر أو أكل الرّبا و غير ذلك من المعاصي إذا قيل لهم لا تفعلوا هذا فانّ اللّه تعالى حرَّمه و أعدَّ لفاعله عذاباً أليماً، فجوابهم تكذيب الأيات و الإستهزاء بها و لا سيّما في زماننا هذا فأنّ المنكرات قد شاعت و كثرت بين النّاس بحيث عدّ المعروف بينهم منكراً و المنكر معروفاً و السِّر فيه أنّ العبد إذا فعل منكراً قبيحاً و لم يتب بعده و إستمرّ عليه صار قلبه كثيفاً خشناً غليظاً لا رقّة فيه و لازم ذلك إنكار الأيات و الإستهزاء بها لأنّ قبح الفعل قد زال عنه بسبب الإستمرار على المعصية فلا أثر للموعظة فيه أصلاً كما وردت به الأثار.

قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: في الإنسان مضغة إذا هي سلمت و صحّت سلم بها سائر الجسد و إذا هي سقمت سقم بها سائر الجسد وفسد وهي القلب إنتهى.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: من علامات الشّقاء جمود العين و قسوة القلب و شدّة الحرص في طلب الرّزق و الإصرار على الذّنب إنتهى.

و قال الباقر عليه السلام: ما من شيءٍ أفسد للقلب من الخطيئة أنّ القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتّىٰ تغلب عليه فيصير أسفله أعلاه و أعلاه أسفله إنتهى.

و قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنّ المرء إذا أذنب كانت نكتةٌ سوداء في قلبه فأن تاب نزع فإستغفر صقل قلبه منها و إن زاد فذلك الرَّين الّذي ذكره اللّه في كتابه (كلّا بل ران علىٰ قلوبهم ما كانوا يكسبون) إنتهى.

و قال أميرالمؤمنين عليه السلام: ما جفّت الدُّموع إلاّ لقسوة القلب و ما قست القلوب إلاّ لكثرة الذّنوب إنتهى.

و الأحاديث في الباب كثيرة و من المعلوم أنّ قسوة القلب بسبب الذّنوب و لازم قسوة القلب إنكار الأيات و التّجريّ في المعاصي و هو واضح.

ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

البدء تقديم الشّئ على غيره ضرباً من التّقديم قال اللّه تعالى: **وَ بَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ**[١] مبدأ الشّئ هو الّذي منه يتَّركب أو منه يكون فالحروف مبدأ الكلام و الخشب مبدأ الباب و السَّرير و النّواة مبدأ النّخل و هكذا، و معنى الآية أنّ اللّه تعالى يبدؤا الخلق و يوجده ثمّ بعد ذلك يعيده في البعث ثمّ بعد ذلك يرجع الخلق إليه يوم القيامة للحساب، ففي الآية أشار اللّه تعالىٰ إلى أمور.

أوّلها: أنّه تعالى هو الّذي أبدأ الخلق و أوجده بعد أن لم يكن و فيه إشارة إلى مقام خالقيّته.

ثانيها: أنّ اللّه كما بدأ الخلق يعيده أيضاً أي يحييه بعد الموت و فيه إشارة إلى أنّه تعالى هو الباعث من في القبور.

ثالثها: أنّ الخلق يرجع إليه يوم القيامة فأنّ كلّ شئ يرجع إلى أصله **إِنَّا لِلّٰهِ وَ إِنَّآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ**، فقوله: **يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ** إشارة إلى المبدء و قوله: **ثُمَّ يُعِيدُهُۥ** إشارة إلى البعث و قوله: **ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**، إشارة إلى أنّه المنتهىٰ و إليه المأب.

وَ يَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ



المراد بالسّاعة القيامة و هو الّذي أشار إليه في الآية السّابقة بقوله: **إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** قيل معناه تنقطع يوم القيامة حجّجهم فانّ الإبلاس التَّحيّر عند لزوم الحجّة و أنّما المجرم يبلس فيه لظهور جلائل أيات الأخرة التّي تقع عندها على الضّرورة فيتّحير أعظم الحيرة.

١- السجده = ٧

و قال بعضهم الإبلاس اليأس و لذلك سمّي إبليس إبليساً ليأسه يوم القيامة و كيف كان لا شكّ أنّ الأمال تنقطع فيه كما قال تعالى:

وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَٰؤُا وَ كَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ

و يحتمل أن يكون المراد بالشّفعاء الأوثان و الأصنام التّي كانوا يعبدونها في الدّنيا و جعلوها شركاء للّه و كانوا يزعمون أنّها تشفع لهم، و قيل شركاؤهم لأنّهم كانوا يجعلون لها نصيباً في أموالهم.

و قال مقاتل المراد بالشّركاء الملائكة و الجامع بين جميع الأقوال هو انّ المراد بهم كلّ معبودٍ غير اللّه سواء كان من الملائكة أم الأصنام و الأوثان و غيرها.

وَ يَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ

قيل في معناه يوم تقوم السّاعة يعني القيامة يومئذٍ يتفرّقون أي يتميّزون، بتميّز المؤمنين من الكافرين و علىٰ هذا فالتفرّق بمعنى التميُّز، و قيل معناه لا يلتفت واحدٌ منهم على حاجة غيره و الحقّ أنّ المراد بالتّفرق معناه اللّغوي و هو التشتّت و ذلك لأنّ يوم القيامة يومٌ يفرّ المرء من أخيه و صاحبته و بنيه و ليس له مقصد إلاّ خلاص نفسه فهو لا يتوجّه إلى غيره و لا نعني بالتّفرق إلاّ هذا و في ذلك نهاية الحثّ و الإستعداد وا لتّأهب لذلك المقام و قطع الرّجاء عمّا سوى اللّه تعالىٰ.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ

أي يسرّون سروراً تبين أثره عليهم و منه الحبرة و هي المسرّة، وعد اللّه تعالى المؤمنين الّذين أمنوا بقلوبهم و عملوا الصّالحات بأنّهم في روضة من رياض الجنّة و هُم مسرورن مبتهجون بذلك ثمّ أوعد الكفّار بقوله:

وَ أَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا وَ لِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ

أي محضرون فيها قيل لفظة الإحضار لا تستعمل إلاّ فيما يكرهه الإنسان و منه حضور الوفاة، و يقال أحضر فلان إلى مجلس السّلطان إذا جيئ به بما لا يؤثره، و هذا بخلاف الحضور فأنّ الإختيار مأخوذٌ فيه بل لا يصدق الحضور إلاّ به و في هاتين الأيتين ذكر اللّه تعالى ما ينتهي إليه الإيمان و الكفر و الطّاعة و العصيان و السّعادة و الشّقاوة و بالجملة لابدّ من يوم ترّد الودائع، و أنّ إلى ربّك المنتهى.

روي في البحار بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال ما خلق اللّه خلقاً إلاّ جعل له في الجنّة منزلاً و في النّار منزلاً فإذا سكن أهل الجنّة الجنّة و أهل النّار النّار نادى منادٍ يا أهل الجنّة أشرفوا فيشرفون على النّار و ترفع لهم منازلهم في النّار ثمّ يقال لهم هذه منازلكم الّتي لو عصيتم ربّكم دخلتموها قال عليه السلام فلو أنّ أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنّة في ذلك اليوم فرحاً لما صرف عنهم العذاب ثمّ ينادون يامعشر أهل النّار أرفعوا رؤسكم فأنظروا إلى منازلكم في الجنّة وما فيها من النّعيم فيقال لهم هذه منازلكم الّتي لو أطعتم ربّكم دخلتموها قال عليه السلام فلو أنّ أحداً مات حزناً لمات أهل النّار ذلك اليوم حزناً فيورث هؤلاء منازل هؤلاء و هؤلاء منازل هؤلاء و ذلك قول اللّه أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَارِثُونَ، ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[١] إنتهى[٢].

أقول هذا الحديث يكفي في الباب.

١- المؤمنون = ١٢ / ١١

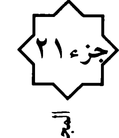
٢- ج ٣ ط كمباني ص ٣٢٧

فَسُبْحٰانَ ٱللّٰهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ

السَّبح المرّ السّريع في الماء و في الهواء يقال سبحاً و سباحةً و سبحان أصله مصدر نحو غفران قيل هو اخبار في معنىٰ الأمر بالتَّنزيه للّه تعالى و الثّناء عليه في هذه الاوقات فيكون سبحان مصدراً بمعنى الأمر أي سبّحوا اللّه في هذه الأوقات يعني المساء و الصُّبح سئل إبن عبّاس هل تجد الصّلوات الخمس في القرأن فقال نعم فقرأ هذه الأية، و قال تمسون صلاة المغرب و العشاء و تصبحون صلاة الفجر و عشيّاً صلاة العصر و حين تظهرون صلاة الظُّهر إنتهى.

و معنى التّسبيح التّنزيّه و قد يكون بمعنى التّمجيد نحو **سُبْحٰانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنٰا**[١]، و قد يكون بمعنى التَّعجب و التّعظيم لما إشتمل الكلام عليه نحو **سُبْحٰانَ ٱلَّذِي أَسْرٰى بِعَبْدِهِ**[٢].

و قوله: **سُبْحٰانَكَ هٰذٰا بُهْتٰانٌ عَظِيمٌ**[٣] هو التّعجب ممّن يقول ذلك ثمّ أنّ التّسبيح قد يكون بلسان الحال فأنّ كلّ ذرّةٍ من الموجودات تنادي بلسان حالها علىٰ وجود صانع حكيم واجبٌ لذاته، و قد يكون بالمقال و هو لذوي العقول و كيف كان فمعنى الآية سبّحوا اللّه مساءً و صبحاً و لعلَّ المراد به الصّلاة و إلاّ فالتَّسبيح حسن على كلّ حالٍ و لا خصوصيّة للصُّبح و المساء فيه فأنّ جميع الأزمنة و الاوقات بالنّسبة إليه على حدٍّ سواء.



وَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ

قد مضى الكلام في الحمد و المدح و الشُّكر في تفسير قوله: **اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ**، بما لا مزيد عليه و قلنا هناك أنّ جميع المحامد ترجع إليه و اللاّم فيه أمّا للجنس أو الإستغراق و المأل فيهما واحد، و قوله: **وَ لَهُ ٱلْحَمْدُ**، بتقديم

١- الزخرف = ١٣
٢- الاسراء = ١
٣- النور = ١٦

الظّرف لإفادة الحصر أي أنّ الحمد له وحده و هو كذلك لأنّ النِّعم كلّها من اللّه تعالىٰ ولذلك قال وله الحمد ولم يقل الحمد له إذا لا حصر فيه و قوله: **فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** إشارة إلى أنّ الحمد لا يختصّ بمن في الأرض فقط فأنّ الملائكة أيضاً يحمدون اللّه و بالجملة كلّ موجودٍ في الأرض و السّماء يحمده و من المعلوم أنّ الحمد في كلّ موجودٍ بحسبه ألا ترى أنّ اللّه يقول:

وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ(١).

و ذلك لأنّ اللّه تعالى خلق الأشياء و أوجدهم من العدم و أيّة نعمةٍ أشرف و أفضل من نعمة الوجود و هي تسري الى جميع الموجودات بلسان الحال أو بلسان المقال.

و قوله: **وَ عَشِيًّا**، أي في العشي، و قوله: **وَ حِينَ تُظْهِرُونَ**، أي حين تدخلون في الظّهيرة و هي نصف النّهار وتخصيص الحمد بهذه الأوقات قد مرَّ الكلام فيه.

و قلنا لعلّ الوجه فيه هو أنّها أوقات الصّلوة و إلاّ فالحمد له تعالى في جميع الأوقات واجبٌ وجوباً عقليّاً.

يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ

إعلم أنّ الموت و الحياة يستعملان على وجوه:

الأوّل: للقوّة النّامية الموجودة في النبات و الحيوان و منه قيل نباتٌ حيّ و حيوان حيّ أو ميّت.

الثّانى: للقوّة الحاّسة (الحسّاسة) و به سمّي الحيوان حيواناً.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَ لَا ٱلْأَمْوٰتُ**(٢).

١- الاسراء = ٤٤ ٢- فاطر = ٢٢

الثّالث: للقوّة العاقلة العاملة.

الرّابع: عبارة عن إرتفاع الغمّ.

الخامس: الحياة الأخرويّة الأبديّة.

السّادس: الحياة الّتي يوصف بها البارئ، و فيها لا موت أصلاً إذا عرفت موارد الإستعمال فيهما.

فنقول هذه الوجوه قد صرّحت بها الأيات أيضاً فأشار الى الأوّل.

قال اللّه تعالىٰ: **أَنَّ ٱللّٰهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَحْيَيْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْنٰا مِنَ ٱلْمٰاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**[٣].

و الى الثّاني:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيٰآءُ وَ لَا ٱلْأَمْوٰاتُ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفٰاتاً، أَحْيٰآءً وَ أَمْوٰاتاً**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيٰاهٰا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتىٰٓ إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**[٦].

فقوله: **إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيٰاهٰا** إشارة الىٰ قوّة النّامية.

و قوله: **لَمُحْيِ ٱلْمَوْتىٰٓ** الى الحّاسية.

والىٰ الثّالث:

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ**[٧].

والىٰ الرّابع:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ أَمْوٰاتاً بَلْ أَحْيٰآءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**[٨].



١- الحديد = ١٧
٢- ق = ١١
٣- الانبياء = ٣٠
٤- فاطر = ٢٢
٥- المرسلات = ٢٦ / ٢٥
٦- الفصلت = ٣٠
٧- الانعام = ١٢١
٨- آل عمران = ١٦٩

والىٰ الخامس:

قال اللّه تعالىٰ: **ٱسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيٰاتِي**[٢] يعني بها الحياة الأخرويّة.

و أمّا السّادس فهي الحياة الّتي يوصف بها البارئ تعالى فأنّه إذا قيل أنّه تعالى حيٌّ فمعناه لا يصح عليه الموت وليس ذلك إلاّ للّه تعالى.

و أمّا الحياة بإعتبار الدُّنيا و الأخرة فهي ضربان الحياة الدُّنيا و الحياة الأخرة و هذه الحياة أشار اليها في القرآن أيضاً.

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَمّٰا مَنْ طَغىٰ، وَ اٰثَرَ ٱلْحَيٰوةَ ٱلدُّنْيٰا**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْحَيٰوةَ ٱلدُّنْيٰا بِالْاٰخِرَةِ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيٰا فِى ٱلْاٰخِرَةِ إِلّٰا مَتٰاعٌ**[٥].

و الأيات كثيرة إذا عرفت هذا فنقول جميع أقسام الحياة بيد اللّه تعالىٰ و تحت قدرته و لا يقدر أحد على إعطاء الحياة إلاّ اللّه تعالى و لنرجع الى تفسير ألفاظ الآية قوله: **يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ** فأن كان في الإنسان فأنّه تعالى يخرج المؤمن من الكافر و بالعكس و العالم من الجاهل و بالعكس و العادل من الظّالم و بالعكس و هكذا و أن كان في النّبات فأنّه يخرج الحياة من الأرض الّتي لا حياة لها بالمطر و بالعكس بعدمه و هكذا الكلام في جميع الأقسام فأنّ حياة كلّ شئٍ و مماته بحسبه و أن شئت قلت المراد بالحياة هو الوجود و الإيجاد، و أمّا قوله: **وَ كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ** أي و كذلك تخرجون يوم البعث بعد الموت بل نقول هذا الإخراج أسهل و أهون من الأوّل لبقاء المادّة فيه دون الأوّل فمن كان قادراً على الإحياء من غير مادّةٍ

١- الانفال = ٢٤
٢- الفجر = ٢٤
٣- النازعات = ٣٨ / ٣٧
٤- البقرة = ٨٦
٥- الرعد = ٢٦

سابقة فهو قادر على الإخراج منها بطريق أولى فمن أنكر الثّاني أنكر الأوّل من حيث لا يحتسب و من المعلوم أنّ إنكار الأوّل معناه إنكار وجود المنكر أي أنكر وجوده و هو كما ترىٰ و حاصل الكلام في الآية هو أنّ اللّه تعالى يحيى و يميت في جميع المراحل و هذا حكمٌ عقلّي لا شكّ فيه و قد ثبت عدم التّخصيص في العقليّات فكيف يعقل جريان الحكم في الأحياء الأوّل دون الثّاني.

وَ مِنْ اٰيٰاتِهِٓ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُراٰبٍ ثُمَّ إِذآٰ أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ

أي و من آياته الدّالة على توحيده و أنّه الخالق الموجد و المميت أنّه خلقكم من تراب و في هذه الآية إشارة بل صراحة بأنّ الإنسان مادّة خلقت من التُّراب و هو من المسلّمات الّتي لا خلاف فيه عقلاً و نقلاً لقوله تعالى:

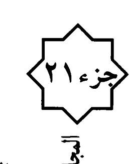
مِنْهٰا خَلَقْنٰاكُمْ وَ فيهٰا نُعيدُكُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ تٰارَةً أُخْرىٰ[١].

و المراد بالتُّراب الأرض، يقال تربت قيل معناه إفتقرت و مثله تربت يمينك، أي إفتقرت قال اللّه تعالىٰ: **أَوْ مِسْكينًا ذاٰ مَتْرَبَةٍ**[٢] أي ذا فقرٍ قد لصق بالتُّراب لشدّة فقره.

أقول لا يبعد أن يكون قوله: **مِنْ تُراٰبٍ**، إشارة الى أنّ الفقر ذاتي له بحيث لا ينّفك عنه.

قال اللّه تعالىٰ: **يآ أَيُّهَا ٱلنّٰاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرٰآءُ إِلَى ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَميدُ**[٣].

و كيف كان لاشكّ أنّ مادّة خلقة البشر هي الأرض و قد مرَّ الكلام في هذا الباب في كيفّية خلق آدم أبو البشر الّذي هو أبونا و أصلنا و ذكرنا الأخبار الواردة في الباب مفصّلاً فلا نطيل الكلام بذكرها ثانياً.



١- طه = ٥٥
٢- البلد = ١٦
٣- فاطر = ١٥

و قوله: **ثُمَّ إِذَآ أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ** فالإنتشار التَّفرق في أطراف الأرض كما هو الآن مشاهدا محسوس و إنّما عدَّه من آياته و أدلّته الدّالة على توحيده لأنّ هذا الخلق لا يقدر عليه إلاّ اللّه تعالى و من يقدر على أن يخلق من التُّراب الّذي هو جماد لا شعور له و لا إدراك موجوداً يفهم و يسمع و يبصر و يعلم و يتفكر و هكذا غيرها من الآثار المترتّبة على وجوده فلو أنّ الإنسان علم ما أودعه اللّه فيه من عجائب الخلقة لا في أنّ خالقه حكيمٌ خبيرٌ قادرٌ على كلّ شئ و أيّ دليلٍ أحكم و أتقن من هذا الدّليل المحسوس كما قال تعالى: **وَ فِىٓ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**[١] و أن أردت أن تعلم توضيح ذلك إجمالاً فنقول كلّ إنسانٍ عاقل لايشُك في وجود نفسه بمعنى أنّه موجود، و لا أيضاً في انّ الموجود يحتاج الىٰ موجد أوجده لعلمه بأنّه لم يكن في الدّنيا ثمّ كان ثمّ أنّ الموجد لا يخلو من وجهين:

أحدهما: أن يكون وجوده من غيره.

ثانيهما: أن يكون وجوده من نفسه و ذاته لا سبيل الى الأوّل لأنّه يستلزم التَّسلسل و هو محال، فلا محالة وجوده من نفسه و ذاته و إذا كان كذلك فهو أزليّ أبديّ.

أمّا كونه أزليّاً لأنّ المفروض أنّه لا خالق له فهو ليس مسبوقاً بالعدم و لا بالعلّة و لا نعني بالأزليّ إلاّ هذا، و أمّا أنّه أبديّ فمعناه أنّه يبقى الى الأبد فلا موت فيه إذ لو كان له آخر في الوجود فله أوّل فيه إذ الأمر مقابل للأوّل و الإنتهاء مقابل للإبتداء و المفروض أنّه لا إبتداء لوجوده فلا إنتهاء لوجوده فهو واجب الوجود و هو المطلوب هذا في إثبات ذاته و أمّا إثبات صفاته من القدرة و العلم و الإرادة و غيرها فلأنّ هذه الصّفات في الإنسان موجودة و المفروض أنّه مخلوق لغيره و قد ثبت أنّ معطي الشّيئ لا يكون فاقداً له فقد ثبت بهذا الدّليل أنّ الصّفات موجودة فيه إلاّ أنّ الصّفات في كلّ موجودٍ لمّا

١- الذاريات = ٢١

كانت من شئون وجوده، فهي تابعة للوجود شدَّةً و ضعفاً و كمالاً و نفصاً و قد ثبت أنّ وجوده تعالى ليس من غيره و هو في نهاية الشّدة و النُّورانية فلا حدَّ له فصفاته أيضاً كذلك لا حدَّ لها، و هذا معنىٰ قوله: **وَ مِنْ اٰيٰاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُراٰبٍ** و أيَّة آيةٍ أكبر و أعظم من الإنسان و هو المطلوب.

وَ مِنْ اٰيٰاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواٰجًا لِتَسْكُنُوٓا إِلَيْهٰا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ في ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

و هذه آية ثانية دالّة على ربوبيَّته و في هذه الآية في الحقيقة أشار إلى كيفيّة تحقُّق النَّسل و الأولاد من البشر الّذي يتَّوقف على وجود الزّوجة كما قال تعالىٰ: **إِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثٰى وَ جَعَلْنٰاكُمْ شُعُوبًا وَقَبآئِل**[١] و أشار أيضاً الىٰ المودَّة و المَحَّبة بين الزَّوج و الزَّوجة و أنّها من عنايته و لطفه و رحمته فالكلام حول الآية في فصلين:

الأوّل: في خلق الزَّوجة و أنّها كيف خلقت ومن أيّ شئٍ خلقت.

الفَصل الثّاني: في جعل المودَّة بينهما فنقول.

أمّا الكلام في الفصل الأوّل و هو كيفيَّة خلق المرأة، فأعلم أنّ هذه المسئلة من العويصات الّتي لا يهتدي إليها فكر البشر و لا يعتمد فيها على ما نقله المؤرّخون بل الإعتماد فيها على الآيات و الأخبار الواردة عن المعصومين عليهم السّلام و الوجه فيه ظاهر ثمّ أنّ الأخبار الواردة في الباب مختلفة، فمنها ما يدلّ على أنّ اللّه تعالى خلق حوّاء من ضلع آدم و عليه حمل قوله تعالىٰ: **خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ** و منها ما يدلّ على أنّه خلقها كما خلق آدم، أمّا القول الأوّل فأختاره العّامة.

و القول الثّاني هو مختار الشّيعة تبعاً لأهل البيت و حملوا الأخبار الّتي دلّت على أنّها خلقت من ضلع آدم على التّقية و نحن نشير إجمالاً الى شطرٍ منها: -

١- الحجرات = ١٣

فمن الأوّل:

ما رواه في البحار بأسناده عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: خلقت حوّاء من قصير جنب آدم و القصير هو الضِّلع الأصغر و أبدل اللّه مكانه لحماً إنتهى.

و بأسناده في حديثٍ آخر قال: خلقت حوّاء من جنب آدم و هو راقد إنتهىٰ.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه: أنّ اللّه خلق ادم من الماء و الطّين فهمَّة حواء في الماء و الطّين و أنّ اللّه خلق حوّاء من آدم فهَّمة النِّساء في الرّجال فحصنُّوهُّن في البيوت إنتهىٰ.

و به قال المفسّرون من العّامة كالطّبري و القرطبي و الرّازي و غيرهم ولم أجد مخالفاً في هذا القول في تفاسيرهم و لو كان لكان قليلاً و نادراً و هو كالمعدوم.

من الثّاني: ما رواه في البحار أيضاً عن عمرو أبي المقدام عن أبيه قال سئلت أبا جعفر عليه السلام من أيّ شئ خلق اللّه حوّاء فقال: أيُّ شئٍ يقول هذا الخلق قلت يقولون أنّ اللّه خلقها من ضلع من أضلاع آدمٍ فقال كذبوا، أكان يعجزه أن يخلقها من ضلعه فقلت جعلت فداك يا بن رسول اللّه من أيّ شئٍ خلقها فقال أخبرني أبي عن آبائه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: أنّ اللّه تبارك و تعالى قبض قبضةً من طينٍ فخلطها بيمينه وكلتا يديه يمينةً (يمينٌ) فخلق منها آدم و فضلت فضله عن طين فخلق منها حوّاء إنتهى.

و بأسناده الى الصّدوق بأسناده الى وهب قال: أنّ اللّه تعالى خلق حوّاء من فضل طينة آدم على صورته و كان ألقى عليه النُّعاس و أراه ذلك في منامه و هي أوّل رؤيا كانت في الأرض

فأنتبه و هي جالسة عند رأسه فقال عزّ وجّل يا آدم ما هذه الجالسة قال الرّؤيا الّتي أريتني في منامي فأنس و حمد اللّه فأوحىٰ إليه إنّي أجمع لك العلم كلّه في أربع كلماتٍ واحدةٌ لي، و واحدةٌ لك و واحدة فيما بيني و بينك، و واحدة فيما بينك و بين النّاس.

أمّا الّتي لي فتعبدوني و لا تشرك بي شيئاً، و أمّا الّتي لك فأجزيك بعملك أحوج ما تكون إليه، و أمّا الّتي فيما بيني و بينك فعليك الدُّعاء و علّي الإجابة و أمّا التّي فيما بينك و بين النّاس فترضى للنّاس ما ترضى لنفسك إنتهىٰ[١].

إذا عرفت هذا فإعلم أنّ الحقّ الحقيق بالإتّباع عقلاً ونقلاً هو ما إختاره أصحابنا الإماميّة من أنّها خلقت من فضلة طينة أدم لا من ضلعها.

أمّا النّقل فلأنّ الأخبار الدّالة على أنّها خلقت من فضلة طين أدم أصح سنداً مضافاً إلى أنّ الأخبار الدالّة على القول الأوّل صدرت عن تقيّةٍ.

امّا العقل فأنّه يحكم حكماً قطعيّاً بأنّ اللّه كان قادراً علىٰ خلقها كما كان قادراً علىٰ خلقه فالقول بأنّه خلقها من ضلعه ساقطٌ رأساً إذ لا معنى له أصلاً و المفروض أنّ حوّاء خلقها اللّه كما خلق أدم من جميع الجهات و حكم الامثال واحد.

أمّا قوله تعالىٰ: **مِنْ أَنْفُسِكُمْ** فلا يدلّ على أنّها خلقت من ضلع أدم لأنّ النّفس ليست في الآية بمعنى الجسد بل هي بمعنى الجنس أي خلقها اللّه من جنسكم و هو التّراب الّذي خلق منه أدم عليه السلام أي أنّ أدم و حوّاء من تراب الأرض و لو كان الأمر كما ذكروه و فهموه من الآية فحقّ الكلام أن يقال خلق لكم من بعضكم أو من جسدكم ولم يقل ذلك بل قال من أنفسكم و قد مرّ سابقاً أنّ النّفس تطلق الجنس و جنس المرء و المرأة واحد و الإختلاف

١- بحار الأنوار ج ۵ ص ٣١

الذّكورية و الأنوثيّة لا يوجب الإختلاف في الجنس ألا ترى أنّ الإنسان حيوان ناطق و الإنسان يشمل الرّجل و المرأة هذا ما فهمناه من قوله: **مِنْ أَنْفُسِكُمْ** و اللّه أعلم.

أمّا قوله تعالىٰ: **لِتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً** فهو أيضاً من أياته حقّاً إذ لا يقدر أحدٌ على إلقاء المحبّة و المودّة في قلب الإنسان بالنّسبة إلى إنسانٍ أخر غير خالقهما و هو اللّه تعالى.

فأن قلت أنّ سبب محبّة الزّوج للزّوجة هو الشّهوة الموجودة فيهما.

قلت و من جعل الشّهوة فيهما غير اللّه تعالى و لا فرق بين جعل السَّبب و جعل المسَّبب و من المعلوم أنّ الدُّنيا دار الأسباب و هو تعالى مسَّبب الأسباب و الحاصل أنّ الملقي هو اللّه بسبب و بغير سبب و من العجائب أنّ المودَّة و المحبّة بينهما تحصلان بمجّرد العقد فكأنّ صيغة العقد صيغة المحبّة و هذا من المحسوسات و مع ذلك يدلّ على قدرة الخالق و عنايته بعباده و هو رؤوف رحيم.

و قوله: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** معناه واضح فأنّ الجاهل الغافل الّذي لا يتفكّر إلاّ في غذاءه و لباسه و مسكنه و لا يلتفت إلى أسرار الخلقة فقوله: **يَتَفَكَّرُونَ** معناه يتفكّرون في أنفسهم و إلاّ كلّ إنسانٍ لا يخلو عن التفكّر قال اللّه تعالى: **وَ فِيٓ أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**[1].



وَ مِنْ اٰيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوٰانِكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ

و هذه هي الآية الثّالثة المشار إليها في الكتاب و إلاّ ففي كلّ أية منها أيضاً أيات كما لا يخفى ففي الآية الأولى و هي قوله: **وَ مِنْ اٰيَاتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ** أشار إلىٰ أيتين و هما خلق الإنسان من تراب و إنتشارهم في الأرض، و

١- الذاريات = ٢١

في الآية الثّانية ثلاث أيات خلق الأزواج و السُّكون إليها، و إيجاد المودّة في القلوب، و في هذه الآية التّي نحن بصدد تفسيرها أيضاً ثلاث أيات، خلق السّموات و الأرض، و إختلاف الالسنة و إختلاف الألوان، أمّا خلق السّموات و الأرض فقد مضى الكلام فيه غير مرّةٍ في تضاعيف الكتاب و هو من الأيات المحسوسة التّي يراها كلّ أحد بل نقول هو من أكبر الأيات في عالم الحسّ و لذلك أشار إليها في كثير من الأيات و أمرنا بالتفكّر في خلقها، و أمّا إختلاف الألسنة فهو أيضاً من الأيات الدّالة على قدرته تعالى و الوجه في كونها أية لجلاله و عظمته هو أنّ الإنسان كلّي مقول على أفراده و مصاديقه بالتّواطؤ أي بالسّوية و لذلك يقال في تعريفه حيوان ناطق و هذا الحدّ يسمّىٰ في عرف الفلاسفة و المنطقيّين بالحدّ التامّ أي كلّ فردٍ من أفراد البشر فهو حيوان ناطق و لا إستثناء فيه سواء فيه العرب و العجم و التُّرك و بالجملة كلّ إنسانٍ كذلك و لا شكّ انّ مادّة الخلقة فيه هي التّراب و إذا كان الأمر على هذا المنوال فيجب علىٰ القاعدة إشتراك الأفراد في اللّوازم و الأثار أيضاً من الشّكل و اللّون و النّطق و غيرها و نحن نرىٰ إختلافهم فيها و ليس هذا من ناحية ذات الإنسان بما هو إنسان فنكشف منه أنّ هذا الإختلاف من ناحية الخالق لأجل المصالح التّي لا يعلمها إلاّ هو فلو تفكّر الإنسان في إختلاف الألسن لصار متحيّراً عاجزاً عن درك حقيقته فأنّ اللّغات التّي يتكلّم بها أفراد البشر في زماننا هذا أكثر من مائة، و لا نعلم أنّ هذا الإختلاف من أين نشأ و كيف وجد و من علّمهم اللّغات و هذا من أعجب العجائب مع أنّا نعلم أنّ أدم و حوّاء كانا يتّكلمان بلغةٍ واحدة ولم يكن من هذه الإختلاف في زمانهما عين و لا أثر فمن الّذي علّم أولادهما اللّغات المختلفة أنّ في ذلك لأيةً لأولي الألباب.

و هكذا الكلام في اختلاف الألوان و الأشكال فمن قال أو يقول بأنّ هذا الإختلاف من خصوصيات الأرض فهو لا يدريّ ما يقول أليست الأرض واحدة و الشّئ الواحد بما هو واحد لا يصدر منه إلاّ واحد فلا يعقل أن تكون

الأرض علّة و سبباً للبياض و السّواد و الإحمرار و غيرها فليس هذا و أمثاله انّ من ناحية الخالق الحكيم العالم بالمصالح و المفاسد و عنَّت الوجوه للحيّ القيّوم و تفصيل الكلام فيه يحتاج إلى كتابٍ مستقل في الباب و لخفاء هذه الدّقائق من أسرار الخلقة على أكثر النّاس قال تعالى: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ** بكسر اللاّم، لا للجهّال الّذين همَّهم بطونهم و شهواتهم و إستمتاعهم بالحطام الدُّنيوية و كيف إتّفق أفلم يتدبّرون في القرأن أم علىٰ قلوبهم أقفالها.

وَ مِنْ اٰيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهَارِ وَ ٱبْتِغَآؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

و هذه هي الآية الرّابعة و قد أشار اللّه تعالى فيها إلى أيتين:

أحدهما: المنام باللّيل و النّهار.

الثّانية: طلب الرّزق أكثر ممّا قدّر لهم من فضله.

أمّا النّوم فلا شكّ أنّه من أكبر أياته مع ما فيه من الرّاحة للجسد، و أنّما قلنا أنّه من أكبر الأيات لأنّ الرُّوح يفارق الجسد بالنّوم و يبقى له تعلُّقٌ مّا بالجسد إذ لو فارق الجسد بالكلّية فيعبّر عنه بالموت و هذا هو الفرق بين الموت و النّوم ثمّ أنّ النّوم على ما قيل.

ريحٌ تقدم من أغشية الدّماغ فإذا وصل إلى العين فترت و إذا وصل إلى القلب نام.

و قال بعضهم أنّ النّوم يحصل من تجمُّع حاصلات الإنحلال في الدّماغ و هذه الحاصلات تسلب من الدَّم وقت الرّاحة و قيل غير ذلك في تعريفه و كيف كان فلا يهمّنا البحث فيه و الأقوال فيه مختلفة و الحقّ أنّ النّوم لا يخفى حصوله و وقوعه على أحد و أمّا بيان ماهيّته وكيفيّة حصوله فلم يصل إليه أحد من علماء الماضيين و الحاضرين و ما قالوا فيه أو يقال فهو من أثاره و لذلك قلنا أنّه من أعظم الأيات و هو سببٌ لراحة الجسم كما هو محسوس لنا و



حيث أنّه يتولّد من الأجزاء البُخارية فلابدّ من حصوله و تحقّقه من وجود الجسم العنصري الّذي له أجزاء و لذلك خصّ بالحيوان و الإنسان دون الملك.

و أمّا وجه كونه من الأيات فهو من جهتين:

الأُولىٰ: أنّ الرُّوح الّتي فارق البدن بعد النّوم من يرجعها إليه ثانياً باليقظة غير خالقها و بارئها إذ في صورة عدم الرُّجوع لكان من الأموات كما وقع ذلك في كثير من النّائمين.

الثّانية: أنّ النّوم واليقظة بعده يدّلنا علىٰ الموت و الحياة بعده في يوم البعث و هذه أيةٌ أخرى فمن أنكر البعث أنكر النّوم و من أثبته أثبته، فمن تأمَّل في النّوم و اليقظة أقَّر و إعترف بالموت و الحياة بعده فهو من أيات القيامة كما ورد في الحديث **النّاس نيام إذا ماتوا إنتبهوا.**

و أمّا قوله: **وَ ٱبْتِغَآؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِۦٓ** فالابتغاء الطَّلب و المعنى طلبكم المعاش، و قوله: **مِنْ فَضْلِهِۦٓ** فيه إشارة إلى أنّ اللّه تعالى قد يعطي العبد أكثر ممّا قدِّر له من الرّزق و ذلك من فضله و قد ورد الحديث بذلك فمن قال أنّ الرّزق مقسوم فما معنى الدُّعاء في طلب الرّزق، لم يعلم أنّ أصل الرّزق مقسومٌ و أمّا فضله تعالى فلا.

روىٰ في البحار عن الصّادق عليه السلام أنّه قال: من لم يسأل اللّه من فضله إفتقر إنتهىٰ[1].

و قال النّبي صلى الله عليه و آله و سلم: عن جبرئيل عن اللّه عزّ وجلّ ياعبادي كلّكم ضالّ إلاّ من هديته فإسألوني الهدى أهدكم و كلّكم فقير إلاّ من أغنيت فإسألوني الغنا أرزقكم و كلّكم مذنبٌ إلاّ من عافيته فإسألوني المغفرة أغفر لكم الخبر[2].

و حاصل الكلام أنّ العبد مأمور بالطَّلب في جميع شئونه لكونه فقير كذلك و اللّه تعالىٰ يعطيه من فضله زائداً على ما قدّر له و هذا هو السِّر في حسن

١- ج ١٩ ص ٣٧ باب الدُّعاء
٢- ص ٣٦

الدُّعاء ثمّ قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** أي يسمعون ويترتّبون عليه الأثار و هو العمل بما سمعوه من الأيات و الأخبار و المواعظ.

وَ مِنْ اٰيَاتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ يُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِي بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

و هذه الآية هي الخامسة من أياته أشار فيها إلى أمرين:

أحدهما: البرق، و هو لمعان السّحاب قبل نزول المطر من السّماء كما قال تعالى: **فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ** و لذلك يقال في كلّ ما يلمع برق نحو سَيف بارق و قال اللّه تعالى: **بَرِقَ ٱلْبَصَرُ** إذا إضطربت العين و خافت، و قيل البرق نارٌ تحدث في السّحاب و قوله خوفاً و طمعاً معناه أنّ البرق مخوِّفٌ و مع ذلك يوجب الطَّمع فأنّ الرّائي يخاف منه و يطمع في نزول المطر ففيه خوفٌ و طمع أي طمع الرّحمة.

و قال قتادة يريكم البرق خوفاً للمسافر و طمعاً للمقيم.

و قال الأخر خوفاً من الصّواعق و طمعاً للغيث.

و قيل، خوفاً من البرد أن يهلك الزّرع و طمعاً في المطر أن يحيي الزّرع.

و قيل خوفاً أن يكون البرق خالياً من المطر و طمعاً أن يكون ممطراً والوجوه المحتملة كثيرة و الجامع بين الأقوال أن يقال خوفاً من العذاب و طمعاً في الرّحمة، قال الشّاعر:

لا يكــن بــرقك بــرقاً خـلّياً إنّ خير البرق ما الغيث معه

الأمر الثّاني: المشار إليه في الأية، نزول المطر من السّماء ليحيي به الأرض بعد موتها أي بعد إنقطاع الماء عنها وجدو بها و قد مَرَّ الكلام فيه عند قوله: **فَيُحْيِي بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** و يتفكّرون فيه لأنّ من لا يتّفكر فيه لا ينتفع به و أن كان عاقلاً إذ كثيراً ما يكون العاقل غافلاً فكأنّه لا عقل له.



وَ مِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَ ٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ

و هذه الآية هي السّادسة أشار اللّه تعالى فيها إلى أنّ السّماء و الأرض تقومان بأمره بلا دعامةٍ تدعمها و لا علاقة تعلّق بها بل لأنّ اللّه تعالى يسكنها حالاً بعد حالٍ لأعظم دلالةٍ على أنّه لا يقدر عليه سواه قاله الشّيخ في التّبيان.

قال صاحب الكشّاف و من أياته قيام السّموات و الأرض و إستمساكها بغير عمد، بأمره، أي بقوله كونا قائمتين و المراد بإقامته لهما إرادته لكونهما على صفة القيام دون الزّوال و قوله: **إِذَا دَعَاكُمْ** بمنزلة قوله يريكم في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى كأنّه قال و من أياته قيام السّموات و الأرض ثمّ خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوةً واحدة ياأهل القبور أخرجوا و المراد سرعة وجود ذلك من غير توقّفٍ و لا تلبثٍ كما يجيب الدّاعي المطاع مدعوه إنتهى كلامه.

أقول الّذي نفهم من الآية هو أنّ ذكر السّموات و الأرض و أنّهما قائمتان بأمره لإثبات البعث و توضيحه يحتاج إلى ذكر مقدّمة و هي أنّه لا شكّ أنّ اللّه تعالى هو القيّوم لا غيره و ذلك لأنّ القيّوم يقال للموجود الّذي قوامه بذاته و ما سواه قائم به و لا موجود كذلك إلاّ اللّه تعالى فهو القائم بالذّات و ما سواه قائمٌ به و السّر في ذلك هو أنّ اللّه خالق الخلق و موجدهم من العدم إلىٰ الوجود و قد ثبت أنّ المعلول قائم بالعلّة و يَدُور وجوده مدار وجودها بَل هو رشحٌ من رَشَحات وجود العلّة و السّموات و الأرض و ما فيهما من الموجودات قوامها به لأنّه تعالىٰ خَلَقهما و أوجَدهما و خَلق ما فيهما فقوله تعالى: **بِأَمْرِهِۦ**، المراد بالأمر هو الأمر التّكويني المُعبّر عنه بكلمة، كُن:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**[١].

١- يس = ٨٢

و المعنىٰ أنّ السّموات والأرض تقومان بهذا الأمر إذا عرفت هذه المقدّمة فَنقُول:

لا شكّ أنّ الإنسان من الموجدات السّاكنة في الأرض منها خلق و إليها يرجع بعد الموت لقوله تعالىٰ: **مِنْهٰا خَلَقْنٰاكُمْ وَ فيهٰا نُعيدُكُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ تٰارَةً أُخْرىٰ**(۱) و إذا كان الأمر علىٰ هذا المنوال و المفروض أنّ الإنسان بعد الموت في جوف الأرض، و الأرض قوامها بأمره تعالى فكيف يمكن القول بعدم خروجه منها، و قوله: **إِذٰا دَعٰاكُمْ دَعْوَةً مِنَ ٱلْأَرْضِ** معناه إذا أخرجكم إخراجاً من الأرض فعبّر عن الخروج و الإخراج بالدَّعوة و إن شئت قلت إذا دعاكم اللّه كذلك إذا أنتم تخرجون، قهراً و إلزاماً لا إختياراً ففي الآية إشارة إلى أنّ الخروج عن القبور أمرٌ قهريٌ خارجٌ عن إختيار البشر لأنّ هذا الأمر أعني به الأمر بالإحياء و الخروج عن القبر أمرٌ تكوينّيٌ و من المسلّم عند جميع الفلاسفة و المتّشرعين أنّ الأمر التكويني قطعي الوقوع لا تخلُّف فيه أصلاً بخلاف الأمر التّشريعي الذّي قد يتخلّف المراد عن الإرادة لكون المأمور مختار في فعله هذا ما خطر ببالي في تفسير الآية و اللّه أعلم بما أراد منه.

■

۱– طه = ۵۵

وَ لَهُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ
﴿٢٦﴾ وَ هُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ
أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلٰى فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ
ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ
مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمّٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ
مِنْ شُرَكٰاءَ فِي مٰا رَزَقْنٰاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوٰاءٌ
تَخٰافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ
ٱلْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا
أَهْوٰآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللّٰهُ وَ
مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللّٰهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنّٰاسَ عَلَيْهٰا لٰا
تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللّٰهِ ذٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنّٰاسِ لٰا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ ٱتَّقُوهُ وَ
أَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ لٰا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾
مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كٰانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ
بِمٰا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَ إِذٰا مَسَّ ٱلنّٰاسَ ضُرٌّ
دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذٰآ أَذٰاقَهُمْ مِنْهُ
رَحْمَةً إِذٰا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾
لِيَكْفُرُوا بِمٰآ آتَيْنٰاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنٰا عَلَيْهِمْ سُلْطٰانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمٰا
كٰانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَ إِذٰآ أَذَقْنَا ٱلنّٰاسَ رَحْمَةً
فَرِحُوا بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ



إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٰيَاتٍ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـاٰتِ ذَا ٱلْـقُرْبٰى حَـقَّهُ وَ
ٱلْمِسْكِينَ وَ ٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذٰلِكَ خَـيْرٌ لِـلَّذِينَ
يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللّٰهِ وَ أُولٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾
وَ مَآ اٰتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوا فِيٓ أَمْوٰالِ ٱلنَّاسِ فَلَا
يَرْبُوا عِنْدَ ٱللّٰهِ وَ مَآ اٰتَيْتُمْ مِنْ زَكٰوةٍ تُرِيدُونَ
وَجْهَ ٱللّٰهِ فَأُولٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللّٰهُ ٱلَّذِي
خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ
مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ
سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالٰى عَـمَّا يُشْـرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَـهَرَ
ٱلْفَسٰادُ فِي ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ بِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ
لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾
قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَـيْفَ كٰـانَ
عٰاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾
فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ
لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللّٰهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ
فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَـمِلَ صٰـالِحًا فَـلِأَنْفُسِهِمْ
يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَـمِلُوا
ٱلصّٰـالِحٰاتِ مِـنْ فَـضْلِهِ إِنَّـهُ لَا يُـحِبُّ
ٱلْكٰافِرِينَ ﴿٤٥﴾

◀ اللّغة

قٰانِتُونَ: القنوت لزوم الطّاعة مع الخضوع و فسّر بكلّ واحدٍ منهما، و قيل معناه الطّاعة و قيل السُّكوت لا مطلقاً بل عني به ما قال عليه السّلام: **أنّ هذه الصّلاة لايصّح فيها شيئ من كلام الأدّميين و أنّما هي قرأن و تسبيح.**

قٰانِتُونَ: الأسهل و الأيسر.

حَنِيفًا: الحنف هو ميلٌ عن الضّلال إلى الإستقامة و الجنف بالجيم بخلافه يقال تحّنف فلان أي تحرّى طريق الإستقامة و سمّت العرب كلّ من حجَّ أو إفتتن حنيفاً تنبيهاً على أنّه على دين إبراهيم عليه السلام.

فِطْرَتَ: بكسر الفاء الفطر في الأصل الشّق طولاً و المراد به في المقام الخلق على سبيل الابداع. ٱلْقَيِّمُ المستقيم الّذي يجب إتّباعه.

مُنِيبِينَ: من أناب ينيب إنابةً و الإنابة الإنقطاع إلى اللّه تعالى بالطّاعة و أصله على هذا القطع.

شِيَعًا: شاع القوم إنتشروا و أكثروا، قيل الشّيع بكسر الشّين و فتح الياء الفرق الّتي يجتمع كلّ فريقٍ منها على مذهب خلاف مذهب الفريق الأخر.

يَقْنَطُونَ: أي ييأسون فأنّ القنوط اليأس.

رِباً: الرّباء الزّيادة في المال لكن خصّ في الشّرع بالزّيادة على وجهٍ دون وجهٍ و سيأتي الكلام فيه في الشّرح.

◀ الإعراب

فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوٰآءٌ الجملة في موضع نصب جواب الإستفهام تَخٰافُونَهُمْ في موضع الحال من ضمير الفاعل في سواء مُنِيبِينَ حال من الضّمير في الفعل المحذوف أو حال من ضمير الفاعل في، أقم، لأنّه في المعنىٰ للجميع مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا بدل من المشركين بإعادة الجارّ لِيَكْفُرُوا اللاّم بمعنىٰ كي، أذٰا هُمْ إذا للمفاجأة مٰآ اٰتَيْتُمْ ما، في موضع نصب، بأتيتم، و الباقي واضح.

◄ التّفسير

وَ لَهُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ

كلمة، من، يجاء بها لذوي العقول واللاّم في، له، للإختصاص أو الملك و المعنى أنّ جميع العقلاء فأنّه يملكهم و يملك التّصرف فيهم و ليس لأحدٍ منعه منه و الإعتراض عليه قيل خصّ العقلاء بذلك لأنّ ما عداهم في حكم التَّبع ثمّ أخبر عن جميع من في السّموات والأرض بأنّهم له قانتون، أي مطيعون.

أقول يظهر من كلامهم في تفسير الآية أنّ المراد بلفظة، كلّ، جميع ما في السّموات و الأرض من ذوي العقول و غيرهم و هذا لا يستقيم و ذلك لأنّ لفظه، كلّ، جئ بها بعد كلمة، من، الّتي هي لذوي العقول إجماعاً و سياق العبارة يقتضي أن يكون المراد بكلمة، كلّ، كلّ من في السّموات و الأرض من ذوي العقول لا من غير ذوي العقول نعم ما ذكروه يصّح لو قال له ما في السَّموات و الأرض و لم يقل به و منه يظهر أنّ المراد بقانتون ليس مطلّق الطّاعة و الإنقياد بل المراد طاعة مخصوصة بذوي العقول و هي الطّاعة في العبادات الّتي يعتبر فيها الخضوع و الخشوع فأنّ هذه الطّاعة مختصّة بذوي العقول فالآية نزلت فيهم و تقديم الظّرف، و هو، له، يفيد الحصر أي لا يملكهم غيره تعالى أو لا يقنتون و لا يخضعون في العبادة إلاّ للّه تعالى ثمّ وصف اللّه نفسه بقوله:

وَ هُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلٰى فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

أي أنّ الّذي له ما في السَّموات و الأرض الآية هو الّذي يبدؤا الخلق و أوجدهم ثمّ يعيدهم بعد الموت الى الدُّنيا و هو البعث و هو أي العود و

الإعادة أهون و أيسر و أسهل عليه من الإبداء فكيف يقرّون و يعترفون بالخلق الإبداعي و ينكرون الخلق الثّانوي و الوجه في كونه أسهل و أيسر هو أنّ الإبداء و الإيجاد لا عن مادّةٍ سابقة أصعب من الإيجاد عن مادّةٍ موجودة و المفروض أنّ الميّت بعد تلاشي أجزاءه و أعضاءه في القبر تبقى منه المادّة الأصليّة و من المعلوم أنّ الخلق عن شئٍ أسهل من الخلق عن لا شئ و هو العدم و قوله: **وَ لَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلىٰ**، فالمثل بفتح الميم والثاء عبارة عن قولٍ في شئٍ يشبه قولاً آخر بينهما مشابهة ليبيّن أحدهما الأخر و يصوّره نحو قولك فى الصَّيف ضيَّعت اللّبن فأنّ هذا القول يشبه قولك أهملت وقت الإمكان أمرك و على هذا الوجه ما ضرب اللّه تعالى من الأمثال:

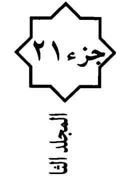
فقال: **وَ تِلْكَ ٱلْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ حُورٌ عِينٌ، كَأَمْثٰالِ ٱللُّؤْلُؤَ ٱلْمَكْنُونِ**[٢]والأيات كثيرة.

قال الشّيخ في التّبيان في قوله: **وَ لَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلىٰ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ** قال قتادة و هو قول لا إلٰه إلاّ اللّه وحده لا شريك له لأنّه دائمٌ في السّموات و الأرض يقول الثّاني فيه كما قال الأوّل و قيل المعنىٰ و له الصّفة العليا، و قيل النشأة الثّانية، **وَ لَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلىٰ**، فذلك دليل علىٰ أنّه مَثَلٌ ضربه اللّه ذكره الفرّاء إنتهى ما ذكره في التّبيان.

و قال القرطبى و وجهه أنّ هذا مثلٌ ضربه لعباده يقول إعادة الشّئ على الخلائق أهون من إبتداءه فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم و فيما بينكم أهون عليه من الإنشاء و ساق الكلام الى أن قال أي قوله: **وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب و يسهل.

و قال إبن عبّاس معناه أي ليس كمثله شىء و هو العزيز الحكيم إنتهى.



١- الحَشر = ٢١ ٢- الواقعة = ٢٣ / ٢٢

و قال صاحب الكشّاف: وَ لَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ أي الوصف الأعلى الّذي ليس لغيره مثله قد عرف به وصف في السّموات و الأرض على ألسنة الخلائق و ألسنة الدّلائل و هو أنّه القادر الّذي لا يعجز عن شيءٍ من إنشاءٍ و إعادة و غيرهما من المقدورات ثمّ نقل قول الزّجاج و أمثاله كما نقلناه عن القُرطبي و التّبيان، و نظير ذلك ما ذكره الرّازي و الألوسي و غيرهما عن المفسّرين و الّذي حصل لنا من جميع الأقوال المذكورة هو أنّ المراد بالمثل الأعلىٰ هو الأمثلة الّتي ذكرها في القرآن، أو المراد به في المقام هو أنّ الإعادة أسهل و أيسر، فعبَّر عنها بالمثل الأعلى.

و لقائل أن يقول قوله تعالىٰ: وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ حكمٌ من الأحكام لا كلام فيه و ليس هو من المثل الأعلى و لا من سنخ المثل مطلقاً و ليت شعري ما الّذي دعاهم علىٰ حمل كلام اللّه على هذه الموهومات و هل يقول أنّ كلمة لا إله إلاّ اللّه، مثل ضربه اللّه أو أنّ الإعادة أهون من الإبتداء مثل ضربه اللّه أو لم يعلموا أنّ قوله: وَ لَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ، حكمٌ من الأحكام لا ربط له بالإعادة أصلاً و لتوضيح ذلك نقول.

الّذي يستحيل في عالم الوجود عقلاً و نقلاً بثبوته و تحقّقه هو المثل للّه تعالى و أمّا المثل فلم يدلّ دليل على نفسه بل هو ثابت له و لا محذور فيه أصلاً و الوجه في ذلك أنّ المثل يقال لما إشترك لشيٍ آخر في المهيّه و لوازمها علىٰ مسلك الفلاسفة لقولهم المثلان هما المشتركان في المهيّه و لوازمها و حيث أنّ الواجب تعالى لا مهيّة له فلا مثل له، و أمّا عند المتكلّيمن فقال المحقّق الطّوسيقدّس سرّه و لا مثل له، و قال العلامّة في الشّرح المثلان ذاتان وجوديّتان يسدّ كلّ واحدةٍ منهما مسدّ صاحبه و يكون المعقول منهما شيئاً واحداً بحيث إذا سبق أحدهما الى الذّهن ثمّ لحقه الأخر لم يكتسب العقل من الحاصل ثانياً غير ما إكتسبه أوّلاً و الواجب تعالى لا مثل له بهذا المعنى أيضاً فثبت و تحقق أنّ الواجب لا مثل له عقلاً و هو المطلوب.

أمّا النّقل فيكفي فيه قوله تعالى: **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**، و حيث أنّ العقل يحكم بإستحالته فلا حاجة الى النّقل إذ الموضوع من العقليّات و هذا في المثل ممّا لا كلام لأحد فيه و عليه إتّفاق العقلاء و العلماء، و أمّا المثل فليس كذلك.

قال الرّاغب في المفردات أصل المثول الإنتصاب و الممثل المصوّر على مثال غيره يقال مثل الشيء أي إنتصب و تصوّر و التمثال الشّيء المصوّر الى أن قال و المثل عبارة عن قولٍ في شيءٍ يشبه قولاً في شيءٍ آخر بينهما مشابهة ليبيّن أحدهما الأخر و يصوّره نحو قولهم في الصَّيف ضيَّعتَ اللَّبن فأنّ هذا القول يشبه قولك أهملت وقت الإمكان أمرك و على هذا الوجه ما ضرب اللّه من الأمثال و ساق الكلام الى أن قال و المثل يقال على وجهين:

أحدهما: بمعنى المثل نحو شبه وشبه، و نقض و نقض.

الثّاني: عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان و هو أعمّ من الألفاظ الموضوعة للمشابهة إنتهىٰ كلامه.

إذا عرفت هذا و علمت الفرق بين المثل والمثل و أنّه لا مثل له تعالى و لا ندَّ له.

فأعلم أنّ المثل ثابت له و لا إشكال فيه عقلاً و نقلاً.

أمّا نقلاً فلأنّه ليس من الأيات و الأخبار ما يدلّ على أنّه لا مثل له و لو كان المثل ممنوعاً كالمثل لمنعته الأيات و الأخبار و إذ ليس فليس و على هذا فكلّ موجود أو كلام يدلُّنا على التَّوحيد و أنّه تعالى واحد أحد متّصف بجميع الصّفات الكماليّة من العلم و القدرة و الإرادة و غيرها من الصفّات فهو مثلٌ للحقّ أي دالّ عليه كما قال الشّاعر:

و في كلّ شيءٍ له آيةٌ تدلّ على أنّه واحدُ

و هذه الآية الدّالة علىٰ وحدانيّته نعبّر عنه بالمثل فالمثل لا يختصّ بموجودٍ دون موجود و لا شيءٍ دون شيءٍ نعم، له مرتبتان.

مرتبة الأدنى و مرتبة الأعلى، و ذلك لأنّ دلالة المخلوق على خالقه تارةً تكون كاملة من جميع الجهات فهو المثل الأعلى و تارةً لا تكون كذلك بل دلالته ضعيفة ناقصة فهو المثل الأدنى، فالإنسان الكامل كالأنبياء و الأوصياء من قسم الأوّل، و سائر المخلوق من قسم الثّاني على حسب مراتبهم شدّةً و ضعفاً و نقصاً و كمالاً.

فالمثل الأعلى لا يوجد إلاّ في الإنسان لأنّه أشرف المخلوقات و إذا كان كذلك فالمظهريّة لخالقه فيه أتمّ و أكمل من غيره و لتوضيح ذلك نقول لا شكّ أنّ اللّه تعالى خالق لجميع الموجودات، و لا شكّ أيضاً أنّ كلّ موجودٍ يدلّنا على أنّ له خالق، و لا شكّ أنّ الإنسان أشرف الموجودات لأنّ مظهريّته أتمّ و أكمل من غيره لخالقه و ذلك لأنّ علمه يدلّ على علم الخالق و إرادته و عدله و وجوده و قدرته و سائر صفاته تدلّ على وجودها في خالقه لأنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له و هذه الجامعية مختّصة بالإنسان و لا توجد في غيره و لعلّه هو الوجه في كونه أشرف ألا ترىٰ أنّ اللّه تعالى أمر ملائكته بالخضوع و الخشوع للإنسان دون غيره وليس هذا إلاّ لما ذكرناه ثمّ أنّ إفراد الإنسان أيضاً مختلفة متفاوتة في الجامعيّة فأنّ الإنسان الجاهل ليس مظهراً لعمله تعالى و الظّالم ليس مظهراً لعدله و الضعيف ليس مظهراً لقدرته كاملاً.

و أمّا الإنسان الكامل كالنّبي و الوّصي فهو مظهر لوجوده تعالى و صفاته على نحو الأتمّ و الأكمل حيث أنّ تجلّي صفاته تعالى فيه أظهر و أكمل فأنّ قدرة النّبي و علمه و عدله و رحمه لا يقاس بغيره من الأفراد و إذا كان كذلك فهو المثل الأعلى للحقّ و ما سواه مثل الأدنى قال اللّه تعالى: **وَ فِيٓ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**[١].

فقوله تعالىٰ: **وَ لَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ** إشارة الى هذه الدقيقة و لذلك قرن اللّه طاعته بطاعته فقال: **أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَ أُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ** ولا نعني

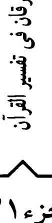
١- الذاريات = ٢١

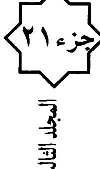
بالمثل إلاّ هذا و محصل الكلام هو أنّ الإنسان الكامل هو المثل الأعلى للحقّ و هو النبيّ و الوّصي و يستفاد هذا المعنى من الأخبار أيضاً.

ما ذكره الإمام الهادي عليه السّلام في الزّيارة الجامعة حيث قال عليه السلام: السّلام على أئّمة الهدىٰ و مصابيح الدُّجىٰ و أعلام التُّقى و ذوي النُّهى و أولي الحجى و كهف الورى و ورثة الأنبياء و المثل الأعلى الى آخر كلامه عليه السلام و في تفسير نور الثّقلين عن عيون الأخبار بأسناده الى يسر الخادم عن أبي الحسن علّي بن موسىٰ الرّضا عليه السلام قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: لعلّي يا علّي أنت حجّة اللّه و أنت باب اللّـه و أنت الطّريق الى اللّـه و أنت النبأ العظيم و أنت الصّراط المستقيم و أنت المثل الأعلى الحديث[١].

و باسناده عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قل فى آخر خطبة نحن كلمة التّقوىٰ و سبيل الهدى و المثل الأعلى و الحجّة العظمى و العروّة الوثقى الحديث [٢].

و قال أميرالمؤمنين عليه السلام معرفتي بالنورانيّة معرفة اللّـه، و قال عليه السلام: من رآني فقد رأىٰ الحقّ و أمثال ذلك في الأخبار كثيرة هذا تمام الكلام في تفسير الآية و الحمد للّه ربّ العالمين.





ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

كلمة، من، في قوله: **مِنْ أَنْفُسِكُمْ** للإبتداء و في قوله: **مِمَّا مَلَكَتْ**، زائدة لتأكيد الإستفهام و في قوله: **مِنْ شُرَكَاءَ**، للتّبعيض و معنىٰ الآية ضرب اللّـه

١- ج ٥ ص ١٨٠
٢- الحديث ص ١٨١

للمشركين مثلاً و حاصله هل يرضى أحدكم أن يكون مملوكه و عبده في ماله و نفسه مثله فإذا لم ترضوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم شركاء للّه تعالى أي إذا لم ترضوا أن يكون عبيدكم شركاء لكم و تقولون مثلاً أنت مملوكي و المملوك لا يكون شريكاً لمالكه في نفسه و ماله للزومه خروج المملوك عن كونه مملوكاً و هو خلاف الفرض، و توضيح ذلك أنّه لا شكّ أنّ المخلوق كائناً ما كان مملوكاً لخالقه واقعاً و أمّا العبد فهو مملوك لمولاه مجازاً إذ لم يخلقه المولى فإذا كان المخلوق المجازي لا يجوز أن يكون شريكاً لمولاه في نفسه و ماله فكيف يجوز أن يكون المملوك الواقعي أعني به المخلوق شريكاً لخالقه في ألوهيّته، يمكن أن يقال أنّ هذه الآية أصلٌ في الشّركة بين المخلوقين لإفتقار بعضهم إلى بعض و نفيها عن اللّه سبحانه و ذلك أنّه كما قال عزّ وجلّ: **ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُم** فيجب أن يقولوا ليس عبيدنا شركاء فيما رزقنا، فيقال لهم فكيف يتّصور أن تتنزهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم و تجعلوا عبيدي شركائي في خلقي فهذا حكمٌ فاسد لا يقبله العقل السّليم فإذا أبطلت الشّركة بين العبيد و مساواتهم فيما يملكه السّادة و الخلق كلّهم عبيدٌ للّه فيبطل أن يكون شئ من الموجودات شريكاً للّه تعالى في شيءٍ من أفعاله فلم يبق إلاّ أنّه واحد يستحيل أن يكون له شريك إذ الشّركة تقتضي المعاونة و نحن مفتقرون إلى معاونة بعضٍ بعضاً بالمال و الفعل و اللّه تعالى منّزهٌ عنها، و قيل في نزول الآية أنّ المشركين كانوا يقولون في التّلبية، لبيّك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه و ما ملك، فنزلت الآية في ردّهم.

قال بعض المُفسّرين في قوله: **تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ** معناه تخافون عبيدكم أن يشاركوكم في أموالكم كما تخافون الشّريك من نظرائكم، و قيل تخافون أن يرثوكم كما يرث بعضكم من بعض، و قيل معنه تخافونهم كخيفتكم أنفسكم في إتلاف المال بإنفاقه.

أقول معنى الآية ظاهر لا خفاء فيه و هذه الإحتمالات كلّها يرجع إلىٰ أصلٍ واحدٍ كما لا يخفى **كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْاٰيٰاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** أي غرضنا من ذكر هذه الأمثال هو أنّ الإنسان العاقل ينبغي له أن يتّفكر في أ موره و لا سيّما في أمر دينه و لا يتّبع هواه فأنّ متابعة الهوى توجب السُّقوط في الدّنيا و الأخرة.

بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذينَ ظَلَمُوٓا أَهْوٰآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدي مَنْ أَضَلَّ ٱللّٰهُ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرينَ

المراد بالظُّلم في المقام الظُّلم على النّفس و يحتمل أن يكون المراد بالظُّلم على اللّه لأنّ إتّخاذ الشّريك له تعالى ظلمٌ عليه قال اللّه تعالى حكايةً عن لقمان:

وَ إِذْ قٰالَ لُقْمٰانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يٰا بُنَيَّ لٰا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ[١].

و سيأتي الكلام فيه في سورة لقمان و الحاصل أنّ الشّرك باللّه ظلمٌ و أيّ ظلمٍ أقبح من الشِّرك ثمّ بعد إثبات الظّلم لهم أخبر اللّه تعالى أنّهم تبعوا أهوائهم في ذلك لا عقولهم فأنّ العقل لا يحكم بصّحة ذلك قال اللّه تعالىٰ: **أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰيهُ**[٢].

و أمّا قوله: **فَمَنْ يَهْدي مَنْ أَضَلَّ ٱللّٰهُ** فالمراد بالإضلال هو إيكال العبد إلى نفسه لا أنّه تعالى خلقه ضّالاً، و من وكله اللّه إلى نفسه فقد ضلَّ عن سواء السّبيل و ليس له ناصر و لا معين إلاّ الشّيطان اللّعين و هذا هو الخسران المبين.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنيفًا فِطْرَتَ ٱللّٰهِ ٱلَّتي فَطَرَ ٱلنّٰاسَ عَلَيْهٰا لٰا تَبْديلَ لِخَلْقِ ٱللّٰهِ ذٰلِكَ ٱلدّينُ ٱلْقَيِّمُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّٰاسِ لٰا يَعْلَمُونَ

١- لقمان = ١٣
٢- الجاثيه = ٢٣

الخطاب للنّبي و المراد جميع المكلّفين أمرهم اللّه بالإستقامة في الدّين في عباداتهم و الإجتناب عن الإشراك فيها قلنا في معنى اللّغات أنّ الحنف هو الميل إلى الإستقامة و الإعراض عن الضّلال و أمّا الفطرة فهي الخلقة، و فطرة اللّه قيل هي الإسلام، و قيل فطر النّاس عليها و لها و بها بمعنى واحد و تقدير الكلام إتّبع فطرة اللّه التّي فطر النّاس عليها لأنّ اللّه خلق الخلق للإيمان، كما قال: **وَ مَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَ ٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**[1] و منه قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: **كلّ مولودٍ يُولد علىٰ الفطرة و أنّما أبواه يهودّانه و ينّصرانه و يمجّسانه**، و الفطر الشّق إبتداء و اللّه تعالى خلق الخلق للتّوحيد و الإسلام.

و أمّا قوله: **لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ** فقيل في معناه لا تبديل لدين اللّه الّذي أمركم به من توحيده و عدله و إخلاص العبادة له، و قيل المراد نفي الخطأ و قوله: **ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ**، أي المستقيم الذّي يجب إتّباعه **وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**، ذلك لعدولهم عن النّظر فيه و متابعتهم أهوائهم.

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ ٱتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

قوله: **مُنِيبِينَ**، نصب على الحال و تقدير الكلام فأقم وجهك للدّين يامحمّد أنت و المؤمنون منيبين إلى اللّه، و الإنابة الإنقطاع إلى اللّه بالطّاعة و الإنقياد و قوله: **وَ ٱتَّقُوهُ**، أي إجتنبوا معاصيه و أطيعوا أوامره و نواهيه، و قيل معناه و إتّقوا عقابه، **وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ**، بشرائطها التّي أمركم بها فأنّ إقامة الصّلاة الإتيان بها بالشّرائط المقّررة في الشّريعة و قد مرّ الكلام فيها غير مرّةٍ و أنّما خصّ الصّلاة بالذّكر في الآية دون غيرها من الواجبات لكونها أعظم العبادات و أفضلها و أشرفها بحيث إن قبلت قبل ما سواها و إن ردّت ردّ ما سواها و مع ذلك هي أوّل ما يسأل العبد عنه يوم القيامة.

١- الذاريات = ٥٦

و قوله: **وَ لَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**، بالشّرك الجلّي و الخفيّ أعني بـه الرّياء في الصّلاة أو فـي جـميع العـبادات و خـلاصة الكـلام لا يـضرّكـم كـفر المشركين إذا إهتديتم فلا تزر وازرةٌ وزر أخرىٰ و لا تأسفوا على مـن لا يـقبل الحقّ فأنّما عليكم البلاغ فمن إهتدى فـلنفسه و مـن كـفر فأنّ اللّـه غـنيٌّ عـن العالمين، و أنّما قال تعالىٰ **مُنِيبِينَ إِلَيْهِ** و لم يقل تائبين اللّه مثلاً لأنّ التّوبة ترك الذّنب على أجمل الوجوه و أمّا الإنابة فهي رجوع الشّئ مرّةً بعد مرّةٍ سواء كان هناك ذنبٌ أم لم يكن و إن شئت قلت الرّجوع إليه بإخلاص من العمل.

مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ

قيل أنّ الآية نـزلت فـي أهـل الكـتاب مـن اليـهود و النّصارىٰ و الخـطاب للمسلمين نهاهم اللّه عن التّفرق في الدّين و ذلك لأنّ التّفرق في الدّين يوجب الضَّعف و الوهن فيهم كما كان كذلك في أهل الكتاب، و قـوله: **شِيَعًا**، الشّياع الإنتشار و التّقوية يقال شاع الخير أي كثر و قوي و شاع القوم إنتشروا و كثروا.

و قوله: **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** أي يسرّون لإعتقادهم أنّه الحـقّ دون غيره.

أقول نزول الآيـة فـي أهـل الكـتاب لا يـنافي عـموم الحكـم فأنّـا نـرى أنّ المسلمين فرّقوا دينهم و كانوا شيعاً و كلّ حـزبٍ و مـذهبٍ مـنهم بـما لديـهم فرحون و قد أخبر اللّه بذلك رسول اللّه ﷺ أيضاً حيث قال **سَتَفترق أُمتّي علىٰ أثنتين و سبعين فرقةٍ فرقةٌ ناجية والباقي في النّار** فمن الفـرق بـعد رسول اللّه الكيسانيّة و منها زيديّة و مـنها إسـماعيليّة و مـنها غـير ذلك و مـن المعلوم أنّ كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون بل كلّ فـرقةٍ تـنكر الاخـرى فـالحنفي أنكر الشّافعي و هو أنكر المالكي و هو أنكر الحنبلي و هكذا و ليس ذلك إلاّ أنّ كلّ فرقةٍ فرحت بما فيه و هذا من وساوس الشّيطان و أنّـما صـار المسلمون شيعاً لأنّهم بعد موت الرّسول لم يتّبعوا وصيّه و خـليفته أمـيرالمـؤمنين ولذلك

تفرّقوا تفرّق أيادي صبا قالت فاطمة الزّهراء في خطبتها التّي خطبت بها في مسجد الرّسول و هي المشهورة بالخطبة الفدكيّة، وَطاعَتَنا نِظاماً لِلْمِلَّةِ، وَامامَتَنا أَماناً مِنَ الفُرْقَةِ و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

هر كه گريزد زخراجات شام ــــ خاركش غول بيابان شود

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ

و هذا دأب أكثر النّاس حيث أنّهم في الشّدائد يعرفون اللّه ثمّ بعد رفع الشّدة ينكرونها ألا ترى أنّ المريض مادام كونه مريضاً و لا يقدر على النّوم يتّوسل إلى اللّه في جميع الآنات و يطلب منه العافية و أمّا بعد رفع المرض ليس كذلك و هكذا الفقير مادام كونه فقير يتّضرع إلى اللّه و بعد الوصول إلى الغنى ليس كذلك بل يطغي و يعصي بماله و هذا حال كثير من النّاس لولا أكثرهم **وَ قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ** الآية و إن نزلت في الكفّار و المشركين إلاّ أنّ الحكم عامٌ لا إختصاص له بهم، إلاّ أنّهم من أعظم مصاديق الآية لأنّ المؤمن المسلم بعد خروجه من الشّدة و وقوعه في الرّأفة و الرَّحمة لو لم يشكر الخالق لغفلته أو لنسيانه لم يشرك باللّه و هذا بخلاف الكافر فأنّه يرجع إلى شركه باللّه و عبادة الأصنام و الأوثان و هذا من أعظم كفران النِّعمة و أقبحها.



لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

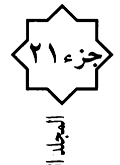
أي أنّهم يشركون باللّه ليكفروا بما أتيناهم من الرّحمة ثمّ خاطبهم و قال فتَّمتعوا، أي إنتفعوا بهذه النِّعم الدّنيوية التّي لا بقاء لها فسوف تعلمون ما فيه من كفركم و معصيتكم من العذاب الدّائم يوم القيامة ففي الآية تهديدٌ و تخويف لمن كان كذلك و إشعار بأنّ الدّنيا و ما فيها من النِّعم لا بقاء لها و إلى اللّه المصير و المستقبل إذا كان محقّق الوقوع فهو في حكم الماضي أي أنّكم و

قعتم بأعمالكم في العذاب و لا تفلحون لإنغماركم في غواشي الطّبيعة و إعراضكم عمّا فيه صلاحكم في الدّنيا و الأخرة.

أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ

قيل المراد بالسُّلطان في الآية الكتاب أي هل أنزلنا عليهم كتاباً يؤيّدهم بكفرهم و شركهم باللّه، و قيل المراد به الحجّة و البرهان، و قيل المراد به النّبي أي هل أنزلنا عليهم حجّةً أو نبيّاً و المأل في الكلّ إلى شئ واحد و هو الحجّة و المقصود أنّ الكفّار لا حجّة لهم و لا دليل على كفرهم و أنّما إختاروا الكفر و عبادة الأصنام بمتابعتهم الشّيطان و أميالهم النّفسانية و حبّهم الدّنيا فليس لهم يوم القيامة من يتكلّم عنهم في صحّة ما سلكوه و إختاروه في الدّنيا و من ليس له دليل فيما إختاره فهو محكوم بالعذاب فالإستفهام يفيد التبكيت و اللّه أعلم.

أقول هذه الآية أيضاً و أن كان مورده خاصّاً بالمشركين و الكفّار إلاّ أنّ مفادها و حكمها عامّ لجميع النّاس مسلماً كان أو كافراً، و ذلك لأنّ المكلّف العاقل لابدّ له من حجّة و سلطان يوم القيامة في دينه و إعتقاده و من ليس كذلك فهو من مصاديق الآية و نحن نرى أكثر المسلمين لا حجّة لهم في إعتقاداتهم و عباداتهم و بالجملة في مذهبهم و دينهم بعد موت الرّسول و المفروض أنّ الرّسول مات و أمّا دينه الذّي أتى به لم يمت فحلاله حلال إلى يوم القيامة و حرامه كذلك فإذا سئلوا يوم القيامة بهذه الآية و طلبوا بالحجّة في مذاهبهم لا جواب لهم إلاّ أن يقولوا: **إِنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلىٰ أُمَّةٍ وَ إِنّا عَلىٰ آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ**[1] و لم يعلموا أنّ هذا القول ليس بمسموح يوم القيامة، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: **إنّي تارك فيكم الثّقلين كتاب اللّه و عترتي أهل بيتي ما إن**



۱- الزّخرف = ۲۳

تمّسكتم بهما لن تضلّوا أبداً لن يفترقا حتّى يردا علّي الحوض فهذا الحديث روته العامّة و الخاصّة بل هو من المتواترات بين الفريقين و هو و أمثاله حجّة على جميع المسلمين فمن أخذ بها أخذ بالحجّة و من تركها لا حجّة له يوم القيامة و ما لهم من ناصرين أمّا كون الحديث حجّة فهو ظاهر لأنّه كلامٌ رسول اللّه و الرّسول حجّة علىٰ الخلق و هكذا كلامه لأنّه ما ينطق عن الهوىٰ إن هو إلاّ وحيٌ يوحى، و أمّا أنّ الحجّة تركها أكثر المسلمين فهو أيضاً واضح لأنّهم لم يتبعوا أهل بيت نبيّهم في دينهم فلا حجّة لهم غداً و هم في جهنّم خالدون.

وَ إِذآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذٰا هُمْ يَقْنَطُونَ

أن قلت ما الفرق بين هذه الآية و ما تقدّم عليها من قوله: **ثُمَّ إِذآ أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً**[1] أليس هذا من التّكرار، قلت كلاّ، و ذلك لأنّ الآية السّابقة أفادت أنّهم اذا مسّهم الضُّر أنابوا الى اللّه و إذا أذاقهم منه رحمة رجعوا الى كفرهم و عنادهم، و أمّا هذه الآية فهي بصدد بيان حكم آخر و هو أنّ النّاس إذا أذاقهم اللّه رحمةً فرحوا بها و إنّ تصبهم سيّئة بسبب أعمالهم يقنطون و القنوط اليأس، و الغرض أنّهم لم يعلموا أنّ ما أصابهم من السّيئة إنّما هو بسبب ما قدّمت أيديهم من الأعمال الّتي صدرت عنهم و ما ربّك بظلام للعبيد وكيف كان، ففي الآية إشارة الى أنّ السّيئات من أنفسنا و الحسنات بتوفيق من اللّه.

و قال القرطبى في تفسيره لهذه الآية، وللآية صفة للكافر يقنط عند الشّدة و يبطر عند النِّعمة كما قيل:

كحمار السُّوء إن أعلفته رمح النّاس و أن جاء نهق

١- الروم = ٣٤

و كثير ممّن لم يرسخ الإيمان في قلبه بهذه المثابة فأمّا المؤمن فيشكر ربّه عند النّعمة و يرجوه عند الشّدة إنتهى كلامه.

و لقائل أن يقول أيّ دليلٍ من العقل أو النّقل دلّ على أنّ الآية صفة للكافر فقط و أمّا المؤمن فليس كذلك نعم ما ذكره يصحّ إذا أريد بالمؤمن، من كان كاملاً في إيمانه كالأنبياء و الأوصياء فأنّهم لم يكونوا كذلك قطعاً و أمّا إذا أُريد بالمؤمن غيرهم فهم داخلون في الآية بلا ريبٍ بل نقول كلّ مؤمنٍ غير ما إستثناه من المعصومين، من مصاديق الآية بحسب مراتب إيمانهم بل ذكره في الآية من طبيعة البشر إلاّ من عصمه اللّه و هو واضح.

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

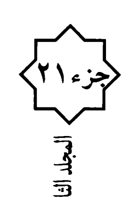
أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ الرّزق بيده فهو تعالى يبسط الرّزق و يسعه لمن يشاء و يقدر و يضيق كذلك فأنّه تعالى خالق الخلق عالمٌ بالمصالح و المفاسد و بسط الرّزق و ضيقه في حقّ العباد من مقتضيات المصالح و المفاسد فقد تقتضي المصلحة في حقّ العبد بسط الرّزق و قد تقتضي ضيقه و اللّه يعلم و هو لا يعلم فحَق العبد أن يقول:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**(١).

بل كثيراً ما يكون بسط الرَّزق لآفة و ضيقة رحمة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**(٢).

فهذه الآية و أمثالها تنادي بأعلى صوتها أنّ تفويض الأمر إليه تعالى في هذا المضمار أحسن و أولى فأنّ اللّه رؤوفٌ بالعباد و في قوله: **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ**



١- غافر = ٤٤
٢- آل عُمران = ١٧٨

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إشارة الى أنّ المؤمن باللّه يعلم أنّ أفعال اللّه تابعة للمصالح و المفاسد و لا قرابة بينه و بين أحد.

فَاٰتِ ذَا ٱلْقُرْبٰى حَقَّهُ وَ ٱلْمِسْكِينَ وَ ٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللّٰهِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

أمر اللّه تعالى رسوله بإيتاء حقّ ذوي القربى و المساكين و إبن السَّبيل ثمّ قال ذلك يعني إعطاء الحقوق المستحقة خيرٌ، للّذين يريدون، في إعطائهم وجه اللّه دون الرّياء و السُّمعة و أولئك هم المفلحون، الفائزون و في الآية مباحث أشرنا إليها في سورة الإسراء عند قوله تعالى: **وَ اٰتِ ذَا ٱلْقُرْبٰى حَقَّهُ**[١] و قلنا هناك أنّ المراد بذي القربى في الآية فاطمة الزّهراء سلام اللّه عليها و أنّ اللّه أمر نبيَّه أن تعطيها فدكاً و أشرنا الى شطرٍ من الأخبار الواردة من طريق أهل البيت عليهم السّلام.

ففي عيون الأخبار أنّه لمّا نزلت الآية على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم قال أدعوا لي فاطمة فدعيت له فقال صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يا فاطمة فقالت لبَّيك يا رسول اللّه فقال هذه فدك لم يوجف عليه بخيلٍ ولا ركابٍ و هي لك خاصّة دون المسلمين و قد جعلتها لك لما أمرني اللّه به فخذيها لك و لولدك.

فالمراد بذي القربى هم الأئمة كما دلّت عليه الأخبار و قد ذكره أيضاً كثير من العّامة و يدخل في الحَّق الخمس أيضاً كما ذكره بعض المفسّرين.

قال الحافظ الحسكاني و هو من أعيان العّامة أنّ المراد بذي القربى في الآية فاطمة و ذكر في كتابه المسّمى (بشواهد التّنزيل) ما يدلّ على ذلك.

فلّما حدثّنا الحاكم الوالد أبو محّمد بأسناده عن عطّية بن أبي سعيد الخدري قال:

١- الإسراء = ٢٦

لمّا نَزَلت وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ أعطىٰ رسول اللّه فاطمة فَدَكاً إنتهى.

و قد ذكر في كتابه أحاديث كثيرة أن شئت فراجعها، و أمّا أهل البيت فأنّهم قد أجمعوا على ذلك و لا خلاف بين مفسّري الشّيعة في أنّ المراد بذي القربى فاطمة و بالحَّق، فدك.

فعن تفسير العياشي عن عبد الرّحمٰن عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لمّا أنزل اللّه: فَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَ ٱلْمِسْكِينَ قال رسول اللّه يا جبرئيل قد عرفت المسكين فمن ذوي القربى قال أقاربك فدعا حسناً و حسيناً و فاطمة عليهم السّلام فقال أنّ ربيّ أمرني أن أعطيكم ممّا أفاء اللّه عليّ أعطيكم فدك إنتهى.

و حيث إنّا ذكرنا في سورة الإسراء الأخبار في الباب فلا نطيل الكلام بذكرها في المقام و قد تكلّمنا في قصّة فدك و ما ناسبها عند شرحنا للخطبة في كتاب مستّقل أن شئت فراجعه.

و أمّا **ٱلْمِسْكِينَ** المسكين فقيل المساكين هم أهل الزّمانة من العميان و العرجان، و المجذومين و جميع أصناف الزُّمناء من الرّجال و النّساء و الصبيان، و قيل المسكين هو الّذي له بلغة من العيش، و قيل الفقير الّذي لا يسئل النّاس و المسكين أجهد منه، و البائس أجهدهم، و غير ذلك من الأقوال و الحَّق أنّ المسكين الفقير.

و أمّا إبن السّبيل فهو الغريب المحتاج و أن كان غنّياً في نفسه في بلده، ففي الآية أمر اللّه تعالى نبيّه أن يعطيهم حقوقهم و الخطاب في الآية و أن كان للنّبي فأنّ المراد به عموم المكلّفين في كلّ عصرٍ و زمان فأنّ إعطاء حَّق المستحقّ واجب على الكُّل و في قوله تعالىٰ: **ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ** إشارة الى إشتراط الخلوص في الإعطاء حتّى يكون المعطي بذلك من

المصلحين، و أمّا الإعطاء لغير وجه اللّه فلا خير فيه و ذلك لأنّ اللّه يتّقبل من المتّقين و قد ورد بذلك ما ورد.

وَ مٰآ اٰتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوا فِيٓ أَمْوٰالِ ٱلنّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ ٱللّٰهِ وَ مٰآ اٰتَيْتُم مِنْ زَكٰوةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللّٰهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ

إعلم أنّ الرّباء في أصل اللّغة الزّيادة قال اللّه تعالى: **فَإِذآ أَنْزَلْنٰا عَلَيْهَا ٱلْمٰآءَ ٱهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ**[1] أي زادت زيادة المتّربي لكن خصّ في الشّرع بالزّيادة على رأس المال لكن لا مطلقاً بل على وجه دون وجهٍ فأن كان صاحب المال إشترط الزّيادة فهو حرام و أن لم يشترط على المقترض الزّيادة و لكّنه أعطى صاحب المال زيادة على رأس ماله يطيب نفسه فهو حلال مباح.

أمّا القسم الأوّل: فلا خلاف في حرمته بين العّامة و الخّاصة و لم يخالف في هذا الحكم أحد من المسلمين بل هو من أعظم المحّرمات و أقبحها و لا كلام لنا فيه.

أمّا القسم الثّانی: يعني به الرّباء الحلال فهو مورد البحث فعلاً و الآية ناظرة إليه.

قال في التّبيان، قال إبن عبّاس هو إعطاء العطيّة ليعطى أكثر منها، لأنّه لم يرد بها طاعة اللّه ونقل عنه أيضاً أنّه قال: هو أن يعطي الإنسان غيره شيئاً لا يطلب أكثر منه فهو مباح و لا يربوا عند اللّه.

و قال إبن طاووس إذا أهدیٰ الرّجل الهديّة ليهدي له أفضل منها فليس فيه أجرٌ و لا وزرٌ، و قيل المعنى في الآية التّزهيد في الرّباء و التّرغيب في إعطاء الزّكاة ثمّ نقل أقوالاً لا نحتاج الى ذكرها إنتهى.

أقول ما ذكرهﷺ في تفسير الآية هو ما ذكره المفسّرون في تفاسيرهم و لا

١-الفصّلت = ٣٩

بأس به و نحن نشرح أوّلاً الفاظ الآية ثمّ نتكلّم فيها فنقول قوله: **وَ مٰآ اٰتَيْتُمْ** بالمَّد قراءة الجمهور و عليها المصاحف فعلاً و قرأ إبن كثير و مجاهد، آتيتم، بغير مدٍّ أي فعلتم، فعلى القول المشهور معنى الكلام فما أعطيتم صاحب المال من الزّيادة من غير شرطٍ ليربوا و يزيدوا في أموالهم بذلك فلا يربوا عند اللّه، أي لا يزكّوا و لا يثيب عليه لأنّه تعالى لا يقبل إلاّ ما أريد به وجهه، و هذا ليس كذلك، و ما آتيتم من زكاةٍ أي من صدقةٍ تريدون به وجه اللّه فأولئك هم المضعفون أي ذلك الّذي يقبله و يضاعفه له عشرة أضعاف أو أكثر، إذا ظهر لك معنىٰ الآية فنذكر ما ورد في الباب.

روىٰ الشّيخ قدّس سرّه في الصّحيح عن إبراهيم بن عمر عن أبي عبد اللّه في قوله تعالىٰ: وَ مٰآ اٰتَيْتُمْ مِنْ رِبًا قال عليه السلام هو هدّيتك الى الرّجل تَطلب الثّواب أفضل منها فذاك رباً يدخل إنتهى.

فقوله لا يربوا عند اللّه يحتمل أن يكون المراد أنّ هذا النُّوع من الرّباء ليس هو الّذي قال اللّه «و حرَّم الرّبا»، و يحتمل أن يكون المعنى ليس ممّا يعطي به الأجر و الثّواب كما يدلّ عليه ما رواه عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال:

الرّباء:

أحدهما: حلال و الآخر حرام فأمّا الحلال فهو أن يقرض الرّجل أخاه قرضاً طمعاً بأن يريد أن يوفيه أكثر ممّا يأخذه بلا شرط بينهما فأن أعطاه أكثر ممّا أخذه على غير شرطٍ بينهما فهو مباح له و ليس له عند اللّه ثواب فيما إقترضه و هو قوله تعالىٰ: فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ ٱللّٰهِ إنتهى.

و أمّا قوله: **وَ مٰآ اٰتَيْتُمْ مِنْ زَكٰوةٍ** يحتمل أن يكون المراد ما يشتمل الواجب و المندوب من وجه اللّه و يحتمل الأضعاف للمال كما في قوله: **وَ تُزَكِّيهِمْ** و قوله: لَا يَرْبُوا عِنْدَ ٱللّٰهِ وَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللّٰهِ فيه دلالة علىٰ توقّف

الأضعاف علىٰ الإخلاص بالنّية و إبتغاء ما عنده سبحانه و أنّ ما لم يعهد به وجه اللّه فليس له ثواب مطلقاً أو ليس له ثواب الأضعاف و هو الحَق فأنّ من يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره.

ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُم مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية الى المراتب الأربعة الّتي لا خلاف فيها ولا يقدر أحدٌ على الإتيان بها إلاّ اللّه تعالى:

أوّلها: الخلق و الإيجاد.

ثانيها: الرّزق.

ثالثها: الموت.

رابعها: الحياة بعد الموت أعني بها البعث كلّها ثابت له بالعقل و النّقل.

أمّا العقل فلا كلام لنا فيه لوضوحه فأنّ كلّ عاقلٍ يعلم ذلك و يحكم عقله به.

أمّا النّقل فللأيات الواردة في الكتاب في الخلق:

قال اللّه تعالىٰ: **بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰآءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰآءُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَ ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمٰآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَ ٱلْأُنْثىٰ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **يٰآ أَيُّهَا ٱلنّٰاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**[٥].

١- المائدة = ١٨ ٢- النّحل = ٤

٣- الفرقان = ٥٤ ٤- النّجم = ٤٥

٥- البقرة = ٢١

و قال تعالىٰ في الرّزق:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرٰاتِ رِزْقًا لَكُمْ**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مٰا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلرَّزّٰاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتينُ**(۳).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا مِنْ دٰآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلّا عَلَى ٱللّٰهِ رِزْقُهٰا**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ فِى ٱلسَّمٰآءِ رِزْقُكُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ**(۵).

و قال تعالى في الموت:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنّٰا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُميتُ وَ نَحْنُ ٱلْوٰارِثُونَ**(۶).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُميتُ وَ إِلَيْنَا ٱلْمَصيرُ**(۷).

قال اللّه تعالىٰ: **يُحْيِي وَ يُميتُ وَ ٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصيرٌ**(۸).

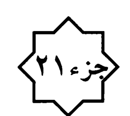
و قال تعالى في الإحياء بعد الموت:

قال اللّه تعالىٰ: **اِعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّٰهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا**(۹).

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقٰادِرٍ عَلىٰٓ أَنْ يُحْيِيَ ٱلْمَوْتىٰ**(۱۰).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذىٓ أَحْيٰاكُمْ ثُمَّ يُميتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنْسٰانَ لَكَفُورٌ**(۱۱).

قال اللّه تعالىٰ: **ٱللّٰهُ ٱلَّذي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُميتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**(۱۲) والأيات كثيرة.



۱- البقرة = ۲۲
۲- النّحل = ۷۳
۳- الذّاريات = ۵۸
۴- هُود = ۶
۵- الذّاريات = ۲۲
۶- الحجر = ۲۳
۷- ق = ۴۳
۸- آل عمران = ۱۵۶
۹- الحديد = ۱۷
۱۰- القيمة = ۴۰
۱۱- الحجّ = ۶۶
۱۲- الرُّوم = ۴۰

و الأيات كثيرة و الأصل في هذه الأمور الأربعة هو الخلق و الإيجاد فإذا كان الخلق بيد الخالق فالرّزق و الموت و الحياة بعده أيضاً بيده و بقدرته فأنّ الخالق يتصرّف في مخلوقه كيف يشاء بمقتضى العقل فمن قدر على الإيجاد قدر على الإماتة و الإحياء.

ثانياً: و في قوله: **هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذٰلِكُمْ** فالإستفهام للإنكار أي ليس منهم من يفعل ذلك، و كلمة، من، في قوله: **مِنْ شُرَكَآئِكُمْ** و قوله: **مِنْ ذٰلِكُمْ** للتّبعيض أي هل يوجد منهم من يفعل بعض ذلك فضلاً عن جميعها مثل أن يقدر على الإيجاد فقط أو على الرّزق أو على الموت و من المعلوم أنّ الجواب منفيٌّ، فإذا كان الأمر علىٰ هذا المنوال و أنّهم لا يقدرون على ذلك فكيف أخذتموهم معبودين و تركتم الخالق الرّازق المميت الّذي على كلّ شيءٍ قدير و هو منزّهٌ عن الشريك و من يعاونه على هذه الأمور إذ المفروض عدم قدرة ما سواه كائناً ما كان على واحدٍ منها فضلاً عن جميعها.

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

الفساد خروج الشّيئ من حدّ الإعتدال قليلاً كان الخروج أو كثيراً و يضادّه الصّلاح و يستعمل ذلك في النّفس و البدن و الأشياء الخارجة عن الإستقامة و هو مذموم عقلاً و شرعاً و ذلك لأنّ خير الأمور أوسطها و الأمّة أمّة الوسط لقوله تعالى: (لتكونوا أمّةً وسطاً) فكلّ ما خرج عن حدّ الإعتدال فهو محكومٌ و الفساد كذلك و لذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَ ٱللّٰهُ لا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ**[1].

١- المائدة = ٦٤

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لاٰ تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ**[٣].

و الأيات في ذمّ الفساد كثيرة و إذا كان الفساد مذموماً فمن إتّصف به أيضاً مذموم، إذا عرفت معنى الفساد و قبحه فنقول، قوله تعالىٰ: **ظَهَرَ ٱلْفَسٰادُ فِي ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ بِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِي** إشارة إلى أنّ الفساد الموجود في الأرض برّها و بحرها أنّما هو من الإنسان لا من غيره لأنّه بجبّه للدنيا و متابعته للهوىٰ يخرج عن حدّ الإعتدال و يظلم على نفسه و على غيره و أمّا سائر الموجودات من الحيوان و النّبات و الجماد فليسوا كذلك و بعبارةٍ أخرى لا شكّ في ظهور الفساد و وجوده في الأرض بالمشاهدة و الحسّ من القتل والنّهب و هتك الأعراض و الزّنا و الرّبا و غيرها من مصاديقه و لابدّ لكلّ فعلٍ من فاعلٍ إذ الفعل لا يوجد بدونه، ثمّ أنّ الفاعل لابدّ أن يكون موجوداً إذ المعدوم لا يوجد شيئاً، ثمّ أنّ الموجود أمّا واجب الوجود و أمّا ممكن الوجود و لا ثالث في المقام.

أمّا الواجب فهو منّزهٌ عن هذه القبائح و هو معلوم و أمّا غيره فالملائكة أيضاً لا يصدر منهم الفساد لعصمتهم فيبقى في المقام الموجودات الأرضيّة و هي تنحصر في الإنسان و الحيوان و النّبات و الجماد و من المعلوم المسلّم عند الكلّ أنّ هذه الأصناف الثّلاثة أيضاً لا يصدر منها الفساد لأنّها يعيشون في الدّنيا على فطرتها و جبلّتها الأصلية الّتي خلقها اللّه عليها مضافاً إلى أنّ الخروج عن حدّ الإعتدال موقوف على العقل لأنّ الإختيار مأخوذٌ في مفهوم

١- الأعراف = ٨٦
٢- الأعراف = ١٤٢
٣- يُونس = ٩١

الخروج فالحيوان الّذي لا عقل له لا يصدق عليه الخروج عنه و هكذا النّبات و الجماد بطريق أولى و إذا كان كذلك و المفروض أنّ الفساد موجود في الأرض فمن أوجده في الخارج، و من فاعل الفعل و المعلول محتاج إلى العلّة و الفعل إلى الفاعل فهو الإنسان لا غيره و هذا معنى قوله: **بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهم** و حيث أنّ الفعل الصّادر من العبد يترتّب عليه الثّواب إن كان حسناً و العقاب و العذاب إن كان من المعاصي و لا معصية أعظم ذنباً من الفساد بعد الشّرك باللّه فلا محالة يتّرتب عليه العذاب إمّا في الدّنيا، و إمّا في الأخرة فقال تعالىٰ: **لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** أي لأذاقهم اللّه تعالى بعض العذاب في الدّنيا لعلّهم يرجعون، عن الفساد و الظّلم إلى العدل و الإحسان فاللاّم في قوله: **لِيُذِيقَهُمْ** للعلّة أو للغاية أي الإذاقة علّة لرجوعهم و هي غاية له و المقصود أنّا أردنا من إذاقة بعض العذاب إيقاظهم عن نوم الغفلة و فيه إيماء إلى أنّ اللّه تعالى لطيفٌ بعباده لا يريد عذابهم حتّى الإمكان فيذيقهم بعض العذاب للتّنبّه و التّيقّظ و هذا يدلّ على كمال رأفته لو كانوا يعلمون.

قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ

هذه الآية في الحقيقة بمنزلة الدلّيل على ما ذكرناه في الآية السّابقة من قوله: **لِيُذِيقَهُمْ** فكأنّه قيل ما الدّليل على أنّ الفساد يوجب العذاب، فقال تعالى قل يامحمّد لهم أي لهؤلاء الكفّار سيروا في الأرض فأنظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبل، من المفسدين في الأرض لتعلموا إنّ حالكم حالهم و مألكم إلى مألهم فأنّ حكم الأمثال واحد فأنّهم عذّبوا في الدّنيا و أهلكوا بسبب شركهم و أنّما قال أكثرهم كانوا مشركين ولم يقل كلّهم كانوا كذلك إذ المؤمن الموحِّد موجود في كلّ عصرٍ و زمانٍ و إن كان قليلاً و ذلك لوجود الحجّة الباطنة و هي العقل و الظّاهرة و هي الأنبياء و الرُّسل فكيف يعقل أن لا

يكون في النّاس مؤمن أصلاً كما لا يعقل أن لا يوجد كافراً أصلاً نعم الكفر و الشّرك و النّفاق غالب على الإيمان أو بالعكس و الأوّل أكثر بل لم توجد غلبة الإيمان على الكفر إلى زماننا هذا.

إن قلت إذا كان كذلك فما ذنب المؤمن و يظهر من الآية أنّ المؤمنين أيضاً عوقبوا و أهكلوا مع المشركين فانّ قوله اكثرهم كانو كذالک يدلّ بالمفهوم على انّ الاقل لم يكونوا مشركين و لم يستثنهم اللّه من الّذين من قبل الّذين أهلكوا.

قلت المؤمن إذا كان في قومٍ مشركين يجب عليه ردعهم و منعهم عن الكفر و الفساد في الأرض فأن لم يقبلوا منه يجب عليه تركهم و الخروج من بلدهم فأنّ أرض اللّه واسعة و الرّازق هو اللّه تعالى، فإذا لم يأمر بالمعروف ولم ينهِ عن المنكر أو لم يتركهم و لم يخرج من بلدهم و بقى معهم على حالهم و أنزل اللّه العذاب على القوم فلا محالة يشمله أيضاً و يوقعه في الهلكة، و قد أشار اللّه تعالى إلى ما ذكرناه حيث قال: **وَ ٱتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَآصَّةً وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّٰهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ**[1] فأنّ هذه الآية صريحة في أنّ العذاب إذا نزل عمَّ الجميع، و يدّل عليه ما ورد من الأخبار أيضاً.

فعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: أوحىٰ اللّه تعالى إلى شعيب النّبي إنّي معذّبٌ من قومك مائة و أربعين ألفاً من شرارهم و ستّين ألفاً من خيارهم فقال ياربّ هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار فأوحىٰ اللّه إليه داهنوا أهل المعاصي فلم يغضبوا لغضبي إنتهى.

فهذا الحديث و أمثاله يفّسر قوله تعالى و إتّقوا فتنةً الأية، و حاصل الكلام أنّ العذاب ينزل على الكافر و غيره إذا لم يعمل غير الكافر بوظيفته.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللّٰهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ

١- الأنفال = ٢٥

الفاء للتّفريع أي إذا كان الأمر على هذا المنوال من جحد أكثر النّاس و إنكارهم التّوحيد و النّبوة و البعث و الحشر للحساب فأقم وجهك للدّين القيّم الّذي لا عوج له و لا تعدل منه يميناً و شمالاً لأنّه لا يضّرك كفر من كفر بعد إتمامك الحجّة عليهم، من قبل أن يأتي يومٌ لا مردّ له و هو يوم القيامة الّذي لا مردّ له أي أنّه واقع لا محالة و لا يقدر أحد على منعه و ردّه و يومئذٍ يصدّعون، أي يتفرّقون فرقة في الجنّة و فرقة في السّعير، و الصَّدع بفتح الصّاد في الأصل الشَّق في الأجسام الصُّلبة كالزّجاج و الحديد و نحوهما يقال صدَّ عنه فإنصدع و صدّعته فتصدّع و عنه أستعير صدَّع الأمر أي فصله و منه قوله تعالى: **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ** ثمّ أوضح اللّه كلامه هذا بقوله:

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ ضرر الكفر يرجع على صاحبه كما أنّ الإيمان و العمل الصّالح نفعه يرجع إليه فأنّ اللّه تعالى غنيٌّ عمّا سواه فلا تضُره معصية من عصاه كما لا تنفعه طاعة من أطاعه و قوله يمهدون، فالتّمهيد و التّمكين و التّوحيد نظائر أي ثواب ذلك و اصل إليهم.

قال اللّه تعالى: **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا**[١].

قال اللّه تعالى: **مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**[٢].

قال اللّه تعالى: **قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي.**

قال اللّه تعالى: **لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ مَآ أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ**[٣].

١- فصّلت = ٤٦ ٢- الإسراء = ١٥

٣- يُوسن = ١٠٨

و الأيات بهذه المضامين كثيرة مضافاً إلى أنّه من الأحكام العقليّة و ذلك لأنّ الغنى بقولٍ مطلق ثابت للّه تعالى فلو فرضنا إحتياجه إلى طاعة العبد يلزم خروجه عن الغنى و دخوله في سلسلة المحتاجين و لا نعني بالممكن إلاّ المحتاج فهو ممكن الوجود و المفروض وجوبه.

لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ

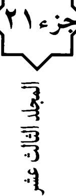
اللاّم في قوله: **لِيَجْزِيَ،** للتّعليل أو الغاية أي أنّ المؤمن يعمل صالحاً للثّواب و الجزاء و هو نفعٌ عائد إليه و قوله: **مِنْ فَضْلِهِۦٓ** أي ممّا يتّفضل عليهم بعد توفية الواجب من الثّواب قاله صاحب الكشّاف.

أقول لا يبعد أن يكون المراد أنّ إعطاء الثّواب على الإيمان و العمل الصّالح للعبد ليس على سبيل الإستحقاق بل هو على سبيل التفضُّل و ذلك لأنّ العبد يجب عليه أن يكون كذلك أداءً لحقّ الشّكر فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً و الشّكر لا يتحقّق إلاّ بالعمل الصّالح فمن أتى به كذلك عمل بوظيفته العقليّة الواجبة عليه و لا يستّحق بذلك شيئاً من الثّواب إذ لو كان مستّحقاً له يجب على اللّه إعطاء حقّه و هذا لايعقل إلاّ بعد ثبوت الحقّ للعبد و المفروض عدم ثبوته إذ أيُّ حقٍّ ثبت له بعمله الذّي كان واجباً عليه الإتيان به عقلاً، إلاّ أنّ اللّه تعالى بمقتضى فضله و كرمه يعطي الثّواب للمطيع و على كلّ حالٍ لا شكّ أنّه تعالى يعطي العبد المطيع الثّواب إمّا على سبيل الإستحقاق كما قال به قومٌ و إمّا على سبيل التفضُّل كما ذهب إليه الأخرون و تظهر ثمرة البحث فيما إذا منعه من الثّواب فعلى القول بأنّ الثّواب على الإستحقاق يلزم الظّلم على العبد لمنعه عن حقّه و على التفضّل لا يلزم الظّلم إذ المفروض عدم إستحقاقه و القول بالتفضّل أقوى و أقرب إلى العقل إذا ايجاب الثّواب مشكل و اللّه أعلم و قوله: **إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ** معناه لا يحبّ أعمالهم إذ لا يعقل أن يكون

العبد في حدّ ذاته مع قطع النّظر عن عمله مبغوضاً لخالقه إذ لو كان كذلك لما خلقه نعم أنّه محبوبٌ في ذاته مبغوضٌ لعمله و الدّليل على ما ذكرناه هو أنّ اللّه أرسل الرُّسل لهدايته و إرشاده إلى الحقّ على قاعدة اللّطف و هو دليل على أنّ اللّه تعالى لطيفٌ بعباده إلاّ أنّ العبد بسبب كفره و ظلمه و إنحرافه عن طريق الحقّ و إنكاره الخالق يصير مبغوضاً مطروداً و هذا ممّا لاشكّ فيه فأنّ العمل له دخلٌ في ذلك إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً.

■

وَ مِنْ اٰيٰاتِهٖٓ أَنْ يُرْسِلَ ٱلرِّيٰاحَ مُبَشِّرٰاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿۴۶﴾ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلٰى قَوْمِهِمْ فَجٰآءُوهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَانْتَقَمْنٰا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكٰانَ حَقًّا عَلَيْنٰا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿۴۷﴾ ٱللّٰهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيٰاحَ فَتُثِيرُ سَحٰابًا فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمٰآءِ كَيْفَ يَشٰآءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلٰالِهِ فَإِذٰآ أَصٰابَ بِهِ مَنْ يَشٰآءُ مِنْ عِبٰادِهٖٓ إِذٰا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿۴۸﴾ وَ إِنْ كٰانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿۴۹﴾ فَانْظُرْ إِلٰىٓ اٰثٰارِ رَحْمَتِ ٱللّٰهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰآ إِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتٰى وَ هُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿۵۰﴾ وَ لَئِنْ أَرْسَلْنٰا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿۵۱﴾ فَإِنَّكَ لٰا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتٰى وَ لٰا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعٰآءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿۵۲﴾ وَ مٰآ أَنْتَ بِهٰادِ ٱلْعُمْيِ عَنْ ضَلٰالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلّٰا مَنْ يُؤْمِنُ بِاٰيٰاتِنٰا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿۵۳﴾ ٱللّٰهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مٰا يَشٰآءُ وَ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿۵۴﴾ وَ يَوْمَ تَقُومُ ٱلسّٰاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مٰا لَبِثُوا غَيْرَ سٰاعَةٍ كَذٰلِكَ كٰانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿۵۵﴾ وَ قٰالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ



وَ ٱلْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَ لَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَ لَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

◀ اللّغة

ٱلرِّيَاحَ: بكسر الرّاء جمع ريح و هو الهواء المتّحرك.

فَٱنْتَقَمْنَا: النّقمة العقوبة.

كِسَفًا: بكسر الكاف و فتح السّين جمع كسفة، بكسر الكاف و سكون السّين و فتح الفاء نحو سدرة و سدر و الكسفة قطعة من السّحاب.

ٱلْوَدْقَ: بفتح الواو و سكون الدّال و القاف المطر.

لَمُبْلِسِينَ: أي قانطين يائسين.

مُصْفَرًّا: الإصفرار لونٌ بين الحمرة و البياض.

وَلَّوْا: أعرضوا.

◀ الإعراب

حَقًّا خبر كان مقدّم على اسمها **نَصْرُ** إسمها و يجوز أن يون حقّاً مصدراً و **عَلَيْنَا** الخبر و يجوز أن يكون في، كان، ضمير الشّأن و، **حقّاً** مصدر و، **علينا نَصر**، مبتدأ و خبر في موضع خبر كان، **مِنْ قَبْلِهِ** يتّعلق بينزل و الباقي واضح.

◀ التّفسير

وَ مِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَ لِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

أي و من الأدلّة الدالّة علىٰ توحيده و وجوب إخلاص العبادة له تعالى إرسال الرّياح مبشّرات بالغيث و المطر و إرسال الرّياح تحريكها و إجرائها في الجهات المختلفة شمالاً و جنوباً و صباء و دبوراً.

قال فريد وجدى في دائرة المعارف، الرّياح واحدها ريح و هو تيار الهواء و الرّحمة و النُّصرة و الدَّولة و الرّياح أربع، هي الجنوب و هي القبليّة، و الشّمال و هي البحريّة، و الصباء و هي الشرقية و الدبّور، و هي الغربيّة و زادوا ريحاً خامسة و هي الّتي لا يتعيّن لها مهبّ و هي النّكباء و هذا عند العرب، و قال في سبب الرّياح، قد يحدث أنّ قطعة من الأرض تسخن بالأشعّة الشمسيّة أكثر من غيرها لسببٍ من الأسباب فيسخن الهواء الّذي فيها سخونة تؤديّه الىٰ التَّخلخل فيخفّ ثقله فيصعد الى فوق فيحدث في محلّه فراغ فتندفع كتلةً من الهواء في محلّ ذلك الهواء المتصاعد لتسدّده فتداعي الأهوية الواحدة بعد الأخرىٰ في الأحياز الّتي تخلوا فيحدث إضطراب في الهواء هو الرّياح و قد قسَّم الطبيعيُّون الأهوية الى ثلاثة أقسام:

أهوية ثابتة، أهوية دوريّة، و أهوية غير منتظمة فالمنتظمة تهبّ على سطح الأرض من المنطقتين المعتدلتين من الكرة الأرضية نحو خطّ الإستواء فيتقابلان هناك و فوق هذين التّيارين الهوائيين تيارات أخرى تهّب من خط الإستواء الى القطبين فتبتدي عالية ثمّ تهبط رويداً رويداً حتّى تلامس الأرض، و أمّا الرّياح الدوريّة فهي رياح تهبّ صيفاً على أكثر الملك من البحر الى الأرض و شتاءً من الأرض الى البحر و هذه الرّياح أظهر ما تكون في الهند.

و أمّا الرّياح غير المنتظمة فلم تزل أسبابها مجهولة و هي تأتي فتخلّ سير الياح الدوريّة و الثّابتة إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره في تقسيم الرّياح لا بأس به و أمّا ما ذكره في سبب الرّياح فهو مجرّد حدسٍ لا دليل عليه و الحقّ أنّ السَّبب فيها لا يعلمه إلاّ اللّه و كيف كان سببها، لا شكّ في وجود الرّيح و هو يكفينا في المقام فأنّ البحث في وجود الشّيئ و آثاره المترتّبة عليه لا في علّته أو سببه تكويناً نعم إنّا لا نشكّ في أنّ الرّياح تحت قدرة خالقها كالمطر و سائر الحوادث و لذلك قد توجد و قد لا توجد، و الآية صريحة في أنّ اللّه تعالى هو المرسل للرّياح كما أنّه تعالى مرسل الرُّسل.

قال بعض المفسّرين في تفسير الآية أنّ من الأدلّة على توحيده و وجوب إخلاص العبادة له تعالى هو إرساله الرّياح مبشّرات بالغيث و المطر و إرسالها تحريكها و إجراءها في الجهات المختلفة شمالاً و جنوباً و صباءً و دبوراً على حسب ما يريده اللّه و يعلم فيه من المصلحة و ذلك ممّا لا يقدر عليه غيره تعالى فأنّ العباد و أن قدروا على جنس الحركة فلو إجتمع جميع الخلائق من الجنّ و الإنس على أن يردّوا الرّيح إذا هبّت شمالاً الى كونها جنوباً و بالعكس لما قدروا عليه فمن قدر على ذلك يعلم أنّه قادر لنفسه لا يعجزه شئ، مستحقٌّ للعبادة خالصةً له و أنّما سمّاها مبشّرات لأنّها بمنزلة النّاطقة إذا بشّرت بأنّه يجئ مطر و غيث يحيى به الأرض لما فيها من إظهار هذا المعنى و دلالتها على ذلك بجعل جاعلٍ إنتهى كلامه إذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير ألفاظ الأية.

فقوله تعالىٰ: **مُبَشِّرَٰتٍ** معناه واضح ثمّ رتّب على كونها مبشّرات أموراً.

أحدها: قوله **لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ** و فيه دلالة على أنّها رحمة على العباد لا نقمة و عذاب.

ثانيها: و لتجري الفلك بأمره.

ثالثها: قوله **وَ لِتَبْتَغُوا** أي و لتطلبوا من فضله.

رابعها: **وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** على هذه النّعمة أي لكي تشكرون، فأنّ التَّرجي لا معنى له في حقّ اللّه تعالى ثمّ بعد ذلك خاطب نبيّه على وجه التَّسلية من قومه في تكذيبهم أيّاه.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلٰى قَوْمِهِمْ فَجٰاءُوهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَانْتَقَمْنٰا مِنَ اَلَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كٰانَ حَقًّا عَلَيْنٰا نَصْرُ اَلْمُؤْمِنِينَ

أخبر اللّه في هذه الآية أنّ تكذيب النّاس الأنبياء كان سيرة مستمرة لهم من عهد آدم الى خاتم الأنبياء و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام و كان على ذلك دأبهم و ديدنهم مع أنّ الأنبياء قد جاؤوهم بالبيّنات و الشّواهد الدّالة على صدقهم من المعجزات و الكرامات و خوارق العادات.

فَانْتَقَمْنٰا مِنَ اَلَّذِينَ أَجْرَمُوا أعني بهم المكذّبين المنكرين و في الآية إشارة الىٰ أنّ الإنتقام من المجرمين المفسدين في الأرض كان بعد إرسال الرسّل اليهم بالبيّنات لا قبله و ذلك لأنّ العذاب بعد الحجّة لا قبلها و النَّقمة العقوبة و في قوله: **فَانْتَقَمْنٰا** إشارة الى ما أنزل اللّه على الأمم السّالفة أنواع العذاب بعد تماميَّة الحجّة بسبب الأنبياء و الرُّسل تارةً بالغرق كما في قوم فرعون:

وقال اللّه تعالىٰ: **فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنٰاهُمْ فِى اَلْيَمِّ**(۱).

و تارّةً بالطّوفان كما في قوم نوح و تارّةً بالخسف كما في قارون و تارّة بالرّيح كما في قوم عاد:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمّٰا عٰادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عٰاتِيَةٍ**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا مِنَ اَلْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ**(۳) والآيات كثيرة.

۱- الأعراف = ۱۳۶
۲- الحاقّة = ۶
۳- السُّجدة = ۲۲

ثمّ بعد ذلك قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ** أي كما أنّه كان حقّاً علينا الإنتقام من المجرمين كذلك حقّ علينا نصر المؤمنين المصدّقين بالتّوحيد و النبوة و الوجه في الإنتقام من المجرم و النّصر للمؤمن، و هو أنّ المجرم مفسدٌ في الارٔض و العقل يحكم بوجوب دفعه عقلاً لمن قدر عليه و اللّه تعالى قادرٌ عليه فيدفعه و أمّا المؤمن فهو مصلح في الأرض فيجب إعانته.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَ ٱلتَّقْوَىٰ وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَ ٱلْعُدْوَانِ**[١].

و إذا كان اللّه تعالى أمر عباده بالإعانة على البّر و نهاهم عن الإعانة على الإثم فهو تعالى أحقّ بالعمل بهذين الحكمين لقوله تعالى: **لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ**[٢] و حيث أنّ المجرم من أعظم مصاديق الاثم و الجرم إثم، و أنّ الإيمان من أعظم مصاديق البّر فعلى اللّه تعالى دفع المجرم و نصر المؤمن عقلاً و قد أشار اللّه تعالى إلى الحكمين في كثير من الأيات.

أمّا الإنتقام فقد أشرنا إلى شطرٍ ممّا ورد فيه و أمّا النُّصرة للمؤمنين:

قال اللّه تعالىٰ: **يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنْ تَنْصُرُوا ٱللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَنْصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا**[۴] وغيرها من الأيات.

ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّه **يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا** أي يقلبه و يهيّجه من مكانه من قولهم ثار الغبار يثور ثوراناً هاج و منه ثارت الفتنة أي

١- المائدة = ٢
٢- الصّف = ٢
٣- محمّد = ٧
۴- الفتح = ٣

هاجت و منه قوله تعالى: **وَ أَثَارُوا ٱلْأَرْضَ** أي قلّبوها للزِّراعة و عمّروها بالفلاحة و في الحديث **ثارت قُريش بالنّبي فَخَرج من مكّة هارباً** و معنى الآية أنّ الرّياح تثير السّحاب أي تحرّكه من مكانٍ إلى مكانٍ أخر أو تنشرها فيبسطه في السّماء كيف يشاء و يجعله كسفاً أي قطعاً فأنّ **الكِسف** بكسر الكاف و فتح السّين جمع كسفة بكسر الكاف و سكون السّين و فتح الفاء مثل سدرة و سدر و الكسفة القطعة من السّحاب و في الكلام دلالة على أنّ الرّياح تجعل السّحاب قطعاً أي تجعله قطعةً قطعةً فترى الودق يعني المطر يخرج من خلاله أي من خلال السّحاب فإذا أصاب به أي بذلك المطر من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون أي أنّ العباد يفرحون بالمطر و يبشر بعضهم بعضاً به.

وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ

أي و أن كان النّاس من قبل أن ينزّل عليهم المطر من قبله لمبلسين أي قانطين يائسين، بيّن اللّه تعالى في هاتين الأيتين كيفيّة نزول المطر ففي قوله: **وَ يَجْعَلُهُ كِسَفًا** نكتة خفيّةٌ و هي أنّ إنتشار السّحاب و تفرّقه من حيث الأجزاء لأجل أنّ المطر ينزل في أمكنةٍ مختلفة على ما إقتضته المصلحة و لولا إثارة الرّياح إيّاه لكان المطر في مكانٍ واحدٍ و من المعلوم أنّ الرّياح من الأسباب لا أنّها تنشئ السّحاب و توجدها كما ذهب إليه بعض المفسّرين حيث قال في تفسير كلامه **فَتُثِيرُ سَحَابًا**، أي تنشئ سحاباً قال فإنشاء السّحاب و أن كان من فعل اللّه لكن لمّا كان السّحاب سبباً منه جاز أن يسند إليه إنتهى كلامه.

أقول كأنّه فسّر الإثارة بالإنشاء ولم يقل به أحد من أهل اللّغة و المعنى ما ذكرناه و أنّ اللّه تعالى سلّط الرّياح على السّحاب بإثارتها إيّاه لإنزال المطر حيث تقتضي المصلحة من نقاط الأرض، ثمّ أنّ السّحاب يوجد من الأبخرة المتصاعدة إلىٰ السّماء من البحور لا أنّه من منشأت الرّياح كما ذكره ثمّ قال و قوله: **مِنْ قَبْلِهِ** في الموضعين، فيه قولان:

أحدهما: أنّه للتّوكيد و الأخر من قبل الإرسال.

الأوّل: من قبل الإنزال.

أقول أمّا الوجه الأوّل و هو التّوكيد لا نفهم معناه و أيُّ إحتياج إلى التّوكيد في موضعٍ لا شكّ لأحدٍ أنّ المطر و إنزاله من اللّه تعالى.

الوجه الثّاني: و هو الأخر من قبل الإرسال و الأوّل من قبل الإنزال، أيضاً لا نفهم معناه بل هو شكل من القول بالتّوكيد و ذلك لأنّ اليأس قبل نزول المطر لا كلام فيه و أمّا قبل الإرسال لا معنى له، فأنّ اليأس قبل الإرسال إن كان المراد به إرسال الرّياح فهو موجود قبل الإنزال لأنّ الإرسال قبل نزول المطر على الفرض و إن كان المراد بالإرسال هو الإنزال فاليأس قبلهما واحد و بعبارةٍ اخرى ليس في المقام إلاّ يأسٌ واحد و ليس في المقام يأسان أحدهما قبل الإنزال و الأخر قبل الإرسال.

هذا و نقل القرطبي في تفسيره لهذا الكلام من قطرب أنّه قال، أنّ قبل الأولى للإنزال و الثّانية للمطر، و أنت ترى أنّ هذا أيضاً لا معنى له و أظنّ أنّ القائل به أيضاً لم يفهم ما قال فأنّ اليأس الثّابت قبل الإنزال هو بعينيه قبل المطر و ليس بين المطر و إنزاله فرق حتّى يقال كانوا يائسين قبل الإنزال و قبل المطر.

و قال صاحب الكشّاف، من قبله من باب التّكرير و التّوكيد و معنى التّوكيد فيه الدّلالة على أنّ عهدهم بالمطر قد تطّاول و بعد فإستحكم يأسهم و تمادى إبلاسهم فكان الإستبشار على قدر إغتمامهم بذلك إنتهى.

أقول اللّه أعلم ما قال صاحب الكشّاف فإنّا بعد التّعمق و التّدبر في كلامه لم نفهم شيئاً.

و قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه عن الكشّاف و القرطبي ما هذا لفظه و الأولى أن يقال من قبل أن ينزل عليهم من قبله أي من قبل إرسال الرّياح و ذلك

لأنّ بعد الإرسال يعرف الخبير إنّ الرّيح فيها مطر أو ليس، فقبل المطر إذا هبَّت الرّيح لا يكون مبلساً فلمّا قال من قبل أن ينزل عليهم لم يقل أنّهم كانوا مبلسين لأنّ من قبله قد يكون راجياً غالباً على ظنّه المطر برؤية السّحب و هبوب الرّياح فقال **مِنْ قَبْلِهِ** أي من قبل ما ذكرناه من إرسال الرّيح و بسط السّحاب إنتهى كلامه.

أقول إنّه لم يأت بشيءٍ جديد في حلّ الإشكال إلاّ تغيير الألفاظ كما هو دأبه في كتبه بل نقول أنّه زاد في الطّنبور نغمةً أخرىٰ.

و نحن أعرضنا عن ذكر ما يرد على ملّفقاته حذراً عن الإطناب و إنّا بعد الفحص في كلماتهم في تفسير الآية عن التّفاسير الموجودة عندنا لم يحصل لنا ما يطمئن به القلب لأنّ كلّ واحدٍ منهم نقل في تفسيره ما نقله الأخر قبله و الأصل المعتمد عند العامّة هو تفسير الكشّاف و هو كما ترى كما أنّ الأصل في تفاسير الشّيعة، هو تفسير التّبيان للشّيخ الطّوسيقدس سره و قد نقلنا ما ذكرهقدس سره من الوجهين في صدر الكلام.

و أمّا الطّبرسيقدس سره فهو نقل ما نقل في تفسيره عنه و قس على ما ذكرناه غيرهم ممّن تأخّر عنهم من العامّة و الخاصّة قال بعض المعاصرين في تفسيره بعد أن إختار التّأكيد ما هذا لفظه:

و فائدة التّأكيد على ما قيل الإعلام بسرعة التقلُّب في قلوب البشر من اليأس إلى الإستبشار و ذلك أنّ قوله: **مِنْ قَبْلِهِ** أن ينزل عليهم يحتمل الفسحة في الزّمان فجاء (من قبله) للدّلالة على الإتّصال و دفع ذلك الإحتمال ثمّ نقل ما ذكره في الكشّاف و غيره إنتهى.

و الّذي نقول به في المقام بعد نقل الأقوال الّتي لا طائل تحتها أنّ المقام صعبٌ جدّاً فالأولى التّوقف و إيكال معنى الكلام في وجه التّكرار إلى اللّه تعالى.

فَانْظُرْ إِلَىٰٓ اٰثٰارِ رَحْمَتِ ٱللّٰهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰآ إِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتٰى وَ هُوَ عَلٰى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ

لمّا ذكر اللّه تعالى في الأيات السّابقة كيفيّة نزول المطر و إستبشار النّاس به أفاد في هذه الآية أنّ المطر رحمة من اللّه و به حياة الأرض بعد موتها بسبب عدم المطر و هو، أي اللّه تعالى على كلّ شيٍ قدير و قد مرَّ الكلام منّا سابقاً في معنى الحياة و الموت و أقسامها و أنّ حياة كلّ شيٍ و مماته بحسبه و معنى الكلام في قوله: **إِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتٰى** أي مثلَ ذلك يحيي الموتى بعد أن كانوا جماداً و هو على كلّ شيٍ قدير، و على هذا فالمراد بالموتى في الآية هو موتى الإنسان و المعنى كما أنَّ اللّه يحيي الأرض بعد موتها بسب لمحيى النازلة عليها كذلك يحيي الموتى بعد موتهم و ذلك لقدرته تعالى على كلّ شيٍ و هو واضح.

وَ لَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ

الأصفر لونٌ بين الحمرة و البياض و هو من النّبات الّذي يصفَر بالرّيح للجاف و يحوّل عن حال الأخضرار فيصير إلى الهلاك و يقنط صاحبه الجاهل بتدبير ربّه في ما يأخذ به من الشّدة بأمره تارةً و الرّخاء أخرى ليصحّ التّكليف بطريق الترغيب و التَّرهيب و معنىٰ، ظَلّ، يفعل أي جعل يفعل في صدر النّهار و هو الوقت الّذي فيه إلى ظلّ الشّمس و الضّمير في قوله: **فَرَأَوْهُ**، يرجع إلىٰ الرّيح و هو ممّا يجوز تذكيره كما يجوز تذكير كلّ مؤنّثٍ غير حقيقي و قيل يرجع على السّحاب.

و قال إبن عبّاس إلى الزّرع و هو الأثر فالمعنى فرأوا الأثر مصفّراً و إصفرار الزّرع بعد إخضراره يدلّ على يبسه و كذا السّحاب يدلّ على أنّه لا يمطر و الرّيح على أنّها لا تلقح و قوله: **لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ**، أي ليظلون و حسن وقوع الماضي في موضع المستقبل لما في الكلام معنى المجازاة و هي لا

تكون إلاّ بالمستقبل قاله الخليل و غيره فقد تحصّل ممّا ذكرناه أنّ في الآية إخبار عن حال تقلّب إبن أدم و أنّه بعد الإستبشار بالمطر بعث اللّه ريحاً فإصّفر بها النّبات، لظلوا يكفرون، قلقاً منهم و لم يعلم أنّ الرّازق هو اللّه تعالى لا المطر و لا الرّيح و لا النّبات و من كان كذلك فهو ضعيف الإيمان و لذلك يكفر باللّه بمجّرد رؤيته الإصفرار في النّبات و لا يعلم أنّ الأمور بيد اللّه و تحت قدرته على أساس المصلحة.

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَ لَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ

الصَّمم فقدان حاسّة السَّمع و به يوصف من لا يصغي الى الحق و لا يقبل:

قال اللّه تعالىٰ: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ أَنْتَ بِهَادِى ٱلْعُمْىِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ**[٣].

و غيرها من الأيات و المراد بالموتى ليس من في القبور بل المراد بهم من مات قلبه فلا يقبل الحقّ كما أنّ المراد بالصُّم ليس من فقد حاسّته بحيث لا يسمع بل المراد من يسمع الكلام ولا يتّرتب عليه أثاره فهو من قبيل قوله: **وَ لَهُمْ اٰذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَآ** و قوله: **إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ** معناه إذا أعرضوا عن أدّلتنا و عن الحقّ غير طالبين سبيل الرّشاد فأنّ الإدبار عن الشّئ الإعراض عنه.

وَ مَآ أَنْتَ بِهَادِ ٱلْعُمْىِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِاٰيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ

العُمى بضّم العَين و سكون اللاّم و الياء جمع أعمى و قد يجمع على عميان.

١- البقرة = ١٨ ٢- البقرة = ١٧١
٣- النّمل = ٨١

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ إِذاٰ ذُكِّرُوا بِاٰيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهاٰ صُمًّا وَ عُمْيَانًا**(١).

ثمّ أنّ العمى قد يقال في إفتقاد البصر كما يقال فلان أعمى أي لا يرى بحاسّة العين و قد يقال أعمى لمن لا بصيرة له فهو أعمى القلب و يقال في الأوّل أعمى و في الثّاني أعمى وعم، و على الأوّل.

قال اللّه تعالىٰ: **عَبَسَ وَ تَوَلَّىٰٓ، أَنْ جاۤءَهُ ٱلْأَعْمىٰ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمىٰ حَرَجٌ وَ لا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ**(٣).

و على الثّاني:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمىٰ وَ ٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُماتُ وَ ٱلنُّورُ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ كاٰنَ في هٰذِهِ أَعْمىٰ فَهُوَ فِى ٱلْاٰخِرَةِ أَعْمىٰ وَ أَضَلُّ سَبِيلًا**(٥).

و الأوّل إسم فاعل و الثّاني قيل هو مثله و قيل هو أفعل، من كذا الّذي للتّفصيل لأنّ ذلك من فقدان البصيرة إذا عرفت هذا فمعنى الآية أنّ اللّه تعالى أخبر نبيّه بأنّه لم يقدر على هداية أعمى القلب عن ضلالته إلاّ أن يشاء اللّه و هذا واضح لمن تأمّل في المقام فأنّ التّصرف في القلب لا يمكن لأحدٍ غير خالقه الّذي هو مقلّب القلوب و الأبصار و لذلك نفى اللّه تعالى ذلك في كثيرٍ من الأيات عن نبيّه فضلاً عن غيره.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنْ جَعَلْنٰاهُ نُورًا نَهْدي بِهِ مَنْ نَشٰاۤءُ مِنْ عِبٰادِنا**(٦).

١- الفرقان = ٧٣ ٢- عَبس = ٢
٣- النُّور = ٦١ ٤- الرّعد = ١٦
٥- الإسراء = ٧٢ ٦- الشُّورىٰ = ٥٢

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّكَ لا تَـهْدي مَـنْ أَحْـبَبْتَ وَ لٰكِـنَّ ٱللّٰـهَ يَـهْدي مَـنْ يَشٰآءُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَ لَوْ كٰانُوا لا يَعْقِلُونَ**[٢] وغيرها من الأيات.

و أمّا قوله: **إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِاٰيٰاتِنٰا فَهُمْ مُسْلِمُونَ** فكلمة، إن، نافية و تُسمع بضّم التّاء من أسمع يسمع إسماعاً و أي و لا تسمع إلاّ المؤمن بأياتنا فهم مسلمون منقادون لك، و الوجه فيه أنّ المؤمن ببركة الإيمان صار قلبه نورانيّاً قابلاً لقبول الحقّ و إذا كان كذلك فهو مطيع للّه و رسوله فلا محالة يؤثّر الكلام في قلبه فأنّ من شرائط العلّة في المعلول قابليّته للتأثُّر و لا يكفي وجوده فقط ألا ترى أنّ النّار لا تحرق الحجر مع أنّها كاملة في عليّة الإحراق فعدم إحراقها له ليس لنقصٍ في عليّة النّار للإحراق بل لنقصٍ في المعلول و هو الحجر و هو عبارة عن عدم قابليّته للإحتراق و هكذا الأمر في الإنسان فليس كلّ موعظة يؤثّر في قلب كلّ إنسانٍ كما لم تؤثّر موعظة النّبي في قلب أبي لهب و أبي سفيان و أمثالهما و أمّا المؤمن أمثال سلمان و أبي ذر و المقداد و غيرهم فقد أثَّرت مواعظ النّبي في قلوبهم فصاروا من المقرّبين، و لنعم ما قال الشّاعر بالفارسيّة:

بر سيه دل چه سود خواندن وعظ   نرود ميخ آهنين در سنگ

اَللّٰهُ ٱلَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مٰا يَشٰآءُ وَ هُوَ ٱلْعَليمُ ٱلْقَديرُ

أشار اللّه تعالى في هذه الآية إلى مراتب تطّور الإنسان طول حياته بعد الخلق، فأشار أوّلاً إلى أنّه تعالى خالق الإنسان، بقوله: **اَللّٰهُ ٱلَّذي خَلَقَكُمْ** و

١- القصص = ۵۶   ٢- يُونس = ۴٢

تقديم المسند إليه و هو اللّه، على المسند و هو الخلق يفيد الحصر و الإختصاص أي أنّ الخالقيّة منحصرةٌ به تعالى و لا يقدر على الخلق و الإيجاد غيره و من المعلوم أنّ مرتبة الإيجاد هي الأصل و سائر المراتب فرعٌ عليها، فهذه هي المرتبة الأولى.

الثّانية: قوله: **مِنْ ضَعْفٍ**، أي خلقكم من ضعفٍ، قيل المراد به النُّطفة، وقيل المراد به حال الطفوليّة و النَّشأ حتّى بلغ وقت الإحتلام قاله صاحب الكشّاف، و الحق أنّ المراد به النُّطفة لا حال الطفوليّة و أن كان الطِّفل متّصفاً به كما زعمه الزّمخشري و ذلك لأنّ البحث فيما خلق اللّه الإنسان منه و هو الضَّعف وليس إلاّ النّطفة يدلّ عليه قوله: **مِنْ ضَعْفٍ**، و من المعلوم أنّ الإنسان لم يخلق من حال الطفولية حتّى يحمل الكلام عليه نعم هو بعد الخلق منها يصير طفلاً و هو متّصف بالضَّعف و حاصل الكلام أنّ قوله من ضعفٍ إشارة إلى مادّة خلقته و هي النُّطفة بلا كلام و أعلم أنّ الضَّعف خلاف القوّة و هو قد يكون في النّفس و قد يكون في البدن و قيل الضَّعف بفتح الضّاد و بضّمها لغتان.

و قال الخليل هو بالضّم في البدن و بالفتح في العقل و الرّأي و منه.

قوله تعالىٰ: **فَإِنْ كَانَ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا**[١].

و قال الفرّاء الضَّم لغة قريش و الفتح لغة تميم.

و قال الجوهري الضَّعف بالفتح و الضّعف بالضّم خلاف القوّة و لا فرق بين اللُّغتين في المعنى، و كيف كان فالضَّعف بفتح الضّاد في الآية و عليه إجماع الفرّاء و المفسّرين و عليه المصاحف كلّها و حمله على ضعف العقل و الرّأي كما ذكره الخليل بعيدٌ عن الصَّواب و أن كان ما ذكره حقٌّ في غير هذه الآية و ذلك لأنّ اللّه تعالى في هذه الآية أشار الى خلق الإنسان و ما يتَّرتب عيله طوراً

١- البقرة = ٢٨٢

بعد طور و لا يعقل أن يقال أنّ الإنسان خلق ضعيف الرّأي و العقل اللّهم إلاّ أن يقال أنّ الإنسان في ذاته و نفسه قليل العقل و ضعيف الرّأي و عليه يحمل قوله: **خُلِقَ ٱلْإِنْسٰانُ ضَعِيفًا**[١].

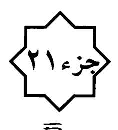
و من المعلوم أنّ المخلوق إنساناً كان أو غيره ضعيف في حدّ ذاته و إن شئت قلت كلّ مخلوقٍ ضعيفٌ في جميع شئونه، و هذا و أن كان صحيحاً في موضعه إلاّ أنّ المقام أعني به هذه الآية الّتي نحن بصدد تفسيرها لا يعقل حملها على ما ذكرناه نعم لو قال اللّه الّذي خلقكم ضعيفاً، لكان له وجه و حيث لم يقل ذلك بل قال خلقكم من ضعفٍ، و كلمة، من، نشأية فمعناه خلقكم من شئٍ ضعيف و هو لا يكون إلاّ النطّفة الّتي هي مادّة خلقه و ضعفها ظاهرةٌ إذ لا قوّة لها ما دام كونها نطفة.

المرتبة الثّالثة: قوله: **ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا** قيل هو إشارة الىٰ مقام الطُّفولية، فأنّ الإنسان الى وقت الإحتلام و بعده الى وقت الشّيخوخة له قوّة و كمالٌ و نشاط و يعبّر عنه بأيّام الشّباب و هذه الأيام من أحسن الأيّام في مدّة عمره.

المرتبة الرّابعة: قوله: **ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً**، و هذه المرتبة آخر المراتب و إن شئت قلت أيّام المصيبة و هذه المرتبة هي الّتي يقول بلسان حاله أو مقاله.

فيا ليت الشّباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

ثمّ قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ**، أي هو العالم بمصالح الخلق و القادر على إيجاد كلّ شئٍ كيف يشاء إذا فرغنا من تفسير ألفاظ الآية فلا بأس بالإشارة إلى ما يترتّب علىٰ هذه المراتب و هي مرتبة الطُّفولية و مرتبة الشّباب و مرتبة الشّيخوخة فنقول:



١- النّساء = ٢٨

أمّا الأولى منها و هي الطفوليّة فلاكلام لنا فيها لأنّ الإنسان في هذه المرتبة لا تكليف له عقلاً و شرعاً و عرفاً فهو لا يؤاخذ بما يفعل في تلك الأيّام عند العرف و الشَّرع، و أنّما الكلام في الشّباب و الشّيب فالكلام يقع في فصلين:

الفَصل الأوّل: في الشّباب و هو أحسن الحالات للإنسان فأنّ خير الأمور أوسطها، قال إبن عبّاس ما بعث اللّه نبيّاً إلاّ شابّاً و لا أوتي العلم عالمٌ إلاّ شابّاً ثمّ تلى هذه الأية:

قال اللّه تعالىٰ: **قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَيهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى**[٤] و غيرها من الأيات.

و قد قدّم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إسامة بن زيد على جميع المهاجرين و الأنصار و هو في سنّ الشّباب لم يبلغ عشرين و عتاب بن أسيد ولاّه مكّة و بها أكابر قريش قال بعض البلغاء الشَّباب باكورة الحياة و أطيب العيش أوائله كما أنّ أطيب الثّمار بواكرها و الشّباب أبلغ الشّفعاء عند النّساء و أكثر الوسائل لقلوبهنّ و إلىٰ هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله:

أحلى الرّجال مع النّساء مواقعاً   من كان أشبههم بهنّ خدوداً

قيل و ما بكت العرب على شئٍ كما بكت على الشّباب و قيل لو لم يكن هذا الشّباب حميداً و زمانه حبيبا لوسامة صورته و بهجة منظره و جمال خلقته

١- الأنبياء = ٦٠   ٢- الكَهف = ٦٠

٣- الكَهف = ١٠   ٤- الكَهف = ١٣

و إعتدال قامته لما جاور اللّه في جنّات خلده شابّاً كما قال رسول اللّه: **أنّ أهل الجنّة جردٌ مردٌ أبناء ثلاثين** و قد جاء في مدح الشّباب ما لا يخفى من المحاسن فينبغي لكلّ إنسانٍ أن يغتنم أيّام شبابه لتحصيل الكمالات النفسانيّة و الإتّصاف بالملكات الفاضلة و العمل للوصول إلى مقام القرب في درجات الأخرة فأنّ عهد الشّباب عهد النّشاط و القدرة لتحصيل الدنيا و الأخرة ألا ترىٰ أنّ الزّراعة و التّجارة و تحصيل العلم و العبادة من الإتيان بما إفترض اللّه و ترك المحرّمات و إعانة المسكين و غير ذلك من الأفعال كلّها موقوفٌ على القدرة البدّنية و هي لا توجد إلاّ في الشّباب و لذلك قال رسول اللّه ﷺ: **إغتنم خمساً قبل خمس، وعدَّ منها شبابك قبل هرمك**، و حيث أنّ هذا محسوسٌ لنا فلا نحتاج إلى بسط الكلام فيه فأنّ الإنسان لا يمكن له الوصول إلى المراد إلاّ في أيّام شبابه سواء كان مطلوبه الدُّنيا أم الأخرة و العاقل يغتنم الفرصة ولا يغفل عنها.

الفصل الثاني: في الشَّيب و الشيخوخة كما قال تعالىٰ: **ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً** ينبغي للإنسان أن يتدارك ما فات منه أيّام شبابه من العبادات و غيرها بالتّوبة و الإنابة و تأدية الحقوق الماليّة و غيرها حتّى الإمكان و أن يعلم أنّ العمر في معرض الأفول و أنّه يقرب إلى الموت ساعة بعد ساعة.

قال بعضهم من أتى عليه أربعون سنة ثمّ لم يغلب خيره على شرّه فليتَّجهز إلى النّار، و قيل من لم يتَّعظ بثلاث لم ينته بشيٍ الإسلام و القرأن و الشّيب و لنعم ما قيل:

يـاعامر الدُّنـيا عـلى شـيبه ... فـيك أعـاجيبُ لمـن يـعجب

مـاعذر مـن يـعمر بـنيانه ... و عـمره مـنهدمٌ يـخرب

و قال بعضهم الشّيب علّة لا يعادي منها و مصيبة لا يعزّى عليها، و إلى هذا المعنى أشار الفرزدق حيث قال:

و يقول كيف يميل مثلك للظّباء　　و عليك من عظم المشيب عذارُ
و الشّيب ينقص في الشّباب كأنّه　　ليلٌ يصيح لعارضيه نهارُ

فعن الصّادق عليه السلام قال: ياصاحب الشّعر الأبيض و القلب الأسود أمامك النّار و خلفك ملك الموت فماذا تريد أن تعمل كنت صبيّاً و كنت جاهلاً و كنت شابّاً و كنت فاسقاً و كنت شيخاً و كنت مرائياً فأين أنت و أين عملك.

و عنه عليه السّلام: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من عرف فضل كبيرٍ لسنّه فوّقره أمنه اللّه من فزع يوم القيامة إنتهى.

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: بجلّوا المشايخ فأنّ تبجيل المشايخ من إجلال اللّه عزّ و جلّ ومن لم يبجلّهم فليس منّا إنتهى.

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: ألا أنبّكم بخياركم قالوا بلى يا رسول اللّه قال أطولكم أعماراً إذا سدُّدوا إنتهى.

و قال أميرالمؤمنين عليه السلام: ما أكرم شابٌّ شيخاً لسنّه إلاّ قيّض اللّه له عند كبر سنّه من يكرمه إنتهى.

و قال عليه السلام: أنّ من حقّ إجلال اللّه عزّ وجلّ إكرام ثلاثة، ذو الشَّيبة المسلم و ذو المقسط و حامل القرأن غير الجافي و لا الغالي فيه إنتهى.

و عن الصّادق عليه السلام: عن النّبي قال إذا بلغ المرء أربعين سنة أمنه اللّه من الأدواء الثّلاثة، من الجنون و الجذام و البرص فإذا بلغ خمسين خفَّف عليه حسابه فإذا بلغ السّتين رزقه اللّه الإنابة فإذا بلغ السَّبعين أحبّه اللّه و أهل السّماء فإذا بلغ الثّمانين أمر اللّه عزّ وجلّ لإثبات حسناته و إلقاء سيّئاته فإذا بلغ التّسعين غفر اللّه عزّ وجلّ له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر و كتب أسير اللّه في الأرض إنتهى[1].

١- مشكاة الأنوار ص ١٦٨ و ١٦٩

و الأحاديث في الباب كثيرة و فيما ذكرناه كفاية، و في الآية دلالة على أنّ الخلق و الأطوار المترّتبة عليه من اللّه تعالى.

وَ يَوْمَ تَقُومُ ٱلسّٰاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مٰا لَبِثُوا غَيْرَ سٰاعَةٍ كَذٰلِكَ كٰانُوا يُؤْفَكُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ المجرمين أعني بهم المذنبين و العصاة يقسمون أنّهم ما لبثوا غير ساعةٍ، في القبر و هو عالم البرزخ و هذا منهم خطاء في أمر الفصل بين الدّنيا و يوم البعث حتّى ظنّوه ساعةً من ساعات الدّنيا ولم يعلموا أنّ الأمر ليس كذلك بل لبثوا فيه قروناً كثيرة.

و قوله: **كَذٰلِكَ كٰانُوا يُؤْفَكُونَ** أي كذلك يصرفون من الحقّ إلى الباطل و بعبارةٍ أخرى أنّ الإفك و التّقلب من الحقّ إلى الباطل يدوم عليهم و يلازمهم حتّى قيام السّاعة فيشتبه عليهم أمر البعث كما إشتبه عليهم الحقّ في الدّنيا، و يحتمل أن يكون المعنى، كذلك كانوا يؤفكون، في دار الدنيا و يجحدون البعث و النّشور مثل ما حلفوا أنّهم لم يلبثوا إلاّ ساعةٍ.

و قال الفرّاء تقديره كما كذّبوا في الدّنيا بالبعث كذلك يكذبون بقولهم ما لبثنا غير ساعةٍ.

وَ قٰالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَ ٱلْإِيمٰانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتٰابِ ٱللّٰهِ إِلىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهٰذٰا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَ لٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ

قالوا في تفسير الآية قال الّذين أوتوا العلم و الإيمان و هم الأنبياء و الملائكة و المؤمنون في جواب المجرمين القائلين بقلّة اللّبث، لقد لبثتم في كتاب اللّه، أي أنّ لبثكم مذكورٌ في كتاب اللّه بيّنه اللّه فيه فصار من أجل أنّ بيانه في كتابه كأنّه في الكتاب كما تقول كلّما يكون فهو في اللّوح المحفوظ أي هو مبيّنٌ فيه و قيل في كتاب الّه أي في كتابه الّذي أخبرنا به قاله في التّبيان.

و قال الزّمخشري، في كتاب اللّه، في اللّوح المحفوظ أو في علم اللّه و قضاءه أو فيما كتبه أي أوجبه ردُّوا ما قالوه و حلفوا عليه، و اطلّعوهم على الحقيقة ثمّ وصلوا ذلك بتفريعهم على إنكار البعث بقولهم: **فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَ لَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**، أنّه حقٌّ لتفريطكم في طلب الحقّ و إتّباعه إنتهى.

أقول و نظير ذلك ماقاله غيرهما من المفسّرين من العامّة و الخاصّة و الحاصل أنّهم حملوا، كتاب اللّه، على القرأن أو اللّوح المحفوظ على ما مرَّ بيانه، و أنت ترى أنّ هذا التّفسير لا يناسب قوله تعالى: **لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ** لأنّ ما بيّنه اللّه في كتابه و أخبرنا به، لا يصدق عليه اللّبث مضافاً إلى أنّه تعالى قال: **لَقَدْ لَبِثْتُمْ**، و لم يقل لقد لبث في كتاب اللّه، أي لقد لبثتم أيّها المجرمون في كتاب اللّه إلى يوم البعث، و أعجب منه قول الزّمخشري و من تبعه من مفّسري العامّة من أنّ المراد بكتاب اللّه، في اللّوح أو في علم اللّه و قضاءه و لم يعلم صاحب الكشّاف أنّ المراد من كتاب اللّه، أن كان هو اللّوح أو علم السّاعة أو قضاءه كيف لبث المجرمون فيه و ليس التّفسير توضيح ألفاظ الآية بل التّفسير بيان معنى المراد من الآية و هذا الّذي ذكروه لا يبيّن المراد أصلاً و أنّي لم أر بعد الفحص فيما بأيدينا من تفاسيرهم ما يكشف النّقاب عن ظاهر اللّفظ، و الذّي يختلج بالبال و اللّه تعالى أعلم بما أراد، هو أنّ اللّبث بمعنى الإقامة.

قال الرّاغب في المفردات، لبث بالمكان أقام به ملازماً له، و الكتاب بمعنى المكتوب و المراد بالمكتوب هو الأجل و المدّة التّي كتب اللّه في اللّوح من حين الموت إلى يوم البعث و المعنى، لقد لبثتم أي أقمتم في قبوركم بعد الموت على ما كتب اللّه و أثبت لكم من المدَّة الى يوم البعث و هذا يوم البعث الّذي وعدكم اللّه به و أنكرتموه، و لكنّكم كنتم في الدّنيا غير عالمين بأنّ ما وعد اللّه لا مرَّد له و لذلك صرتم منكرين له فقولكم ما لبثتم غير ساعة كذبٌ و إفتراء.

فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ

الفاء للتّفريع و المعنى أنّ يوم القيامة لا ينفع الظّالمين معذرتهم و ذلك لأنّ الحجّة، قد تمّت عليهم في الدّنيا بإرسال الرُّسل و إنزال الكتب و العذر بعد الحجّة لا معنى له و قوله: **وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** أي لا يطلب منهم الإعتاب، و الإستعتاب طلب صلاح المعاتب بالعتاب و ذلك بذكر الحقوق الّتي تقتضي خلاف ما عمله العامل بما لا ينبغي أن يكون عليه مع الحّق اللاّزم له و ليس في قولهم ما علمنا أنّه يكون و لا اننّا نبعث عذر لأنّه قد نصب لهم الدّلالة عليه و دعوا إليه.

و قال صاحب الكشّاف و المعنى لا يقال لهم أرضوا ربّكم بالتّوبة و الطّاعة و محصلّ الكلام أنّه قد مضى ما مضى و يوم القيامة يوم الجزاء و لا يقبل العذر من أحد.

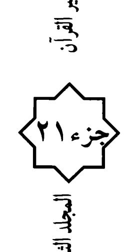
وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنّاسِ في هٰذَا ٱلْقُرْاٰنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِاٰيَةٍ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ أَنْتُمْ إِلّا مُبْطِلُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه ضرب في القرآن أمثلة كثيرة ليحثّهم بها على الحّق و إتّباع الهدى.

فقال تعالى في المنافقين: **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمّآ أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللّهُ بِنُورِهِمْ**[١].

و قال في الكفّار: **وَ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلّا دُعآءً وَ نِدآءً**[٢].

و قال تعالىٰ: **مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ في سَبِيلِ ٱللّٰهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ**[٣] والآيات بِذكر الأمثال كثيرة.



١- البقرة = ١٧
٢- البقرة = ١٧١
٣- البقرة = ٢٦١

و المقصود من المثل هو تفهيم المعنى الّذي قصده المتّكلم في ذهن المخاطب للعمل به إلاّ أنّ هؤلاء الكفّار و المنافقين المنكرين للحّق لم يتّعظوا و لم ينتبهوا بهذه الأمثال الّتي ضربت لهم و الى هذا المعنى أشير بقوله تعالى: **وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِاٰيَةٍ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ** أي لستم على الحّق بل أنتم على الباطل، يقولون هذا لمن أرسله اللّه إليهم ليرشدهم الى الحّق و من كان كذلك فهو خارج عن طور الإنسانيّة فلا تفيده الموعظة بل لا تنفعه المعجزة أيضاً كما كان الكفّار المعاندين كذلك مع جميع الأنبياء.

كَذٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللّٰهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

قال في المفردات الختم الطّبع يقال على وجهين:

مصدر ختمت و طبعت و هو تأثير الشّئ كنقش الخاتم و الطّابع.

الثّاني: الأثر الحاصل عن النّقش و يتجوّز بذلك تارةً في الإستيثاق من الشّئ و المنع عنه إعتباراً بما يحصل من المنع بالختم على الكتب و الأبواب و تارةً في تحصيل أثرٍ عن شئٍ إعتباراً بالنّقش الحاصل و ساق الكلام الى أن قال فيه إشارة الى ما أجري اللّه به العادة أنّ الإنسان إذا تناهى في إعتقاد باطلٍ ذا إرتكاب محظوراً و لا يكون منه تلّفتٌ بوجهٍ الى الحّق يورثه ذلك هيئةً تمرنّه على إستحسان المعاصي فكأنّما يختم بذلك على قلبه و يطبع إنتهى.

أقول ما ذكره حقّ لا مريةً فيه فأنّ الإنسان هو الّذي يطبع على قلبه بسبب المعاصي لا أنّ اللّه تعالى منعه عن إتّباع الحّق و قد مرَّ الكلام في قوله: **خَتَمَ ٱللّٰهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** بما لا مزيد عليه في هذا الباب.

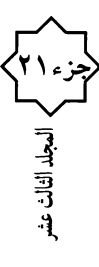
فالمعنى أنّه منع الألطاف الّتي تنشرح لها الصّدور حتّى تقبل الحقّ لعلمه تعالى بأنّه لا يتّعظ بمواعظ اللّه لقسوة قلبه بسبب المعاصي التّي أتى بها فصار من الّذين، قال اللّه فيهم **لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا**[١].

١- الاعراف = ١٧٩

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ وَ لٰا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لٰا يُوقِنُونَ

أمر اللّه تعالى نبيّه بالصّبر على الشّدائد و الخطاب و أن كان للنّبي إلاّ أنّ المراد به الأمّة كغيره من الخطابات القرأنيّة، و المقصود من الآية هو أنّ وعد اللّه حقّ لا مردَّ فيه و أنّما أمر بالصّبر لأنّ وعد اللّه له أجلٌ معيّنٌ و مدّةٌ مضروبة بكما إقتضته المصلحة و قوله: **لٰا يَسْتَخِفَّنَّكَ** معناه لا يحملنّك على الخفّة و القلق جزعاً ممّا يقولون هؤلاء الكفّار فأنّهم قومٌ شاكّون ضالُّون لا يستبعد منهم ذلك لأنّ الضّال المضلّ لا يقين له بما وعده اللّه و المؤمن على يقين به **وَ سَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ، إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ**

■



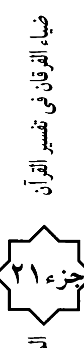
سُورَةُ لُقْمانَ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ اٰياتُ ٱلْكِتابِ ٱلْحَكيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذينَ يُقيمُونَ ٱلصَّلٰوةَ وَ يُؤْتُونَ ٱلزَّكٰوةَ وَ هُمْ بِالْاٰخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولٰئِكَ عَلٰى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَ مِنَ ٱلنّاسِ مَنْ يَشْتَري لَهْوَ ٱلْحَديثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبيلِ ٱللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُوًا أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهينٌ ﴿٦﴾ وَ إِذا تُتْلٰى عَلَيْهِ اٰياتُنا وَلّٰى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَليمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ لَهُمْ جَنّاتُ ٱلنَّعيمِ ﴿٨﴾ خالِدينَ فيها وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقًّا وَ هُوَ ٱلْعَزيزُ ٱلْحَكيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَ أَلْقٰى فِي ٱلْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَ أَنْزَلْنا مِنَ ٱلسَّمآءِ مآءً فَأَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريمٍ ﴿١٠﴾ هٰذا خَلْقُ ٱللّٰهِ فَأَرُوني ماذا خَلَقَ ٱلَّذينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ



ٱلظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿۱۱﴾ وَ لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿۱۲﴾ وَ إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿۱۳﴾ وَ وَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَ فِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَ لِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿۱۴﴾ وَ إِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَ صَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَ ٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿۱۵﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿۱۶﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلٰوةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ ٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَ ٱصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿۱۷﴾ وَ لَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿۱۸﴾ وَ ٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ ٱغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿۱۹﴾ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ



عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَ بَاطِنَةً وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى ٱللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَى وَ إِلَى ٱللَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَ مَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَ ٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَ ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَ لَوْ أَنَّ مَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلْقُكُمْ وَ لَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَ يُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ

دُونِهِ ٱلْباطِلُ وَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿۳۰﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ ﴿۳۱﴾ وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمّا نَجّيٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلّا كُلُّ خَتّارٍ كَفُورٍ ﴿۳۲﴾ يا أَيُّهَا ٱلنّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ ٱخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿۳۳﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ ما فِي ٱلْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَدًا وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿۳۴﴾

◀ اللّغة

لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ: اللّهو و اللَّعب و الهزل نظائر و هو الأخذ فيما يصرف الهمّ من غير الحقّ.

هُزُوًا: الهزو السُّخرية.

مُهِينٌ: أي مذلّ.

وَقْرًا: الوقر بفتح الواو و سكون القاف و الرّاء الثِّقل.

رَواسِيَ: الجبال الشّامخات الثّابتة في الأرض.

بَثَّ: أي فرّق.
دَابَّةٍ: كلّ ما يدُب على الأرض.
وَهْنًا: الوهن الضَّعف و قيل الشِّدة.
فِصَالُهُ: أي فطامه.
أَنَابَ: الإنابة الرّجوع.
خَرْدَلٍ: أي من خيرٍ أو شرٍّ.
صَخْرَةٍ: الصَّخرة الحجر العظيم.
وَ لَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ: الخدّ الوجه و التّصعير الإعراض و أصل الصَّعر داءٌ يأخذ الإبل في أعناقها و رأسها.
مَرَحًا: المرح التَّكبر و الباقي واضح.

◀ الإعراب

هُدًى وَ رَحْمَةً هما حالان من أيات و العامل معنى الإشارة، و بالرّفع على إضمار مبتدأ أي هي أو هو وَ يَتَّخِذَهَا النّصب على العطف على يضّل و الرّفع عطف على يشتري كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا موضعه حال خَالِدِينَ فِيهَا حال من الجنّات مَاذَا في موضع نصب وَهْنًا المصدر هنا حال أي ذات وهنٍ مِنْ صَوْتِكَ صفة لمحذوف أي أكسر شيئاً من صوتك ظَاهِرَةً حال أو صفة.

◀ التّفسير

الٓمٓ

قد مرَّ الكلام في الحروف المقطّعة التّي في أوائل السُّور و قلنا أنّها رموز السُّور لا يعلم معناها إلاّ اللّه.

تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ

إشارة إلى أيات الكتاب التّي وعدهم اللّه بإنزالها عليهم في الكتب الماضية و المعنى أنّ الأيات التّي وعدناكم هي هذه الأيات الموجودة في القرأن و الظّاهر أنّ الحكيم صفة للكتاب أي أنّ هذا الكتاب حكيم بنفسه لأنّه يظهر الحقّ و الباطل كما يظهره الحكيم و لذلك يقال الحكمة تدعوا إلى الإحسان و تصرف عن الإساءة، و قيل معناه، أحكمت أياته بالحلال و الحرام.

أقول لا شكّ أنّ الله تعالى حكيمٌ و حيث أنّ الكتاب كلامه تعالى فهو أيضاً حكيم بنفسه فأنّ كلام الحكيم أيضاً حكيمٌ لأنّه لايتكلّم إلاّ بالحكمة و على هذا لا فرق بين أن يكون الحكيم في الآية صفة للكتاب أو صفة لمن له الكتاب و هو اللّه تعالى.

هُدًى وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ

خصّ الهداية و الرَّحمة بالمحسن إذ لا ينتفع به المسى العاصي كما قال: **هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**، و السرّ في ذلك أنّ القابليّة شرطٌ في المعلول كما مرَّ الكلام فيه غير مرّةٍ و من المعلوم أنّ غير المحسن لا قابليّة له لعدم إيمانه باللّه و رسوله و الكتاب المنزل عليه و قد فسَّروا الإحسان بأنّه عبارة عن العمل الّذي يستحق فاعله به الحمد فكلّ محسنٍ يستحقّ المدح وكلّ مسيءٍ يستحقّ الذّم.

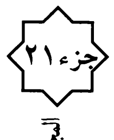
و قال بعض المحّققين الإحسان على وجهين:

أحدهما: الإنعام على الغير، يقال أحسن إلى فلان.

الثّاني: إحسانٌ في فعله و ذلك إذا علم علماً حسناً أو عمل عملاً حسناً و على هذا قول أميرالمؤمنين: النّاس أبناء ما يُحسنُون، أي منسوبون إلى ما يعلمون و ما يعملونه من الأفعال الحسنة و الاحسان أعمّ من الإنعام:

قال اللّه تعالىٰ: **إنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ**[١].





١- الإسراء = ٧

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ ٱلْإِحْسٰانِ وَ إِيتٰآءِ ذِى ٱلْقُرْبىٰ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **هَلْ جَزٰآءُ ٱلْإِحْسٰانِ إِلَّا ٱلْإِحْسٰانُ**[٢] والأيات في مدح الإحسان كثيرة.

و لذلك قيل الإحسان فوق العدل و ذلك أنّ العدل هو أن يعطي ما عليه و يأخذ ما له و الإحسان أن يعطي أكثر ممّا عليه و يأخذ أقلّ ممّا له فالإحسان زائد على العدل فتحرّي العدل واجبٌ و تحرِّي الإحسان ندبٌ و تطوّعٌ.

ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلٰوةَ وَ يُؤْتُونَ ٱلزَّكٰوةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يوقِنُونَ

وصف اللّه المحسنين بما ذكره في هذه الأية، إقامة الصّلاة و إيتاء الزّكاة و اليقين بالأخرة و المراد بإقامة الصّلاة الإتيان بها مع جميع أجزائها و شرائطها و هكذا الزّكوة الواجبة عليهم في أموالهم و قد تكلّمنا في الصّلاة و الزّكوة فيما سبق من الأيات تفصيلاً بما لا مزيد عليه و كيفيّة أداء الزّكوة و شرائطها أيضاً قد مرَّ سابقاً و كفى في فضلهما أنّهما من ضروريات الدّين بحيث يحكم بكفر من أنكرهما.

و أمّا اليقين بالأخرة فهو المعاد الّذي هو من أصول الدّين و منكره كافرٌ خارجٌ عن الإسلام و هو أيضاً ممّا مرَّ الكلام فيه و سيأتي البحث عنه بوجهٍ أبسط في المستقبل إن شاء اللّه.

أُولٰٓئِكَ عَلىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

أُولٰٓئِكَ إشارة إلى المحسنين المقيمين للصّلاة و المؤدّين للزّكوة و الموقنين بالأخرة أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّهم على هدىً من ربّهم، أي هداهم اللّه

١- النّحل = ٩١
٢- الرّحمٰن = ٦٠

إلى طريق الحقّ و أولئك هم المفلحون و من المعلوم أنّ من هداه اللّه تعالى إلى الحقّ علماً و عملاً فهو على طريق الفلاح و الخير و تقديم الضّمير يفيد الحصر أي أنّ اللّه حصر الفلاح فيهم فقال: **هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** لا غيرهم، و إعلم أنّ الفلح في الأصل الشقّ و لذلك يقال الحديد بالحديد يفلح أي يشّق و **الفلاح** بفتح الفاء الظّفر و إدراك بغيةٍ و ذلك ضربان، دنيّوي و أخرّوي.

فالدُّنيوي الظَّفر بالسّعادات التّي تطيب بها حياة الدُّنيا و هو البقاء و الغنى و العزّ و غيرهما من حطام الدّنيا.

و الأخرويّ في أربعة أشياء، بقاء بلا فناء، و غنى بلا فقر، و عزّ بلا ذلّ، و علم بلا جهل و لذلك قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **لا عيش إلاّ عيش الأخرة**، و قال اللّه تعالى: **وَ إِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** (۱) و غيرها من الأيات.

فقوله تعالى: **هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** إشارة إلى الفلاح الأخرّوي و ذلك لبقاءه و فناء الدّنيا و يحتمل أن يكون إشارة بهما كما قيل:

وأخرُ فاز بكلّتيهما قد جمع الدُّنيا مع الأخرة

وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ

كلمة، من، للتّبعيض أي بعضهم كذلك و إختلف المفسّرون في معنى المراد بلهو الحديث.



فعن إبن عبّاس و إبن مسعود و مجاهد أنّه الغناء، و قال قومٌ هو شراء المغنيّات و قال قتادة هو إستبدال حديث الباطل على حديث الحقّ و قيل كلّما كان من الحديث ملهياً عن سبيل اللّه الّذي أمر بإتّباعه إلى ما نهى عنه فهو لهو الحديث و قيل الآية نزلت في النّضر بن الحارث بن كلدة كان إشترى كتباً

۱- العنكبُوت = ۶۴

فيها أحاديث الفرس من حديث ُستم و إسفند يار فكان يلههم بذلك و يطرف به ليصدّ عن سماع القرأن و تدبّر ما فيه قاله في التّبيان.

أقول يظهر من بعض الأحاديث أنّ المراد به الغناء.

و يدلّ عليه ما رواه في الكافي عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول الغناء ممّا قال اللّه تعالى: وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ إنتهىٰ.

و عن مهران بن محمّد عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: سمعته يقول الغناء ممّا قال اللّه تعالى: وَ مِنَ ٱلنَّاسِ إنتهى.

و في خبر أخر عنه عليه السلام قال: الغناء مجلسٌ لا ينظر اللّه إلى أهله و هو ممّا قال اللّه عزّ وجلّ: و من ٱلنّاس منْ يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ.

و في حديثٍ أخر ممّا أوعد اللّه عليه النّار إنتهى.

و عن أبي بصير قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن كسب المغنيّات فقال عليه السلام: التّي يدخل عليها الرّجال حرامٌ و التّي تدعى إلى العرائس ليس به بأس الحديث[1].

أقول الحقّ أنّ الغناء من أكبر مصاديق لهو الحديث أمّا أنّ لهو الحديث هو الغناء فلا تدلّ الأخبار المذكورة و غيرها عليه ألا ترى أنّ الإمام عليه السلام يقول الغناء منه أي هو من مصاديق لهو الحديث فلو كان هو هو لقال الغناء هو لهو الحديث و بالعكس و على هذا فلهو الحديث عبارة عن كلّ ما كان ملهيّاً عن سبيل اللّه و يؤيّد هذا المعنى، الآية أيضاً حيث قال تعالى: **لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ** و يستفاد من هذا الكلام أنّ كلّما يضلّ عن سبيل اللّه فهو لهو الحديث فاللّهو في الآية كليّ ينطبق على جزئيّاته و مصاديقه قلّت أو كثرت، و أمّا ما نقلوه عن إبن عبّاس.

١- أيات الأحكام للجزائري ص ١٩٤

أنّه قال، سبيل اللّه قراءة القرآن و ذكر اللّه لأنّ حجّة اللّه قائمة عليه بالدّواعي الى آخر ما قال فهو ممّا لا دليل عليه فأنّ التّخصيص يحتاج الى دليلٍ و إذ ليس فليس، و الحقّ أنّ سبيل اللّه طريق الحقّ و هو يشمل قراءة القرآن و الأحكام و بالجملة كلّما يوجب الإعراض عن الحّق و الإقبال الى الباطل فهو لهو الحديث و قوله: **وَ يَتَّخِذَهٰا هُزُوًا** قيل معناه يتّخذ سبيل اللّه هزواً أي سخريّةً و إستهزاءاً و هذا هو الإضلال المشار إليه في الآية لقوله (ليضِّل) فأنّ اللاّم للغاية أو للتعليل.

فَعلىٰ الأوّل: معنى أنّه يشتري لهو الحديث لأجل الإضلال.

علىٰ الثّاني: علَّة الإشتراء هي إضلال الغير و لازم ذلك هو الإستهزاء بكلام اللّه وإتّخاذه هزواً و سخرَّية و أنّه لا أصل له و أنّه من أساطير الأوّلين، ثمّ أوعدهم اللّه بقوله: **لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ** أي عقابٌ يذلّهم و يحقّرهم فأنّ الإذلال بالعداوة هو الهوان و أمّا إذلال الفقر و المرض فليس بهوانٍ بل هو ليس إذلالاً في الحقيقة و هذا بخلاف إذلال العقاب فأنّه هوانٌ حقيقةٌ.

وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِ اٰيٰاتُنٰا وَلّٰى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهٰا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ

أخبر اللّه في هذه الآية عن صفة من يشتري لهو الحديث فقال: **وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِ** أي على من يشتري لهو الحديث، **اٰيٰاتُنٰا** في القرآن، **وَلّٰى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهٰا**، أي كأن لم يسمع الآيات، **كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا**، و قراً أي ثقلاً يمنع من سماعه الآيات ولذلك يعرض عنها تكبراً **فَبَشِّرْهُ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ**، أي موجع، شبّه اللّه تعالى من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل اللّه بمن كان في أذنيه و قراً فكما أنّه لم يسمع آيات اللّه كذلك هو إلاّ أن أحدهما لا يسمع لمانع في أذنيه و هو الثّقل و الآخر لا يسمع لتكبُّره و غروره و عداوته للّه و رسوله.

أمّا الأوّل فلا عذاب له لأنّ المانع من اللّه و أمّا الثّاني فيعذّب لأنّه أوجد المانع بسوء سريرته و خبث طينته و متابعته للشّيطان ثمّ بعد ذلك أشار اللّه تعالى الى المؤمنين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ لَهُمْ جَنّاتُ ٱلنَّعِيمِ

و المعنى أنّ الّذين آمنوا باللّه و رسوله و أيقنوا بالمعاد بقلوبهم و عملوا الصّالحات بجوارحهم و أركانهم لهم جنّات النَّعيم يوم القيامة يتنعّمون فيها بأنواع النِّعم و ليس التنعُّم فيها في زمانٍ محدود بل مخلّدون فيها الى الأبد كما قال:

خالِدِينَ فِيها وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقًّا وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

فأنّ الخلود هو تبرّ الشّئ عن الفساد و بقائه على الحالة الّتي هو عليها و كلّما لا تغيير فيه و لا فساد تصفه العرب بالخلود، و الخلود في الجنّة بقاء الأشياء على الحالة الّتي هي عليها من غير إعتراض الفساد فيها و هذا أعني الخلود هو المميّز بين الحياة الدّنيوية و الأخرويّة و النِّعم الدنيويّة و الأخرويّة فأنّ حياة الدّنيا و نعمها زائلة داثرة و مع ذلك محفوفة بالمصائب و الألام بخلاف الأخرة و العاقل لا يأخذ الفاني و يترك الباقي.

و قوله: **وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقًّا** إشارة إلى أنّ خلود المؤمن فيها و التنعّم بنعمها ممّا وعده اللّه تعالى في الدّنيا على لسان نبيّه و صريح أياته في كتابه:

قال اللّه تعالىٰ: **مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَ ظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَ عُقْبَى ٱلْكافِرِينَ ٱلنّارُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ**[٢].

١- الرّعد = ٣٥ ٢- الفرقان = ١٥

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نادىٰ أَصْحابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحابَ ٱلنّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا**[١] و غيرها من الأيات.

و في قوله: **حَقًّا** إشارة إلى أنّ الخلود في الجنّة حقّ المؤمن لطاعته و إنقياده كما أنّ العذاب في جهنّم حقّ الكافر و الظّالم لعصيانه و تكذيبه و عناده و ما ربّك بظلام للعبيد و يستفاد من الآية أنّ الدّنيا مزرعة الأخرة إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً فالمؤمن بعمله يدخل الجنّة و الكافر بعمله يدخل النّار و هذا هو العدل و هو العزيز الحكيم.

خَلَقَ ٱلسَّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَ أَلْقىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَ أَنْزَلْنا مِنَ ٱلسَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ

في هذه الآية أشار اللّه تعالى إلى أمور كلّها يدلّ على قدرته و حكمته و أنّه المعبود الّذي يستحقّ أن يعبد لا غيره فالبحث فيها يقع في فصولٍ:

الفَصل الأوّل: قوله **خَلَقَ ٱلسَّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها** الخَلق في الأصل التّقدير المستقيم، و قد يستعمل في إبداع الشّيئ من غير أصلٍ ولا إحتذاءٍ و يقال له الخلق الإبداعي، و قد يستعمل في إيجاد الشّيئ من شيئٍ أخر و هو الخلق على غير سبيل الإبداع، و الأوّل يختصّ باللّه تعالى.

الثّاني: مشترك بين الخالق و المخلوق ظاهراً و أن كان واقعاً من اللّه تعالى لأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه، و ليس الخلق الّذي هو الإبداع إلاّ للّه تعالىٰ و لهذا قال في الفصل بينه تعالى و بين غيره: **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**[٢].

أي أفمن يخلق على طريق الإبداع كمن لا يخلق كذلك أفلا تذكّرون، أي أفلا تعلمون الفرق بينهما إذا عرفت هذا فإعلم أنّ خلق السّموات إبداعيٌّ و

١- الأعراف = ٤٤
٢- النّحل = ١٧

ذلك أنّه تعالى خلقها من غير أصلٍ و مادّة بل أوجدها إبداعاً، و أمّا خلق الإنسان و الحيوان فهو ليس على سبيل الإبداع لأنّ اللّه تعالى خلق الإنسان عن مادّة و هي النُّطفة:

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَ ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَةٍ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ خَلَقَ كُلَّ دٰابَّةٍ مِنْ مٰاءٍ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمٰاءِ بَشَراً**[٣] والأيات كثيرة.

و قوله: **بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا فالعَمد** بفتح العَين و الميم و سكون الدّال في الأصل قصد الشّئ و الإستناد إليه، و العماد بكسر العين ما يعتمد عليه، يقال عمدت الشّئ إستندته، فقوله: **بِغَيْرِ عَمَدٍ** معناه لا مستند للسّموات لأنّه لو كان لها عمد لرايتموها فلمّا لم تروها دلَّ على أنّه ليس لها عمد قال بعضهم لو كان لها عمد لكانت أجساماً عظيمة حتّى يصحّ منها إقلال السّموات و لو كانت كذلك لإحتاجت إلى عمدٍ أخر فكان يتسلسل فإذاً لا عمد لها و هو المطلوب.

و قال صاحب الكشّاف **تَرَوْنَهٰا** الضّمير فيه للسّموات و هو إستشهاد برؤيتهم غير معمودة على قوله بغير عمدٍ كما تقول لصاحبك أنا بلا سيف و لا رمح.

فأن قلت ما محلّها من الإعراب.

قلت لا محلّ لها لأنّها مستأنفة أو هي في محلّ الجرّ صفة للعمد أي بغير عمدٍ مرئيّة يعني أنّه عمدها بعمدٍ لا ترى و هي إمساكه بقدرته إنتهى كلامه.

أقول يظهر من كلمات المفسّرين أنّه لا عمد لها فلو كان لها عمد لكلان قابلاً للرّؤية فإنتفاء الرّؤية دليل على إنتفاء العمد هذا و الّذي يخطر بالبال هو أنّ الضّمير في (ترونها) يرجع على العمد لا على السّموات كما ظنّه صاحب

١- النّحل = ٤
٢- النُّور = ٤٥
٣- الفرقان = ٥٤

الكشّاف و غيره من المفسّرين و ذلك لأنّ الأقرب يمنع الأبعد ولو كان الضّمير راجعاً إلى السّموات لقال تعالى خلق السّموات ترونها بغير عمدٍ، أي ترون السّموات لا عمد لها و لم يقل ذلك بل قال: **بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** أي ترون العمد و بعبارةٍ أخرى خلق اللّه السّموات بغير عمدٍ قابل للرّؤية فقوله، ترونها، صفة للعمد لا للسّماوات و ظنّي أنّهم قالوا ذلك لأنّ المشهور عندهم و عند أهل اللُّغة هو أنّ، عمد، مفرد لا جمع فلو كان الضّمير عائداً عليه لقال ترونه، و حيث قال: **تَرَوْنَهَا** بتأنيث الضّمير فهو راجع على السّموات ولم يعلموا أنّ بعض أهل اللُّغة ذهب إلى أنّ عمد، جمع عماد.

قال في المجمع و عن أبي عرفة العمد جمع عماد مثل أهب و إهاب.

و قال في لسان العرب مادّة عمد، قال الفرّاء العمد و العمد جميعاً جمعان للعمود مثل أديم و أدم و أُدُم إنتهى.

و على هذا فلا مانع من إرجاع الضّمير إلىٰ العمد، و لكنّ الإنصاف أنّ المأل فيهما واحد إذ نفي الرّؤية ثابت على القولين و هو أعمّ من وجود العمد و بعبارةٍ أخرى لا خلاف بيننا و بينهم في عدم رؤية العمد سواء كان الضّمير راجعاً إلى السّموات أو إلى العمد إلاّ أنّ عدم الرّؤية لا تنافي وجود العمد واقعاً إلاّ أنّه غير قابل للرّؤية كما أنّ الرُّوح في الجسم موجود و لا يرى و اللّه تعالىٰ موجود و لا يرى و الملك موجود و لا يرى و العقل موجود و لا يرى و هكذا فعدم الرّؤية أعمّ من عدم الوجود و المنّفي في الآية هو الرّؤية لا أصل وجود العمد واقعاً و هو قدرة اللّه مثلاً إذ لا موجود في العالم لا يكون مستنداً و لا معتمداً على شئ سوى اللّه تعالى و أمّا المخلوق كائناً ما كان فهو مستنداً إلىٰ قدرته و مشيّئته معتمداً عليه في بقاءه و حياته و هذا من الأصول المعتمدة التّي لا خلاف فيه فأنّ الإحتياج و الفقر من شئون الممكن المخلوق و المبرّء عن الإحتياج هو اللّه تعالى و عنت الوجوه للحيّ القيّوم.

الفصل الثّاني: قوله: **وَ أَلْقَى فِي ٱلْأَرْضِ رَوٰاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ** رواسي جمع راسية و هي الثّابتة يقال رسا الشّئ يرسو، ثبت و أرساه غيره قيل و المراد بالرّواسي في الآية الجبال بإتّفاق المفسّرين، قال اللّه تعالى: **رَوٰاسِيَ شٰامِخٰاتٍ**[1] أي جبال ثابتات و قال «الجبال أرساها»، أي أثبتها في الأرض و قوله: **أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ**، فالميد في الأصل إضطراب الشّئ العظيم كإضطراب الأرض قالوا معنى الكلام و ألقى اللّه تعالى في الأرض الجبال الشّامخات الثّابتات أن تميد بكم، أي لئلا تميد و تضطرب الأرض بكم، و ذلك لأنّ الجبال كالأوتاد لها فكما أنّ الأوتاد على الأخشاب تمنعها عن الإضطراب كذلك الجبال تمنع الأرض عنه و فيه بحث يأتي في محلّه إن شاء اللّه.

الفصل الثّالث: في تفسير قوله تعالىٰ: **وَ بَثَّ فِيهٰا مِنْ كُلِّ دٰابَّةٍ** و هي ما يدُّب على الأرض من الحيوان و الإنسان.

قال في المفردات، الدَّب و الدَّبيب مشيٌ خفيفٌ و يستعمل ذلك في الحيوان و الحشرات إلاّ أنّه فيها أكثر إستعمالاً منه في الحيوان، و لا مجال للبحث فيها إذ يعلم معنى الدّابة كلّ أحد و الّذي يهمّنا البحث فيه في المقام هو أنّ الدّابة في الأرض ممّا خلقه اللّه تعالى و أنواعها كثيرة بحيث لا يعلمها إلاّ اللّه و قد ثبت في محلّه أنّ البشر إلى الآن لم يقدر على إحصاء أنواعها في البراري فضلاً عن البحور و أعماق الأرض و لا شكّ أنّ في وجودها منافع كثيرة لا تعدّ و لا تحصى بل نقول تعيّش الإنسان على كرة الأرض يتوقّف على وجود الحيوانات وللبحث فيه مقام أخر خارج عن موضوع الكتاب.

الفَصل الرّابع: قوله **وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ ٱلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** المراد بالماء هو ماء المطر النّازل من السّماء على الأرض و هذا هو الّذي يوجب حياة الأرض بعد موتها بسبب عدم نزول المطر و يترتّب على حياة

١- المرسلات = ٢٧

الأرض ما ينبت فيها من أنواع النّبات و أقسام الفواكه و غير ذلك ممّا لا يخفى على ذي مسكةٍ فضلاً عن العلماء و يكفي في ذلك أنّ اللّه تعالى جعل أرزاق الخلق ممّا ينبت من الأرض و الإنبات فرعٌ على وجود الماء النّازل من السّماء.

و أمّا قوله: **مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** فقيل معناه من كلّ نوعٍ حسن النَّبت طيّب الرّيح و الطَّعم و لنعم ما قيل في الباب:

تفكَّر في نبات الأرض فأنظر إلى أثار ما صنع المليك

ففي رأس الزّبرجد شاهدات بأن اللّه ليس له شريك

هٰذا خَلْقُ ٱللّٰهِ فَأَرُونِي مٰاذٰا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ ٱلظّٰالِمُونَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ

الخلق بمعنى المخلوق أي هذا الّذي ذكرناه من خلق السّموات بغير عمد و إلقاء الرّواسي و الجبال على الأرض لئّلا تميد و تضطرب الأرض بكم و بثَّ كلّ دابّةٍ فيها و إنزال المطر و الغيث من السّماء و إنبات الأرض من كلّ زوجٍ كريمٍ، كلّها مخلوق له تعالى أوجدها اللّه بقدرته، فأروني، أين خلق من أشركتموه في عبادته و جعلتموه معبوداً لأنفسكم و من المعلوم أنّ الجواب، ليس لغير اللّه خلقٌ من هذا النّمط و من يقدر على خلق السّموات و الجبال و الأرض و الدَّواب و إنزال المطر و غيرها بل نقول لئن إجتمعت الموجودات بأجمعها على خلق بعوضةٍ لم يقدروا عليه و قد أجاب اللّه تعالى عن قبلهم في موضع أخر حيث قال تعالىٰ:

يٰآ أَيُّهَا ٱلنّٰاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبٰابًا وَ لَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبٰابُ شَيْئًا لاٰ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطّٰالِبُ وَ ٱلْمَطْلُوبُ[1].

١- الحجّ = ٧٣

فهذه الآية في الحقيقة جوابهم لسؤال اللّه تعالى و العجب من الإنسان الّذي يدّعي العقل و يرى هذه الإحتجاجات القويّة في القرأن و مع ذلك يسلك مسلك الجهّال و لا يعتبر بها و لا يتفكّر فيها، أفلا يتدبّرون القرأن أم على قلوبٌ أقفالها و أعجب منه إنكاره الخالق القادر العليم الحكيم و الإعتقاد بعبادة الأوثان و الأصنام التّي لا حياة لها و لا شعور و أيّ شيءٍ أقبح من خضوع العاقل للجماد و عبادته إيّاه و نحن نقول:

قال اللّه تعالىٰ: **مٰا قَدَرُوا اَللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اَللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**(١).

و لا يعلم أنّ اللّه تعالى:

يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اَللّٰهِ تُرْجَعُ اَلْأُمُورُ(٢).

و الّذي حصل لنا من هذه الأيات و غيرها ممّا مضى و يأتي في المستقبل هو أنّ الإنسان ينبغي أن يتفكّر أوّلاً في نفسه، كما قال تعالىٰ:

وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاٰ تُبْصِرُونَ(٣).

و في الأفاق و الأنفس ثانياً فأنّ الأثار تدلّ على المؤثر قطعاً.

وَ لَقَدْ آتَيْنٰا لُقْمٰانَ اَلْحِكْمَةَ أَنِ اُشْكُرْ لِلّٰهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمٰا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اَللّٰهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ

لقمان بضّم اللاّم و سكون القاف إسمٌ للرّجل الحكيم المشهور الّذي كان من عباد اللّه الصّالحين و هذا القدر ممّا لا كلام فيه و أمّا أنّه كان من الأنبياء فلا دليل عليه و الحقّ أنّه لم يكن منهم بل كان عبداً صالحاً يداوي قلبه بالتّفكير و نفسه بالصّبر و لا يفعل إلاّ ما يعنيه و لذلك أوتي الحكمة و منح العصمة، و قد روي أنّ اللّه أرسل إليه بعض ملائكته فنادوه بحيث يسمع كلامهم و لا يراهم.

١- الحجّ = ٧۴ ٢- الحجّ = ٧۶
٣- الذاريات = ٢١

يا لقمان هل لك في أن يجعلك اللّه تعالى خليفة في الأرض تحكم بين النّاس، فأجاب أن ألزمني ربّي بذلك فالسّمع و الطّاعة لأنّه إن فعل بي ذلك أعانني عليه و إن هو خيرّني إخترت العافية قالوا له و لم يا لقمان قال لأنّ الحكم بين النّاس أشّق الأمور و أكثرها فتنةً و بلاءً لأنّ الحاكم إن أصاب الحقّ لا يسلم من ألسنة الخلق و إن أخطأ إخطاء أخطأ طريق الجّنة و من أختار الدّنيا على الآخرة يخسرهما معاً فهذه تزول و تلك لا تدرك فعجبت الملائكة من حكمته فلّما أمسى و أخذ مضجعه من اللّيل أنزل اللّه عليه الحكمة فغشّاه بها و هو نائم فأستيقظ و هو أحكم النّاس في زمانه و خرج على النّاس ينطق بالحكمة و يرشد و يعلّم بها ثمّ عرضت الخلافة على داوود فقبلها دون أن يشترط فأتاه الملك و جعله خليفة مطاع الحكم نافذ الكلمة.

أقول لا شكّ أنّ لقمان كان من عباد اللّه الصّالحين و لذلك وصفه اللّه تعالى في كتابه و ذكر مواعظه و هذا القدر ممّا لا ريب فيه و أمّا ما نقلوه من أنّه لم يقبل الخلافة أو إعتذر من قبولها أو غير ذلك ممّا ذكروه و نقلناه عنهم ثمّ عرضت على داود، فهو ممّا لا يساعده العقل و النّقل و ذلك لأنّ النبوّة و الإمامة من المناصب الإلهية الّتي لا تتغير و لا تتبدّل و اللّه تعالى يعطيها من يشاء و يصلح لها فهو من المسلّمات الّتي لا تحتاج الى بسط الكلام و إطالة المقال، مضافاً الى أنّه ممّا ليس للشخّص إختيار في قبولها و عدم قبولها و هذا ظاهر.

و أمّا العقل فلأنّ لازم ما ذكروه هو أنّ لقمان كان أفضل من داوُد النّبي و أزهد.

أمّا أنّه أفضل لأنّ النبوّة عرضت عليه أوّلاً و هو دليلٌ على أفضليّته إذ لو لم يكن أفضل و مع ذلك عرضت عليه اوّلا فلو فرضنا أنّه لم يشترط بشيءٍ فيها فكان نبيّاً و لازم ذلك أفضليّته على داود الّذي قبلها بدون الشّرط و لا يقول المسلم بهذه المقالة.

و أمّا كونه أزهد لأنّه ترك الخلافة و الحكومة للزّهد و أنّه يلزم من قبولها إختياره الدُّنيا على الأخرة، و لا نعني بالزُّهد إلاّ هذا و إذا كان كذلك فهو أزهد من جميع الأنبياء من البدء الى الختم، لأنّهم إختاروا الدُّنيا على الأخرة دونه و العقل السليم لا يقول به و ليت شعري ما دعاهم الى نقل هذه الخرافات و الموهومات الّتي لا طائل تحتها إلاّ تنقيص مقام النبوّة الّتي لا مقام فوقها إلاّ مقام ربّ العالمين و لنختم الكلام في هذا البحث الّذي ليس كتابنا موضوعاً له وفي البحث عنه مقام آخر و لنرجع الىٰ تفسير ألفاظ الآية.

فنقول قوله تعالىٰ: **وَ لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ** فيه إشارة الى أنَ الحِكمة عند اللّه تعالى و هو الّذي يعطيها من يشاء من عباده قليلاً أو كثيراً على طبق المصلحة الّتي يعلمها و لا يعلمها غيره و ذلك أنّ القابليّة لقبولها في الأشخاص متفاوتة و المظروف تابعٌ للظرف ضيقاً وسعةً و قلّةً و كثرةً و هذا معنى قوله: **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ثمّ أنّ الحكمة معناها إصابة الحقّ بالعلم و العقل و هي من اللّه تعالى معرفة الأشياء و إيجادها على غاية الأحكام و من الإنسان معرفة الموجودات و فعل الخيرات و هذا هو الّذي وصف به لقمان في الآية و نبَّه على جملتها بما وصفه بها فقال: **أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.**

أن قلت يظهر من الآية أنّ الحكمة الّتي أعطاها اللّه أيّاه هي الشُّكر للّه فقط، و أين هو من معرفة الموجودات و فعل الخيرات.

قلت من شكر للّه تعالى كما هو حقّه فقد عرف الموجودات و فعل الخيرات كلّها و توضيح ذلك إجمالاً هو أنّ المراد بمعرفة الموجودات ليس رؤيتها و معرفتها بحسب الظّاهر جنساً و فصلاً بل المراد بها أنّ كلّ موجودٍ على وجود خالقه و هو اللّه تعالى الّذي أعطاه الوجود و أفاض عليه النِّعم فمن عرف الموجود كذالك فقد عرف خالقه و منعمه و العقل يحكم بوجوب شكر

المنعم، على إعطاءه و إنعامه و الشُّكر بهذا المعنى جامع لفعل الخيرات كلّه و ذلك لأنّ فعل الخيرات ليس إلاّ الشُّكر العملي الّذي هو من أعلى مصاديق الشُّكر بل الشُّكر في الحقيقة ليس إلاّ هو فأنّ الخير ما يرغب فيه الكلّ كالعقل و العدل و الإحسان و الفضل و بالجملة الشّيئ النّافع، ثمّ أنّ الفعل أن كان للّه فهو في الحقيقة شكرٌ له على إنعامه و إفضاله فتحصّل ممّا ذكرناه أنّ الشُّكر بقول مطلق في جميع الموارد هو فعل الخيرات بعينها، هذا.

و أمّا قوله: **وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ** معناه أنّ فائدة الشُّكر و ثوابه في الأخرة ترجع اليه لا الى اللّه تعالى و ذلك لأنّه غنىّ حميدٌ فلو كان نفع الشُّكر راجعاً اليه لزم إحتياجه و كلّ محتاجٍ مخلوقٌ لقوله: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللّٰهِ**(١) و هو كما ترىٰ ينافي في مقام الوجوب و الحاصل أنّ الحكمة توجب معرفة الموجودات و هي توجب الشُّكر الّذي يرجع نفعه الى الشّاكر فنفع الحكمة يرجع الى من يوتي الحكمة و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى حيث قال: **وَ مَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا**(٢) فقد أخبَر اللّه تعالى في هذه الآية بأنّ الحكمة بنفسها خيرٌ كثيرٌ و هو المطلوب.

وَ إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ لقمان وعظ إبنه و قال له يا بنيّ لا تشرك باللّه في وحدانيّته و عبوديّته أنّ الشّرك لظلمٌ عظيمٌ، الظُّلم وضع الشّيئ في غير محلّه كما أنّ العدل وضعه في موضعه و قيل الظُّلم هو التعدّي و التّجاوز عن الحدّ و كيف كان لا شكّ في قبحه بل قيل أنّه من المستقلاّت العقليّة أي قبحه ذاتّي له بحيث يحكم كلّ عقلٍ بقبحه ثمّ أنّ الظُّلم على ما يستفاد من الأخبار على أقسام.

١- فاطر = ١٥

٢- سرة البقرة = ٢٦٩

أحدها: الظُّلم على النّفس.

ثانيها: الظُّلم على الغير.

ثالثها: الظُّلم على اللّه تعالى.

أمّا الأوّل: كترك العبادة و فعل الحرام إذا لم يتعدّ الى الغير كشرب الخمر و القمار و الإنتحار و أمثال ذلك ممّا يضرّ بنفسه.

الثّاني: كالغيبة و التهمّة، و غصب مال الغير و هتك الأعراض و النواميس و أمثالها ممّا يضرّ بغيره.

الثّالث: و هو أعظم و أقبح أقسام الظُّلم، الشِّرك باللّه تعالى و أنمّا عدّ الشّرك من الظُّلم لأنّه من قبيل وضع الشّئ في غير محلّه و أن شئت قلت الشِّرك تضييع حقّ الخالق و كلّ من أضاع حقّ غيره فهو ظالم و حيث أنّ حقّ الخالق على المخلوق عظيم جدّاً فتضييعه أيضاً عظيم بل أعظم من كلّ ظلمٍ و لأجل ذلك كلّ ظلم قابل للغفران إلاّ الشّرك باللّه.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰآءُ**(١).

و عدم الغفران دليل على عظم الذّنب و لأجل ذلك قال لقمان لأبنه ما قال و أنمّا أشار الى هذا القسم من أقسام الظُّلم و لم يشر الى غيره لأنّ هذا داءٌ لا دواء له بخلاف القسمين الأخرين:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدِ ٱفْتَرىٰ إِثْمًا عَظيمًا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلًا بَعيدًا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ**(٥) و الأيات كثيرة.

١- النّساء = ٤٨ و ١١٦
٢- النّساء = ٤٨
٣- النّساء = ١١٦
٤- المائدة = ٧٢
٥- الحجّ = ٣١

ثمّ أنّ لقمان له مواعظ كثيرة لأبنه ظاهراً و لجميع النّاس واقعاً إلاّ أنّ اللّه تعالى خصَّ الشّرك بالذّكر لأنّه أفحش الظُّلم و أقبحه و مع ذلك هو رأس الظُّلم و أساسه و لذلك لا يغفر دون غيره و حيث إنجرّ الكلام الى مواعظ لقمان فلا بأس بالإشارة الى بعض مواعظه فأن فيها نفعٌ عظيمٌ لمن عمل بها و حفظها في أقواله و أعماله.

منها، قوله: يا بنّي إنّك منذ سقطت الى الدُّنيا إستدبرتها وإستقبلت الأخرة، فدارٌ أنت اليها أقرب اليك من دارٍ أنت عليها تتباعد

يا بنّي، جالس العلماء و زاحمهم بركبتيك و لا تجادلهم فيمنحوك علمهم و خذ من الدُّنيا بلاغك و أيّاك أن تكون عيالاً على غيرك و لا تدخل فيها دخولاً يضرّ في آخرتك و صم صوماً يقطع شهوتك و لا تصم صياماً يمنعك عن طاعة ربّك، يا بنيّ أنّ الدّنيا بحرٌ عميقٌ قد هلك فيها عالمٌ كثير فأجعل سفينتك فيها الإيمان باللّه و شرائعها التوكُّل على اللّه و زادك فيها تقوى اللّه فأن نجوت فبرحمة اللّه و إن هلكت فبذنوبك، يا بنيّ، إجعل من أيامّك و لياليك و ساعاتك لنفسك نصيباً من طلب العلم فأنّك لن تجد لنفسك خسراناً أشدّ من تركه و أحرص في حفظ علمك أكثر ممّا تحرص على حفظ ذهبك، يا بنيّ لو إستخرج قلب المؤمن لوجد فيه نوران، خوفٌ و رجاءٌ، لو وزنا ما رجح أحدهما على الآخر مثقال ذرَّةٍ، يا بنيّ لا تركن الى الدّنيا و لا تشغل قلبك بها فما خلق اللّه خلقاً هو أهون عليها منها ألا ترى أنّه لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين ولم يجعل بلاؤها عقوبةً للعالمين، يا بنيّ، إختر المجالس على عينيك فأن رأيت قوماً يذكرون اللّه فأجلس إليهم فأنّك أن كنت عالماً ينفعك علمك و تزداد منهم علماً و أن كنت جاهلاً يعلّموك من علومهم و لعّل اللّه تعالى أن يظلّهم برحمته فيعمّك معهم، و إيّاك أن تجالس السُّفهاء فأنّك أن كنت عالماً لا ينفعك علمك و إن كنت جاهلاً زادك جهلاً و لعلّ اللّه ينزل

عليهم نقمة فيَّعمك معهم، يا بنيّ إن كنت في شكٍّ من الموت فأدفع عن نفسك النَّوم و أن كنت في شكّ من الحياة بعد الموت فأدفع عن نفسك اليقظة فإذا تحققّ لك عجزك عن دفع الموت و الإنتباه فأعلم أنّ نفسك بيد غيرك.

أقول و قد ورد عن سيّد البشر صلّى الله عليه وآله وسلّم: **(كما تنامُون تمُوتون وكما تنتَبهُون تُبعَثُون)**.

يا بنيّ، إقنع بما قسمه اللّه لك ليصفوا لك عيشك و أن أردت أن تجمع الدنيّا و الآخرة فأقطع طمعك ممّا في أيدي النّاس فإنّما بلغ الأنبياء و الصديقون ما بلغوا بذلك، يا بنيّ كذب من يقول أنّ الشَّر يطفئ الشَّر فأنّ النّار لا تطفئ النّار، يا بنّي، لا تؤخّر التَّوبة فأنّ الموت يأتي بغتةً و لا تشمت بمن يموت فأنّك عن قريبٍ ستموت و إذا دعتك القدرة الى ظلم النّاس فأذكر قدرة اللّه عليك و شدّة عذابه لك و أعلم يا بنّي أنّك ستسئل غداً إذا وقفت بين يدي اللّه عزّ و جّل عن أربع، شبابك فيم أبليته و عمرك فيم أفنيته و مالك من أين إكتسبته و فيم أنفقته فتأهّب للسؤال و أعدّ له الجواب، يا بنيّ إتَّعظ بالنّاس قبل أن يتَّعظ النّاس بك و أتَّعظ بالصَّغيرة قبل أن تنزل بك الكبيرة و أملك نفسك عند الغضب حتّى لا تكون لجهَّنم حطباً، و أعلم أنّك من خطيئتك على يقينٍ و في قبول توبتك في شكٍّ و تعلّم الحكمة تشرفك فأنّ الحكمة تدلّ على الدّين و تشرّف العبد على الحُر و ترفع الفقير على الغني و تقدّم الصّغير على الكبير و تجلس المسكين مجالس الملوك و تزيد الشّريف شرفاً و السَّيد سؤدداً و الغّني مجداً، إنتهى.

ما أردنا نقله من مواعظه و إنّما نقلنا ما نقلناه منها و أن كان خارجاً عن موضوع الكتاب ظاهراً لدخوله فيه واقعاً تبعاً للآية الشّريفة و الحمد للّه ربّ العالمين و صلّى اللّه على محّمدٍ و آله الطّاهرين.

وَ وَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَ فِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ

الوصَّية التَّقدم الى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظٍ من قولهم أرضٌ واصية متَّصلة النَّبات و يقال أوصاه و وصّاه أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه أمر الإنسان بوالديه الإحسان و الرِّفق:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَضٰى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيّٰاهُ وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰانًا**(١).

و قوله: **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلٰى وَهْنٍ** قيل في معناه أي ضعفاً على ضعفٍ أي ضعف نطفة الوالد إلى ضعف نطفة الأمّ، و قيل المراد بحملها إيّاه وهناً على وهنٍ هو ما يلحقها بحملها إيّاه مرّةً بعد مرّةٍ من الضَّعف، وقيل المعنى شدّة الجهد، و قيل أيّ شدّةٍ على شدّة و قيل ضعف الولد حالاً بعد حالٍ لأنّه كان نطفة ثمّ مضغة ثمّ عظماً ثمّ مولوداً، و الأقوال المحتملة كثيرة.

أقول الوهن ضعفٌ من حيث الخلق و الخلق و قوله وهناً على وهنٍ، أي كلّما عظم الولد في بطن أمّه زادها ضعفاً على ضعفٍ بسبب ثقل الولد و هذا محسوسٌ للأمّ لا يحتاج إلى دليل يدلّ عليه، و في هذا الكلام بعد الوَّصية في الآية إشارة إلى أنّ حقّ الأمّ على الولد كثيرٌ جدّاً أكثر من حقّ الوالد عليه فأنّ في الحمل مشّقة شديدة للأمّ و الأب بمعزلٍ عنها و لذلك قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم **أنّ الجنّة تحت أقدام الأمّهات** ولم يقل تحت أقدام الأباء.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: ما من ولدٍ بارٍّ ينظر إلى والديه نظر رحمةٍ إلاّ كان له بكلّ نظرةٍ حجّةٍ مبرورةٍ قالوا يا رسول اللّه و إن نظر كلّ يومٍ مائة مرّةٍ قال نعم اللّه أكبر و أطيب.

و قال عليه السلام: من برَّ بوالديه زاد اللّه في عمره.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: ثلاث دعوات مستجابة، دعوة المظلوم و دعوة المسافر، و دعوة الوالد.

١- الإسراء = ٢٣

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: دعاء الوالد لولده كدعاء النّبي لأمّته.

و قال النّبي صلى الله عليه و آله و سلم: أوصي للشّاهدين من أمّتي و الغائب و من في أصلاب الرّجال و أرحام النّساء إلى يوم القيامة ببّر الوالدين و إن سافر أحدهم في ذلك سنتين فأنّ ذلك من أمر الدّين إنتهى.

و قال الصّادق عليه السلام: من نظر إلىٰ والديه نظر ماقتٍ و هما ظالمان له لم تقبل له صلاة إنتهى.

و قال عليه السلام: عن العقوق أن ينظر الرّجل إلى والديه يحدّ النّظر إليهما إنتهىٰ[1]. و الأحاديث كثيرة.

و قوله تعالى: **وَ فِصٰالُهُ فِي عٰامَيْنِ** يعني فطامه في إنقضاء عامين، و الظّاهر أنّ هذا الكلام من تتمة قوله: **وَهْنًا عَلٰى وَهْنٍ** بمقتضى العطف أي أنّ الضّعف لا يختّص بزمان الحمل بل هو موجود في عامين بعد الولادة أيضاً و ذلك لأنّ الفصال بكسر الفاء التّفريق بين الصّبي و الرّضاع و حاصل الكلام أنّ الوهن و الضّعف ثابت للأمّ في عامين أيضاً كما كان ثابتاً لها أيّام الحمل فكما أنّ الضّعف في أيّام الحمل في الزّيادة إلى ولادة الطّفل كذلك الضّعف في أيّام الرّضاعة في الزّيادة إلى وقت الفطام و ذلك لأنّ الصّبي بعد ولادته يرتضع من اللّبن الّذي يدرّ عليه من ثدي أمّه و هذا واضح فكلّما زيد في عمره يحتاج إلى التّغذي من اللّبن أكثر ممّا مضى و هو يوجب الضّعف في أمّه كذلك ألا ترى أنّ الطّفل حين ولادته يقنع بقليل من اللّبن و ليس كذلك بعد مضيّ سنةٍ أو أكثر من عمره، فقوله تعالى: **وَ فِصٰالُهُ فِي عٰامَيْنِ**، إشارة إلى هذه الدّقيقة و ليس المراد من ذكره حكم الفصال كما فهمه أكثر المفسّرين، ضرورة أنّ تغذية الطّفل من لبن أمّه توجب الضّعف فيها و لذلك تحتاج إلى تقوية جسمها بسبب الأغذية المناسبة لحالها.

١- مشكاة الأنوار ص ١٦٢ إلىٰ ١٦٤

و قوله: **أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ** في هذا الكلام إشارة إلىٰ أنّ متعلّق الوَّصية هو الشّكر للّه تعالى و الوالدين فالتّقدير، وصَّينا الإنسان بالشّكر للّه و لوالديه و أنّما قلنا ذلك لأنّ ما ذكره قبل هذا الكلام بمنزلة التّعليل لِلشُّكر فكأنّه قيل أشكرلي و لوالديك لأنّ أمّك حملتك وهناً على وهنٍ و قدّم الشّكر للّه على الشّكر لوالديه لأنّ اللّه خالق الكلّ و رازقهم بخلاف الأبوين فأنّهما بمنزلة الوسائط فالشّكر للّه مقدّم على الشّكر لهما و في قوله و إلّي المصير إشارة إلى مصير الخلق إليه و هم مسئوولون يوم القيامة و في إقتران شكر الوالدين بشكر اللّه تعالى في الآية دليل على أنّ الشّكر لهما بعد شكر اللّه من أعظم الفرائض هذا كلّه إذا لم تكن الإطاعة و الإحسان إليهما معصية اللّه إذ لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق فلو أمراه بمعصية اللّه أو ترك طاعته لم يجب بل يحرم على الولد قبول قولهما فأنّ حقّ الخالق أعظم الحقوق و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله:

وَ إِنْ جاهَداكَ عَلىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِي ٱلدُّنْيا مَعْرُوفًا وَ ٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و إن جاهداك يعني الأبوين على أن تشرك بي معبوداً أخر، فلا تطعهما في هذا الأمر إذ لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق.

و قوله: **ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** فقال صاحب الكشّاف أراد بنفي العلم به نفيه أي لا تشرك بي ما ليس بشيءٍ يريد الأصنام كقوله تعالىٰ: **ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ** إنتهى كلامه.

أقول فهم معنى الكلام لا يحتاج إلى هذه التّكلفات و ذلك لأنّ المعبود لابدّ أن يكون معلوماً للعابد العاقل بمعنى صلاحيّته للمعبوديّة فما ليس كذلك ليس معبوداً فمعنى الكلام أن جاهداك أي أمراك بأن تتّخذ معبوداً لا يصلح أن

يكون معبوداً كالأصنام و الأوثان و بالجملة كلّ موجودٍ سوى اللّه تعالى فلا تطعهما لأنّه لا يضرّ و لا ينفع و العاقل لا يعبد ما كان كذلك.

و قوله: **وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفًا** أفاد في هذا الكلام أنّ عدم إطاعة الأبوين في الإشراك باللّه ليس معناه ترك مصاحبتهما بالكلّية و مخالفتهما في جميع الأمور و ذلك لأنّ الإطاعة و الإنقياد لهما واجبة و الرّفق بهما لازم و النّهي عن الطّاعة في موردٍ خاصّ لا يلزم منه نفي الطّاعة مطلقاً بل صاحبهما في الدّنيا أي مادام الحياة معروفاً أي أحسن إليهما في الدُّنيا حتّى الإمكان.

وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ أي و إتّبع سبيل من رجع إلى طاعتي من النّبي و المؤمنين لا سبيل العاصين الطّاغين الّذين هم أتباع الشّيطان، **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ**، أي منقلبكم بعد الموت، **فَأُنَبِّئُكُمْ** أي أخبركم بما كنتم تعملون، في دار الدّنيا في حقّ الوالدين و غيرهما و الّذي حصل لنا في المقام من الآية هو أنّ طاعتهما واجبة لازمة عقلاً و شرعاً على الأولاد مطلقاً خرج عن الحكم ما إذا كانت طاعتهما معصية اللّه و بقى تحت العموم ما لا يكون كذلك.

فعن مصباح الشّريعة قال الصّادق عليه السلام: برّ الوالدين من حسن معرفة العبد باللّه إذ لا عبادة أسرع بلوغاً بصاحبها إلى رضى اللّه تعالى من حرمة الوالدين المسلمين لوجه اللّه لأنّ حقّ الوالدين مشتّق من حقّ اللّه تعالى إذا كانا منهاج الدّين و السُّنة و لا يكونان يمنعان الولد من طاعة اللّه تعالى إلى معصيته و من اليقين إلى الشكّ و من الزُّهد إلى الدُّنيا و لا يدعوانه إلى خلاف ذلك فإذا كانا كذلك فمعصيتهما طاعة و طاعتهما معصية قال اللّه تعالىٰ: وَ إِنْ جاهَداكَ عَلىٰ أَنْ تُشْرِكَ بي و أمّا في باب العشرة فدارهما و إحتمل أذاهما نحو ما إحتملا عليك في حال صغرك و لا تضّيق عليهما ممّا قد وسع اللّه عليك من المال و الملبوس و لا تحوّل بوجهك عنهما و لا ترفع صوتك فوق أصواتهما فأنّ تعظيمهما من

اللّه تعالى و قل لهما بأحسن القول و ألطفه فأنّ اللّه لايضيع أجر المحسنين.

و عن المناقب لإبن شهر أشوب مرَّ الحسين إبن علّي عليهما السّلام على عبد الرّحمن بن عمرو بن العاص (عبد اللّه بن عمرو بن العاص) فقال عبد اللّه من أحبَّ أن ينظر إلى أحبّ أهل الأرض إلىٰ أهل السّماء فلينظر إلى هذا المجتاز و ما كلّمته منذ ليالي صفّين فأتى به أبو سعيد الخدري إلى الحسين فقال له الحسين أتعلم أنّي أحبَّ أهل الأرض إلى أهل السّماء و تقاتلني و أبي يوم صفّين و اللّه إن أبي لخيرٌ منّي فإستعذر قال إنّ النّبي قال لي أطع أباك فقال له الحسين عليه السلام أما سمعت قول اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ جٰاهَدٰاكَ عَلىٰ أَنْ تُشْرِكَ بى** و قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّما الطّاعة بالمعروف و قال صلى الله عليه وآله وسلم لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق إنتهى.

أقول يظهر من كلامه عليه السلام أنّ المحاربة لعلّي عليه السلام في حدّ الشّرك باللّه و هو كذلك.

وعن عيون الأخبار في باب ما كتبه الرّضا للمأمون من محض الإسلام و شرائع الدّين، و برّ الوالدين واجب و أن كانا مشركين، ولا طاعة لهما في معصية الخالق فأنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق إنتهى.

و عن محاسن البرقي بأسناده عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث طويل و فيه يقول صلى الله عليه وآله وسلم: أطيعوا أبائكم فيما أمروكم و لا تطيعوهم في معاصي اللّه.

في حديثٍ أخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم: يقول إنّي لا أمرك بعقوق الوالدين و لكن صاحبهما في الدّنيا معروفاً إنتهى.[۱]

۱- نور الثقلين = ج ۴ ص ۲۰۲ إلىٰ ۲۰۴

و الأحاديث في الباب كثيرة جدّاً فأنّ حقّ الوالدين عظيم بل لا حقّ أعظم منه بعد حقّ اللّه تعالى و أمّا حقّ الرّسول و الإمام فهو في الحقيقة حقّ اللّه تعالى.

يٰا بُنَيَّ إِنَّهٰآ إِنْ تَكُ مِثْقٰالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللّٰهُ إِنَّ ٱللّٰهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ

هذه الآية من مواعظ لقمان لإبنه حكاها اللّه تعالى عنه في كتابه و تتلوها أيات أخر أيضاً، و إختلف المفسّرون في الآية السّابقة عليها و هي قوله: **وَ إِنْ جٰاهَدٰاكَ عَلىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي** هل هي أيضاً من مواعظ لقمان كسابقتها و هي قوله: **يٰا بُنَيَّ لاٰ تُشْرِكْ بِاللّٰهِ** أم ليس منها بل هي من مواعظ اللّه تعالىٰ، إعترضت في أثناء وصايا لقمان و المشهور أنّ الآية من مواعظ اللّه جئ بها للتّشديد و التّوكيد لإتّباع الولد والده و إمتثال أمره في طاعة اللّه دون معصيته و أنّما قالوا ذلك لأنّ لقمان قال لإبنه يابنّي لا تشرك باللّه، فقال اللّه تعالى: **وَ إِنْ جٰاهَدٰاكَ عَلىٰ أَنْ تُشْرِكَ بى مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا** فالآية تأكيدٌ لما قاله لقمان في موضوع الشّرك و أنّه من أعظم الذّنوب إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير الآية التّي نحن بصدد تفسيرها فنقول:

قال لقمان لإبنه: **يٰا بُنَيَّ إِنَّهٰآ إِنْ تَكُ مِثْقٰالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ** فالضّمير في قوله: **إِنَّهٰآ** ضمير القصّة، و أخبر عن مثقال و هو مذكّر أخبار المؤنّث لإضافة المثقال الى مؤنّث أعني بها **حَبَّةٍ** فكأنّه قال: (أن تك زنة حبّةٍ) هذا إن قلنا بقراءة، نافع، و هي رفع مثقال على أن (تَك) تامّة و مثقال مرفوع بها على كونه إسماً لها و هو أضاف الى حبّة و أكتسب التّأنيث عن المضاف إليه و لذلك قال تعالى: **فَتَكُنْ** و لم يقل (فيكن) و أمّا على قراءة المشهور، و هي النّصب في مثقال، على أنّ (تَكُ) ناقصة فإسمها ضميرٌ يفهم من سياق الكلام تقديره، و هي أي الّتي سألت عنها، مثقال حبّة و الحاصل

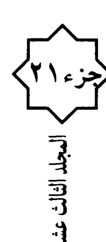
أنّهم إختلفوا في (تَكُ) هل هي تامّة أو ناقصة فعلى الأوّل و هو قراءة، نافع، هي تامّة، و، مثقال إسمٌ لها بالرّفع، و لا خبر لها كما هو شأن كان التّامة و على الثّاني ـ فالإسم مقدّر و هو (هي) و مثقال الخبر بالنّصب و هذا أشهر و أقوى عند المفسّرين و عليه المصاحف فعلاً قالوا أنّ لقمان سئل إبنه و قال له أرأيت الجنّة تقع في مغاصّ البحر أيعلمها اللّه فيكون الضّمير ضمير جوهرٍ لا ضمير عرض و يؤّيده قوله أن تك، **مِثْقَالَ حَبَّةٍ**، و قيل أنّ إبن لقمان سئل أباه عن الجنّة تقع في أسفل البحر أيعلمها اللّه فأجابه لقمان بهذه الآية و قيل هو كناية عن الأعمال من الطّاعات و المعاصي أي أن تك الحسنة أو الخطيئة مثقال حبّة يأت بها اللّه، و قال الآخرون أي لو كان للإنسان رزقٌ مقدّر ولو كان مثقال حبَّة خردلٍ جاء اللّه بها حتّى يسوقها الى من هي رزقه و الحَق أنّه كناية عن إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء كبيرها أو صغيرها و لو كان الشّئ بقدر خردلٍ في جوف صخرة أو في السّموات و الأرض، و بعبارةٍ أخرى لا يخفي على اللّه تبارك و تعالى شئ في عالم الوجود سواء كان في السّماء أم في الأرض في البّر كان أو في البحر فأنّه تعالى قد أحاط بكلّ شئٍ علماً فينبغي للعبد أن لا يكون غافلاً عن أعماله في دار الدّنيا و هذا ممّا يؤيده العقل و النَّقل فأنّ العلّة حاويةٌ لجميع مراتب المعلول و إلاّ يلزم أن يكون المعلول بلا علَّة و هو كما ترى فقوله مثقال حبَّة، كناية عن صغر الشّئ سواء كان من الجواهر أم من الأعراض و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** فاللّطيف إذا وصف به الجسم فهو ضدّ الثّقيل، و قد يعبّر عنه عن الحركة الخفيّة و عن تعاطي الأمور الدّقيقة و قد يعبّر باللّطائف عمّا لا تدركه الحّاسة و على هذا فيصحّ أن يكون وصف اللّه به على هذا الوجه و أن يكون لمعرفته بدقائق الأمور، و أن يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم، و قال اللّه تعالى: **ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ** و قال: **إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَآءُ** و أمّا كونه تعالى خبيراً معناه أنّه عالمٌ بأخبار أعمالكم، أو أنّه عالمٌ ببواطن

أموركم، و قيل خبير بمعنى مخبر أي أنّ اللّه تعالى يخبركم عن أعمالكم و على أيّ حالٍ لا شكّ في أنّ اللّه تعالى عالم بدقائق الأمور و أنّه يخبرهم يوم القيامة عن جميع أفعالهم و هذا واضح.

يَا بُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ

حكى اللّه تعالى في هذه الآية أنّ لقمان وعظ إبنه بإقامة الصّلاة و الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر و الصّبر على ما أصابه و أنّ ما ذكره من الوصيّة من عزم الأمور أي من العقد الصّحيح على فعل الحسن بدلاً من القبيح فأنّ العزم هو العقد على الأمر لتوطين النّفس على فعله و هي الإرادة المتقدّمة للفعل بأكثر من وقت لأنّ التلوّن في الرّأي يناقض العزم قال اللّه تعالى لنبيّه **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ**(١).

و هذه الأمور الثّلاثة المذكورة في الآية من أمّهات المسائل في الشّريعة المقدّسة، أمّا الصّلاة فهي أوّل ما فرضه اللّه على العباد و أوّل ما يسئل عنه العبد بعد وفاته إن قبلت قبل ما سواها و إن ردّت ردَّ ما سواها و قد مرَّ الكلام فيها غير مرّةٍ و المراد بإقامتها الإتيان بها تامّ الأجزاء و الشّرائط و لذلك قال أقم الصّلاة و لم يقل صلِّ.



فعن الكافي بأسناده إلى معاوية إبن وهب قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن أفضل ما يتّقرب به العباد إلى ربّهم و أحبُّ ذلك إلى اللّه عزّ و جلّ ما هو فقال عليه السلام ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصّلاة ألا ترى أنّ العبد الصّالح عيسى إبن مريم عليه السلام قال أوصاني بالصّلاة والزّكوة ما دمت حيّاً إنتهى.

١- الأحقاف = ٣٥

و عن علّي إبن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: سمعته يقول أحبَّ الأعمال إلى اللّه عزّ وجلّ الصّلاة و هي أخر وصايا الأنبياء إنتهى.

و أمّا الامر المعروف و النّهي عن المنكر فقد مرَّ الكلام فيه أيضاً مفصّلاً عند قوله تعالى: **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**[١] و غيرها من الأيات و لا شكّ أنّه من أعظم الأمور و أفضلها في الدّين بل نقول جميع أحكام الدّين من الصّلوة و الزّكوة و الصّوم و الجهاد و غيرها يرجع إلىٰ المعروف و جميع النّواهي و المحرّمات يرجع إلى المنكر ففي الحقيقة ليس الدّين إلاّ الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر ألا ترى أنّ اللّه يقول: **إِنَّ الصَّلٰوةَ تَنْهٰى عَنِ الْفَحْشٰآءِ وَ الْمُنْكَرِ**[٢].

فعن الفقيه في وصيّة أميرالمؤمنين لإبنه محمّد بن الحنّفية: يابُنّي أقبل من الحكماء مواعظهم و تدّبر أحكامهم وكن أخذ النّاس بما تأمر به و أكف النّاس عمّا تنهى عنه و أمر بالمعروف تكن من أهله فأنّ إستتمام الأمور عند اللّه تبارك و تعالىٰ الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر إنتهى.

و عن الكافي بأسناده عن محمّد بن عرفة قال: سمعت أبا الحسن يقول لتأمرن بالمعروف و لتنهنّ عن المنكر أو ليستعملنّ عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم إنتهىٰ.

و بأسناده عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه عليهما السّلام قال: ويلٌ لقومٍ لا يدينون اللّه بالأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر إنتهى.

و عن كتاب الخصال فيما علّم أميرالمؤمنين أصحابه من الأربع مائة باب إئتمروا بالمعروف و أنهوا عن المنكر و أصبروا على ما أصابكم إنتهى[٣].

١- آل عمران = ١٠٩
٢- العنكبوت = ٤٥
٣- نور الثّقلين ج ٤ ص ٢٠٥

و قوله: **وَ ٱصْبِرْ عَلٰى مٰآ أَصٰابَكَ** ففيه إشارة إلىٰ فضيلة الصَّبر الّذي هو من أعلى الخصال و أفضل الملكات و قد مرَّ الكلام فيه أيضاً بما لا مزيد عليه و الأيات و الأخبار الواردة في مدح الصَّبر و الأثار المتّرتبة عليه في الدُّنيا و الأخرة كثيرة.

وَ لاٰ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنّٰاسِ وَ لاٰ تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتٰالٍ فَخُورٍ

قال في المفردات، الصّعر ميلٌ في العنق و التَّصعير إمالته عن النّظر كبراً إنتهى.

و المعنى لا تَّكبر و لا تعرض عن النّاس تكبُّراً و لا تمش في الأرض مرحاً، أي مشي مختال متكبرٍ، نهى لقمان إبنه عن التكبّر و هو أي التكبُّر من أقبح الصّفات و كفى في ذمّه أنّ اللّه تعالى أخرج إبليس عن جوار رحمته لتكبُّره حيث أبى عن السّجدة لأدم و قال خلقتني من نارٍ و خلقته من طينٍ قيل أنّ تصعّر و تصاعر بمعنى كقولهم ضعف و ضاعف و قيل تصاعر لغة أهل الحجاز و تصعّر لغة بني تميم و كيف كان فالمعنى لا تتكبّر و لا تعرض عنهم تكَّبراً و قوله: **مُخْتٰالٍ فَخُورٍ** فالإختيال مشية البطر.

و قال مجاهد المختال المتكبّر و الفخر ذكر المناقب للتّطاول بها على السّامع يقال فخر فخراً و فاخره مفاخرة و فخاراً.



وَ ٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَ ٱغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ ٱلْأَصْوٰاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ

أي إجعل مشيك مشي قصدٍ لا مشي مختال و لا متكبّرٍ و لعلَّ المراد بالقصد الإعتدال في الصّوت و منه الإقتصاد و المقصود إمش في الأرض متواضعاً لا متكبّراً، و أغضض من صوتك أي لا ترفع صوتك متطاولاً فأنّه

مذموم و حاصل الكلام أنّ المشي و الصَّوت ينبغي أن يراعى فيهما الإجتناب عن الإفراط و التَّفريط و الأخذ بجانب الإعتدال و الإقتصاد.

و قوله: **إِنَّ أَنْكَرَ ٱلْأَصْوٰاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ** تعليل لغضّ الصَّوت أي لو كان رفع الصَّوت حسناً لكان صوت الحمير كذلك مع أنّ العقلاء يعدّونه من أنكر الأصوات و أقبحها و حيث أنّ في الأيتين إشارة بل دلالة على مدح التّواضع و ذمّ التّكبر فلا بأس بالإشارة إلى بعض الأخبار الواردة في الباب.

فنقول:

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: ثلاثة لا يزيد اللّه بهنّ إلاّ خيراً، التّواضع لا يزيد اللّه به إلاّ إرتفاعاً، و ذلّ النّفس لا يزيد اللّه به إلاّ عزّاً، و التَّعفف لا يزيد اللّه به إلاّ غنىً إنتهى.

و قال الصّادق عليه السلام: ثلاث أصول الكفر، الحرص و الإستكبار و الحسد إنتهى.

و قال الباقر عليه السلام: ثلاث قاصمات الظّهر رجلٌ إستكثر عمله و نسي ذنوبه و أعجب برأيه إنتهى.

و قال النّبي صلى الله عليه و آله و سلم: أوحى اللّه تعالى إلى داود يا داود إنّ أقرب النّاس منّي يوم القيامة المتّواضعون و كذلك أبعد النّاس منّي يوم القيامة المتّكبرون إنتهى.

و قال النّبي صلى الله عليه و آله و سلم: لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّةٍ من خردلٍ من كبر إنتهى.

و عن أبي عبد اللّه عليه السلام: كان علّي بن الحسين عليه السلام يمشي مشيةً كأنّ على رأسه الطّير لا يسبق يمينه شماله إنتهى.

و قال أبو عبد اللّه: إنّ في السّماء ملكين موّكلين بالعباد فمن تواضع للّه رفعاه ومن تكّبر وضعاه إنتهى.

و قال عليه السلام: الكبر رداء اللّه فمن نازع اللّه رداءه أكبّه اللّه على وجهه في النّار إنتهى.

و الأحاديث كثيرة و فيما ذكرناه كفاية(١).

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللّٰهَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظٰاهِرَةً وَ بٰاطِنَةً وَ مِنَ ٱلنّٰاسِ مَنْ يُجٰادِلُ فِى ٱللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لاٰ هُدًى وَ لاٰ كِتٰابٍ مُنِيرٍ

التّسخير في الأصل سياقةٌ إلى الغرض المختصّ قهراً فالمسخّر هو المقيّض للفعل و في الآية تنبيهٌ على الصّنعة الدّالة على الصّانع من تسخير ما في السّموات من الشّمس و القمر و النّجوم و السّحاب و ما في الأرض من الحيوان و النّبات و الجماد و المعادن و البحار و غير ذلك.

و من المعلوم أنّ ذلك لا يكون إلاّ بمسخّر من مالكٍ متّصرفٍ كما يشاء.

و قال بعض المفسّرين سخّر لكم، أي سخّر لأجلكم ما في السّموات و الأرض و ذلك لأنّ الشّمس و القمر و النّجوم مسخّرات بأمر اللّه و فيها فوائد لعباده و سّخر ما في الأرض لأجل عباده أي لئن ينتفعوا به و ليس المراد بالتسخير تسَّلط العباد على ما في السّموات و الأرض و التَّصرف فيه بما يشاء و كيف يشاء ألا ترى أنّ اللّه تعالى سخَّر الحيوان للإنسان بمعنى أنّ الإنسان ينتفع به فليس للحمار أو الفرس أن يمنعاه عن الرُّكوب عليهما غير الرّكوب من المنافع و هكذا غير الحيوان و الحاصل أنّ المراد بالتّسخير هو الإنتفاع على أساس العدل.

و قوله: **وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظٰاهِرَةً وَ بٰاطِنَةً** فالسّبغ بفتح السّين و سكون العين، هو التّام الكامل و منه أستعير إسباغ الوضوء و إسباغ النِّعم ثمّ أنّ النِّعم على قسمين:

١- مشكاة الأنوار ص ٢٢٤ إلى ٢٢٧

قسمٌ منها ظاهرٌ محسوس، و قسمٌ غير ظاهر.

أمّا القسم الأوّل: فهو ممّا لا يخفى على أحدٍ فأنّ ما ينتفع به الإنسان في حياته من المأكولات و المشروبات و الملبوسات و الفواكه و المال و الأولاد و غيرها فهو من النِّعم الظّاهرة و قيل المراد بها البصر و السّمع و اللّسان و سائر الجوارح و هكذا.

أمّا القسم الثّاني: أعني به الباطنة فقيل المراد بها العقل و الفهم و القلب و أمثالها و الجامع بين الأقوال أنّ الباطنة ما لا يعلم إلاّ بدليلٍ أو لا يعلم أصلاً، و الظّاهرة ما يدرك بالمشاهدة و كيف كان لا شكّ أنّ نعم اللّه كثيرة لا يمكن إحصائها:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللّٰهِ لا تُحْصُوهٰا**[١].

ثمّ قال تعالىٰ: **وَ مِنَ ٱلنّٰاسِ مَنْ يُجٰادِلُ فِي ٱللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ**، كلمة، من، تبعيضيّة أي بعض النّاس كذلك و المقصود من هذا الكلام أنّ الجدال إذا كان عن جهلٍ و عناد فهو مذمومٌ و المفهوم من الكلام أنّ المجادلة إذا كانت عن علمٍ و هي التّي يعبّر عنها بالّتي هي أحسن لا إشكال فيها و الأصل في الباب هو قوله تعالى:

أُدْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ[٢].

و السّر في ذلك أنّ الجدال إذا كان عن غير علمٍ فهو من العناد المذموم عقلاً لأنّ المجادل لم يقصد به التّفهم بخلافه إذا كان عن علمٍ فأنّه بصدد التّفهيم أو التّفهم و لذلك ورد الذّم في الجدال بغير علم في كثيرٍ من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يُجٰادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبٰاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ**[٣].

١- ابراهيم = ٣٤
٢- النحل = ١٢٥
٣- الكهف = ٥٦

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنَ ٱلنّٰاسِ مَنْ يُجٰادِلُ فِى ٱللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطٰانٍ مَرِيدٍ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **مٰا يُجٰادِلُ فِيٓ اٰيٰاتِ ٱللّٰهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لاٰ تُجٰادِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتٰانُونَ أَنْفُسَهُمْ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ جٰادَلُوكَ فَقُلِ ٱللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا تَعْمَلُونَ**[٤].

و غيرها من الأيات الدالات على النّهي عن المجادلة بغير علم.

و قوله: **وَ لاٰ هُدًى وَ لاٰ كِتٰابٍ مُنِيرٍ** توضيحٌ لقوله: **بِغَيْرِ عِلْمٍ**، و ذلك لأنّ المجادلة عن غير علمٍ لاحجّة للمجادل فيها من العقل و الشّرع.

وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مٰآ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ قٰالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ اٰبٰآءَنٰآ أَوَلَوْ كٰانَ ٱلشَّيْطٰانُ يَدْعُوهُمْ إِلىٰ عَذٰابِ ٱلسَّعِيرِ

أي إذا قيل لهؤلاء المجادلين بغير علم، إتّبعوا ما أنـزل اللّـه، عـلى نـبيّه مـن الأحكام، قالوا بل نتّبع و نقتفي ما وجدنا عليه أباؤنا، أي نتّبع أباؤنا مـن عـبادة الأصنام و لا نـتّبع الأنـبياء و الرّسـل فـقال تـعالى مـنكراً عـليهم: **أَوَلَوْ كٰانَ ٱلشَّيْطٰانُ يَدْعُوهُمْ إِلىٰ عَذٰابِ ٱلسَّعِيرِ** معناه أنّكم تتّبعون ما وجدتم عليه أباؤكم ولو كان ذلك يدعوكم إلى عذاب جهنّم، و أدخل على واو العطف ألف الإستفهام على وجه الإنكار، و في الآية إشارة بل دلالة على قبح المتابعة من غير دليلٍ و لا برهانٍ فينبغي للعاقل متابعة الحقّ و الإعراض عن الباطل و هـذا هو الملاك في المتابعة و عدمها فأنّ الحقّ لا يعرف بالرّجال بل الرّجال يـعرف بالحقّ فالحقّ هو الميزان و هذا أصلٌ أصيلٌ و ركنٌ وثـيق للإنسـان العـاقل فـي جميع شئونه، بـل نـقول أنّ عـدم مـراعـات هـذه القـاعدة أوجب الفسـاد فـي الجامعة و غلبة الباطل على الحقّ قال بعض المـحقّقين مـن العـامّة فـي بـعض

١- الحجّ = ٣
٢- غافر = ٤
٣- النّساء = ١٠٧
٤- الحجّ = ٦٨

تحقيقاته لا شكّ أنّ علّي بن أبي طالب كان أفضل النّاس بعد النّبي من جميع الجهات و أنّه أليق بمقام الخلافة من غيره مع قطع النّظر عن النصّ الّذي هو مورد البحث، إلاّ أنّ أصحاب الرّسول قالوا بخلافة أبىبكر و لا يجوز لنا مخالفتهم لأنّ الحاضر يرى ما لا يرى الغائب و لذلك قلنا بصّحة خلافة أبيبكر إنتهى.

أنا أقول هذا الكلام منه و منهم مفاد قوله تعالى حيث قال حكايةً عن الكفّار **بَلْ نَتَّبِعُ مٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ اٰبآءَنٰآ** فلا فرق بين الكلامين من حيث المعنىٰ و أنّما الفرق في اللّفظ فقط، و إذا كان الملاك في المتابعة و عدمها، ما ذكرناه و نقلناه عنهم، فالحقّ مغلوبٌ لا محالة و يلزم منه الفساد في الجامعة و نتيجة ذلك خسران الدّنيا و الأخرة و من المعلوم أنّ الجهل داءٌ لا دواء له أعاذنا اللّه منه.

إن قلت كيف يمكن الحكم بجهل هؤلاء و قد نرى أنّهم من العقلاء بل فيهم العلماء و الفضلاء.

قلت لم نحكم بأنّه لا عقل لهم بل نقول أنّ حبّ الدّنيا غلب عليهم فصيّر عقولهم أسيراً لشهواتهم و أميالهم فكأنّه لا عقل لهم و هذا واضح.

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ



الحسن عبارة عن كلّ مبهج مرغوب فيه و ذلك ثلاثة أضرب، مستحسنٌ من جهة العقل، و مستحسنٌ من جهة الهوى، ومستحسنٌ من جهة الحسّ و الحسنة يعبّر بها عن كلّ ما يسرّ من نعمةٍ تنال الإنسان في نفسه و بدنه و أحواله و السَّيئة تضّادها.

و الإحسان يقال على وجهين:

أحدهما: الإنعام على الغير يقال أحسن إلى فلان.

الثّاني: إحسان في فعله و ذلك إذا علم علماً حسناً أو عمل عملاً حسناً و

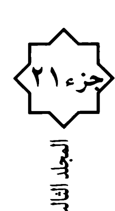
على هذا قول أميرالمؤمنين عليه السلام: **النّاس أبناء ما يحسنون**، أي منسوبون إلى ما يعلمون و ما يعملونه من الأفعال الحسنة، ثمّ أنّ الإحسان أعمّ من الإنعام، فالإحسان فوق العدل و ذلك لأنّ العدل هو أن يعطي ما عليه و يأخذ ما له و الإحسان أن يعطي أكثر ممّا عليه و يأخذ أقلّ ممّا له فالإحسان زائد على العدل فتحرّي العدل واجب و تحرّي الإحسان ندبٌ و تطوّعٌ إذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالىٰ: **وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ** معناه يوّجه طاعته إليه بالإخلاص دون الرّياء و السُّمعة، و هو محسن، الواو للحال أي حال كونه محسناً إلى غيره بالإنعام و محسناً في فعله أي في علمه و عمله، فقد إستمسك، و تشبَّث بالعروة الوثقى التّي لا يخشى إنتقاضها، فأنّ التّوثق إمتناع سبب الإنتقاض **وَ إِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ**، أي إليه ترجع أواخر الأمور على وجهٍ لا يكون لأحدٍ التّصرف فيها و لا الأمر و النّهي فيفعل ما يشاء و يحكم ما يريد:

قال اللّه تعالىٰ: **بَلىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ**[١].

وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ[٢].

و في الآية إشارة إلى أنّ التّوجه إلى اللّه لا يكفي إذا لم يكن مقروناً بالإحسان علماً و عملاً فإفهم.



وَ مَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ

لمّا بيّن فيما مضى سوء عاقبة الكفر و حسن عاقبة الإيمان أشار في هذه الآية إلى أنّ و بال الكفر على الكافر فلا يحزنك أي لا يغمّك كفره بعد إتمام الحجّة عليه و أنّما قال تعالى ذلك لأنّه لا تضرّه معصية من عصاه كما لا تنفعه

١- البقرة = ١١٢ ٢- النّساء = ١٢٥

طاعة من أطاعه، ثمّ قال: **إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ**، بعد الموت فننبّئهم و نخبرهم بما عملوا في الدّنيا و نجازيهم عليه إنّ اللّه عليم بذات الصُّدور، أي بما تضمره الصّدور فلا يخفى عليه شئ منها و في هذه الآية إشارة إلى أصلين:

أحدهما: عدم الحزن على كفر الكافر بعد إتمام الحجّة عليه.

ثانيهما: أنّ القيامة و الحساب و الثّواب و العقاب كلّها حقّ لا مرية فيه و لمثل هذا فليعمل العاملون فأنّ اللّه تعالى لا يخفى عليه شئ و هو عالم بما في الضّمائر فضلاً عن الظّواهر.

نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ

أي نتركهم و نمهلهم يتَّمتعون في هذه الدّنيا بأنواع النِّعم مدّةً قليلة ثمّ نضطرّهم أي نصيّرهم مكرهين في عذابٍ غليظٍ يوم القيامة و في الآية إشارة إلى أنّ الإنسان لا ينبغي أن يغترّ في دار الدّنيا بما أنعمه اللّه عليه و ذلك لأنّ الإنعام قد يكون للإستدراج:

قال اللّه تعالى: **وَ لا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّما نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوٓا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ**[٢].

قال اللّه تعالى: **فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ**[٣] و غيرها من الأيات.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللّٰهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ

١- البقرة = ١٧٨
٢- الأعراف = ١٨٢
٣- القَلَم = ٤٤

أي و لئن سألت يا محمّد هؤلاء الكفّار من خلق السّموات و الأرض ليقولنّ اللّه، أي يعترفون بأنّ الخالق هو اللّه البتّة و لا ينكرونه قل يا محمّد الحمد للّه، على هدايته و توفيقه لنا بالمعرفة له بل أكثرهم لا يعلمون، أنّكم وفّقكم اللّه لمعرفته، هكذا فسّر الكلام في التّبيان.

و قال الزّمخشري: **قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ** إلزام لهم على إقرارهم بأنّ الّذي خلق السّموات و الأرض هو اللّه وحده و أنّه يجب أن يكون له الحمد و الشّكر و أن لا يعبد معه غيره ثمّ قال: **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** أنّ ذلك يلزمهم و إذا نبّهوا عليه لم ينتبهوا إنتهى كلامه.

و الفرق بين التّفسيرين واضح لا خفاء فيه و لكلّ واحدٍ منهما وجهٌ وجيه فعلى الأوّل يكون الحمد على هدايته و توفيقه لنا بالمعرفة له تعالى حيث لم يجعلنا من الضّالين المكذّبين بالتّوحيد.

علىٰ الثّاني: يكون الحمد على إقرارهم أي إقرار الكفّار باللّسان و أنّهم لا يعلمون أنّ ذلك يلزمهم إتمام الحجّة عليهم فيؤخذون بها يوم القيامة و أظنّ أنّ هذا أوفق بسياق الكلام و اللّه أعلم.

لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ

اللاّم في قوله: **لِلَّهِ**، للملك أو الإختصاص أي أنّه تعالى مالك السّموات و الأرض أو أنّهما يختصّان به و تقديم الظّرف، و هو، للّه، يفيد الحصر نحو في الدّار زيدٌ أي ليس غيره فيها و هذا ممّا لا شكّ فيه فأنّ الخالق الموجد هو المالك لما خلقه و أوجده لا غيره فإذا ثبتت الخالقيّة ثبتت الملكيّة.

و في قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ** إشارة إلى أنّه تعالى لا يحتاج إلى غيره و هو كذلك وإذا كان الغنى منحصراً به فما سواه فقير كائناً ما كان.

قال اللّه تعالىٰ: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ**[١].

١- فاطر = ١٥

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ ٱللّٰهُ ٱلْـغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرٰآءُ**[١].

و إذا ثبت الغنى في الخالق و الفقر في المخلوق ثبت حدم إحتياج الخالق الى غيره و على هذا فمن أحسن احسن لنفسه و من أساء فعليها، إذ لا تنفعه طاعة من أطاعه و لا تضرّه معصية من عصاه فالنّفع و الضرّ في الإيمان و الكفر يرجعان الى صاحبهما و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد.

وَ لَوْ أَنَّ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاٰمٌ وَ ٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مٰا نَفِدَتْ كَلِمٰاتُ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن عدم تناهي كلماته أوّلاً و عجز الخلق عن إحصاءها ثانياً فالبحث يقع في موضعين:

الأوّل: أنّ كلماته غير متناهية لا يمكن إحصاءها و الدّليل عليه من العقل أنّ الكلمات مظاهر قدرته و قد ثبت أنّ صفاته غير متناهية و منها القدرة فهي غير متناهية و إذا كانت كذلك فمظاهرها أيضاً غير متناهية و من المعلوم أنّ إحصاء غير المتناهي من المتناهي غير معقولٍ و بعبارةٍ أُخرى نفود كلمات اللّه نفود قدرته و كلّما نفد فهو متناهٍ فقدرته متناهية و قد فرضنا عدم تناهيها و هذا خلاف الفرض و الى هذا المعنى أشار بقوله: **وَ لَوْ أَنَّ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْـلاٰمٌ** فكلمة، من، بيانيّة لا تبعيضيّة أي لو كان جميع الأشجار الموجودة في الأرض أقلاماً للكتابة، و البحر يمدّه أي في حال كون البحر ممدوداً فهو من قولك مدَّ الدّواة و أمدَّها، جعل البحر الأعظم بمنزلة الدَّواة و جعل الابحر السَّبعة مملوءة مداداً فهي تصبّ فيه مدادها أبداً صبّاً لا ينقطع و حاصل المعنى و لو أنّ أشجار الأرض أقلام و البحر ممدود بسبعة أبحر و

١- محمّد = ٣٨

كتبت بتلك الأقلام و بذلك المداد كلمات اللّه لما نفدت كلماته و نفدت الأقلام و المداد و ذلك كما:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لَوْ كٰانَ اَلْبَحْرُ مِدٰاداً لِكَلِمٰاتِ رَبِّى لَنَفِدَ اَلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمٰاتُ رَبِّى.**

و الأصل فيه هو قوله تعالىٰ: **مٰاعِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمٰا عِنْدَاَللّٰهِ بٰاقٍ**[١].

و من المعلوم أنّ ذكر الأشجار و البحار في الآية للدّلالة على إثبات الدّعوى و هي عدم نفاد كلمات اللّه و أن شئت قلت لا يراد به الإقتصار على هذا العدد بل جئ به للكثره كما قيل المؤمن يأكل في واحد و الكافر في سبعة أمعاء، فأنّ فيه إشارة الى القلّة و الكثرة و لا يراد به العدد إذ ليس للكافر سبعة أمعاء، و هو واضح و لمّا كان لفظ سبعة ليس موضوعاً في الأصل للتكّثير و إن كان مراداً به التّكثير جاء مميّزها بلفظ القلّة و هو، أبحر، ولم يقل، يجوز و أن كان لا يراد أيضاً إلاّ التّكثير، ليناسب بين اللّفظين فكما يجوز في سبعة و أستعمل للتّكثير كذلك يجوز في أبحر و أستعمل للتّكثير و في الكلام جملة محذوفة يدلّ عليها المعنى و هي، كتب بها الكتّاب، كلمات اللّه ما نفدت و على هذا فالمعنى ولو أنّ أشجار الأرض أقلام و البحر ممدودٌ سبعة أبحر و كتبت بتلك الأقلام و بذلك المداد كلمات اللّه ما نفدت و نفدت الأقلام و المداد الّذي في البحر و ما يمدّه إذا عرفت تفسير ألفاظ الآية فنقول:

كلمات اللّه على ضربين:

تكوينيّة، تشريعيّة و نعني بالتّكوينات الموجوادت، بالتّشريعيات الألفاظ الدّالات على الأحكام في جميع الكتب السّماوية المنزلة من عند اللّه على أنبيائه و رسله و إن شئت عبّر عنها بالأحكام الشّرعية و الجميع داخل في النّعم التّي قال اللّه تعالى: **وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ لا تُحْصُوهٰا**[٢] إذ لا نعمة أشرف و أفضل من نعمة الإيجاد و للبحث فيه مقام أخر.

١- النّحل = ٩٦ ٢- ابراهيم = ٣٤

مٰا خَلْقُكُمْ وَ لاٰ بَعْثُكُمْ إِلاّٰ كَنَفْسٍ واٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللّٰهَ سَميعٌ بَصيرٌ

كلمة، ما، للنّفي بمعنى ليس أي ليس خلقكم و لا بعثكم إلاّ كنفسٍ واحدة، فكما أنّ خلق نفسٍ واحدة و إيجادها لا يشّق على اللّه تعالى إبتداءً فكذلك خلق الجميع و بعثهم لا يشقّ عليه فهو يعيدهم و يحييهم بعد موتهم فأنّ حكم الأمثال واحد فإذا أمكن خلق نفسٍ واحدة و إحياؤها بعد الموت أمكن ذلك بالنّسبة إلى الجميع فمن أنكر البعث فقد أنكر الخلق و من أنكر ذلك في حقّ الجميع فقد أنكره في نفسه أيضاً و هو كما ترى يرجع إلى إنكار الوجود في حقّ نفسه و لازم ذلك إجتماع النَّقيضين و هو وجود المنكر و عدمه و توضيح ذلك إجمالاً أنّ منكر البعث موجودٌ على الفرض بدليلٍ إنكاره إذا المعدوم لا ينكر و لا يثبت، و لا شكّ أنّه لم يوجد نفسه بل أوجده الخالق ثمّ لا شكّ أنّه يموت فأن قلنا لا يمكن إحياؤه ثانياً فكيف أوجده أوّلاً و حكم الأمثال واحد و أيُّ فرقٍ بين الإيجاد أوّلاً و الإيجاد ثانياً و ثالثاً و هكذا فإذا قلنا بعدم قدرة الخالق على الإيجاد ثانياً و المفروض أنّ الإيجادين واحد لزم منه عدم تحقّق الإيجاد أوّلاً أيضاً فالمنكر معدوم و المفروض أنّه موجود و هو إجتماع النَّقيضين و العاقل لا يقول به.

قوله: **إِنَّ ٱللّٰهَ سَميعٌ بَصيرٌ** معناه أنّه عالم بالمسموعات فيسمع ما يقول المنكر للبعث و هو بصير بما يضمرونه في قوله: **مٰا خَلْقُكُمْ وَ لاٰ بَعْثُكُمْ إِلاّٰ كَنَفْسٍ واٰحِدَةٍ** من الإنكار القلبي و فيه تهديدٌ على الإنكار و المخالفة ثمّ إستدلّ على ذلك بقوله:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهٰارِ وَ يُولِجُ ٱلنَّهٰارَ فِى ٱللَّيْلِ وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ ٱللّٰهَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبيرٌ

الخطاب للرّسول و المراد به جميع المكلّفين و الهمزة للإنكار أي أنّكم ترون ذلك أو للتّوبيخ و التّقريع و المأل فيهما واحد و المعنى ألم تر أنّ اللّه

يدخل اللّيل في النّهار و يدخل النّهار في اللّيل، فأنّ الولوج في الأصل الدّخول في مضيقٍ و منه تنبيهٌ على ما ركَّب اللّه عزّ وجلّ عليه العالم من زيادة اللّيل في النّهار و زيادة النّهار في اللّيل و ذلك بحسب مطالع الشّمس و مغاربها و قيل معناه أنّ كلّ واحدٍ من اللّيل و النّهار يتّعقب الأخر و قوله: **ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى** أي أنّهما تحت تسخير اللّه و قدرته.

و فى قوله: **يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى** إشارة إلى أنّ مسيرهما إلى الفناء كسائر الموجودات و أنّما قلنا ذلك لأنّ الموجود إذا كان له أجلٌ و مدّة فهو محكومٌ بالفناء ففي الآية إشارة إلى عظيم قدرته و أنّه تعالى قادرٌ على كلّ شئٍ

و قوله: **أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** أي أنّه عالمٌ بما تعملون فيجازيكم بحسب ذلك في الأخرة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ

الظّاهر أنّ قوله: **ذَٰلِكَ**، إشارة إلى ما ذكره من الخلق و البعث و تسخير الشّمس و القمر و فنائهما، أي أنّ ما ذكرناه و وصفنا الخالق به بأنّ اللّه هو الحقّ الّذي لا سبيل للبطلان إليه و أنّ ما يدعون من الأصنام و الأوثان و غيرهما باطلٌ عاطلٌ لا يقدر علىٰ شيٍ، **وَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ**، فالعلّي هو الّذي علا، على الأشياء بالقهر و الغلبة و الكبير العظيم في صفاته على سبيل الإستحقاق فلا يستحقّ صفاته غيره ثمّ أشار اللّه تعالى إلى مظهرٍ أخر من مظاهر قدرته.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

الفُلك بضّم الفاء و سكون اللاّم و الكاف السّفينة التّي تجري في البحر و يستعمل للواحد و الجمع، الإستفهام للإنكار و الخطاب للرّسول و المراد به

جميع المكلّفين و المعنى أنّكم ترون الفلك تجري في البحر بنعمة اللّه ليريكم من أياته، كلمة، من، تبعيضيّة أي ليريكم بعض أدلّته الدّلة على توحيده لا جميعها فأنّ الأدلّة كثيرة جدّاً، أنّ في ذلك يعني في تسخير الفلك و إجرائها على ما ترونه لأياتٍ و دلالاتٍ على قدرة الخالق لكلّ صبّارٍ شكور قيل يعني الصبّار على مشّاق التّكليف و على ألم المصائب و أذى الكفّار و الصبّار مبالغة في الصَّبر و الشكور مبالغة في الشّكر و المقصود أنّ المؤمن يصبر على الأذى في اللّه و يشكر على نعمته.

وَ إِذاٰ غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمّٰا نَجّٰيهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مٰا يَجْحَدُ بِاٰياٰتِنٰآ إِلاّٰ كُلُّ خَتّٰارٍ كَفُورٍ

يعني إذا غشيهم أي أصحاب السُّفن موجٌ من أمواج البحر، كالظلل أي الماء في إرتفاعه و تغطيته، و الظلّة كلّ ما أظلّك من جبلٍ أو سحابٍ أو غيرهما، و قرئ كالظّلال جمع ظلّة كقلّة و قلال، و الكاف في قوله تعالى: **كَالظُّلَلِ**، للتّشبيه شبّه الموج بالجبل و السّحاب و أمثالهما ممّا يظلّ وجه الشّبه هو الإظلال، و في هذا التّشبيه إشارة إلى تراكم الموج و عظمته و هو مشهود محسوسٌ لمن ركب السَّفينة أو قام في ساحل البحر للنّظر إليها و لا شكّ أنّ رؤية الموج العظيم يوجب الخوف و الوحشة و لذلك يدعو الرّاكب اللّه تعالى و يتضرّع إليه من صميم القلب لعلمه بأنّه لا منجي له من ذلك الخطر إلاّ اللّه تعالى و إلى ذلك أشار اللّه تعالى بقوله: **دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ** و هذا الدُّعاء لا يختصّ بهذا المورد خاصّة بل الإنسان في مواضع الخوف و الوحشة يدعوا اللّه كثيراً لعلمه بأنّه لا ملجأ إلاّ هو و لا كاشف للكرب إلاّ هو و لا معين و لا ناصر إلاّ هو هذا كلّه في صورة الإضطرار و شدّة البلاء و أمّا بعد الخلاص من هذه الورطة الهائلة و المصيبة العظيمة فلا يدعو اللّه إلاّ قليلاً و هو دليل على ضعف الإيمان و نقصه و أنّ الإنسان إبن الوقت يعرف اللّه في الشِّدة

و ينساه في النِّعمة و الصِّحة و المؤمن ليس كذلك و لا يغفل عن ربّه في جميع الأحوال و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **فَلَمّٰا نَجّٰيهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ** أي بعضهم مقتصد في قوله مضمرٌ لكفره، و قيل المراد به المؤمن، و قيل مقتصد على طريقه مستقيمة، و ما يجحد بأياتنا إلاّ كلّ ختّار كفور، الجحد الإنكار، و كلمة، ما، نافية بمعنى ليس و لا أي لا ينكر أياتنا **إِلاّٰ كُلُّ خَتّٰارٍ**، أي غدّار **كَفُورٍ**، أي كافرٌ بأنعم اللّه، و الكفور مبالغة في الكفر و الظّاهر أنّ المراد بالكفر هو كفر الجحود بدليل قوله: **وَ مٰا يَجْحَدُ** و يحتمل أن يكون المراد معناه العامّ الشّامل له و لغيره و هو واضح.

يٰا أَيُّهَا ٱلنّٰاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ ٱخْشَوْا يَوْماً لاٰ يَجْزِي وٰالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لاٰ مَوْلُودٌ هُوَ جٰازٍ عَنْ وٰالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ فَلاٰ تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيٰا وَ لاٰ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ ٱلْغَرُورُ

الخطاب عامّ يشمل جميع المكلّفين أمرهم اللّه بإجتناب معاصيه و فعل الطّاعات فأنّ التّقوى لا تحصل إلاّ بهما ثمّ خوّفهم من عقابه و عذابه يوم القيامة فقال: **وَ ٱخْشَوْا يَوْماً لاٰ يَجْزِي**، أي لا يقضي، **وٰالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لاٰ مَوْلُودٌ**، أي و لا ولدٌ عن والده شيئاً، أي لا يقضي والد عن ولده و لا يقضي ولد عن والده.

و قال بعض المفسّرين أي لا يغني أحدهما عن الأخر و المأل واحد و المقصود أنّ يوم القيامة كلّ إنسانٍ مشغولٌ بنفسه معرضاً عن غيره كائناً من كان إنّ وعد اللّه بالقيامة و ما فيها من الشّدائد احقّ لا ريب فيه، **فَلاٰ تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيٰا**، فأنّها فانية زائلة، **وَ لاٰ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ ٱلْغَرُورُ**، قيل المراد بالغرور الشّيطان، و قيل هو يمنيك المغفرة في عمل المعصية و قيل الغرور كلّ شيءٍ غرّك حتّى تعصي اللّه و تترك ما أمرك به اللّه شيطاناً كان أو غيره و يستفاد من الآية أموراً ينبغي التّنبيه عليها إجمالاً:

الأوّل: قوله **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ** ففيه إشارة إلى الأخذ بالتّقوىٰ في جميع الأمور و التّقوى عبارة عن جعل النّفس في وقايةٍ ممّا يخاف هذا تحقيقه و صار التّقوى في عرف الشّرع حفظ النّفس عمّا يؤثم و ذلك بترك المحظور و يتّم ذلك بترك بعض المباحات فضلاً عن المحرّمات لما روي في الحديث المشهور **أنّما الأمور ثلاثة، حلال بيّن و حرامٌ بيّن و المشتبهات بينهما و من رتع حول الحمى فحقيقٌ أن يقع فيه** و لذلك قيل أنّ التّقوى لا يتمّ إلاّ بترك المشتبهات و قد يعبّر عن ترك المشتبهات بالورع.

قال بعض المحقّقين التّقوى حفظ النّفس عن المحرّمات و توطينها على فعل الواجبات، و الورع حفظها عن المشتبهات أيضاً، فهو فوق التّقوى بدرجةٍ.

و عن كتاب المحاسن سأل أبو بصير أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه تعالىٰ: اَتَّقُوا اَللّهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ قال عليه السلام: يطاع و لا يعصى، و يذكر و لا ينسى و يشكر فلا يكفر إنتهى.

و قال أميرالمؤمنين عليه السلام: التّقوى التّقوى سنخ الإيمان إنتهى.

و عن الصّادق عليه السلام: إتّقوا اللّه و صونوا دينكم بالورع إنتهى.

و عنه عليه السلام: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أعمل بفرائض اللّه تكن أتقى النّاس إنتهى.

و عن الباقر عليه السلام قال: عليك بتقوى اللّه و الإجتهاد في دينك و إعلم أنّه لا يغني عنك إجتهاد ليس معه ورع إنتهى[١].

و الأحاديث في التّقوىٰ كثيرة ونحن تكلّمنا في التّقوى فيما مضى غير مرّةٍ فلا نطول الكلام بالبحث في التّقوى في المقام مضافاً إلى أنّه من أوضح الواضحات بحسب الأيات و الأخبار و يكفينا قوله تعالى في مدح التّقوى: **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ**[٢] مفهوم الآية أنّ اللّه تعالى لا يقبل العمل بدون التّقوى و لذلك ترى في كثير من الأيات مدح اللّه التّقوى و المتّقين:

١- مشكاة الأنوار ص ٤٤ ٢- المائدة = ٢٧

قال اللّه تعالىٰ: **وَلَوْ أَنَّهُمْ اٰمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ خَيْرٌ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ اٰمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظّٰالِمِينَ فِيها جِثِيًّا**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا**(٥).

و الأيات في الباب كثيرة جدّاً و الأيات الواردة في الأمر بالتّقوى و الحثّ عليها أيضاً كثيرة:

قال اللّه تعالىٰ: **فَاتَّقُوا النّٰارَ الَّتِي وَقُودُهَا النّٰاسُ وَ الْحِجارَةُ**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا**(٧).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَ اعْلَمُوٓا أَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**(٨).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَ اعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**(٩) و غيرها من الأيات.

الأمر الثّاني: قوله **وَ اخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئًا** أمرنا بالخوف و الخشية من يوم القيامة الّذي لا يجزي والدٌ عن ولده فضلاً عن غيرهما و فيه إشارة إلى هول المطلع و أنّه إذا كان الوالد لا يجزي عن ولده فما ظنّك بغيرهما و في التّعبير بالخشية دون الخوف إشارة إلى أنّ يوم القيامة يومٌ عظيم و ذلك لأنّ الخشية هي الخوف المشوب بالتّعظيم المسبوق بالعلم غالباً، و لذلك خصّ اللّه تعالى الخشية

١- البقرة = ١٠٣
٢- المائدة = ٦٥
٣- النّحل = ١٢٨
٤- مَريم = ٧٢
٥- الزُّمر = ٧٣
٦- البقرة = ٢٤
٧- البقرة = ٤٨ و ١١٢
٨- البقرة = ١٩٤
٩- البقرة = ٢٠٣

بالعلماء حيث قال: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَؤُا**[١] و كيف كان فقد أمرنا اللّه تعالى بالخشية عن يوم القيامة.

الأمر الثّالث: قوله **إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** الوعد بفتح الواو و سكون العين و الدّال يكون في الخير و الشّر يقال وعدته بنفع و ضرّ و **الوَعيد** بفتح الواو و كسر العين يقال في الشّر خاصّة:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**[۴] و غيرها من الأيات.

و من الوعد بالشّر:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ**[۵].

قال اللّه تعالىٰ: **وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ**[۶].

ثمّ أنّ المراد بالوعد ما وعد اللّه المتّقين بالثّواب و المنافقين و الكافرين بالعذاب و أمّا كون وعده أو وعيده حقّاً فالوجه فيه أنّه تعالى هو الحقّ المطلق الّذي لا سبيل للبطلان إليه و هو الثّابت الّذي لا يتغيّر فكلّ ما صدر عنه فهو أيضاً حقّ و صدق اذ الحقّ لا يقول إلاّ حقّاً و توضيحه إجمالاً أنّ الوعد لا يخلو إمّاان يكون حقّاً، أو باطلاً لا ثالث لهما لأنّ عدم الحقّ باطل كما أنّ عدم الباطل حقّ فالوعد إن كان حقّاً فهو المطلوب و إن كان غير حقٍّ فهو باطل و لا نعني بالباطل إلاّ العبث و اللّغو و الخالق الحكيم منزّهٌ عنه فأنّ الباطل لا يصدر إلاّ من الباطل هذا أوّلاً.

١- فاطر = ٢٨
٢- إبراهيم = ٢٢
٣- النّساء = ٩۵
۴- المائدة = ٩
۵- الحجّ = ۴٧
۶- التّوبة = ۶٨

ثانياً: أنّ اللّه وعدنا بما وعدنا من أهوال القيامة و هذا ممّا لا كلام فيه فأن و فى بما وعد فهو المطلوب و إن أخلف ولم يف بما وعد فأمّا يكون عالماً بعدم الوفاء في وقته و مع ذلك وعد فهو كاذبٌ في وعده من أوّل الأمر و الكذب محال عليه لقبحه ذاتاً، و من أصدق من اللّه قيلاً، و أمّا أن لا يكون عالماً حين الوعد بعدم الوفاء بل أراد الوفاء إلاّ أنّه منعه عن الوفاء مانعٌ و حينئذٍ فأن كان قادراً على رفع المانع و لم يرفعه فهو جاهل لأنّه وعد مع علمه بوجود المانع و إن لم يقدر على رفعه فهو عاجزٌ ضعيفٌ و اللّه تعالى منزّهٌ عن الجهل و الضعف و أن لم يمنعه مانع و مع ذلك اخلف وعده فهو ظالم خائن نعوذ باللّه منه فثبت أنّ اللّه تعالى إذا وعد وفى و هو المطلوب.

و إلى هذا أشار اللّه تعالى بقوله: **إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ** و قد نطق بذلك الكتاب أيضاً:

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالُوا هٰذٰا مٰا وَعَدَنَا ٱللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ ٱللّٰهُ وَ رَسُولُهُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **هٰذٰا مٰا وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ وَ صَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قٰالُوا ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي صَدَقَنٰا وَعْدَهُ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ صَدَقْنٰاهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنْجَيْنٰاهُمْ وَ مَنْ نَشٰاءُ**[٤] و غيرها من الأيات الواردة في الباب.

الأمر الرّابع: قوله تعالىٰ **فَلاٰ تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيٰا** قال الرّاغب في المفردات، الغرّة غفلة في اليقظة، و الغرار غفلة مع غفوةٍ و أصل ذلك من الغرّ و هو الأثر الظّاهر من الشّيئ و منه غرّة الفرس، و غرار السّيف أي حدّه، و غرّه كذا غروراً كأنّما طواه على غرّةٍ إنتهى.

١- الأحزاب = ٢٢
٢- يٰس = ٥٢
٣- الزّمر = ٧٤
٤- الأنبياء = ٩

هذا بحسب اللُّغة و أمّا علماء الأخلاق فقد عرَّفوه بسكون النّفس إلى ما يوافق الهوى و يميل إليه الطَّبع من شبهةٍ و خدعةٍ من الشّيطان فمن إعتقد أنّه على خيرٍ في العاجل أو في الأجل عن شبهةٍ فاسدة فهو مغرور، و لا ريب في أنّ سكون النّفس إلى ما يوافق الهوى و يميل الطّبع إليه عن شبهةٍ مرّكبٌ من أمرين:

أحدهما: إعتقاد النّفس بأنّ هذا خيرٌ له مع كونه خلاف الواقع.

ثانيهما: حبّها و طلبها باطناً لمقتضيات الشّهوة أو الغضب ثمّ أنّ الإعتقاد المذكور راجعٌ إلى نوعٍ معيّن من الجهل المركب و هو الجهل الّذي يكون المجهول المعتقد فيه شيئاً يوافق الهوى فيكون من رذائل القوّة العاقلة.

أمّا الحبّ و لا اطلب من رذائل قوّتي الغضب و الشَّهوة فالغرور يكون من رذائل القوى الثّلاث أو من رذائل العاقلة مع إحدايهما.

إذا عرفت هذا فنقول الغرور و الغفلة منبع كلّ هلكةٍ و أمّ كلّ شقاوةٍ و لذا ورد فيه الذّم في الأيات و الأخبار:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ٱرْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ ٱلْأَمٰانِيُّ حَتّٰى جٰاۤءَ أَمْرُ ٱللّٰهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللّٰهِ ٱلْغَرُورُ**[١].

ثمّ أنّ الإنسان قد يكون مغروراً بعبادته و خيراته و حسناته و علمه و أمثال ذلك و هذا النّوع من الغرور و أن كان مذموماً بحسب الأيات و الأخبار إلاّ أنّه خارج عن مورد البحث فعلاً، و قد يكون مغروراً بماله و حيلته و أولاده و عشيرته و أمثال ذلك من الأمور و الجامع بينها هو حبّ الدُّنيا و زخارفها فأنّ من أحبَّ شيئاً أحبَّ آثاره و هذا هو مورد البحث في المقام و الآية ناظرةٌ اليه فأنّ كثيراً من النّاس يغتّرون بما في أيديهم في الحياة الدُّنيا و لم يعلموا أنّ الدُّنيا و ما فيها لا بقاء لها و ما لا بقاء له لا يغتَّر العاقل به مضافاً الى أنّه يوجب نسيان الأخرة و الغفلة عنها، **خَسِرَ ٱلدُّنْيٰا وَ ٱلْاٰخِرَةَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرٰانُ ٱلْمُبِينُ**[٢].

١- الحديد = ١٤ ٢- الحج = ١١

قال الصّادق عليه السلام المغرور في الدُّنيا مسكينٌ و في الأخرة مغبون لأنّه باع الأفضل بالأدنى و لا تعجب من نفسك فربّما إغتررت بمالك و صحّة جسدك و ربما إغتررت بطول عمرك و أولادك و أصحابك لعلَّك تنجوا بهم و ربما إغتررت بجمالك و منيتك و إصابتك مأمولك و هواك فظننت إنّك صادق و مصيب و ربما إغتررت بما ترى من الندّم على تقصيرك في العبادة و لعلّ اللّه يعلم من قلبك بخلاف ذلك و ربّما أقمت نفسك على العبادة متّكلفاً و اللّه يريد الإخلاص و ربما إفتخرت بعلمك و نسبك و أنت غافل عن مضمرات ما في غيب اللّه الخبر نقلناه عن جامع السّعادات[١].

أقول و قد جمع جميع الأفات في قوله تعالى:

وَ مَا ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ[٢].

و قوله تعالىٰ: **مٰاعِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمٰا عِنْدَٱللّٰهِ بٰاقٍ**[٣].

و الأيات في ذمّ الغرور و أنّ الدُّنيا متاعه و سببه كثيرة و لا نحتاج الى ذكرها فأنّ الأمر أوضح من أن يخفى على العاقل اللَّبيب.

الأمر الخامس: قوله تعالى: **وَ لَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ ٱلْغَرُورُ** قال مجاهد الغرور الشّيطان.

قال سعيد بن جبير هو يمنّيك المغفرة في عمل المعصية و قيل الغرور كلّ شئٍ غرّك و قيل ذكرك حسناتك و نسيانك سيّئاتك و قيل غير ذلك و أنت ترى أنّ هذه التّفاسير لا تناسب اللّفظ في الآية و ذلك لأنّ قوله: **وَ لَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ ٱلْغَرُورُ** ظاهر بل صريحٌ في الإغترار باللّه و هو الّذي نهى اللّه عنه مثل أن يغترّ العبد برجاء اللّه و عفوه و رحمته و غفل عن عقابه و عذابه فأنّ المغرورين

١- جامع السّعادات ج ص
٢- آل عمران = ١٨٥
٣- النحل = ٩٦

باللّه هم الّذين يقدرون في أنفسهم و يقولون بألسنتهم أن كان للّه معاد فنحن فيه أوفر حظّاً و أسعد حالاً من غيرنا كما أخبر اللّه سبحانه عن قول الرّجلين المتحاورين إذ قال:

وَ مٰا أَظُنُّ ٱلسّٰاعَةَ قٰائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهٰا مُنْقَلَبًا[١].

و باعث ذلك أنّهم نظروا الى نعم اللّه عليهم في الدُّنيا فيقيسون عليها نعم الأخرة و ينظرون الى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الأخرة:

قال اللّه تعالى: **وَ يَقُولُونَ فِيٓ أَنْفُسِهِمْ لَوْلاٰ يُعَذِّبُنَا ٱللّٰهُ بِمٰا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهٰا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ**[٢].

و مرّةً ينظرون الى المؤمنين و هم فقراء محتاجون فيقولون لو أحبّهم اللّه لأحسن إليهم في الدُّنيا ولو لم يحبّنا لما أحسن إلينا فيها فلمّا لم يحسن اليهم في الدُّنيا و أحسن إلينا فيها فيكون محبّاً لنا و لا يكون محبّاً لهم فيكون الأمر في الأخرة كذلك و لا ريب أنّ كلّ ذلك خيالات فاسدة و قياسات باطلة فأنّ من ظَّن أنّ النَّعيم الدُّنيوية دليل الحبّ و الإكرام عند اللّه فقد إغتّر باللّه إذ ظّن أنّه كريمٌ عند اللّه بدليلٍ لا يدلّ على الكرامة الى آخر الكلام هكذا قرّره بعض المحققين و أنت خبيرٌ بأنّ ما ذكره‌ﷺ و أن كان كاملاً في حدّ ذاته إلاّ أنّه من الإغترار بالدُّنيا لا من الإغترار باللّه فهو تفسير بقوله: **فَلاٰ تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيٰا** و أمّا قوله: **وَ لاٰ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ ٱلْغَرُورُ** فهو شيءٌ آخر ضرورة وجود الفرق بين الإغترار بالحياة الدُّنيا و بين الإغترار باللّه و الّذي يختلج بالبال في حلّ الإشكال هو أنّ المؤمن باللّه يرجوا اللّه و يخافه فأنّ الخوف و الرّجاء كلاهما ممدوحان، بل الحقّ أنّهما منزلان من منازل الدّين و مقامان من مقامات الموقنين و قد أشار اللّه تعالى الى مدحهما في كثيرٍ من الأيات.

١- الكهف = ٣٦ ٢- المُجادلة = ٨

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّما يَخْشَى ٱللّٰهَ مِنْ عِبادِهِ ٱلْعُلَمٰٓؤُا**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ**[۲].

قال اللّه تعالىٰ: **رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**[۳].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ خافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوىٰ، فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوىٰ**[۵].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ**[۶] و غيرها من الأيات.

و أمّا الرّجاء:

قال اللّه تعالىٰ: **فَنَذَرُ ٱلَّذينَ لا يَرْجُونَ لِقآءَنا في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ**[۷].

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذينَ لا يَرْجُونَ لِقآءَنا لَوْلآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلآئِكَةُ**[۸].

قال اللّه تعالىٰ: **أُولٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللّٰهِ**[۹] و غيرها من الأيات.

فـإذا كـان الخـوف و الرّجـاء مـمدوحين يـنبغي للـمؤمن التـمسّك بـهما و الإتّصاف بهما في جميع شؤونه فأنّهما متلازمان و ذلك لأنّ الرّجاء هو إرتـياح القلب لإنتظار المحبوب و هو يلازم الخوف إذ الخوف عـبارة عـن التألّـم مـن توقّع مكروهٍ ممكن الحصول و ما يمكن حصوله يمكن عدم حصوله أيضاً و ما كان حصوله مكروهاً كان عدم حصوله محبوباً فكما أنّه يـتألم بـتوقع حـصوله

۱- فاطر = ۳۸
۲- الأعراف = ۱۵۴
۳- البيّنة = ۸
۴- آل عمران = ۱۷۵
۵- النّازعات = ۴۱ / ۴۰
۶- الرّحمٰن = ۴۶
۷- يُونس = ۱۱
۸- الفرقان = ۲۱
۹- البقرة = ۲۱۸

يرتاح بتوقُّع عدم حصوله فالخوف عن شئ وجوداً يلزمه الرّجاء عدماً، و عنه عدماً يلزمه الرّجاء وجوداً، ثمّ أنّه لا بدّ أن يحصل أكثر أسباب حصول المحبوب حتّى يصدق إسم الرّجاء على إنتظاره كتوقُّع الحصاد ممّن ألقى بذراً جيّداً في أرضٍ طيّبة يصلها الماء و أمّا إنتظار ما لم يحصل شئ من أسبابه فيسمّى غروراً و حماقة كتوقُّع من ألقى بذراً في أرضٍ سبخة لا يصلها الماء و إنتظار ما كان أسبابه مشكوكاً يسمّى تمنّياً كما إذا صلحت الأرض و لا ماء لها فاذن إسم الرّجاء أنّما يصدق على إنتظار محبوبٍ تمهّدت جميع أسبابه الدّاخلة تحت إختيار العبد ولم يبق إلاّ ما ليس تحت إختياره و هو فضل اللّه تعالى بصرف القواطع و المفسدات فالأيات و الأحاديث الواردة في التّرغيب على الرّجاء و في سعة عفو اللّه و جزيل رحمته و وفور مغفرته أنمّا هي مخصوصة بمن يرجو الرَّحمة و الغفران بالعمل الخالص المعدّ لحصولهما و ترك الإنهماك في المعاصي المفوّت لهذا الإستعداد و حاصل الكلام أنّ الرّجاء هو بعد العمل لا قبله:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ ٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللَّهِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا**(٢).

و قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: الكيّس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت و الأحمق من أتّبع نفسه هواها و تمنّى على اللّه الجنّة.

و عن الصّادق عليه السلام: أنّه قيل له قومٌ يعملون بالمعاصي و يقولون نرجوا فلا يزالون كذلك حتّى يأتيهم الموت فقال عليه السلام هؤلاء قوم يترجّحون في الأماني كذبوا ليسوا براجين أنّ من رجى شيئاً طلبه و من خاف من شيءٍ هرب منه إنتهى.

١- البقرة = ٢١٨ ٢- الأعراف = ١٦٩

و عنه عليه السلام قال: لا يكون المؤمن مؤمناً حتّى يكون خائفاً راجياً ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف و يرجوا إنتهى.

و الأحاديث نقلناها عن جامع السّعادات [1] فتَّحصل ممّا ذكرناه أنّ المراد بقوله تعالى: **وَ لٰا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ ٱلْغَرُورُ** هو الإغترار بما ورد من الآيات و الأخبار في مدح الرّجاء باللّه و ذَّم اليأس من رحمة اللّه من غير أن يعمل المغترّ لما يرجوا من غير إلتفاتٍ منه إلى شرائط تحقق الرّجاء فقال أنّ رحمة اللّه واسعة ولم يعلم أنّها قريبة من المحسنين و لعمري هذا داءٌ لا دواء له إلاّ و لا سيّما عند العوام حيث أنّ هذه العقيدة صارت راسخة في قلوبهم بحيث لا يمكن لأحدٍ إخراجها عن القلوب و حيث أنّ إطالة الكلام في الباب تخرجنا عمّا نحن بصدده من تفسير كلام اللّه فالإعراض عنها أولى و أنّما ذكرنا ما ذكرناه في الآية لأهمّية الموضوع فأنّ الغرور بذر الخسران في الدّارين.

إِنَّ ٱللّٰهَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسّٰاعَةِ وَ يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مٰا فِي ٱلْأَرْحٰامِ وَ مٰا تَدْرِي نَفْسٌ مٰاذٰا تَكْسِبُ غَدًا وَ مٰا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

قال صاحب الكشّاف و غيره من المفسّرين في نزول الآية أنّ رجلاً من محارب و هو بن عمر و بن حارثة أتى النّبي صلى الله عليه و آله و سلم فقال يارسول اللّه أخبرني عن السّاعة متى قيامها، و أنّي قد ألقيت حباني في الأرض، و قد أبطأت عنّا السّماء فمتى تمطر، و أخبرني عن إمرأتي فقد إشتملت ما في بطنها أذكرٌ أم أنثى، و إنّي علمت ما عملت أمس فما أعمل غداً، و هذا مولدي قد عرفته فأين أموت فنزلت الآية و عن النّبي صلى الله عليه و آله و سلم: **مفاتيح الغيب خمس، و تلى هذه الآية وعن إبن عبّاس من إدّعى علم هذه الخمسة فقد كذب** إنتهى كلامه.

و نحن نفّسر ألفاظ الآية أوّلاً ثمّ نتكلّم فيها حسب ما إقتضاه المقام فنقول:

١- ج ١ ص ٢٥٢

المراد بالسّاعة في الآية القيامة و بالغيث المطر، و بقوله ما في الأرحام، الأولاد من الذّكر و الأنثى في بطن الأمّهات.

و بقوله: **وَ مٰا تَدْرِي نَفْسٌ مٰاذٰا تَكْسِبُ غَدًا** ما تكسب من خيرٍ أو شرٍّ و بقوله: **بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ،** مكانه موته فهذه أمورٌ خمسة لا يعلمها إلاّ اللّه تعالى و لا كلام لأحدٍ فيها و الوجه فيه أنّ اللّه تعالى عالم بكلّ شيئٍ فلا يخفى عليه شيئ لا في الأرض و لا في السّماء من غير فرقٍ بين الماضي و الحال و الإستقبال و ذلك لأنّه تعالى علّة إيجاد الموجودات و كلّ ما سواه مخلوق له و العلم عين ذاته و لا يعقل جهل العلّة بمعلولها و المفروض أنّ وجود المعلول من وجود العلّة.

ثانياً: أنّ الجهل نقص و عيب و النّقص من شئون الممكن و هو تعالى واجب الوجود و من المعلوم أنّ القيامة و ما فيها من مخلوقاته فكيف يعقل جهله بها و إذا إنتفى الجهل بها ثبت العلم بها و هو المطلوب.

و هكذا الكلام في نزول الغيث و غيره ممّا هو مذكورٌ في الآية فأنّ الخالق الموجد في الكلّ هو اللّه تعالى و كيف يعقل جهل الخالق بمخلوقه فالعلم ثابت للخالق بالذّات و هذا ممّا لا كلام فيه فيما نعلم بين المفسّرين و قد وردت الأثار و الأخبار بذلك أيضاً.

روي في البحار عن الصّادق عليه السلام أنّه قال: في هذه الآية هذه الخمسة أشياء لم يطلّع عليها ملكٌ مقرّبٌ و لا نبيٌّ مرسل و هي من صفات اللّه عزّ وجلّ إنتهى.

و بأسناده عنه عليه السلام قال: قال لي أبي ألا أخبرك بخمسة لم يطّلع اللّه عليها أحد من خلقه قلت بلى قال أنّ اللّه عنده علم السّاعة و ينّزل الغيث و يعلم ما في الأرحام و ما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً و ما تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت أنّ اللّه عليمٌ خبيرٌ إنتهى.

و بأسناده عن الأصبغ بن نباتة قال سمعت أميرالمؤمنين عليه السلام يقول: أنّ للّه علمٌ إستأثر به في غيبه فلم يطلّع عليه نبيّاً من أنبيائه و

لا ملكاً من ملائكته و ذلك قول اللّه تعالى عنده علم السّاعة و ينزّل الغيث و يعلم ما في الأرحام و ما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً و ما تدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت، و له علم قد إطّلع عليه ملائكته فما إطّلع عليه ملائكته فقد إطّلع عليه محمّداً و أله و ما إطّلع عليه محمّداً و أله فقد أطّلعني عليه يعلمه الكبير منّا و الصّغير إلى أن تقوم السّاعة إنتهى[1].

و الأحاديث كثيرة في الباب و يظهر منها أنّ الغيب الّذي لم يطلع اللّه عليه أحداً من خلقه هو هذه الخمسة المذكورة في الآية فأنّ العلم بها مختصٌّ باللّه تعالى و هو الّذي إستأثر به في غيبه و أمّا غيره فلا يدخل في غيبه.

قال الشّيخ المفيد قدّس سرّه في كتاب المسائل:

أقول أنّ الأئمّة عليهم السّلام من أل محمّد قد كانوا يعرفون ضمائر بضع العباد و يعرفون ما يكون قبل كونه و ليس ذلك بواجب في صفاتهم و لا شرطاً في إمامتهم و أنّما أكرمهم اللّه تعالى به و أعلمهم إيّاه للطفٍ في طاعتهم و التّسجيل لإمامتهم و ليس ذلك بواجبٍ عقلاً و لكنّه وجب لهم من جهة السّماع فأمّا إطلاق القول بأنّهم يعلمون الغيب فهو منكرٌ بيّن الفساد لأنّ الوصف بذلك أنّ ما يستحقّه من علم الأشياء بنفسه لا بعلم مستفاد و هذا لا يكون إلاّ للّه عزّ و جلّ و على قولي هذا جماعة أهل الإمامةً إلاّ من شذًّ عنهم من المفوّضة و من إنتهى إليهم من الغلاة إنتهى كلامه رفع مقامه.

أقول ما ذكره قدّس سرّه حقّ لا ريب فيه فأنّ العلم عند اللّه يفيض منه على من يشاء لقدر ما يشاء و للبحث فيه مقام أخر و قد تكلّمنا في هذا الباب فيما مضى بقدر الإمكان و الحمد للّه ربّ العالمين.

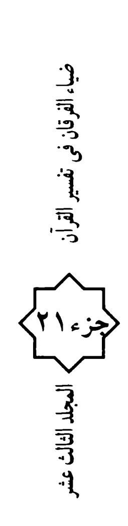
■

۱- بحار الأنوار ج ۷ ص ۳۰۰

سُورَةُ ٱلسَّجْدَةِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ ٱلْكِتٰابِ لٰا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرٰيهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مٰآ أَتٰيهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللّٰهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ ٱسْتَوٰى عَلَى ٱلْعَرْشِ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لٰا شَفِيعٍ أَفَلٰا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كٰانَ مِقْدٰارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمّٰا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذٰلِكَ عٰالِمُ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهٰادَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسٰانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلٰالَةٍ مِنْ مٰآءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوّٰيهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ وَ ٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مٰا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَ قٰالُوٓا أَءِذٰا ضَلَلْنٰا فِي ٱلْأَرْضِ أَئِنّٰا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقٰآءِ رَبِّهِمْ كٰافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ



يَتَوَفّٰيكُمْ مَلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلٰى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَ لَوْ تَرٰىٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نٰاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنٰآ أَبْصَرْنٰا وَ سَمِعْنٰا فَارْجِعْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحًا إِنّٰا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَ لَوْ شِئْنٰا لَاٰتَيْنٰا كُلَّ نَفْسٍ هُدٰيهٰا وَ لٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنّٖى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَ ٱلنّٰاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمٰا نَسِيتُمْ لِقٰآءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰآ إِنّٰا نَسِينٰاكُمْ وَ ذُوقُوا عَذٰابَ ٱلْخُلْدِ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمٰا يُؤْمِنُ بِاٰيٰاتِنَا ٱلَّذِينَ إِذٰا ذُكِّرُوا بِهٰا خَرُّوا سُجَّدًا وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لٰا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجٰافٰى جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضٰاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾

◀ اللّغة

الٓمٓ: قد مرَّ الكلام فيه.

لٰا رَيْبَ: الرَّيب الشّك.

ٱفْتَرٰيهُ: الإفتراء الكذب.

يَعْرُجُ: العروج الصّعود.

سُلٰالَةٍ: السُّلالة بضّم السّين الصَّفوة التّي تنسل من غيرها.

مَهِينٍ: المهين بفتح الميم و كسر الهاء الضّعيف.

سَوّٰيهُ: التّسوية التّعديل.

تَتَجَافَىٰ: التّجافي الإرتفاع.
ٱلْمَضَاجِعِ: جمع مضجع موضع الإضجاع.

◄ الإعراب

الٓمٓ يجوز أن يكون مبتدأ و تَنْزِيلُ خبره لَا رَيْبَ فِيهِ حال من الكتاب و العامل فيه تنزيل، مِنْ رَبِّ يتعلّق بتنزيل و يجوز أن يكون حالاً من الضّمير في، فيه، أَمْ يَقُولُونَ أم هنا منقطعة أي بل يقولون، و ما، في ما أتاهم، نافيّة، و الكلام صفة لقوم ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ خبر و المبتدأ محذوف أي هو الّذي أحسن خَلَقَهُ بسكون اللاّم بدل من كلّ بدل الإشتمال أي أحسن خلق كلّ شئ وَ لَوْ تَرَىٰٓ هو من رؤية العين و المفعول محذوف أي ولو ترى المجرمين إذْ ها هنا يراد به المستقبل تَتَجَافَىٰ و يَدْعُونَ رَبَّهُمْ في موضع الحال و الباقي واضح.

◄ التّفسير

الٓمٓ

قد مرَّ ذكرها و قلنا أنّ الحروف المقطّعة في أوائل السُّور علمها عند اللّه و كلمّا قيل أو يقال في معناها لا يعتمد عليه.

تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ

قيل في معناه هذه الأيات هي تنزيل الكتاب و على هذا فهو خبر لمبتدأ محذوف، و لا يبعد أن يكون التّنزيل مبتدأ، و خبره، لا ريب فيه، و المعنى تنزيل الكتاب من الرّب على عبده و رسوله لا ريب و لا شكّ فيه أي في تنزيله من عند اللّه فمن أنكره قال شططاً، و الرَّيب أن تتوّهم بالشئ أمراً ما، فينكشف عمّا تتّوهمه، و هذا بخلاف الشكّ فأنّه إعتدال النّقيضين عند الإنسان و تساويهما و هو أي الشكّ ربّما كان في الشئ هل هو موجود أو غير موجود و

ربمّا كان في جنسه من أيّ جنسٍ هو و ربمّا كان في بعض صفاته فهو ضربٌ من الجهل إلاّ أنّه أخصّ منه لأنّ الجهل قد يكون عدم العلم بالنّقيضين رأساً فكلّ شكٍّ جهل و ليس كلّ جهلٍ شكّاً، و أنّما قال اللّه لا ريب فيه، ولم يقل لا شكّ فيه إشعاراً بأنّ إنكارهم ليس على سبيل الشكّ بل هو على سبيل التّوُم فلو تدّبروا فيه و نظروا اليه بعين الإنصاف إنكشف لهم خلاف ما توّهموه و علموا أنّه من ربّ العالمين.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَآ أَتَىٰهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ

أم، منقطعة، و معناها، بل، و تقديره بل يقولون، إفتراه، أي يقولون هؤلاء الكفّار إفتراه، أي إفتعله، و ليس هو من كلام اللّه بل نسبه محمّد الي اللّه فأجاب اللّه تعالى عنهمو قال **بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَآ أَتَىٰهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ** و في هذا الكلام إشارة الى أنّ النّبي منذر، قال اللّه تعالى: **أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ**[١] فالنّبي مُنذرٌ والوّصي هاد بعد النّبي و المراد بالقوم في الآية أهل الفترة من العرب و قوله: **مَآ أَتَىٰهُمْ مِنْ نَذِيرٍ** لا ينافي قوله: **وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**[٢] لأنّ المعنى فيها و إن من أمّةٍ أهلكت بالعذاب إلاّ من بعد أن جاءهم نذير ينذرهم بما حلّ بهم هكذا قيل.

و قال صاحب الكشّاف هو من قبيل قوله تعالى: **مَآ أُنْذِرَ ءَابَآؤُهُمْ** و ذلك أنّ قريشاً لم يبعث اللّه اليهم رسولاً قبل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

فأن قلت إذا لم يأتهم نذير لم تقم عليهم حجّة.

قلت أمّا قيام الحجّة بالشّرائع الّتي لا يدرك علمها إلاّ بالرسّل فلا.

و أمّا قيامها بمعرفة اللّه توحيده و حكمته فنعم، لأنّ أدلّة العقل الموصلة الى ذلك معهم في كلّ زمانٍ إنتهى كلامه.

١- الرعد = ٧ ٢- فاطر = ٢٤

أقول ما ذكره الزّمخشري لا يتمّ إلاّ على القول بأنّ العقل يكفي في معرفة اللّه و توحيده و حكمته و بوجوده قد تمّت الحجّة، و ليس كذلك فأنّ إقامة الحجّة على النّاس لا تحصل إلاّ بحجّتين، حجّة ظاهرة و حجّة باطنة.

فالباطنة هي العقل و الظاهرة هي الأنبياء و الرُّسل كما ورد في الخبر.

قال عليه السلام: أنّ للّه على النّاس حجّتين حجّة ظاهرة و حجّة باطنة فأمّا الحجّة الظّاهرة فهي الأنبياء و الرُّسل و الأئمّة و الأوصياء و الباطنة هي العقل.

و على هذا فالعقل وحده لا تتّم به الحجّة يوم القيامة فالعبد لا يحاسب عليه و لأجل ذلك بعث اللّه الأنبياء من أدم إلى خاتم الرُّسل ولم يكتف بالعقل الّذي كان موجوداً في النّاس هذا كلّه مضافاً إلى أنّ المعرفة التّي حصلت بالعقل فقط وجودها كالعدم فأنّ العقول متفاوتة و الإدراكات مختلفة فلولا هداية الأنبياء و الأوصياء للعقل في هذا الباب لا حكم له واقعاً في العلوم الكسبيّة نعم في الضروريات و المستقلات العقليّة حكمه متّبعٌ.

إن قلت فما تفسير الآية و ما المراد بها.

قلت أخبر اللّه تعالى في الآية أنّ العرب في ز من الفترة المعبّر عنها بعهد الجاهليّة لم يكن لهم من ينذرهم من عذاب اللّه و لذلك وقعوا فيما وقعوا من الضلالّة فبعث اللّه محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم لينذرهم و يخوّفهم من عذاب اللّه يوم القيامة.

قال أميرالمؤمنين في نهج البلاغة:

إنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم، نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِيناً عَلَى التَّنزِيلِ وَأَنتُم مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلىٰ شَرِّ دِينٍ وَشَرِّ دٰارٍ مُنِيخوُنَ بَيْنَ حِجٰارَةٍ خُشْنٍ وَحَيّاتٍ صُمٍّ تَشْرَبوُنَ الكَدِرَ، وَتَأكُلُونَ الْجَشْبَ وَتَسْفِكوُنَ دِمٰائَكُمْ وَتَقْطَعوُنَ أَرْحٰامَكُمْ اَلاَصْنٰامُ فِيكُمْ مَنْصوُبَةٌ وَالاٰثٰامُ بِكُمْ مَعْصوُبَةٌ[1].

١- و من خطبة له عليه السلام (٢٦)

و الآية لا تدلّ على أكثر من ذلك و لذلك قال لعلّهم يهتدون أي لكي يهتدون إلى الحقّ و هذا الحكم جارٍ في جميع الأنبياء وإثبات الشّئ لا ينفى ماعداه.

اَللّٰهُ اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اِسْتَوىٰ عَلَى اَلْعَرْشِ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ شَفِيعٍ أَ فَلاٰ تَتَذَكَّرُونَ

إعلم أنّ هذه الآية قد ذكرها اللّه تعالى في مواضع من كتابه بإختلافٍ يسير في ألفاظ الأية.

منها سورة الأعراف:

قال اللّه تعالى: **إِنَّ رَبَّكُمُ اَللّٰهُ اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اِسْتَوىٰ عَلَى اَلْعَرْشِ**[1].

و منها سورة الرّعد:

قال اللّه تعالىٰ: **اَللّٰهُ اَلَّذِي رَفَعَ اَلسَّمٰاوٰاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا ثُمَّ اِسْتَوىٰ عَلَى اَلْعَرْشِ**[2] إلاّ أنّه لم يذكر فيها ستّة أيّام.

و منها سورة يونس:

قال اللّه تعالى: **إِنَّ رَبَّكُمُ اَللّٰهُ اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اِسْتَوىٰ عَلَى اَلْعَرْشِ**[3].

و منها سورة الفرقان:

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اِسْتَوىٰ عَلَى اَلْعَرْشِ**[4].

۱- الأعراف = ۵۴
۲- الرّعد = ۲
۳- يُونس = ۲
۴- الفرقان = ۵۹

و منها سورة ق:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ وَ مٰا مَسَّنٰا مِنْ لُغُوبٍ**[١].

و منها سورة الحديد:

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ ٱسْتَوىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ**[٢].

و أنّما كرَّرها لأنّ الموضوع من أهمّ الموضوعات و ذلك أنّ اللّه تعالى أفاد فيها أنّه خالق الكلّ فهو الّذي ينبغي أن يعبد لا غيره و حيث أنّ معرفة اللّه بالواحدانيّة هي أساس التّوحيد و قد ثبت أنّ أوّل الدّين معرفته و لا طريق إلى معرفته إلاّ من طريق الحسّ و العقل و الحسّ مقدّم على العقل و السّماء و الأرض و ما بينهما من المحسوسات فلا جرم أشار في الأيات إلى هذه الدّقيقة مشعراً بأنّ المنكر لخالقيّته منكرٌ لحسّه و رؤيته و هذا ممّا لا خفاء فيه، ثمّ أنّه تعالى أشار فيها إلى كيفيّة خلقه السّموات و الأرض و ما بينهما و أنّها في ستّة أيّام ثمّ إستوى على العرش، و الحقّ أنّ المعرفة بهذين الأمرين من المشكلات التّي لا سبيل لنا و لا لغيرنا إلى العلم بها فكلّ ما قيل أو يقال في المراد مجرّد حدسٍ و ظنٍ لا يعتمد عليه و لذلك ترى المفسّرين في هذا المقام حيارى.

فمنهم من يقول أنّ المراد بالأيّام في الأيات مقدار أيّام الدُّنيا بحسب التّقدير إذ لم يكن هناك زمان حقيقة فأنّه يوجد من حركة الأفلاك التّي توجد بعد وجودها.

و منهم من قال أنّ المراد بها أيّام الأخرة كلّ يومٍ منها ألف سنة ممّا تعدُّون.

و منهم من قال أنّ المراد بالأيّام ستّة أحوال و ذلك لأنّ السّماء و الأرض و ما بينهما ثلاثة أشياء و لكلّ واحدٍ منها ذات و صفة إلى أخر ما قال الرّازي في

١- ق = ٣٨

٢- الحديد = ٤

تفسيره و سمّاه بزعمه تحقيقاً رشيقاً و الحاصل أنّ المسئلة من العويصات التّي لا تصل عقولنا إلى كنهها و حقيقتها مع أنّا نعلم علماً قطعيّاً بأنّه تعالى كان قادراً على خلقها في طرفة عينٍ لأنّه على كلّ شيٍ قدير فإذا أراد خلق شيٍ يقول له كن فيكون و هذا أعني به عموم القدرة قد ثبت عقلاً و نقلاً و مع ذلك نرى أنّه خلق الإنسان من نطفةٍ ثمّ بعد مضّي تسعة أشهر أو أقلّ أو أكثر تصير النُّطفة في عالم الرَّحم إنساناً و هكذا غير الإنسان، فأن قلنا أنّ الوجه في التّدريج أنّ اللّه تعالى يأبى أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها في هذا العالم المسمّىٰ بعالم الأسباب فلقائلٍ أن يقول خلق الأسباب أيضاً بيده إلاّ أنّه يستفاد من بعض الأخبار أنّ الإعتبار في التّدريج أكثر ليعلم النّاس حسن التّأني في الأمور و عدم الإستعجال فيها كما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام **أنّ اللّه تعالى لو شاء أن يخلقها في أقلّ من لمح البصر للخلق و لكنّه جعل الأناة و المداراة مثالاً لأمنائه و إيجاباً للحجّة على خلقه و العلم عند اللّه.**

و أمّا قوله تعالى: **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ** فالإستواء الإستيلاء و التّسلط بالقهر و الغلبة.

روي المجلسي قدس سره في البحار أنّه سئل الصّادق عليه السلام: عن قول اللّه عزّ وجلّ الرّحمن على العرش إستوى، فقال عليه السلام: إستوى من كلّ شيٍ فليس شيٌ أقرب منه من شيٍ إنتهى.

أقول الكلامُ حول العرش و الكرّسي و اللّوح و القلم و السّرادقات كثير و الأخبار الواردة فيها لا نفهم معناها و المراد منها و بالجملة لا نعلم حقيقتها و كيفيّتها و كلّما قيل أو يقال فيها أنّما هو بحسب فهم القائل منها و اللّه أعلم بما خلق و قد مرَّ الكلام في العرش و ما قيل فيه في سورة الأعراف و غيرها.

و أمّا قوله: **مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيّ وَ لَا شَفِيع أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ** معناه ليس لكم ولّيٌ و لا شفيعٌ يوم القيامة غير اللّه تعالى، **أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**، في ما

قلناه و تعتبرون به فتعلمون صحّة ما بيّناه لكم قيل المراد بالولّي النّاصر و المعين أي لا ناصر ينصركم غير اللّه و لا شفيع يشفع لكم في القيامة غير اللّه تعالى و أنّما قال ذلك لأنّ الكفّار أعني بهم عبدة الأوثان و الأصنام كانوا يقولون هؤلاء شفعائنا عند اللّه، و أنّهم ليقرّبونا إلى اللّه زلفى، فقال تعالى ليس الأمر كما زعمتوه فأنّ النُّصرة و الشّفاعة مختصّة به تعالى.

إن قلت أليس هذا نفي النُّصرة و الشّفاعة عن غيره تعالى بقولٍ مطلق.

قلت لا، و ذلك لأنّ الشّفاعة إذا كانت بإذنه فهي شفاعة في الحقيقة له لقوله و لا يشفعون إلاّ لمن إرتضى.

و قوله: **مَنْ ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِ**(١) و أمّا نفي الشّفاعة عن غيره في الآية فالمراد بالغير من لا يكون مأذوناً من عنده لا مطلقاً و بعبارةٍ أخرى نفى اللّه ما نفاه في الآية عن الأصنام و الأوثان لا من أذن له من الأنبياء و الصُّلحاء فأنّ شفاعتهم شفاعة اللّه كما أنّ ولايتهم ولاية اللّه و قد مرَّ الكلام في الشّفاعة فيما مضى و نقلنا الأخبار و الأقوال فيها.

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ

التّدبير في الأصل التّفكير في دبر الأمور و أمّا في حقّ اللّه تعالى فهو عبارة عن إيجاد الفعل على وفق المصلحة و ذلك لأنّ اللّه تعالى منّزهٌ عن الفكر الّذي هو من شئون الجسم و المراد باسّماء في المقام هو جهة العلو و المعنى أنّ اللّه تعالى يدّبر الأمر من مقام الربوبيّة إلى مقام المربوبيّة و أن شئت قلت من مقام الخالقيّة إلى مقام المخلوقيّة و لا شكّ أنّ مقام الربوبيّة أعلى و أشرف و ليس المراد أنّ اللّه تعالى جلس على العرش مثلاً و دبّر الأمر ثمّ أنزله إلى الأرض

١- البقرة = ٢٥٥

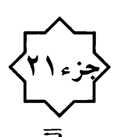
بواسطة الملك أو بغيرها كما هو شأن السّلاطين و الحكّام و أن أردت توضيح ذلك فنقول العلو مقابل للسّفل و لهما إعتباران:

أحدهما: إعتبار الحسّ.

ثانيهما: إعتبار العقل.

فالسّماء الّتي فسّروها بجهة العلو أيضاً كذلك فالسّماء المحسوس ما نراه بالحسّ و المشاهدة و السّماء المعقول ما ندركه بالعقل فقوله: **يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ** من قبيل الثّاني لا الأوّل و ذلك لأنّ اللّه تعالى لا مكان له بل هو أقرب إلينا من حبل الوريد و على هذا فالمراد بالأرض في الآية هو أرض القلب فأن كان الأمر النّازل من الأحكام الشرعيّة فهو ينزل من عالم الرّبوبي على قلب النّبي بوحيٍ منه تعالى إليه و منه إلى أراضي قلوب الأمّة، و إن كان من غير الأحكام فينزلٌ على قلوب العباد بسبب الإلقاء و الإلهام و كيف كان في الآية دلالة على أنّ الأمور بيده و الكلّ محتاج إليه و الرَّبط بين الخالق و المخلوق محفوظٌ على كلّ حالٍ.

و أمّا قوله: **ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ** إلى أخر الأية، ففيه إشارة إلى صعود العمل الصّالح الّذي حصل للمكلّف بسبب الأمر الرّبوبي إلى اللّه تعالى فأنّ كلّ شيءٍ يرجع إلى أصله و المراد باليوم هو يوم القيامة و هو اليوم الّذي كان مقداره ألفً سنة، بالقياس إلى ما نعدّه في الدُّنيا من السِّنين و هو كناية عن حلول ذلك اليوم و حاصل الكلام في الآية أنّ الأوامر الإلهيّة الصّادرة عن مقام الرّبوبي إلى خلقه للعمل بها يسأل عنها يوم القيامة و هو واضح.



ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ

لمّا بيّن اللّه تعالى أنّه الّذي خلق السّموات و الأرض و ما بينهما في ستّة أيّام و إستولى على العرش و أنّه الّذي يدبّر الأمور بينهما و إليه يرجع الأمر كلّه أخبر في هذه الآية أنّه تعالى عالم الغيب و الشّهادة فلا يخفى عليه شئ لا في

الأرض و لا في السّماء ظاهراً كان أو باطناً سِّراً أو جهراً و فيه إشارة إلى عموم علمه و أنّه بكلّ شيءٍ عليم، و السِّر في ذلك أنّه لو خفي عليه شئ فهو جاهل به لا محالة و الجهل نقصٌ و النّقص من شئون الممكن و المفروض أنّه واجب الوجود الّذي مستجمعٌ لجميع الصّفات الكماليّة فكيف يكون ناقصاً و أيُّ نقصٍ أشنع و أقبح من الجهل فهو عالم بكلّ شئٍ و هو المطلوب.

ثمّ أنّه تعالى وصف نفسه بالعزّة وا لرَّحمة فقال: **ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ،** فالعزيز هو القادر على منع غيره و لا يقدر الغير على منعه و هو تعالى كذلك إذ لو لم يكن قادراً يكون عاجزاً إذ عدم القدرة عجزٌ و العجز ضعفٌ، و كلّ ضعيفٍ محتاج إلى غيره في رفع ضعفه و كلّ محتاج ممكن الوجود إذ لا نعني بالإمكان إلاّ الفقر بحسب الذّات فما فرضناه واجباً صار ممكناً و لازم ذلك إجتماع النّقيضين أن كان واجباً ممكناً معاً، و الإنقلاب في الذّات و الماهيّة على فرض صيرورة الواجب ممكناً و هو كما ترى فثبت أنّه تعالى قادرٌ على كلّ شئٍ و هو المطلوب و لا نعني بالعزّة إلاّ هذا و الفرق بين القدرة و العزّة هو أنّ القدرة إذا وصف بها اللّه تعالى فهي نفي العجز عنه مطلقاً و لذلك لا يوصف بالقدرة المطلقة غير اللّه تعالى و إذا وصف بها الإنسان فهي إسمٌ لهيئةٍ له بها يتمكّن من فعل شئٍ من الأشياء فالقادر بقولٍ مطلق هو اللّه تعالى لا غيره.

و أمّا العزّة فهي حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم أرضٌ عزاز أي صلبة و من المعلوم أنّ العزيز الّذي لا يغلب أصلاً هو اللّه تعالى و أمّا غيره فقد يغلب و قد لايغلب فالّذي لا يغلب بقولٍ مطلق هو اللّه تعالى فلا عزيز حقّاً إلاّ هو و حاصل الفرق بين القادر و العزيز أنّ القادر يقال بإعتبار الإيجاد، و العزيز بإعتبار عدم المانع من الإيجاد فكلّ عزيزٍ قادر و لا عكس ألا ترى أنّ الإنسان مثلاً يقدر على الأكل و الشّرب و غير ذلك من الأفعال و مع ذلك قد يمنعه مانع عن الأكل و الشَّرب و لا يقدر على رفع المانع ففي المثال يقدر عليه القادر و لا

يقدر عليه العزيز فأنّ تأثير العلّة في المعلول مشروط بعدم المانع و لا يكفي وجود المقتضى فقط، و حيث أنّ اللّه تعالى يقدر على الإيجاد و رفع المانع فهو يتصّف بهما فهو القادر و العزيز فثبت المطلوب.

و أمّا قوله تعالى: **ٱلرَّحِيمُ** حيث وصف العزّة بالرّحمة ففيه إشارة إلى مقام رحميّته في الأخرة و توضيح ذلك إجمالاً:

هو أنّ الرّحيم يستعمل في غير اللّه تعالى بخلاف الرّحمن فأنّه لا يستعمل في غيره تعالى لأنّ اللّه هو الّذي وسعت رحمته كلّ شيءٍ في الدّنيا، فلا يطلق هذا اللّفظ إلاّ عليه و هذا بخلاف الرّحيم قال اللّه تعالى في وصف النّبى:

لَقَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(۱).

و قيل أنّ اللّه تعالى هو رحمان الدّنيا و رحيم الأخرة، و ذلك أنّ إحسانه في الدّنيا يعمّ المؤمنين و الكافرين و أمّا في الأخرة فهو يختصّ بالمؤمنين و أنت ترى أنّ هذا المعنى أيضاً يرجع إلى الأوّل و ملخّص الكلام في الآية هو أنّه تعالى وصف نفسه أوّلاً بالعلم فقال: **عٰالِمُ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهٰادَةِ**.

ثانياً: بالعزّة.

ثالثاً: بالرَّحيميّة و الكلّ من خصائصه.

ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسٰانِ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلٰالَةٍ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ، ثُمَّ سَوّٰيهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ وَ ٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مٰا تَشْكُرُونَ

إعلم أنّ اللّه تعالى أشار في هذه الأيات إلى أمورٍ في مراتب الخلقة و الإيجاد و نحن نبحث فيها في فصولٍ:

الفصل الأوّل: قوله: **ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**.

۱- التّوبة = ۱۲۸

الفصل الثّانی: قوله: **وَ بَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسٰانِ مِنْ طِينٍ**.
الفصل الثّالث: قوله **ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ**.
الفصل الرّابع: قوله **ثُمَّ سَوّٰيهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ**.
الفصل الخامس: قوله **وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ وَ ٱلْأَفْئِدَةَ**.
الفصل السّادس: قوله **قَلِيلًا مٰا تَشْكُرُونَ** إذا عرفت هذا فنقول:
الفصل الأوّل: أشار فيه إلى أنّه تعالى: **أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**، و هذا الحكم عامّ يشمل جميع المخلوق من الملائكة و الجنّ و الإنس و الجماد و الحيوان و النّبات و بالجملة كلّ شيءٍ خلقه خلقه في أحسن تقويم و أكمل الوجوه:

قال اللّه تعالىٰ: **فَتَبٰارَكَ ٱللّٰهُ أَحْسَنُ ٱلْخٰالِقِينَ**[1].

و إعلم أنّ الإحسان يتصوّر على وجهين:
أحدهما: الإنعام على الغير يقال أحسن إلى فلان.

الثّاني: إحسان في الفعل و ذلك إذا علم علماً حسناً او حمل عملاً حسناً و على هذا قول أميرالمؤمنين عليه السلام: **النّاس أبناء ما يحسنون**، أي منسوبون إلى ما يعلمون أو يعملونه من الأفعال الحسنة، فقوله تعالى: **أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ** يصحّ أن يحمل على المعنيين و ذلك لأنّه تعالى أنعم على المخلوق بإيجاده إيّاهم و أيّ إحسانٍ و إنعامٍ أحسن من نعمة الوجود الّذي هو منشأ الخيرات، و أيضاً أنّه تعالى علم و عمل فعلاً حسناً بإيجاده الخلق على مراتبهم فأنّ الحسن عبارة عن كلّ مبتهج مرغوبٌ فيه و ذلك ثلاثة أضرب مستحسنٌ من جهة العقل، و مستحسنٌ من جهة الهوى، و مستحسنٌ من جهة الحسّ و المخلوق مستحسنٌ من جميع الوجوه عقلاً و حسّاً أمّا الحسّ فلا خفاء فيه.

١- المؤمنون = ١۴

أمّا العقل فالأنّ المخلوق، أمّا حسنٌ أو قبيحٌ و لا ثالث لهما، و حيث أنّ الخالق كاملٌ في ذاّته و صفاته فلا محالة يكون مخلوقه و مصنوعه أيضاً متصّفاً بالحسن إذ لو لم يكن متصّفاً به يكون قبيحاً ناقصاً و النّاقص لا يوجد إلاّ من النّاقص و بعبارةٍ أخرى أنّ اللّه تعالى خيرٌ محض و لا يصدر من الخير إلاّ الخير و لا نعني بالحسن إلاّ هذا، و أن أردنا بالحسن وضع الشّئ في محلّه فالمخلوق كذلك.

الفصل الثّاني: وَ بَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ. لمّا أخبر اللّه تعالىٰ أنّه أحسن كلّ شئٍ خلقه، أشار الى خلق الإنسانِ الّذي هو أشرف المخلوقات و أكملها من حيثُ المظهريّة لخالقه فقال: **وَ بَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ الطِّين** بكسر الطّاء الماء و التّراب المختلط و قد يسمّى بذلك و إن زال عنه قوّة الماء و في قوله تعالى: **بَدَأَ**، إشارة بل صراحة الى أنّ خلق جسد الإنسان كان قبل تعلُّق الرُّوح به و هو كذلك و يدلّ عليه قوله تعالى حيث قال: **فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدينَ**[١].

و أعلم أنّ الإنسان مركّب من الجسم و الرُّوح فالجسم بمنزلة المادّة و الروح بمنزلة الصوّرة و قد ثبت أنّ الجسم مركّب منهما في الخارج و من الجنس و الفصل في العقل، ثمّ أنّ الجسم من عالم المادّة و الرُّوح من عالم المجردات و لا كلام لنا فعلاً في الرُّوح و أنمّا الكلام في جسده العنصري و أنّه من أيُّ شئٍ خلق و كيف خلق، و لأيّ شئ خلق.

فنقول أمّا مادّة خلقته فهي التُّراب.

قال اللّه تعالى: **مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فيها نُعيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرىٰ**[٢].

قال اللّه تعالى: **إِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ**[٣].

١- الحَجر = ٢٩ ٢- طٰه = ٥٥
٣- الحَج = ٥

قال اللّه تعالى: **خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**[١].

قال اللّه تعالى: **هُوَ ٱلَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ**[٢].

و الأيات كثيرة و هذا ممّا لا كلام فيه.

و أمّا أنّه كيف خلق، فقد مرَّ الكلام فيه سابقاً و ذكرنا هناك ما يكفيك في المقام و نقلنا الأخبار و الأقوال الواردة في الباب و نكتفي في المقام بذكر رواية نقلها في البحار عن الكليني مرفوعاً قال:

أتى أميرالمؤمنين يهوديّ فقال لم سميّ آدم و حواء بهما قال عليه السلام أنّما سمّي آدم به لأنّه خلق من أديم الأرض و ذلك أنّ اللّه تبارك و تعالى بعث جبرئيل و أمره أن يأتيه من أديم الأرض بأربع طينات طينة بيضاء و طينة حمراء و طينة غبراء و طينة سوداء و ذلك من سهلها و حزنها ثمّ أمره أن يأتيه بأربع مياه، ماءٍ عذب و ماءٍ ملح و ماءٍ مرّ و ماءٍ منتنٍ، ثمّ أمره أن يفرغ الماء في الطّين فلم يفضل شئ من الطّين يحتاج الى الماء و لا من الماء شئ يحتاج الى الطّين فجعل الماء العذب في حلقه و جعل الماء الملح في عينيه و جعل الماء المرّ في أذنيه و جعل الماء المنتّن في أنفه و أنمّا سميّت حوّاء حوّاء لأنّها خلقت من الحيوان الخبر[٣] و الأخبار بهذه المضامين كثيرة هناك كما مرَّ.

إن قلت بعض الأيات يدلّ على أنّ الإنسان خلق من نطفةٍ:

قال اللّه تعالى: **خَلَقَ ٱلْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ**[٤].

و منها ما يدلّ على أنّه خلق من ماءٍ و منه:

قال اللّه تعالى: **وَ ٱللّٰهُ خَلَقَ كُلَّ دٰابَّةٍ مِنْ مٰاءٍ**[٥].

١- آل عمران = ٥٩
٢- غافر = ٦٧
٣- بحار الأنوار ج ٥ ص ٢٧
٤- النّحل = ٤
٥- النُّور = ٤٥

و منها ما يدلّ على أنّ الإنسان خلق من صلصالٍ:

قال اللّه تعالى: **خَلَقَ ٱلْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخّارِ**(۱).

و منها ما يدلّ على أنّه خلق من علقٍ:

قال اللّه تعالى: **خَلَقَ ٱلْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ**(۲) و أمثال ذلك من الأيات.

عباراتنا شتّىٰ وحُسنك واحدُ وكُلٌّ الىٰ ذاك الجمال يُشير

و المقصود أنّ كلّ ما هو مذكورٌ في هذه الأيات يرجع الى شيءٍ واحد و هو التُّراب و ذلك لأنّ الصّلصال مثلاً هو الطّين اليابس الّذي له صلصلة، و الفخّار الخزف و الأصل فيهما التُّراب و قد خلق اللّه آدم من ترابٍ جعله طيناً ثمّ حمأ مسنوناً ثمّ صلصالاً فلا ينافي ذلك قوله تعالى: **خَلَقَه مِنْ تُراب** فأنّ الأصل أعني به المادّة في جميع ذلك هو التُّراب و هذا معنى قولهم عليهم السّلام أنّ اللّه خلق آدم من أديم الأرض و قد تكلّمنا في خلق آدم و حوّاء فيما مضى تفصيلاً.

و أمّا أنّ الجسد العنصري لأيّ شيءٍ خلق، فالوجه فيه واضح لمن تدبّر في خلق الإنسان و علم أنّ شيئية الشّيءٍ بصورته لا بمادّته و مع ذلك لا توجد الصورّة في الخارج بدون المادّة كما أنّ العرض لا يوجد في الخارج بدون معروضه فالصورّة بمنزلة العرض و المّادة بمنزلة المعروض إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ الإنسان في الحقيقة عبارة عن الرُّوح الّتي قد يعبّر عنه بالنّفس النّاطقة و هي تحتاج الى المادّة في وجودها في الخارج فالمّادة خلقت لأجل الصورّة الّتي بها حصلت شيئّتها فخلق المادّة آليٌ، و خلق الصوّرة إستقلاليٌ فالبدن أو الجسم أو الجسد أو ما شئت فسمّه مع قطع النّظر عن الرُّوح الّتي هي بمنزلة الصوّرة له لا نفع فيه و لا قيمة له ألا ترى أنّ اللّه تعالى يقول: **فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدينَ**(۳) فقد علّق السُّجدة على نفخ الرُّوح

۱- الرّحمٰن = ۱۴
۲- العَلق = ۴
۳- الحَجر = ۲۹

في الجسد ففي الحقيقة كانت السُّجدة للرّوح لا للبدن و هو من أدَّل الدّلائل على إثبات المدّعى هذا أوّلاً.

أمّا ثانياً: أنّ الرُّوح في وصوله الى الكمالات المترقبة له في دار الدُّنيا محتاج الى الأسباب و الألات، و هو واضح و الجسم و ما فيه من القوى و الأعضاء من السَّمع و البصر و الرّجل و اليد و غيرها آلات و أسباب للرُّوح فهو أي الرُّوح يرى بالبصر و يسمع بالأذن و يشمّ بالأنف و هكذا و بذلك يصل الى كماله، و هذا ممّا لا خفاء فيه فأنّ الرُّوح لو لم يتعلّق بالبدن لا يصل الى كماله المطلوب أبداً و لأجل هذه الدّقيقة خلق اللّه الأجساد، فقوله تعالى: **وَ بَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ** إشارة الى ما ذكرناه و المعنى أنّه تعالى خلق الجسد أوّلاً ثمّ نفخ فيه الرُّوح ثانياً، و اللّه أعلم.

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَآءٍ مَهِينٍ قال في المفردات السّلالة الصَّفو الّذي يسّل من الأرض و قيل السّلالة كناية عن النُّطفة إنتهى.

و قال في المجمع يقال سلَّة من كل تربةٍ و السُّلالة الخلاصة لأنّها تسلّ من الكدر و يكنّى بها عن الولد و السُّلالة النُّطفة أو ما يغسل من الشّئ القليل و ساق الكلام إلى أن قال و الأصل فيه سلّ السَّيف و إخراجه من الغمد إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و على هذا فمعنى الآية جعل اللّه نسل الإنسان الّذي هو أدم و ولده من سلالةٍ و هي الصَّفوة التّي تنسلّ من غيرها خارجة و قوله: **مِنْ مَآءٍ مَهِينٍ** أي ضعيف فكلمة، من، في الموضعين للإبتداء سمّيت الذُّرية نسلاً لأنّها تنسلّ منه أي تنفصل منه و تخرج من صلبه و نحوه للولد سليل و نسل و نجل و معنى الآية أنّ اللّه تعالى جعل نسل أدم أي ذريّته و أولاده من سلالةٍ أي من الصَّفو الّذي يسلّ من الأرض أو من النُّطفة كذلك.

و أمّا قوله: **مِنْ مَآءٍ مَهِينٍ**، أي ضعيف و المقصود أنّ الّله تعالى جعل الماء أعني به النُّطفة سبباً و منشأ للتّوالد و التّناسل في أولاد أدم و ذلك لأنّ

العالم عالم الأسباب و أبى اللّه أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها، و لولا إجراء السُّنة التّي إقتضت الحكمة في أولاد أدم لكان قادراً على خلق أولاده و ذريّته كما خلق أدم و حوّاء و عيسى إبن مريم من غير النُّطفة إلاّ أنّ سنَّة اللّه جرت بذلك و لا تبديل لسُّنته.

ثُمَّ سَوّٰيهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ وَ ٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مٰا تَشْكُرُونَ

كلمة، ثمّ، من حروف العاطفة و هي تفيد التّراخي في المعطوف و هذا هو الفرق بينها و غيرها فإذا قلنا جائني زيدٌ ثمّ عمروٌ معناه أنّ عمرواً جائني بعد مجئ زيد بتأخيرٍ و هذا بخلاف الواو و الفاء، و قوله: **سَوّٰيهُ** بفتح السّين و تشديد الواو من التّسوية يقال سوَّى تسويةً و هي عبارة عن التّعديل و الوضع و الهيئة التّي عليها الشّئ و النّفخ معناه نفخ الرّيح في الشّئ و منه قوله تعالى: **يَوْمَ يُنْفَخُ فِى ٱلصُّورِ** و معنى الآية أنّ اللّه تعالى سوَّى الطّين الّذي خلق الإنسان منه يعني عدَّل خلقته و أكملها و يّأها للنّفخ:

كما قال تعالى: **فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ**[١].

أي إذا عدَّلت خلقته و أكملتها و قد مرَّ الكلام فيه سابقاً و قلنا هناك أنّ الوجه في إنتساب الرُّوح إلى نفسه هو التّشريف كما قال تعالى في الكعبة، بيتي، و في قوله: **وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ** إلى أخر الأية، إشارة إلى خلق الأعضاء و الجوارح في الجسد و محصّل الكلام هو أنّ اللّه تعالى خلق الإنسان و نفخ فيه من روحه أي جعله مظهراً لأسمائه و صفاته و مع ذلك لا يشكره إلاّ قليلاً من أولاد أدم مع أنّ شكر المنعم واجبٌ عقلاً و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبٰادِيَ ٱلشَّكُورُ** هذا ما ذكروه في

١- الحَجر = ٢٩

تفسير الآية في معنى التّسوية و أن المراد بها تسوية الجسم أي تعديله و تكميله من حيث الأعضاء و الجوارح، و الّذي يقتضيه التّحقيق هو أنّ التّسوية ليس المراد بها ما ذكروه بل المراد بها الإستحالة من النُّطفة إلى العلقة ثمّ إلىٰ المضغة ثمّ نفخ الرُّوح فيه و أنّما قلنا ذلك لأنّ تعلّق الرُّوح به لا يكون إلاّ بعد طيّ المراحل المذكورة في عالم الرَّحم فأنّ الخلقة في نسل أدم يكون كذلك و الآية نزلت فيه لا في أدم و حوّاء ألا ترى أنّ اللّه يقول في الآية السّابقة: **ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَآءٍ مَهِينٍ**، و بعد ذلك قال ثمّ سوَّاه أي سوّى النّسل، نعم ما ذكروه في معنى التّسوية لا بأس به بالنّسبة إلى أدم و حوّاء لأنّهما لم يكونا في الرَّحم و هو ظاهر اللّهم إلاّ أن يقال أنّ مرجع الضّمير في قوله ثمّ سوَّاه، هو أدم أبو البشر أي ثمّ سوّى جسد أدم و نفخ فيه من روحه، و هذا أيضاً محتمل و كيف كان فالأمر أوضح من أن يخفى على المتدّبر.

وَ قَالُوٓا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ

قال مجاهد، معنى ضللنا هلكنا أي قال الكفّار إذا هلكنا في الأرض بسبب الموت أئنّا لفي خلقٍ جديد، و هو حكاية عن تعجّبهم و قولهم كيف يخلق خلقاً جديداً بالبعث و قد هلكنا و تمزّقت أجسامنا و تفرّقت أجزاؤنا و أعضاءنا فإستدرك اللّه بقوله: **بَلْ هُمْ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ** و ذلك لأنّ إنكار البعث يقتضي ذلك.

قُلْ يَتَوَفَّيكُمْ مَلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ

أمر اللّه نبيّه أن يقول لهم أي لهؤلاء الكفّار يتَّوفاكم ملك الموت أي يقبض أرواحكم فيعرج بها إلى حيث أمره اللّه تعالى.

فعن من لا يحضّره الفقيه، سول الصّادق عليه السلام أنّه قد يموت في السّاعة الواحدة في جميع الأفاق ما لا يحصيه إلاّ اللّه عزّ وجلّ فكيف هذا فقال عليه السلام: أنّ اللّه تبارك و تعالى جعل لملك الموت أعواناً

من الملائكة يقبضون الأرواح بمنزلة صاحب الشُّرطة له أعوان من الإنس يبعثهم في حوائجه فتتوَّفاهم الملائكة و يتوَّفاهم ملك الموت من الملائكة مع ما يقبض هو و يتوَّفاها اللّه تعالى من ملك الموت إنتهى.

و عن الكافي بأسناده عن أسباط بن سالم مولى أبان قال، قلت لأبي عبد اللّه عليه‌السلام جعلت فداك يعلم ملك الموت بقبض من يقبض قال عليه‌السلام: لا، أنّما هي سكاك تنزل من السّماء أقبض نفس إبن فلام إنتهى.

علّي بن إبراهيم بأسناده عن زيد الشّحام قال سئل أبو عبد اللّه عن ملك الموت يقال الأرض بين يديه كالقصعة يمُّد يدَه منها حيث يشاء فقال عليه‌السلام: نعم إنتهى.

في تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام قال: قال رسول اللّه لمّا أسري بي إلى السّماء رأيت ملكاً من الملائكة بيده لوحٌ من نورٍ لا يلتفت يميناً و لا شمالاً مقبلاً عليه كهيئة الحزين فقلت من هذا ياجبرائيل قال هذا ملك الموت مشغول في قبض الأرواح فقلت أدنني منه ياجبرئيل لأكلمه فأدناني منه فقلت له ياملك الموت أكلّ من مات أو هو ميّت فيما بعد أنت تقبض روحه قال نعم قلت تحضرهم بنفسك قال نعم ما الدّنيا كلّها عندي فيما سخَّرها اللّه عزّ وجلّ لي و مكّنني منها إلاّ كالدِّرهم في كفّ الرّجل يقلّبه كيف يشاء و ما من دارٍ في الدّنيا إلاّ و أدخلها في كلّ يومٍ خمس مرّات و أقول إذا بكى أهل البيت على ميّتهم لا تبكوا عليه فأنّ لي إليكم عودة و عودة حتّى لا يبقى منكم أحد فقال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كفى بالموت طامة ياجبرئيل فقال جبرئيل ما بعد الموت أطمّ و أعظم منه إنتهى.

و روى عكرمة عن إبن عبّاس قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: الأمراض و الأوجاع كلّها بريد الموت و رسل الموت فإذا حان الأجل أتى ملك الموت بنفسه فقال يا أيّها العبد كم خبر بعد خبر و كم رسول بعد رسول و كم بريد بعد بريد أنا الخبر الّذي ليس بعدي خبر و أنا الرّسول أجب ربّك طائعاً أو مكرهاً فإذا قبض روحه و تصارخوا عليه قال على من تصرخون و على من تبكون فواللّه ما ظلمت له أجلاً و لا أكلت له رزقاً بل دعا ربّه فليبك الباكي على نفسه و أنّ لي فيكم عودات و عودات حتّى لا أبقي منكم أحداً إنتهى[1].

و أمّا قوله: **ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** أي ثمّ بعد الموت ترجعون الى ربّكم للحساب يوم القيامة.

وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَ سَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن حال المجرمين و هم الكفّار و العصاة و الفسّاق الّذين إرتكبوا الجرائم من أنواع المعاصي و ماتوا من غير توبة فخاطب النبيّ و قال له و لو ترى يا محّمد هال النّاكثين رؤسهم عند ربّهم، و النّكس قلب الشّئ على رأسه و منه، نكس الولد إذا خرج رجله قبل رأسه، و المقصود خروجه على غير حالة الطبيعي الولادة، عبَّر اللّه تعالى عن المجرمين به لأنّهم يردون على ربّهم بعد الموت منكساً من فرط المعصية كما هو شأن المجرم و لذلك يعترفون بذنوبهم و يقولون ربّنا أبصرنا و سمعنا، أي أبصرنا الرُّشد و سمعنا الحقّ، و قيل أبصرنا صدق وعدك و سمعنا تصديق رسلك، و قيل معناه إنّا كنّا بمنزلة العمي فقد أبصرنا، و بمنزلة الصمّ فسمعنا فأرجعنا الى الدّنيا نعمل صالحاً إنا موقنون، بما أنزلت في كتابك و أخبرنا به رسولك و يظهر

۱- نور الثقين ج ۴ ص ۲۲۴

من الآية أنّهم يقولون ذلك بعد الموت و رؤيتهم العذاب و لذلك يسترجعون كما هو شأن المجرم ألا ترى أنّ القاتل و السّارق و الزّاني بعد أن يؤخذ به و يرى القتل أو قطع اليد أو الحدّ يظهر النّدم في دار الدّنيا مع أنّ عذاب الدّنيا بالنّسبة الى عذاب الآخرة كالقطرة في مقابل البحر ففي الآية إشارة الى أنّ الإنسان ما دام كونه في الدّنيا منغمراً في شهواتها غافلاً عن تبعاتها و دركاتها لا يتوجّه الى إنذار الرُّسل و أمّا بعد الموت فيرى بعينه و يدرك بحسِّه ما سمعه من الأنبياء ورآه في الكتاب في دار الدّنيا فيحصل له اليقين و يرتفع الشكّ فيندم على ما فعله في الدّنيا و يقول ربّ إرجعون لعليّ أعمل صالحاً فيما تركت، و لا يعلم أنّ الرّجوع الى الدّنيا غير ممكن و لذلك يقال في جوابه كلاّ أنّها كلمة هو قائلها و لات حين مناصٍ.

وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُدٰيها وَ لٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَ ٱلنّاسِ أَجْمَعِينَ

أخبر اللّه تعالى عن قدرته و أنّه كان قادراً على إلجائهم و إضطرارهم الى الإيمان بأن يفعل فيهم أمراً من الأمور يضطرّهم و يلجئهم الى الإقرار بتوحيد اللّه و نبُوة الأنبياء والعمل الصّالح و لكن ذلك يبطل الغرض بالتّكليف على أساس الإختيار لإستحقاق الثّواب و من المعلوم أنّ الإلجاء و الإجبار ينافي الإستحقاق هذا، و أعلم أنّ هذه الآية و أمثالها ممّا تمسّك به القائلون بالجبر.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما لفظه، و لو شئنا لآتينا كلّ نفسٍ هداها، جواب عن قولهم ربَّنا أبصرنا و سمعنا فأرجعنا، و بيانه هو أنّه تعالى قال إنّي لو أرجعتكم الى الإيمان لهديتكم في الدّنيا و لمّا لم أهدكم تبيّن إنّي ما أردت و ما شئت إيمانكم فلا أردُّكم و قوله: **وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا**، صريحٌ في أنّ مذهبنا صحيح حيث نقول أنّ اللّه ما أراد الإيمان من الكافر و ما شاء منه إلاّ الكفر ثمّ قال تعالى: **وَ لٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ** أي وقع القول و هو قوله

لإبليس: **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ** هذا من حيث النَّقل وله وجهٌ في العقل و هو أنّ اللّه تعالى لم يفعل فعلاً خالياً عن حكمةٍ و هذا متَّفقٌ عليه و الخلاف في أنّه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل ولزمته الحكمة لا بحيث تحمله تلك الحكمة على الفعل و إذا علم أنّ فعله لا يخلوا من الحكمة فقال الحكماء حكمة أفعاله بأسرها لا تدرك على سبيل التَّفصيل لكن تدرك على سبيل الإجمال فكلّ ضربٍ يكون في العالم و فساد فحكمته تخرج من تقسيم عقلي و هو أنّ الفعل أمّا أن يكون خيراً محضاً أو شرّاً محضاً أو خيراً مشوباً بشَّر و هذا القسم على ثلاثة أقسام:

قسمٌ خيره غالبٌ و قسمٌ شرّه غالب و قسمٌ خيره و شّره مثلان إذا علم هذا فخلق اللّه عالماً فيه خير المحض و هو عالم الملائكة و هو العالم العلوي و خلق عالماً فيه خيرٌ و شرٌّ و هو عالمنا و هو العالم السُّفلي ولم يخلق عالماً فيه شرٌّ محض ثمّ أنّ العالم السُّفلي الّذي هو عالمنا و إن كان الخير و الشَّر موجودين فيه لكنّه من القسم الأوّل الّذي خيره غالبٌ، ثمّ أطال الكلام بما لا فائدة في نقله أن شئت الإطّلاع عليه فعليك بمراجعة كتابه إنتهى.

و نحن نقول في الجواب أنّه قد أتعب نفسه في تقرير مذهبه الباطل و لم يعلم أنّ ما ذكره لا يستفاد من الآية أصلاً و قوله: **وَ لَوْ شِئْنٰا لَآتَيْنٰا**، صريح في أنّ مذهبنا صحيح، يقال له بل الأمر بالعكس فأنّ قوله: **وَ لَوْ شِئْنٰا لَآتَيْنٰا**، صريح في بطلان الجبر بيانه أنّ كلمة، لو شرطيّة و قد ثبت عقلاً أنّ الشّرط إذا تحقَّق يتحقّق المشروط مثلاً إذا قلنا لو كانت الشّمس طالعة فالنّهار موجود فطلوع الشّمس علّة لوجود النّهار و عدمه علّة لعدمه و هذا ثابت عقلاً و لا كلام فيه فأنّهم إتّفقوا على أنّ المشروط يوجد بوجود الشّرط و ينتفي بإنتفائه إذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالى: **وَ لَوْ شِئْنٰا لَآتَيْنٰا كُلَّ نَفْسٍ هُدٰيٰهٰا** شرطٌ و مشروط، فقوله، لو شئنا، شرط و قوله: **لَآتَيْنٰا كُلَّ نَفْسٍ هُدٰيٰهٰا** مشروط و بعبارةٍ أخصر المشيّة شرطٌ و

الهداية مشروطٌ و هي أي الهداية لكلّ نفسٍ لم تتّحقق لإنتفاء شرطه و هو المشيّة لكونه منافٍ لغرض التكليف فالآية تدلّ على ثبوت الإختيار للعبد و هو المطلوب.

و بعبارةٍ أخرى لا شكّ أنّ المشروط لم يتّحقق و الخصم أيضاً يقول به و لا شكّ أيضاً في أنّ عدم تحقّق المشروط لأجل عدم تحقّق شرطه و هو المشيّة و هذا أيضاً لا كلام فيه و أنّما الكلام في علّة عدم تحقّق الشّرط بعد الإتفاق على أنّ اللّه كان قادراً على إيجاده كما كان قادراً على عدم إيجاده فالخصم يقول بعدم إيجاد الشّرط و هو المشيّة فلا جرم لا يتّحقق الايمان في حقّ الكافر و نحن نقول لم يتحقق الشّرط لكونه منافياً للغرض في التّكليف و هو الإختيار فعلى قول الخصم عدم تحقّق الايمان للكافر مسَّببٌ عن إرادة اللّه و مشيّئته أي إرادة الكفر منه و أمّا على مسلكنا فعدم إيمانه مسَّببٍ عن عدم إختيار الإيمان و حمل الآية على ما ذكرناه أولى من حملها على ما ذكره الخصم و من تبعه من الجبريين لأنّ الجبر من مصاديق الظُّلم و هو قبيح و هذا بخلاف حمل الآية على ما ذكرناه فأنّه يوجب إختيار المكلّف ما شاء و هو عين العدل و أمّا ما ذكره من الخير و الشّر و أطال الكلام فية فهو خارج عن موضوع البحث و لا ربط له بالآية.

و الأحسن أن يقال أنّ الآية بصدد بيان قدرة اللّه و أنّه تعالى قادر على كلّ شئٍ فلو أراد أن يخلق خلقاً لا يقدر على الإيمان لفعل و لو أراد أن يخلق خلقاً لا يقدر على الكفر و المعصية لفعل لأنّه على كلّ شئٍ قدير.

و أمّا أنّه فعل ذلك يحتاج إلى دليل و إذ ليس فليس و إذا لم يكن دليل على الاثبات كذلك لكونه مستلزماً للجبر و الظُّلم، فالحكم باقٍ على النّفي و لازمه إختيار المكلّف في إختياره الإيمان أو الكفر و هو المطلوب و ملّخص الكلام هو أنّ اللّه تعالى أخبر في هذه الآية بأنّه لو شاء الإيمان لكلّ نفسٍ لكان قادراً عليه كما خلق الملائكة كذلك و لكنّه أراد الإيمان لكلّ نفسٍ بإختيار المكلّف و هذا ممّا لا كلام فيه فأنّه قادرٌ على كلّ شئٍ.

و أمّا قوله: **وَ لٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَ ٱلنّاسِ أَجْمَعِينَ** لا دلالة فيه علىٰ أنّه تعالى أراد ذلك بل يدلّ على أنّ الإنسان بسوء سريرته و خبث طينته يختار الكفر و العصيان على الطّاعة و الإيمان فلا جرم مصيره إلى النّار و اللّه تعالى يعلم ذلك و العلم ليس علّة للكفر و المعصية فقوله لكن حقّ القول منّي، معناه أخبرت و أوعدت بذلك بواسطة الأنبياء و من أصدق من اللّه قيلاً فقوله هذا إشارة إلى أنّ اللّه تعالى عالم بجميع الأمور و لا يخفى عليه شئ لا في الأرض و لا في السّماء.

فَذُوقُوا بِمٰا نَسِيتُمْ لَآتَيْنٰا كُلَّ نَفْسٍ هُدٰيهٰا وَ لٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَ ٱلنّاسِ أَجْمَعِينَ لِقٰآءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا إِنّٰا نَسِينٰاكُمْ وَ ذُوقُوا عَذٰابَ ٱلْخُلْدِ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

فقوله: **نَسِيتُمْ** يدلّ على إخباره بذلك في الدّنيا بواسطة الأنبياء إلاّ أنّهم نسوا ما أخبروا به و المراد بالنّسيان في المقام إعراضهم أو غفلتهم بسبب إنغمارهم في الدّنيا و زخارفها و معنى الآية إذا إخترتم الكفر على الإيمان و الفسق و العصيان على الطّاعة و الإنقياد فذوقوا العذاب بسبب إعراضكم أو نسيانكم فأنّأا أيضاً نسيناكم كما نسيتمونا و ذوقوا عذاب الخلد الّذي لا نهاية له بما كنتم تعملون أي بسبب أعمالكم في الدّنيا و فيه إشارة إلى أنّ اللّه تعالى لا يظلم و لكن كانوا أنفسهم يظلمون فالثّواب و العقاب من أثار الأعمال الصّادرة من العبد.

إِنَّمٰا يُؤْمِنُ بِآيٰاتِنَا ٱلَّذِينَ إِذٰا ذُكِّرُوا بِهٰا خَرُّوا سُجَّدًا وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن أوصاف المؤمن و ذكر منها أموراً:

أحَدها: السُّجود للرّب و هو الخضوع في العبادة.

ثانيها: التّسبيح و التّنزيه للحقّ بسبب الحمد.

ثالثها: الاجتناب عن الكبر و الأخذ بالتّواضع في جنب عظمة اللّه و فرّع هذه الأمور على التّذكر بالأيات.

و إعلم أنّ اللّه تعالى ذكر أوصاف المؤمنين في كثيرٍ من الأيات:

قال اللّه تعالى: **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ ٱللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذٰا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ اٰيٰاتُهُ زٰادَتْهُمْ ايمٰانًا وَ عَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلٰوةَ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ، أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَ ٱلَّذِينَ اٰوَوْا وَ نَصَرُوٓا أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ**[۲].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذٰا كٰانُوا مَعَهُ عَلٰىٓ أَمْرٍ جٰامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتّٰى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ**[۳].

إن قلت قد ظهر من الأيات المذكورة و غيرها ممّا لم نذكره حذراً من الإطناب أنّ المؤمن له أوصاف كثيرة و لا تختصّ أوصافه بما ذكر في هذه الآية المبحوثة عنها من الخضوع و التّسبيح و التواضع و قد قالوا أنّ كلمة، أنّما، تفيد الحصر.

فقوله: **إِنَّمٰا يُؤْمِنُ بِاٰيٰاتِنٰا**، يقتضي الحصر في هذه الصّفات دون غيرها ممّا ذكر في غيرها من الأيات.

قلت لا شكّ أنّ كلمة، أنّما تفيد الحصر و لكن الحصر على قسمين:

۱- الأنفال = ۲ و ۳ و ۴
۲- الأنفال = ۷۴
۳- النُّور = ۶۲

قصر الصّفة على الموصوف و قصر الموصوف على الصّفة فأن دخلت الكلمة على الموصوف تفيد قصر الموصوف على الصّفة و أن دخلت على الصّفة تفيد قصر الصّفة على الموصوف مثلاً إذا قلنا أنّما زيدٌ عالمٌ معناه قصر زيد على العلم و أمّا أنّ عمرواً عالمٌ أو ليس بعالم فهو ساكت عنه و بعبارةٍ أخرى لا يفيد المثال إلاّ أنّ زيداً عالمٌ من العلماء و أمّا أنّ العلم مختصّ به لايستفاد منه.

و أمّا إذا قلنا أنّما العالم زيد معناه حصر الصّفة على الموصوف أي العلم منحصرٌ به إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى: **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا** و غيرها من الأيات المذكورة من حصر الموصوف على الصّفة أي أنّ المؤمن له هذه الأوصاف المذكورة في الآية من السّجود و التّسبيح و التّواضع و هذا لا ينافي إتّصافه بغيرها أيضاً و بعبارةٍ أخرى أنّ هذه الأوصاف لا توجد في غيره و أمّا أنّ صفاته منحصرة بها فلا يستفاد من الكلام فأنّ إثبات شئٍ لشئٍ لا ينفي ما عداه ضرورة أنّ قولنا أنّما زيد عالم ليس معناه أنّه ليس بعابد و زاهدٍ مثلاً و الحاصل إثبات صفة لزيد ليس معناه حصرها فيه فعلى هذا للمؤمن أوصاف كثيرة و الّذي نقول في المقام هو أنّ أصول الأوصاف هي الثّلاثة المذكورة في الآية كما لا يخفى على المتّأمل فيها ثمّ أنّ اللّه تعالى أثبت لمن آمن به، أنّه إذا تليت عليه آياته و صار متذكّراً بها يخرّ سجّداً و مسبّحاً بحمد ربّه و يتواضع في جنب عظمته و من كان كذلك فلا محالة يزيد في إيمانه و يتوكّل على اللّه و يقيم الصّلاة و ينفق ممّا رزقه اللّه و يجاهد في سبيل اللّه و هكذا و قوله: **إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا** في معناه إحتمالان:

أحدهما: ما يستفاد من ظاهر اللّفظ يعني إذا تليت عليه آية السُّجدة و سمع بها سجد سواء كانت السُّجدة واجبة أو مستَّحبة تعظيماً للّه تعالى.

الثّاني: أنّ المراد بالسّجود في الآية الخضوع و الخشوع و معنى الكلام أنّه إذا تليت عليه آية سواء كانت آية السُّجدة أم غيرها عرض عليه الخضوع و

الإنكسار فقال سبحان اللّه و الحمد للّه و في قوله: **لَا يَسْتَكْبِرُونَ** إشارة الى ذمّ التّكبر و لذلك وصف المؤمن بعدمه و مفهومه أنّ المستكبر ليس بمؤمن حقّاً، ثمّ وصفهم اللّه بعد ما ذكره في الآية بأوصاف كلّها من فروع الخضوع و التّواضع لعظمة اللّه فقال:

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

فقوله: **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ** معناه ترفع و تبنوا عن الفرش، يقال تجافى جنبه عن الفراش إذا لم يستقرّ عليه من خوفٍ و أوجع أو همٍّ، قالوا و هم المتهجّدون باللّيل الذّين يقومون لصلاة اللّيل يدعون ربّهم لأجل خوفهم من سخطه و طمعهم في رحمته، و **الجنُوب** بضّم الجيم و النّون جمع جنب و هو في الأصل الجارحة ثمّ يستعار في النّاحية التّي تليها كعادتهم في إستعارة سائر الجوارح نحو اليمين و الشّمال، و قيل جنب الحائط و جانبه، و يقال له بالفارسيّة (پهلو) فقوله: **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ** معناه عدم إستقرار جنوبهم على الفراش من شدّة الخوف أو الشّوق إلى العبادة و المناجاة لربّهم.

فقد روى بلال عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: عليكم بصلاة اللّيل فأنّها دأب الصّالحين قبلكم و أنّ قيام اللّيل قربة إلى اللّه و منهاة عن الإثم و مكّفر عن السّيئات و مطردة الدّاء عن الجسد إنتهى.

و عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم: شرف المؤمن قيامه باللّيل و عزّه كفّ الأذى عن النّاس إنتهى.

و لذلك عدّها تعالى من أوصاف المؤمنين على سبيل الكناية و الإستعارة و قوله: **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا** معناه أنّهم يدعون ربّهم خوفاً من عذابه و طمعاً في رحمته، و أنّما قال و طمعاً في رحمته ولم يقل أو طمعاً في رحمته لأنّ الواو تفيد الجمع و، أو، تفيد التّخيير أو التّرديد و حيث أنّ المؤمن دائماً

يكون قلبه بين الخوف و الرّجاء فهو يخاف و يطمع فأنّ الخوف بدون الرّجاء مذموم لكونه موجباً لليأس من رحمة اللّه كما أنّ الرّجاء بدون الخوف يوجب التّجري في معصية اللّه و عدم المبالاة بها و كلاهما مذمومان و خير الأمور أوسطها و لذلك ورد في الأثار أنّ قلب المؤمن ينبغي أن يكون بينهما فهو يخاف من عذابه تعالى بقدر ما يرجو برحمته و يرجو بقدر ما يخاف من عذابه فيكون خائفاً في عين كونه راجياً و إذا كان كذلك فيدعو اللّه خوفاً كما يدعوه طمعاً و بالعكس و بذلك قد جمع بين الخوف و الرّجاء و هذا أي الجمع بينهما من شأن **الواو** فمن يدعو اللّه خوفاً فقط أو طمعاً كذلك فهو ناقص الإيمان و إلى هذا المعنى يشير أميرالمؤمنين في بعض كلماته، إلٰهي ما عَبدتك خوفاً من نارك ولا طَمَعاً في جَنّتك ولكنّي عَبدتك حيث وَجَدتك مُستَحِقاً للعبادة أي عبدتك لنفسك.

و قوله: **وَ مِمَّا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ** فهو وصفٌ أخر للمؤمن فأنّ الإنفاق في سبيل اللّه ممدوحٌ كما أنّ عدم الإنفاق مذموم لأنّه من البخل و المؤمن لا يكون بخيلاً و الأيات في مدح الإنفاق كثيرة جدّاً:

قال اللّه تعالى: **وَ مآ أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ ٱلرّٰازِقينَ**(١).

قال اللّه تعالى: **فَالَّذينَ اٰمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبيرٌ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ**(٣).

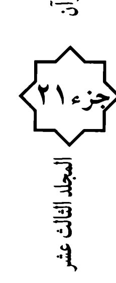
قال اللّه تعالى: **لَنْ تَنٰالُوا ٱلْبِرَّ حَتّٰى تُنْفِقُوا مِمّٰا تُحِبُّونَ**(٤).

قال اللّه تعالى: **وَ مٰا لَكُمْ أَلّٰا تُنْفِقُوا في سَبيلِ ٱللّٰهِ**(٥).

١- سَبأ = ٢٩ ٢- الحَديد = ٧
٣- البقرة = ٢٧٢ ٤- آل عمران = ٩٢
٥- الحَديد = ١٠

و الأيات كثيرة و مع صراحة الأيات بحسن الإنفاق و مـدحه لا نـحتاج إلى نقل الأخبار الواردة فأنّ الإنفاق ممّا يحكم العقل و النقل بـحسنه بـل هـو مـن المستّقلات العقليّة عند جميع العقلاء و الملل كما أنّ البخل و هو ضـدّه أيـضاً كذلك من حيث القبح أعاذنا اللّه منه.

■



فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ
كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ
عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَ أَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ
ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا
وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ
دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَ مَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا
مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَآئِهِ وَ جَعَلْنَاهُ
هُدًى لِبَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ ﴿٢٣﴾ وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا
يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَ لَمْ يَهْدِ
لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ
﴿٢٦﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ
ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَ
أَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا
ٱلْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا

يَنْفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا ايمٰانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ ٱنْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴿٣٠﴾

◀ اللّغة

جَنّٰاتُ ٱلْمَأْوٰى: المأوى المقام.

مِنَ ٱلْعَذٰابِ ٱلْأَدْنٰى: الأدنىٰ الأصغر و هو عذاب الدّنيا.

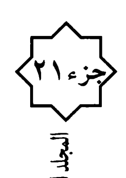
فى مِرْيَةٍ: المرية بكسر الميم الشّك.

نَسُوقُ ٱلْمٰآءَ: السُّوق الحَثّ على السَّير.

ٱلْجُرُزِ: بضمّ الجيم و الرّاء هي الأرض اليابسة التّي ليس فيها نبات إنقطع ذلك لإنقطاع الأمطار.

◀ الإعراب

مٰآ أُخْفِىَ لَهُمْ يجوز أن تكون، ما، إستفهاميّة و موضعها رفع بالإبتداء، و أخفي لهم، خبره على قراءة من فتح الياء و أمّا على قراءة من سكنها و جعل، أخفي، مضارعاً، تكون، ما، في موضع نصب بأخفي و يجوز أن تكون ما، بمعنى، الّذي منصوبة، بتعلم و مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ في الوجهين حال من الضّمير في، أخفي و جَزٰآءً مصدر أي جوزوا جزاءً ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ هو صفة العذاب في موضع نصب و يجوز أن يكون صفة النّار على معنى الجحيم أو الحريق و الباقي واضح.



◀ التّفسير

فَلٰا تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰآ أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزٰآءً بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ

و المعنى لا يعلم أحدٌ ما أعدَّ اللّه تعالى لهؤلاء المؤمنين الّذين تقدّم ذكرهم و وصفهم من أنواع اللّذات و الأشياء التّي تقرّ أعينهم بها يوم القيامة في

درجات النّعيم جزاءً بما كانوا يعملون في الدّنيا من الطّاعات و الحسنات و هذه الآية من أحسن البشارات للمؤمنين ولمثل هذا فليعمل العاملون فأنّ قوله: **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُمْ**، إشارة إلى أنّ ما أعدّه اللّه لهم من الجزاء و الثّواب يوم القيامة فوق فهم البشر و تصّوره و أيّة بشارةٍ أحسن منها.

و قال صاحب الكشّاف معناه لا تعلم النّفوس كلّهن و لا نفس واحدة منهنّ لا ملكٌ مقرّب و لا نبيٌّ مرسل أيُّ نوعٍ عظيم من الثّواب إدَّخر اللّه لأولئك و أخفاه من جميع خلائقه لا يعلمه إلاّ هو ممّا تقرّ به عيونهم و لا مزيد على هذه العدة و لا مطمح ورائها ثمّ قال جزاءً بما كانوا يعملون فحسم أطماع المتّمنين و عن النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يقول اللّه تعالى:

أعددت لعبادي الصّالحين ما لا عينٌ رأت و لا أذنٌ سمعت و لا خطر على قلب بشرٍ، إقرأوا ما شئتم فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرّة أعينٍ إنتهى.

أقول و قد قيل في فائدة الإخفاء وجوهٌ:

أحدها: أنّ الشّيئ إذا عظم خطره و جلّ قدره لا تستدرك صفاته على كنهه إلاّ بشرحٍ طويل و مع ذلك فيكون إيهامه أبلغ.

ثانيها: أنّ قرارات العيون غير متناهية فلا يمكن العلم بتفاصيلها.

ثالثها: أنّ الإخفاء جعل في مقابلة صلاة اللّيل و هي خفيّة فكذلك ما بإزائها من جزائها و يؤيّد ذلك ما روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال:

ما من حسنة إلاّ ولها ثوابٌ مبيّن في القرآن إلاّ صلاة اللّيل فأنّ اللّه عزّ إسمه لم يبيّن ثوابها لعظم خطرها فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُمْ.

و حيث إنّجر الكلام إلى هذا المقام فلا بأس بذكر رواية رواها المجلسي قدّس سرّه في البحار لتقرير عيون النّاظرين.

عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليهم السلام قال أبو بصير قلت لأبي عبد الله عليه السلام فداك يابن رسول الله شوّقني فقال عليه السلام: يا أبا محمّد أنّ الجنّة توجد ريحها من مسيرة ألف عامٍ و أنّ أدنى أهل الجنّة منزلا لو نزل به الثّقلان الجنّ و الإنس لوسعهم طعاماً و شراباً و لا ينقص ممّا عنده شيئاً و أنّ أيسر أهل الجنّة منزلة من يدخل الجنّة فيرفع له ثلاث حدائق فإذا دخل أدناهنّ رأى فيها من الأزواج و الخدم و الأنهار و الثّمار ما شاء الله فإذا شكر الله و حمده قيل له إرفع رأسك إلى الحديقة الثّانية ففيها ما ليس في الأولى فيقول ياربّ أعطني هذه فيقول لعلّي أن أعطيتكها سألتني غيرها فيقول ربّ هذه فإذا دخلها و عظمت مسّرته شكر الله و حمده فيقال أفتحوا له باب الجنّة و يقال له إرفع رأسك فيقول ربّ أدخلني الجنّة و أنجني من النّار قال أبو بصير فبكيت و قلت له جعلت فداك زدني قال عليه السلام يا أبا محمّد أنّ في الجنّة نهراً في حافيته جوار نابتات و إذا مرَّ المؤمن بجاريةٍ أعجبته قلعها و أنبت الله مكانها أخرى قلت جعلت فداك زدني قال عليه السلام المؤمن يزّوج ثمان مائة عذراء و أربعة ألاف ثيّب و زوجتين من الحور العين.

قلت جعلت فداك ثمان مائة عذراء قال عليه السلام نعم ما يفترش منهنّ شيئاً إلاّ وجدها كذلك قلت جعلت فداك من أيّ شئٍ خلقن الحور العين قال من الجنّة و يرى مخّ ساقيها من وراء سبعين حُلّةً قلت جعلت فداك ألهنّ كلام يكلّمن به في الجنّة قال عليه السلام نعم كلامٌ يكلمنّ به لم يسمع الخلائق بمثله قلت ما هو قال عليه السلام يقلنّ نحن الخالدات فلا نموت و نحن النّاعمات فلا نبوس ونحن المقيمات فلا نظعن و نحن الرّاضيات فلا نسخط طوبى لمن خلق لنا و طوبى لمن خلقنا له إنتهى[1].

١- بحار الأنوار ج ٣ ص ٣٢٦ ط كمباني

و الأحاديث في الباب كثيرة جدّاً و سيأتي شطراً منها بـمناسبة الأيـات كـما سيجئ البحث في الجنّة و النّار وما يتعلّق بهما في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ

الإستفهام للإنكار و لذلك قال لا يستون ثمّ أنّ المؤمن من أمن باللّه و رسوله قلباً و أقّر به لفظاً و عمل بما يقول و يعتقد بجوارحه و أركانه هذا على مذهب الخاصّة.

و أمّا على مذهب العامّة فيكفي فيه الإقرار اللّفظي و لا يشترط فيه الإعـتقاد و العمل و قد تكلّمنا فيه سابقاً غير مرّةٍ فلا نعيد الكلام بذكره خوفاً من الإطالة مضافاً إلى أنّه معلوم عند العرف، و أمّا الفاسق فهو الخارج عـن قـانون الشّـرع عملاً يقال فسق فلان إذا خرج عن حجر الشّرع و ذلك من قولهم فسق الرُّطب إذا خرج عن قشره و هو أعمّ من الكفر و الفسق يقع بالقليل من الفـعل القـبيح أعني به الذّنب و بالكثير منه لكن تعورف فيما كان كثيراً و أكثر ما يقال الفاسق لمن إلتزم حكم الشّرع و أقرّ به ثمّ أخلّ بـجميع أحكـامه أو بـبعضه و إذا قـيل للكافر الأصلي فاسق فلأنّه أخلّ بحكم ما ألزمه العقل و إقتضته الفطرة الأصليّة إذا عرفت هذا فقد علـمت وجـه عـدم تسـاويهما عـند اللّـه بـل عـند العـقل و العرف و ذلك لأنّ المؤمن أطاع ربّه و الفاسق عصاه و خـالفه و العـقل السـليم يحكم بأنّ المطيع أحسن و أفضل من العاصي و لذلك مدح اللّه تعالى المؤمن و ذمّ الفاسق في كثير من الأيات كما هو ظـاهر و يـعلم أنّ الفسـق قـد يـتحقّق بالفعل كالزّناء و شرب الخمر و القتل من غير طريق شرعّي و أمـثال ذلك مـن الأعمال القبيحة الشّنيعة التّي حكم العقل و الشّرع بقبحها و قد يـتحقّق بـالقول مثل الكذب و الغيبة و التُّـهمة و سبّ المـؤمن و لعـنه و بـالجملة إيـذاء الغير بلسانه بغير حقٍّ، و قد يكون بالحكم لما قال تعالى: **وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفٰاسِقُونَ**[١].

١- المائدة = ۴٧

ثمّ أشار اللّه تعالى إلى ما يترّتب عليهما من الثّواب و العقاب يوم القيامة فقال:

أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَ أَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَيٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ

فالآية الأولى بشّر اللّه تعالى فيها المؤمن بأنّ له جنّات المأوى و أشار فيها بأنّ ذلك بسبب عمله في دار الدّنيا و هو صريحٌ في أنّ الإيمان لا يتَّحقق بدون العمل و هذا هو الّذي نقول به في المذهب و أشرنا إليه في تعريف المؤمن في صدر المبحث ألا ترى أنّ اللّه تعالى أشار بإشتراط العمل في موضعين:

أحدهما: صدر الآية حيث قال: **وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ**.

ثانيهما: في آخر الآية حيث قال: **بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** فمفهوم الآية أنّه لا يتحقّق الإيمان و لا يترتّب عليه الثّواب و المأوى في الجنّة إلاّ بعد العمل و أمّا مجرّد الإعتقاد أو الإقرار فلا خير فيه و لا يترتّب عليه شيئ و أمّا الآية الثانيّة ففيها الوعيد بأن مأوى الفاسق النّار يوم القيامة لا يمكن له الخروج عنها و هو كناية عن الخلود فيها و ذلك لأنّ قوله: **كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا**، معناه عدم إمكان الخروج له و لا نعني بالخلود إلاّ هذا.

و أمّا قوله تعالى: **ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ** فالذّوق في الأصل هو وجود الطّعم بالفم ممّا يقلّ تناوله دون ما يكثر فأنّ ما يكثر فيه يقال له الأكل و الشّرب هذا في العرف ممّا لا كلام فيه و أنّما أختير في القرأن لفظ الذّوق في العذاب لأنّ ذلك و أن كان في التّعارف للقليل إلاّ أنّه مستصلح للكثير فخصّه بالذّكر ليعمّ الأمرين و لذلك كثر إستعماله في العذاب، و قد جاء للرّحمة أيضاً و يعبرّ عنه

بالإختبار و منه قوله تعالىٰ: **وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ**[١].

و قال تعالى في الرّحمة: **وَ إِذآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا**[٢] والأيات كثيرة.

و أمّا قوله تعالى: **كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** ففيه إشارة إلى انّ العذاب و المأوى في النّار و الخلود فيها بسبب تكذيب الفسّاق أيات اللّه و أنبيائه قولاً و عملاً بل و إعتقاداً و ما ربّك بظلاّم للعبيد و الذّي يستفاد من هذه الأيات و أمثالها هو أنّ الثّواب والعقاب يترتّبان على العمل في دار الدنيا و هو ممّا لا كلام فيه لظهوره شرعاً و عقلاً.

وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

قيل المراد بالعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا و بالأكبر عذاب الأخرة و ذلك لأنّ عذاب الدّنيا أهون من عذاب الأخرة، أقسم اللّه تعالى في هذه الآية لأنّ اللاّم في قوله: **لَنُذِيقَنَّهُمْ** للقسم ثمّ أكّده بنون التّأكيد الثقيلة بأنه يذيق اللّه هؤلاء الفسّاق الّذين تقدّم وصفهم العذاب الأدنى في دار الدّنيا من القتل و السّبي و القحط و الفقر و المرض و غير ذلك من أنواع العذاب، و قيل المراد به عذاب القبر، و ليس بشيءٍ إذ لا رجعة فيه إلى الدّنيا فلا معنى لقوله: **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**.

و عن الباقر عليه السلام أنّ المراد بالعذاب الأدنى هو القحط و الأكبر خروج المهدي بالسّيف، و المشهور عند المفسّرين أنّ المراد بالعذاب الأكبر هو عذاب الأخرة بالنّار وكيف كان فقد أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه يفعل بهم هذا في دار الدّنيا من أنواع العذاب ليرجعوا عن معاصي اللّه إلى طاعته و يتّوبوا منها.

١- هود = ١٠

٢- الرُّوم = ٣٦

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ

وصف اللّه تعالى هؤلاء بالظّلم فقال ومن ذكّر بأيات اللّه من ناحية رسوله ثمّ أعرض عنها أي أعرض عن الأيات ولم يعمل بها و أنّما عبّر عنه بالظّالم لأنّه ظالمٌ على نفسه و من ظلم على نفسه فهو أظلم ممّن ظلم على غيره و لذلك قال: **وَ مَنْ أَظْلَمُ**، بصيغة التّفضيل، و أتى بالإستفهام على وجه التّقريع و التّكبيت ثمّ بيّن اللّه تعالى في الآية حكمه و قال: **إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ** منتقمون، عبَّر عن الظّالم على نفسه بالمجرم ثمّ حكم بالإنتقام منه يوم القيامة، و لا يبعد أن يكون المراد بالأيات في المقام ما أذاقه اللّه في الدّنيا من أنواع العذاب من القحط و السَّبي و المرض و غيرها و على هذا فمعنى الآية أنّا أذقناه ذلك ليرجع عن معاصي اللّه بسبب التّوبة و حيث لم يرجع فهو مجرمٌ مستحقّ للعذاب الأكبر و كيف كان فالأمر سهل لوضوح المعنى على المتأمّل فيها.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَآئِهِ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية بأنّه أعطى الكتاب و هو التّوراة لموسى ثمّ خاطب رسوله بقوله: **فَلَا تَكُنْ**، يا محمّد، في مريةٍ من لقاءه أي في شكٍّ من بقاء موسى ليلة الإسراء و قيل لا تكن في شكٍّ من لقاء موسى في الأخرة، و قيل لا تكن في شكٍّ من لقاء موسى الكتاب و قال بعضهم من لقاء الأذى من قومه أي لا تكن في شكٍّ من أن تلقى الأذى كما لقى موسى.

و قال صاحب الكّشاف، الكتاب، للجنس و الضمير في لقاءه، له، أي للكتاب و معناه إنّا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناك مثل ما لقّيناه من الوحي فلا تكن في شكٍّ من إنّك لقيت مثله و نظيره إنتهى موضع الحاجة منه.

أقول لمّا قرّر الأصول الثّلاثة، الرّسالة، و بدأ الخلق، و المعاد عاد الى الأصل الّذي بدأ به و هو الرّسالة الّتي ليست بدعاً في الرّسالة إذ قد سبق قبلك رسل و ذكر موسى عليه السلام لقرب زمانه و إلزاماً على من كان على دينه و لم يذكر عيسى لأنّ معظم شريعته مستفاد من التّوراة و لأنّ أتباع موسى لا يوافقون على نبوّته و أتباع عيسى متفقون على نبوّة موسى و الظاهر أنّ الضمير في لقاءه عائد على موسى مضافاً اليه على طريق المفعول و الفاعل محذوف ضمير الرّسول أي من لقاءك موسى في ليلة الإسراء أي شاهدته حقيقتاً فلا تكن في مريةٍ و شكٍّ من لقاءه، و الضّمير في، جعلناه، راجع على الكتاب أي جعلنا الكتاب المنزل على موسى هدىً أي هادياً لبني إسرائيل و حاصل الكلام في الآية الشّريفة أنّ حكم الأمثال واحد و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام فأنّ تكذيب الأنبياء و الإعراض عن آيات اللّه كان مستمرّاً في حقّ الجميع من آدم الى خاتم الأنبياء و هو واضح.

وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون

كلمة من، في قوله، منهم، للتّبعيض أي جعلنا بعضهم أئمة، و الأئمة جمع إمام، و هو الّذي يقتدى به في أمر الدّين و الدّنيا و في قوله: **يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا** إشارة الى أنّ الإمام وظيفته إرشاد النّاس الى أمر اللّه لا الى نفسه و لا الى غيره، و قوله: **لَمَّا صَبَرُوا**، وصفٌ للإمام أي جعلناهم أئمة لصبرهم على المكاره و الأذى في سبيل اللّه و أنّهم كانوا بآياتنا يوقنون، من غير شكٍّ لهم فيها و أنّها من عند اللّه هذا تفسير ألفاظ الآية و يستفاد منها أمورٌ ينبغي التّنبيه عليها فأنّ مسألة الإمامة من أهمّ المسائل الإعتقادية بعد التّوحيد و النبوّة بل هي عينهما.

أحدها: أنّ قوله: **وَ جَعَلْنَا**، يدلّ على أنّ الإمام مجعولٌ من عند اللّه كالنّبي فكما أنّ النّبي مختار من عند اللّه كذلك الإمام و نعني بالإمام من قام مقام النّبي بعد موته و قد يعبّر عنه بالوصي و الخليفة و أنّما قلنا بعد موته لأنّ النّبي مادام حيّاً هو الإمام المقتدى به للأمّة.

إن قلت أيّ إحتياجٍ إلى الإمام بعد النّبي و المفروض أنّ الكتاب موجودٌ و الأحكام فيه أيضاً موجودة.

قلت وجود الكتاب لا يكفي في المقام إذا لم يكن له مفسّر يفسّره و يبيّن أحكامه للأمّة و ذلك لأنّ فيه النّاسخ و المنسوخ و العام و الخاصّ و المطلق و المقيّد و المتشابه و غيره و هكذا و لأجل ذلك جعل رسول اللّه العترة عدل الكتاب و أمر النّاس بإتّباعهما و منع عن الإفتراق بينهما فقال:

إنّي تاركٌ فيمك الثّقلين كتاب اللّه و عترتي أهل بيتي ما إن تمَسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً.

و هذا لا يختّص بالقرأن فقط أو بهذه الأمّة فحسب بل الحكم يشمل جميع الكتب المنزلة و الأمم الماضية و لأجل ذلك جعل اللّه لكلّ نبيّ وصيّاً فالإمام يسدّ مسدّ النّبي في جميع الأمور بعده إلاّ النّبوة فثبت و تحقّق أنّ وجود الإمام ممّا لابدّ منه في الأمّة مضافاً إلى أنّه لولا الحجّة لساخت الأرض بأهلها و قد مرَّ الكلام في هذه المسئلة فيما مضى فلا نطيل الكلام بذكرها ثانياً.

ثانيها: قوله **مِنْهُمْ أَئِمَّةً**، و فيه إشارة إلى أنّ الإمام المجعول من اللّه تعالى لابدّ له من شرائط و أوصاف مخصوصة به من العصمة و النَّص و العدالة و الشّجاعة و غيرها من الأوصاف و الكمالات و من المعلوم أنّ هذه الأوصاف لا توجد في كلّ واحدٍ من أحاد الأمّة و لذلك قال اللّه تعالى منهم و لم يقل و جعلناهم أئمّة و هذا هو السِّر في وجوب تعيين الإمام من اللّه تعالى و لذلك قال اللّه تعالى لنبّي الإسلام: **بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ** و لم يقل بَلِّغ ما تشاء أو ما نصبته للإمامة فأنّ الآية صريحة في أنّ الإمامة كالنّبوة ممّا ينزل من قبل اللّه تعالى إلى الخلق و هو واضح.

ثالثها: قوله **يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا** و فيه إشارة إلى أنّ الإمام كالنّبي يهدي النّاس بأمر اللّه و نهيه و هذا أيضاً من خصائص الإمام و لا يوجد في غيره إلاّ ناقصاً و

أمّا الهداية الكاملة الى الحقّ مع الاخلاص الكامل الّذى لا يسوبه ريب و لا رياء فهى لا توجد الاّ من المعصوم و الى هذا المعنى اشار الامام الهدى عليه السلام فى زيارة الجامعه:

السّلام علىٰ الدُّعاة إلىٰ الله والأدّلاء علىٰ مَرضات الله والمستّقرين في أمر الله الخ.

و قال عليه السلام:

السّلام علىٰ أئمّة الهدىٰ ومصابيح الدُّجىٰ وأعلام التُقىٰ الخ.

و قال تعالى مخاطباً لنبيّه: **مِنْ رَبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**(١)

و قال رسول اللّه: **أنا المنذر و علّي الهادي بعدي و هكذا الأئمّة واحداً بعد واحدٍ.**

و لذلك إشترطنا العصمة في الإمام لئَلا يدعوا النّاس إلى الهوى و الشّيطان فأنّ الهادي إذا كان غير معصوم لا يهدي النّاس إلاّ بما شاء و أراد.

رابعها: قوله **لَمَّا صَبَرُوا** ففيه إشارة إلى مقام الصّبر على المصائب و الشّدائد و الأذى من ناحية المدعوّين و ذلك لأنّ الدَّعوة إلى الحقّ قبولها صعبٌ على أهل الباطل و أتباع الهوى و لذلك خالفوا الأنبياء و الأوصياء في كلّ عصرٍ و زمانٍ فلولا صبرهم على الأذى لم يبلغوا إلى مقاصدهم و لم يحصل لهم ما بعثوا لأجله فأنّ الصّبر مفتاح الفرج.

خامسها: قوله **وَ كَانُوا بِـَٔايَاتِنَا يُوقِنُونَ** فيه إشارة إلى مقام اليقين الّذي هو أعزَّ من الكبريت الأحمر ضرورة أنّ الشّاك لا يقدر على إرشاد النّاس فأنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له و من المعلوم أنّ الوصول إلى مرتبة اليقين الخالص من شوائب الأوهام و أن شئت قلت حقّ اليقين لا يمكن عادةً إلاّ للمعصوم الّذي عصمه الله من الخطأ فهذه الأمور الخمسة المذكورة في الآية

١- الرعد = ٧

من شرائط الإمامة فقوله تعالى: **وَ جَعَلْنٰا مِنْهُمْ أَئِمَّةً** إلى أخر ماقال، إشارة إلى لزوم الإمام بعد النّبي أوّلاً و إتّصافه بالأوصاف المذكورة ثانياً و أنّ الإمام مجعولٌ منصوب من اللّه تعالى ثالثاً فكلّ من نصبه الخلق بالإمامة ليس بإمامٍ حقّاً و هو المطلوب.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

ثمّ قال اللّه تعالى لنبيّه أنّ ربّك يا محمّد يفصل بينهم أي يحكم بين هؤلاء المنحرفين عن طريق الحقّ من الكفّار و المنافقين و الفاسقين و بين المؤمنين الّذين أمنوا و عملوا الصّالحات فيما إختلفوا فيه في دار الدُّنيا و هو أحكم الحاكمين.

أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسٰاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ أَفَلاٰ يَسْمَعُونَ

القرُون بضّم القاف جمع قرن بفتحها و هو القوم المقترنون في زمنٍ واحدٍ قاله في المفردات و الهمزة للإنكار و هاهنا إشكال ذكره المفسّرون و هو أنّ الفعل لا يخلو من فاعلٍ فأين الفاعل لقوله يهدي، فقال الفرّاء، كم، في موضع رفع بيهدي على الفاعل، و ردّ هذا بأنّه نقضٌ لأصول النَّحويين في قولهم أنّ الإستفهام لا يعمل فيه ما قبله و لا في، كم، بوجهٍ أعني ما قبلها، و قال بعضهم أنّ، يهد، يدلّ على الهدى و المعنى أو لم يهدهم الهدى، و قيل المعنى أو لم يهد اللّه لهم فيكون معنى الياء و النُّون واحد أي أو لم نبيّن لهم إهلاكنا القرون من قبلهم.

و قال الزّجاج، كم، في موضع نصب بأهلكنا، و أحسن الأقوال منها هو القول الثّالث و المعنى أو لم يهدي اللّه لهم و حيث أنّ الهمزة للإنكار فالمعنى هداهم اللّه إلى ذلك في كثيرٍ من الأيات بواسطة الأنبياء:

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَ رِءْيًا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ**(۴).

و الأيات بهذه المضامين كثيرة هذا كلّه مضافاً إلى أنّ الموضوع من المحسوسات و لعلّه أشار إلى ذلك بقوله: **يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ**، أي يمشون هؤلاء الكفّار المنكرين للبعث في مساكن الهالكين.

و قال بعض المفسّرين أنّ فاعل الفعل أعني يمشون، هو الّذين أهلكهم اللّه من القرون و عليه فالمعنى أهلكنا من قبلهم بغتةً و هم متشاغلين بنفوسهم و يمشون في منازلهم وكيف كان لا شكّ أنّ ما أخبر اللّه به حقٌّ و صدق و إذا كان كذلك فالعقل يحكم بأن يعتبر اللاّحق من السّابق و الباقي من الماضي و إلى هذا أشار اللّه تعالى بقوله: **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَاتٍ** و علاماتٍ على صدق المدّعى أفلا يسمعون الأيات و الأخبار بل نقول أفلا ينظرون إلى الأثار الباقية عن الماضين قال أميرالمؤمنين عليه السلام: **ما أكثر العبر و أقلّ الإعتبار.**

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ

أنّما قال في هذه الآية أو لم يروا، و قال في الآية السّابقة (أولم يهد لهم) لأنّ إهلاك اللّه القرون الماضية لم يروه بأعينهم، و أنّما هداهم اللّه إليه بسبب الأيات و أخبار الأنبياء و هذا بخلاف ما نحن فيه من سوق الماء إلى الأرض

١- الأنعام = ۶
٢- يُونس = ١٣
٣- مريم = ٧۴
۴- الزّخرف = ٨

الجرز و إخراج الزّرع منه فأنّه أمرٌ محسوس غير قابلٍ للإنكار فالأيتان تدُلّان على كمال قدرته و أنّه على كلّ شيءٍ قدير إلاّ أنّ العلم بذلك يحصل في الآية السّابقة من طريق التّفكر و الإعتبار فيمكن للمعاند إنكاره كما ينكر النّبوة و البعث و أمّا في هذه الآية فلا سبيل للإنكار لأنّه محسوسٌ و لذلك قال في أخر الآية أفلا تبصرون إذا عرفت هذا فنقول:

الهمزة في قوله: **أَوَ لَمْ يَرَوْا**، أيضاً للإنكار و الرُّؤية في المقام بمعنى النَّظر و بعبارةٍ أخرى الرُّؤية بالبصر لا الرُّؤية بالقلب و الدّليل عليه قوله: **أَفَلَا يُبْصِرُونَ** و المعنى يرونه بأعينهم، و **الجُرُز** بضمّ الجيم و الرّاء الأرض اليابسة التّي لا نبات فيها و معنى الأية، أو لم يروا، أي ولم ينظروا أنّا نسوق الماء أي نحثّه على السَّير إلى الأرض اليابسة التّي لا نبات فيها فنخرج به أي بذلك السّوق إلى الأرض الجرز زرعاً و نباتاً تأكل منه أنعامهم و أنفسهم، فما تأكل منه الأنعام معلوم و ما تأكل منه أنفسهم عبارة عن أنواع الحبوبات و الثّمار كالحنطة و الشّعير و الأرز و العدس و البصل و أنواع الفواكه، أفلا تبصرون ذلك لتعلموا أنّ اللّه على كلّ شيءٍ قدير و لنعم ما قيل:

تفكّر في نبات الأرض و أنظر ... إلى أثار ما صنع المليك

ففي رأس الزّبرجد شاهداتٌ ... بأنّ اللّه ليس له شريكُ

وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

قال بعض المفسّرين المراد بالفتح في الآية هو الفصل بينهم يوم القيامة أي يقولون هؤلاء الكفّار متى هذا الفصل إن كنتم صادقين في وعدكم ففيه إنكارٌ ليوم الفصل و هو القيامة و بعبارةٍ أخرى متى يجئ فتح الحكم بيننا وبينكم في الثّواب و العقاب و الفتح القضاء و الحكم، و قيل أرادوا به فتح مكّة فعلى هذا يوم الفتح هو يوم فتح مكّة و القائلون هم الفسّاق و المنافقون من المسلمين لا الكفّار الذّين لم يؤمنوا به ولو ظاهراً، و هذا بعيدٌ من الصّواب لأنّ سياق الأيات يأباه و ذلك لأنّ الأيات ناظرة إلى منكر البعث و القيامة و اللّه أعلم بما أراد.

قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لا يَنْفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا ايمٰانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ

و هذه الآية ظاهرة في أنّ المراد بيوم الفتح هو يوم القيامة و هو الّذي قوّيناه و المعنى قل يا محمّد لهؤلاء المستعجلين لما وعد اللّه من الفصل بينهم لا ينفعكم يوم الفتح.

قال صاحب الكشّاف إن قلت قد سألوا عن وقت الفتح فكيف ينطبق هذا الكلام جواباً عن سؤالهم.

قلت كان غرضهم في السّؤال عن وقت الفتح إستعجالاً منهم على وجه التّكذيب و الإستهزاء فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم لا تستعجلوا به و لا تستهزؤوا فكأنّي بكم و قد حصلتم في ذلك اليوم و أمنتم فلم ينفعكم الإيمان و إستنظرتم في إدراك العذاب فلم ينتظروا إنتهى كلامه.

أقول يظهر من كلامه أنّ المراد بقوله تعالى، إيمانهم، يعني إيمان هؤلاء الكفّار يوم القيامة بعد رؤيتهم العذاب و على هذا فالمقصود أنّ الإيمان في الأخرة لا نفع فيه و الّذي ينفع في الأخرة هو الإيمان في الدُّنيا كما أنّ الإستمهال في الأخرة لا معنى له و ذلك لأنّ الإيمان و الإمهال في دار التّكليف و أمّا الأخرة فلا تكليف فيها وكيف كان فالمعنى واضح.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ ٱنْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ

ثمّ أمر اللّه نبيّه بالإعراض عنهم فقال فأعرض عنهم لسفههم و جهلهم و عنادهم و إنتظر يامحمّد يوم الفتح و هو اليوم الّذي يحكم اللّه لك عليهم أنّهم أي هؤلاء الكفّار أيضاً منتظرون لذلك اليوم فأنّ السّاعة أتية لا ريب فيها و أنّ اللّه يبعث من في القبور **وَ سَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ، إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰٓا إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ.**

■

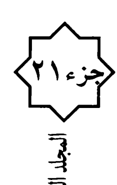
سُورَةُ ٱلْأَحْزابِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحيمِ

يٰٓا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللّٰهَ وَ لٰا تُطِعِ ٱلْكٰافِرينَ وَ ٱلْمُنٰافِقينَ إِنَّ ٱللّٰهَ كٰانَ عَليمًا حَكيمًا ﴿١﴾ وَ ٱتَّبِعْ مٰا يُوحىٰٓ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ ٱللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبيرًا ﴿٢﴾ وَ تَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ وَكيلًا ﴿٣﴾ مٰا جَعَلَ ٱللّٰهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ وَ مٰا جَعَلَ أَزْوٰاجَكُمُ ٱللّٰٓئِي تُظٰاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهٰاتِكُمْ وَ مٰا جَعَلَ أَدْعِيٰآءَكُمْ أَبْنٰآءَكُمْ ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوٰاهِكُمْ وَ ٱللّٰهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي ٱلسَّبيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِاٰبٰآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ ٱللّٰهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوٓا اٰبٰآءَهُمْ فَإِخْوٰانُكُمْ فِي ٱلدّينِ وَ مَوٰاليكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ فيمٰآ أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لٰكِنْ مٰا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كٰانَ ٱللّٰهُ غَفُورًا رَحيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْوٰاجُهُٓ أُمَّهٰاتُهُمْ وَ أُولُوا ٱلْأَرْحٰامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ في كِتٰابِ ٱللّٰهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنينَ وَ ٱلْمُهٰاجِرينَ إِلّٰآ أَنْ تَفْعَلُوٓا إِلىٰٓ



أَوْلِيَآئِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذٰلِكَ فِى ٱلْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿۶﴾ وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَىٰ وَ عِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿۷﴾ لِيَسْئَلَ ٱلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿۸﴾ يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿۹﴾ إِذْ جَآءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿۱۰﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿۱۱﴾ وَ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿۱۲﴾ وَ إِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ يَآ أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَ مَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿۱۳﴾ وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَ مَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿۱۴﴾ وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا ٱللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْئُولًا ﴿۱۵﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَ



إِذًا لٰا تُمَتَّعُونَ إِلّٰا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ ٱللّٰهِ إِنْ أَرٰادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرٰادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لٰا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَلِيًّا وَ لٰا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللّٰهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ ٱلْقٰائِلِينَ لِإِخْوٰانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنٰا وَ لٰا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلّٰا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذٰا جٰآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَـالَّذِي يُغْشٰى عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذٰا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدٰادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُولٰـٓئِكَ لَـمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ ٱللّٰهُ أَعْمٰالَهُمْ وَ كٰانَ ذٰلِكَ عَلَى ٱللّٰهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزٰابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ ٱلْأَحْزٰابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بٰادُونَ فِي ٱلْأَعْرٰابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبٰآئِكُمْ وَ لَوْ كٰانُوا فِيكُمْ مٰا قٰاتَلُوٓا إِلّٰا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كٰانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللّٰهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كٰانَ يَرْجُوا ٱللّٰهَ وَ ٱلْيَوْمَ ٱلْاٰخِرَ وَ ذَكَرَ ٱللّٰهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَ لَمّٰا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزٰابَ قٰالُوا هٰذٰا مٰا وَعَدَنَا ٱللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ ٱللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ مٰا زٰادَهُمْ إِلّآ إِيمٰانًا وَ تَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجٰالٌ صَدَقُوا مٰا عٰاهَدُوا ٱللّٰهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضٰى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مٰا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ ٱللّٰهُ ٱلصّٰادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ ٱلْمُنٰافِقِينَ إِنْ شٰآءَ

أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿۲۴﴾ وَ رَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَ كَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَ كَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿۲۵﴾ وَ أَنْزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿۲۶﴾ وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَرْضًا لَمْ تَطَؤُهَا وَ كَانَ ٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿۲۷﴾ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿۲۸﴾ وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿۲۹﴾ يَا نِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿۳۰﴾

◄ اللّغة

ٱلَّئِي: هو جمع الّتي و الأصل إثبات الياء و يجوز حذفها إجتزاءً بالكسرة و يجوز تليين الهَمزة و قلبها ياء.

تُظَاهِرُونَ: بضمّ التّاء من الظّهار و سيأتي شرحه.

أَدْعِيَاءَكُمْ: جمع دعي و هو الّذي تبَّناه الإنسان.

مَسْطُورًا: أي مكتوباً.

قال الرّاغب في المفردات السّطر و السَّطر الصَّف من الكتابة و سطر فلان كذا كتب سطراً.

جُنُودٌ: جمع جند بضمّ الجيم و سكون النُّون و الدّال و هو في الأصل الأرض الغليظة الّتي فيها حجارة ثمّ يقال لكلّ مجتمعٍ جند و لذلك يقال للعسكر الجند إعتباراً بالغلظة نحو الأرواح جنود مجنّدة.

زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ: أي عدلت الأبصار و تجاوزت عن مقرّها معناه شخصت من الخوف.

ٱلْحَنَاجِرَ: جمع حنجرة و هي الحلق.

ٱبْتُلِيَ: أي أختبر الإبتلاء الإختبار.

زُلْزِلُوا: الزّلزال الإضطراب.

غُرُورًا: بضّم الغين إيهام المحبوب بالمكر و الغرور الشّيطان.

يَثْرِبَ: بفتح الياء إسم أرض المدينة و قيل هي ناحية من يثرب و قيل يثرب المدينة نفسها.

عَوْرَةٌ: بفتح العَين و الرّاء أي مكشوفة يخشى عليها السَّرق.

أَقْطَارِهَا: هي جمع قطر و هو النّاحية.

تُمَتَّعُونَ: التمتّع الحظّ و النَّصيب.

ٱلْبَأْسَ: الشدّة و المراد الحرب.

أَشِحَّةً: بفتح الألف و كسر الشّين و فتح الحاء المشدّدة جمع شحيح و هو الضّغن و الحقد.

بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ: ألسنة جمع لسان و الباقي واضح.

◀ الإعراب

مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ما، في موضع جرّ عطفاً على، ما، الأولى و يجوز أن يكون في موضع رفع على الإبتداء و الخبر محذوف أي تؤاخذون به **بَعْضُهُمْ**

بدل أو مبتدأ فِى ٱلْكِتَٰبِ يتعلّق بأولى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ متصّل بأولي الأرحام فينتصب على التّبيين أي أعني إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إستثناء من غير الجنس (يَثرب) لا ينصرف للتّعريف و وزن الفعل أَشِحَّةً منصوب على الحال من الضّمير في، يأتون، و أشحّة، الثّانية حال من الضّمير المرفوع في سلقوكم تَدُورُ حال من الضّمير في، ينظرون كَٱلَّذِى الكاف حال من أعينهم.

◄ التّفسير

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَ لَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

الخطاب للنّبي و المراد به جميع الأمّة و الوجه في تعلّق الخطاب به صلّى الله عليه و آله و سلّم في هذه الآية و غيرها من الأيات هو أنّ القرأن منزّلٌ عليه من اللّه تعالى فهو المخاطب بالأيات ظاهراً و جميع الأمّة باطناً.

قال اللّه تعالىٰ: **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَ ٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ**[١].

و من المعلوم أنّ جميع الأمّة مأمورون بالجهاد مع النّبي أو بأمره:

قال اللّه تعالىٰ: **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ**[٢].

و لا شكّ أنّ الحكم عامّ لجميع الأمّة و لا يختصّ بالنّبي و نظائره كثيرة و هكذا الأمر في غيره من الأنبياء فأنّ اللّه تعالى خاطب أنبيائه و أراد به جميع الأمّة نعم أنّ اللّه خاطب الأنبياء بأسمائهم و خاطب محمّداً صلّى الله عليه و آله و سلّم بغير إسمه كما قال، يا أدم، ياموسى، يا عيسى يانوح يا داود يا صالح و هكذا و لم



١- التّوبة = ٧٣
٢- الطّلاق = ١

يخاطب محمّداً صلى الله عليه و آله و سلم باسمه إلاّ فيما أراد تعليم النّاس بأنّه رسول اللّه مثل قوله: **مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ** و من المعلوم أنّ هذا في الأخبار و أمّا في النّداء فلم يأت اللّه بإسمه أصلاً بل قال يا أيّها النّبي، يا أيّها الرّسول و ليس هذا إلاّ تشريف له صلى الله عليه و آله و سلم و كرامة.

و أمّا الآية فقد قيل في نزولها أنّ النّبي لمّا هاجر إلى المدينة و كان يحبّ إسلام اليهود قريظة و النّضير و بني قينقاع و قد بايعه ناسٌ منهم على النّفاق فكان يلين لهم جانبه و يكرم صغيرهم و كبيرهم و إذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه و كان يسمع منهم فنزلت، قيل أنّ أبا سفيان بن حرب و عكرمة بن أبىجهل و أبا الأعور السّلمي قدموا عليه في الموادعة التّي كانت بينه و بينهم و قام معهم عبد اللّه بن أبّي و معتب بن قشير و الجد بن قيس فقالوا للنّبي صلى الله عليه و آله و سلم أرفض ذكر ألهتنا و قل أنّها تشفع و تنفع و ندعك و ربّك فشقّ ذلك على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم و على المؤمنين و همُّوا بقتلهم فنزلت الأية.

و روي أنّ أهل مكّة دعوا رسول اللّه أن يرجع عن دينه و يعطوه شطر أموالهم و يزوّجه شيبة بن ربيعة بنته و خوّفه منافقوا المدينة أنّهم يقتلونه إن لَم يرجع فنزلت الآية و كيف كان قد أمر اللّه تعالى نبيّه و أمّته بالتّقوى أوّلاً و بعدم إطاعة الكفّار و المنافقين ثانياً أمّا التّقوى فهو الأصل في جميع الأمور و قد تكلّمنا فيه فيما مضى غير مرّةٍ و قد قال اللّه تعالى: **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ**(١) و قال بعضهم في معنى قوله: **ٱتَّقِ ٱللَّهَ** أي خف اللّه و لا إشكال فيه.

و أمّا قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**، ففيه إشارة إلى أنّ اللّه تعالىٰ يعلم أنّ الكفّار و المنافقين الّذين تدعوهم إلى الإسلام و تميل إليهم أن يرجعوا عن كفرهم و نفاقهم لا يرجعون إليه أبداً ولو علم اللّه عزّ وجلّ أنّ ميلك إليهم فيه

١- المائدء = ٢٧

منفعة لما نهاك عنها لأنّه حكيم يضع الأشياء مواضعها و مع ذلك عالمٌ بعواقب الأمور، فذرهم في خوضهم يلعبون.

وَ ٱتَّبِعْ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ ٱللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

لمّا أمر اللّه نبيّه بالتّقوى و طرد الكفّار و المنافقين و الإعراض عنهم أمره بإتّباع الوحي فقال: **وَ ٱتَّبِعْ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ** و هذا الحكم أي متابعة الوحي مختصّ بالنّبي:

قال اللّه تعالى: **وَ مٰآ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلّٰا رِجٰالًا نُوحىٓ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرىٰ**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ مٰآ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلّٰا نُوحىٓ إِلَيْهِ**[٢].

قال اللّه تعالى: **ذٰلِكَ مِنْ أَنْبٰآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ**[٣] و غيرها من الأيات.

و حيث أنّ النّبي يخبر عن اللّه تعالى فلابدّ له من متابعة الوحي و أن لا يقول من عند نفسه إذ لو قال من غير وحيٍ فقد قال من نفسه لا من اللّه تعالى فلا يجب طاعته فيه:

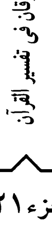
قال اللّه تعالى: **وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوىٰ، إِنْ هُوَ إِلّٰا وَحْىٌ يُوحىٰ**[٤].

قال اللّه تعالى: **قُلْ إِنَّمٰآ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ**[٥].

و حاصل الكلام أنّ الوحى من اللّه تعالى مختصٌّ بأنبيائه و لذلك امرنا بمتابعتهم بقولٍ مطلق:

قال اللّه تعالى: **وَ مٰآ اٰتٰيكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهٰيكُمْ عَنْهُ فَٱنْتَهُوا**[٦].

١- يوسف = ١٠٩
٢- الأنبياء = ٢٥
٣- آل عمران = ٤٤
٤- النّجم = ٤ / ٣
٥- الكَهف = ١١٠
٦- الحَشر = ٧



و أمّا الوحي فقد مرَّ الكلام فيه سابقاً و قلنا أنّه في الأصل الإشارة السّريعة و لتضمّن السُّرعة قيل أمرٌ وحى و هو تارةً يكون برسول مشاهد كتبليغ جبرئيل للنّبي في صورةٍ معيّنة و أمّا بسماع كلامٍ من غير معاينة كسماع موسى كلام اللّه تعالى و أمّا بإلقاء في الرُّوح كما ذكر الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم: **أنّ روح القدس نفث في روعي**، و أمّا بإلهامٍ نحو قوله تعالى: **وَ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ**(١) و أمّا بتسخير نحو قوله تعالى: **وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ**(٢).

و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** معناه أنّه تعالى عالمٌ بأخبار أعمالكم و قيل عالم ببواطن أموركم و قيل خبير بمعنى مخبر و الجامع أنّ اللّه تعالى لا يخفى عليه شئ و هو ثابت عقلاً و شرعاً ثمّ أنّه تعالى أمره بالتّوكل بعد متابعة الوحي فقال:

وَ تَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَ كَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا

توكّل، أمرٌ من توّكل يتوّكل و مصدره **التَّوَكُّل** بضمّ الكاف، و التوّكيل أن تعتمد على غيرك و تجعله نائباً عنك و الوكيل فعيل بمعنى المفعول و معنى الآية تعتمد على اللّه في جميع أمورك و إكتف به وكيلاً أن يتوّلى أمرك.

روي في كتاب مشكاة الأنوار، قال النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: من أحبَّ أن يكون ألقى النّاس فيتوكل على اللّه إنتهى.

و قال الباقر عليه السلام: من توَّكل على اللّه لا يغلب ومن إعتصم باللّه لا يهزم إنتهى.

و قال النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: يقول اللّه عزّ وجلّ مامن مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني إلاّ قطعت أسباب السّموات و الأرض من دونه فأن سألني لم أعطه و أن دعاني لم أجبه و ما من مخلوقٍ يعتصم بي

١- القصص = ٧ ٢- النّحل = ٦٨

دون خلقي إلاّ ضمنت السّموات والأرض رزقه فأن سألني أعطيته و أن دعاني أجبته و أن إستغفر لي غفرت له إنتهى.

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: من إنقطع إلى اللّه كفاه اللّه مؤونته و رزقه من حيث لا يحتسب و من إنقطع إلى الدّنيا و كلّه اللّه إليها إنتهى.

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: من سرّه أن يكون أقوى النّاس فليتوّكل على اللّه و من سرّه أن يكون أكرم النّاس فليتقّ اللّه و من سرّه أن يكون أغنى النّاس فليكن بما في يد اللّه أوثق منه في يديه إنتهى.

و الأحاديث و الأيات في مدح التّوكل كثيرة لا نحتاج إلى ذكرها و قد مرّ الكلام فيه أيضاً سابقاً فنقول حسبنا اللّه و نعم الوكيل نعم المولى و نعم النصير و من يتوكّل على اللّه فهو حسبه و الأحاديث نقلناها من مشكاة الأنوار(١).

اللّهم إجعلنا من المتوكلّين عليك و لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عينٍ بمحمّدٍ و أله الأطهار.

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَ مَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱللَّٰٓئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَ مَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَ ٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ

تفسير هذه الآية يتوّقف على بيان أمور لابدّ لنا من البحث فيها:

الأمر الأوّل: قوله **مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**.

قال إبن عبّاس كان المنافقون يقولون، لمحمّدٍ قلبان فأكذبهم اللّه.



و قال مجاهد و قتادة و هو في رواية إبن عبّاس أنّه كان رجلٌ من قريش يدعى ذا القلبين من دهاءه و هو أبو عمرو (معمَّر) جميل بن أسد فنزّلت هذه الآية و قيل كان رجل يقول لي نفس تأمرني و نفس تنهاني فأنزل اللّه فيه هذه الآية.

١- ص ١٧

و روي عن الصّادق عليه السلام أنّه قال **ما جعل اللّه لرجلٍ من قلبين في جوفه يحبّ بهذا قوماً و يحبّ بهذا أعدائهم** و لا يمكن أن يكون لإنسانٍ واحدٍ قلبان في جوفه لأنّه كان يمكن أن يوصل إنسانان فيجعلان إنساناً واحداً و قد يمكن أن يوصلا بما لا يخرجهما عن أن يكونا إنسانين و ليس ذلك إلاّ من جهة القلب الواحد أو القلبين لأنّه إذا جعل لهما قلبان يريد أحدهما بقلبه مالا يريده الأخر و يشتهي ما لا يشتهي الأخر و يعلم ما لا يعلم الأخر فهما حيّان لا محالة و ليسا حيّاً واحداً نقل هذه الوجوه في التّبيان مع وجوه أخرى لم نذكره حذراً من الإطالة.

و قد ذكر هذه الوجوه غيره من المفسّرين أيضاً مع زيادةٍ و نقيصة إن شئت الوقوف عليها بتفصيلها فعليك بتفاسيرهم و الّذي نقول في المقام هو أنّ القلب يطلق على معنيين:

أحدهما: اللّحم الصّنوبري المتشّكل المودّع في الجانب الأيسر من الصّدر و هو لحم مخصوص و في باطنه تجويف و في ذلك التّجويف دمٌ أسود و هو منبع الرُّوح و معدنه و هذا القلب موجود في البهائم أيضاً مع أدنى تفاوت بل هو موجود في الميّت أيضاً.

الثّاني: أنّه لطيفة ربانيّة روحانيّة لها بهذا القلب المحسوس تعلّق و تلك اللّطيفة هي المعبّر عنها بالقلب تارةً و بالنّفس أخرى و بالرُّوح و بالإنسان أيضاً و هو المدرك العالم العارف و هو المخاطب المطالب و المعاقب و له علاقة مع القلب الجسدي و قد تحيَّرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته و أنّ تعلّقه به تعلّق الإعراض بالإجسام أو الأوصاف بالموصوفات أو تعلّق المستعمل للألة بالألة أو تعلّق المتمكّن بالمكان هذا ملخّص الكلام في القلب في هذا المقام إذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالىٰ: **مٰا جَعَلَ ٱللّٰهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** حكم عامّ يشمل القلب بكلا معنييه أعني بها القطعة من اللَّحم، و اللّطيفة الرّبانية المعبّر عنها بالنّفس و العقل و الرُّوح أحياناً فالنّفى في قوله: **مٰا جَعَلَ ٱللّٰهُ** لهما لا لواحدٍ

منهما دون الأخر و لذلك نقول أنّ اللّه تعالى لم يجعل للحيوان أيضاً قلبين، فالقلب الصّنوبري أعني به اللّحم لا تعدّد فيه أينما وجد و اللّطيفة الرّبانية الّتي هي مختصّة بالإنسان أيضاً لا تعدّد فيها و حيث أنّ البحث فعلاً في قلب الإنسان فنقول لا تعدّد في القلب بكلا معنييه أمّا نقلاً فللأية و أمّا عقلاً فلأنّ الأثار المترتّبة عليهما واحدة بمعنى أنّ ما يترتّب على أحدهما بعينه يترتّب على الآخر فأحدهما زائدٌ لا محالة و أن كانت الآثار مختلفة فيهما فيلزم من وجودها عدمها و أن شئت قلت فسادها إذ لا نعني بالفساد إلاّ الإختلاف في الآثار و توضيح ذلك بحسب الإجمال هو أنّه لاشكّ أنّ القلب أو النَّفس أو العقل أو ما شئت فسمّه، هو منشأ الإدراك في الإنسان فإذا فرضنا أنّ أحدهما أراد الأكل أو الشُّرب أو النَّوم و غيرها و أراد الآخر أيضاً كذلك فهما واحد لا إثنان لأنّ وحدة الآثار تدلّ على وحدة المؤثّر، و أن أراد الآخر غير ما أراد الأوّل فيلزم أن يكون الإنسان آكلاً و غير آكلٍ و شارباً و غير شارب و نائماً و غير نائم و هو محال لإستحالة إجتماع النّقيضين و إن تركهما معاً يلزم إرتفاع النَّقيضين و هو الإتيان بالفعل و عدمه و هو أيضاً محال فلا محالة يفعل أو لا يفعل و هو دليل على أنّ المؤثّر واحد لوحدة الأثر فالقلب واحد و هو المطلوب فثبت و تحقّق أن وجود القلبين في إنسانٍ واحد من المستحيلات العقلّية و لذلك قال تعالى ما قال هذا ما خطر بالبال في المقام و اللّه أعلم.

الأمر الثّانى: في تفسير قوله: **وَ مَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ** هذا الحكم يتعلّق بالظّهار و عن القاموس هو قول الرّجل لإمرأته أنت عليّ كظهر أمّي، و هو أي تعريف القاموس موافق لتعريف الظّهار شرعاً أو قريب منه لأنّ الّذي يظهر من الرّوايات أنّه تشبيه منكوحه مطلقاً دائماً أو منقطعاً أو بملك يمين و إن كانت في العدّة الرّجعية، بظهر أمّه أو بظهر رَحم نسباً أو رضاعاً على ما فصّل فى الكتب الفقهيّة ثمّ أنّ الظّهار لا يتحقّق علىٰ مذهب أهل البيت إلاّ بشرائطه من حضور الشّاهدين و كون المرأة طاهراً.

قال أبوجعفر عليه السلام لا يكون ظهار إلاّ على طهرٍ من غير جماع بشهادة عدلين مسلمين و بالجملة يشترط في الظّهار ما يشترط في الطّلاق، و أمّا على مسلك العامّة فليس كذلك بل يقع بالقول فقط.

قال قتادة إذا قال الرّجل لزوجته أنت علّي كظهر أمّي فهو مظاهر و عليه الكفّارة و عند الشّيعة أنّ الظّهار لا يقع إلاّ أن تكون المرأة طاهراً و لم يقربها في ذلك الطُّهر بجماع و يحضر شاهدان رجلان مسلمان ثمّ يقول الرّجل لزوجته أنت علّي كظهر أمّي، و يقصد التّحريم فإذا قال ذلك حرَّم عليه و حرمت عليه أن يطأها حتّى يكفّر و أن إختلّ شيءٌ من شرائطه فلا يقع إظهار أصلاً و تفصيل الكلام في الفقه و الّذي أشار اللّه تعالى به في هذه الآية هو أنّ بعد تحقق الظّهار و تشبيه الزّوج زوجته بأمّه هل تصير الزّوجة بمنزلة الأمّ له بمعنى ترتّب أحكام الأمّ عليها أم لا فحكم اللّه تعالى بعدم كونهنّ من الأمّهات واقعاً و لذلك يجوز نكاحها بعد الكفّارة و محصّل الكلام هو أنّ تشبيه شيءٍ بشيءٍ آخر ليس معناه أنّه هو بعينه حتّى يترتّب جميع أحكام المشّبه به على المشّبه و سيأتي الكلام في ذلك عند قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُمْ مِن نِسَآئِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓئِي وَلَدْنَهُمْ[1].

الأمر الثّالث: في تفسير قوله **وَ مَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ** أدعياء جمع دعي و هو فعيل بمعنى مفعول أي مدّعو، و هو الّذي يدعى ولداً و ليس بولدٍ حقّاً بل يؤخذ بمنزلة الإبن فلا يكون الرّجل الواحد دعيّاً لرجلٍ و إبناً له لأنّ الإبن هو المعروف في النّسب و الدَّعي اللاّصق في التّسمية لا غير و لا يجتمع في شيءٍ أصيلٍ و غير أصيل، و لذلك قال تعالى **ذَٰلِكُمْ** أي قولكم في الدَّعي أنّه إبنُ الرّجل هو قولٌ تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له عند اللّه.

١- المُجادلة = ٢

قال المفسّرون نزلت الآية فى زيد بن حارثة و كان زيد فيما روى أنس بن مالك و غيره مسَّبياً من الشّام سبَّته خيل من تهامة فإبتاعه حكيم بن حزام بن خويلد فوهبه لعمّته خديجة فوهبته خديجة للنّبي صلى الله عليه و آله و سلم فأعتقه النّبي و تبَّناه فأقام زيد عنده مدّة ثمّ جاء عمّه و أبوه يرغبان في فداءه فقال لهما النّبي صلى الله عليه و آله و سلم و ذلك قبل البعث خيَّراه فأن إختاركما فهو لكما دون فداء فإختار الرّق مع رسول اللّه على حريّته و قومه فقال رسول اللّه عند ذلك يا معشر قريش أشهدوا أنّه إبني يرثني و أرثه و كان يطوف على حلق قريش يشهدهم على ذلك فرضي ذلك عمّه و أبوه و إنصرفا و لذلك كانوا يقولون زيد بن محمّد، و كان أبوه بالشّام لمّا سبي زيد و لم يظفر بحياته أو مماته يدور الشّام و يقول:

بكيت على زيدٍ و لم أدر ما فعل أحيٌّ فيرجى أم أتى دونه الأجل

فو اللّه لا أدري و إنّي لسائلُ أغالك بعدي السَّهل أم غالك الجبل

فيا ليت شعري هل لك الدَّهر أوبة فحسبي من الدّنيا رجوعك لي بجّل

تذّكر منه الشّمس عند طلوعها و تعرض ذكراه إذا غربها أفل

وإن هبَّت الأرياح هيَّجن ذكره فيا طول ما حزني عليه و ما وجل

سأعمل نصّ العيس فىالأرض جاهداً ولا أسأم التَّطواف أو تسأم الإبل

حياتي أو تأتي علَّي منيّتي فكلّ إمرؤٍ فانٍ وأن غرَّه الأمل

فلمّا نزّلت الآية كانوا يقولون زيد بن حارثة و زيد هذا قتل في غزوة موتة و كان أميراً عليهم و قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قتل زيد فجعفر بن أبي طالب و أن قتل جعفر فعبد اللّه بن رواحة و قيل كان جعفر أميراً عليهم و كيف كان قتل زيد و جعفر و عبد اللّه بن رواحة رحمة اللّه عليهم أجمعين فأنظر إلى السّعادة في الدّنيا و الأخرة فإذا أراد اللّه بعيدٍ خيراً هيّأ له أسبابه اللّهم أجعل عاقبة أمرنا خيراً بمحمّدٍ و أله الطّاهرين.

الأمر الثّالث: قوله تعالىٰ **وَ ٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ** أمّا أنّ اللّه يقول الحقّ فلأنّه تعالى حقٌّ بقول مطلق و لا حقّ حقيقةً إلاّ هو و ذلك لأنّ الحقّ يقال للموجود الّذي لا يتغيّر و لا يتبدّل و ليس كذلك غيره تعالى و قيل الحقّ هو الموجود الّذي لا سبيل للبطلان إليه، و هو لا يكون غيره تعالى و من المعلوم أنّ الحقّ لا يقول إلاّ حقّاً كما أنّ الباطل لا يقول إلاّ باطلاً و قال قوم أنّ الحقّ في القول ما يطابق المخبر عنه و معنى المطابقة صدق الكلام فلو فرضنا أنّ اللّه تعالى لا يقول الحقّ فلا محالة يقول باطلاً لعدم الواسطة بين الحقّ و الباطل و لا نعني بالباطل في الأخبار إلاّ الكذب لعدم المطابقة و لا كذب قبيح عقلاً و اللّه تعالى منّزهٌ عنه مضافاً إلى أنّ الكاذب لا يعتمد عليه و من أصدق من اللّه قيلاً، و أمّا أنّه تعالى يهدي السَّبيل يعني يهدي الى طريق الحقّ الّذي يفضي بكم الى الثّواب ففي الكلام إشارة الى أنّ ما ذكره في الآية و غيرها حقّ ليس بباطلٍ و هو ظاهر.

ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَ مَوَٰلِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَ لَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا

لمّا بيَّن اللّه تعالى في الآية السّابقة حكم الظّهار و الأدعياء و أشار في آخر الآية أنّ اللّه يقول الحقّ فلقائلٍ أن يقول فما نقول في الأدعياء و المظاهرات، فقال تعالى: **ٱدْعُوهُمْ** أي الأدعياء لأباءهم فقولوا، زيد بن حارثة مثلاً و لا تقولوا زيد بن محمّد هو أي هذا الإنتساب أقسط و أعدل عند اللّه لأنّ العدل وضع الشّئ في محلّه هذا إذا علمتم آباءهم فأن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدّين أي في الملّة فأدعوهم بذلك فقولوا، يا أخي، مثلاً فأنّ المؤمنين أخوّة.

ثمّ قال تعالىٰ: **وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ** و بأس، **فِيمَآ أَخْطَأْتُمْ**، فأنّ الإنسان محلّ الخطأ و النّسيان، **وَ لَٰكِنْ** البأس، فيما تعمّدت قلوبكم، فأنّ العقاب و الوزر مترتّبٌ على العمد، **وَ كَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**، يغفر الذّنب و يرحم العبد.

و أعلم أنّ اللّه تعالى بيَّن حكم الأدعياء في هذه الآية و قال: **ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ**، ولم يبيّن حكم النّساء المظاهرات في الخطاب بل بيَّنها في سورة المجادلة، و بيَّن هناك حكم المظاهرات:

قال اللّه تعالى: **ٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَآئِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓئِي وَلَدْنَهُمْ**[1].

و سيأتي الكلام فيها إن شاء اللّه في محلّها، و الّذي يخطر بالبال أنّ المناسب ذكرها بعد هذه الآية الّتي نبحث فيها لا في سورة المجادلة، و لا يبعد أن يكون الفصل بين الأيتين لمصلحةٍ لا علم لنا بها أو أنّه وقع ممّن جمع القرآن في صدر الإسلام و ذلك لما ثبت عقلاً و نقلاً أنّ ترتيب الأيات في المصاحف الموجودة ليس على ترتيب النزّول و ما نحن فيه من هذا القبيل و للبحث فيه مقام آخر.

ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَاتُهُمْ وَ أُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُهَاجِرِينَ إِلَّآ أَنْ تَفْعَلُوٓا إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُورًا

إعلم أنّ كلمة، أولىٰ، أفعل التّفضيل من الولاية قال في المفردات الولاية النُّصرة، و الولاية توّلي الأمر و قيل الولاية و الولاية نحو الدلاّلة و الدَّلالة و حقيقته توّلي الأمر و قال في المجمع الولاية النُّصرة و بالكسرة الإمارة و قد

١- المجادلة = ٢

يقال هما لغتان بمعنى الدَّولة، و في النهاية هي بالفتح المحبّة و بالكسر التولّية و السلطان و لّي أمر الرّعية و قال أيضاً في المفردات كلّ من ولي أمر الأخر فهو وليّه يقال فلان أولى بكذا أي أحرى إنتهى.

إذا عرفت معنى الوّلي و الولاية فقد عرفت معنى الأولى أيضاً فقوله تعالى النّبي أولى بالمؤمنين يعني أحرى و أليق بهم في جميع التّصرفات و بعبارة أخرى هو أحرى بكونه متوليّاً لأمورهم.

قال صاحب الكشّاف النّبي أولى بالمؤمنين، في كلّ شئٍ من أمور الدّين و الدُّنيا من أنفسهم، و لهذا أطلق و لم يقيّد فيجب أن يكون اليهم أحبّ من أنفسهم و حكمه أنفذ عليهم من حكمها و حقّه آثر لديهم من حقوقها و شفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها و أن يبذلوها دونه و يجعلوها فداءه إذا أعضل خطب و و قاءه إذا لفحت حرب، و أن لا يتبعوا ما تدعوهم اليه نفوسهم و لا ما تصرفهم عنه و يتبعوا كلّ ما دعاهم اليه رسول اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و صرفهم عنه لأنّ كلّ ما دعاهم اليه فهو إرشاد لهم الىٰ نيل النّجاة و الظَّفر بسعادة الدّارين و ساق الكلام الىٰ أن قال أو هو أولى بهم على معنى أنّه أرأف بهم و أعطف عليهم و أنفع لهم كقوله تعالىٰ: **بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**[1] و عن النّبي: **ما من مؤمنٍ إلاّ أنا أولىٰ به في الدُّنيا والأخرة إقرأوا إن شئتم، النّبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم**، إنتهىٰ الحاجة من كلامه.

و قال الشّيخ في التبيّان في قوله تعالىٰ: **ٱلنَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** يعني أحقّ بتدبيرهم وأن يختاروا ما دعاهم اليه و أحقّ بأن يحكم فيهم لا يحكم به الواحد في نفسه لوجوب طاعته الّتي هي مقرونة بطاعة اللّه و هو أولى في ذلك و أحقّ من نفس الإنسان لأنّها ربّما دعته الىٰ إتّباع الهوىٰ و لأنّ النّبي لا يدعوا إلاّ الىٰ طاعة اللّه و طاعة اللّه أولىٰ أن تختار علىٰ طاعة غيره

١- التوبة = ١٢٨

و واحد الأنفس نفس و هي خاصّة الحيوان الحساسّة المدركة الّتي هي أنفس ما فيه و يحتمل أن يكون إشتقاقه من التنفُّس و هو التروُّح لأنّ من شأنه التنفس و به يحتمل أن يكون مأخوذاً من النّفاسة لأنّها أجلّ ما فيه و أكرمه إنتهىٰ كلامه.

أقُول أنّما نقلنا تفسير هذين العلمين أعني بهما الزّمخشري و هو من أعيان العامّة و المقتدى لغيره في تفاسيرهم، و صاحب التّبيان و هو من أعيان الشّيعة بلاكلام، لتعلم أنّهما و أتباعهما من المفسّرين لم يبيّنوا في تفاسيرهم أنّ الأولويّة في قوله تعالىٰ: **اَلنَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** في أيّ شئٍ هي ثابتة للنّبي هل هي ثابتة له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في جميع الأمور في دينهم و دنياهم أو في أحدهما و هل هي في الأحكام الشّرعية أو في الأموال والأولاد و الأنفس و الّذي يظهر من كلامهم أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أولى بهم في الجميع.

ألا ترى أنّ صاحب الكشّاف قال في أوّل كلامه أنّ النّبي أولى بالمؤمنين في كلّ شئٍ من أمور الدّين والدّنيا من أنفسهم و لذا أطلق و لم يقيّد، فهذا الكلام منه صريح في أنّ الأولويّة ثابتة له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بقولٍ مطلق من غير إستثناء فيه و هكذا قول الشّيخ قدّس سرّه حيث قال و هو أولى في ذلك و أحقّ من نفس الإنسان لأنّها ربّما دعته إلى إتّباع الهوى إلىٰ أخر ما قال فكلامه هذا أيضاً ظاهر في أنّ الأولَّوية ثابتة له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في الجميع و تبعهما علىٰ ذلك جميع المفسّرين و هذا كلام مجمل يحتاج إلىٰ التّوضيح فأنّ ما ذكروه من تفسير اللّفظ دون المعنى و حيث أنّ الموضوع من أهمّ المسائل في باب الأولوية بل هو الأصل فيها فلابدّ لنا من التكلّم فيه بقدر الإستطاعة فنقول:

التصرّف في أمور المؤمنين يتصوّر علىٰ قسمين:

أحدهما: التصرّف في أمورهم من جهة الدّين.

الثّاني: من جهة الدّنيا أمّا الأوّل فلاكلام لنا فيه و ذلك لأنّ الدّين و ما يتعلّق به من الأحكام يؤخذ من النّبي قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ اٰتٰيكُمُ اَلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا**

نَهيٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا[١] فهذه الآية و أمثالها مصرّحة بأنّ الدّين لا يؤخذ إلاّ من النّبي و لذلك أمرنا اللّه بإتّباعه بقولٍ مطلق و هذا ممّا لا كلام فيه لأحدٍ من المسلمين فلا حكم فيه إلاّ حكمه و لا رأي إلاّ رأيه و لا إختيار فيه لأحدٍ إلاّ إختياره و لا نعني بالأولويّة إلاّ هذا بل الحقّ الثّابت للرّسُول في أمر الدّين و تبليغه فوق الأولويّة بمعنى أنّ الحكم في الدّين و أحكامه منحصرٌ بالنّبي و لا يجوز لأحَدٍ ردّه فكون النّبي أولى بالتّصرف في دينهم ممّا لا خلاف فيه و على هذا فأن كان المراد بالأولَّوية في الآية الشّريفة هو هذا فلا كلام لأحدٍ فيه.

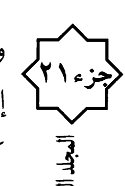
و أمّا بناءً على التّعميم و هو ثبوتها في أمر الدّين والدّنيا معاً كما هو الظّاهر من عباراتهم وكلماتهم فالأمر مشكل لأنّه يوجب سلب الإختيار الثّابت لهم عقلاً و شرعاً و هو كما ترى لا يساعد القواعد الشّرعية الثّابتة في الكتاب و السُّنة بأصل الشّرع، مثل قوله: **النّاس مُسلّطون علىٰ أموالهم وأنَفسهم**، و قوله: **لا يحلّ مال إمرؤٍ إلاّ بطيب نفسه**، و قوله: **لا يجوز التّصرف في مال الغير بدون إذن صاحبه**، و قوله: **الطّلاق بيد من أخذ بالسّاق**، و قوله: **البّيعان بالخيار مالم يفترنا فإذا إفترقا وجب البيع أو لزم البيع** و أمثال ذلك من القواعد الكلّية و علىٰ هذا فإذا فرضنا أنّ الأولويّة مطلقة فيجوز للنّبي أن يبيع دار زيد من باب الأولويّة و إن كان زيد مخالفاً و هكذا يجوز للنّبي أنواع التّصرف في أموال النّاس بغير إجازة صاحبه حتّىٰ مع عدم إطّلاعه و هكذا أن يطلّق إمرأته بدون رضاه و هكذا و هكذا نعم يجوز ذلك كلّه مع تجويز الشّرع و هذا ممّا لا كلام فيه و حاصل الإشكال أنّ أعمال الأولويّة في الأمور الدنيويّة أن كان على أساس الشّرع فهو داخل في الأولويّة في أمر الدّين و هو ممّا إلتزمنا به و أن كان الأعمال مع قطع النّظر عن الشّرع بل لأنّه أولى بهم من أنفسهم، فهو داخل في الأولويّة في أمور الدُّنيوية و هو محتاج إلى الإثبات.

١- الحَشر = ٧

و السّر في ذلك أنّ الأولويّة نشأت من الولاية فمن لا ولاية له على غيره لا أولويّة له فالولاية هي الأصل في الباب و الأولويّة فرعٌ عليها و الفرع يدور مدار الأصل وجوداً و عدماً و هذا ممّا لا خلاف فيه عقلاً ونقلاً و عرفاً وسعةً و ضيقاً فإذا كانت الولاية مطلقة فالأولويّة كذلك و بالعكس بالعكس و من المعلوم أنّ الولاية المطلقة لم تثبت إلاّ للّه تعالى لأنّه خالق الكلّ و العبد و ما في يده كان لمولاه فله التصرّف في خلقه كيف يشاء و في جميع شئونهم حتّى في أنفسهم و إثبات الولاية كذلك لغير الخالق كائناً من كان مشكل بل محال لأنّها من شئون الخالقيّة و الإيجاد و نعبّر عنها بالولاية الذّاتية و أمّا الولاية الثّابتة لغيره تعالى من الأنبياء و الأوصياء والأباء فهي العرضيّة و أن شئت قلت تبعيَّة فلا يعقل أن تكون مطلقة لأنّها ليست ذاتيّة بل هي من إعطاء الغير و هو اللّه تعالىٰ و ما كان كذلك كيف يكون ذاتيّاً فهي تابعة لمن أعطاها و حيث أنّ الموضوع أعني به مسألة الولاية من أهمّ المسائل فلابدّ لنا توضيحه بحسب إقتضاء المقام فنقول:

الولاية علىٰ قسمين، ذاتيّة و عرضيّة و إن شئت قلت تبعيّة، و ذلك لأنّ الولاية على الغير إمّا تكون ناشئة من مقام الذّات أي ذات الولي و إمّا من إعطاء الغير إيّاه والأوّل هو ولاية اللّه على خلقه لأنّها نشأت من مقام الخالقيّة و نُعبّر عنها بالذّاتية.

و القسم الثّاني: هو ولاية الغير و هي تبعيّة عرضّية لأنّ اللّه أعطاها لمن شاء و أراد فالولاية له تعالى ذاتيّة ولغيره تبعيّة كائناً من كان فلا ولاية أوّلاً وبالذّات إلاّ للخالق الموجد بقولٍ مطلق فهو أولى بأمور الخلق في دينهم و دنياهم هذا كلّه بحسب العقل و يمكن أن يستدلّ عليه بالنّقل أيضاً.



قال اللّه تعالىٰ: **ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ**[١].

١- البقرة = ٢٥٧

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **مَا لَكَ مِنَ ٱللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا وَاقٍ**[3].

و الأيات كثيرة و دلالتها على المدّعى واضحة فأنّ اللّه تعالى أثبت الولاية في هذه الأيات و أمثالها لنفسه فهذه هي الولاية الذّاتية.

و أمّا التبعيّة.

فمنها قوله تعالىٰ: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا**[4] أثبَت اللّه في هذه الآية لنفسه الولاية أوّلاً فقال علىٰ وجه الحصر أنّما ولّيكم اللّه، و أثبتها لرسوله ثانياً بقوله: **وَ رَسُولُهُ**، ولوصّيه ثالثاً به قوله: **وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُو**.

فتحصّل ممّا ذكرناه أنّ الولاية الكلّية المطلقة مختصّة باللّه تعالىٰ و هي التّي تجري في أمر الدّين والدّنيا.

و أمّا التّي تثبت للرّسول و الوّصي فهي مقيّدة لا مطلقة فكيف تعمّ أمر الدّين و الدُّنيا.

إن قلت أن كانت الولاية في غير اللّه مقيّدة فما معنىٰ تقييدها.

قلتُ مقيّدة بأمر الدّين فقط و أمّا أمر الدُّنيا فإجراء الولاية فيه منوطٌ باجازة الدّين فأن أجاز الّدين فهو و أن لم يجز فلا، عملاً بالأصل المستفاد من قوله: **النّاس مُسلّطون علىٰ أموالهم وأنَفسهم** خرج منه ما خرج و بقى الباقي تحت الأصل هذا ما فهمناه من الآية واللّه أعلم بما قال.

أن قُلت فما معنى قوله في الأية: **مِنْ أَنْفُسِهِمْ**.

قُلت معناه أنّ حفظ نفس النّبي أولى من حِفظ نفسه فيما إذا دار الأمر بينهما و ذلك لأنّ المكّلف لا يجب بل لا يجوز له أن يفدى نفسه لغيره فأنّ حفظ

١- البقرة = ١٠٧
٢- التّوبة = ٧۴
٣- الرّعد = ٣٧
۴- المائدة = ۵۵

النّفس واجب عليه إلاّ أن يكون الغير نبيّاً أو وصيّاً فيجب عليه أن يفدى نفسه لنفسه لأنّ نفس النّبي والوصّي أشرف من نفسه و من المعلوم أنّ الأخسّ دائماً يكون فداءً للأشرف ولا عكس ألا ترى أنّ الجماد فداء للنبات و النَّبات للحيوان و الحيوان للإنسان و الإنسان للإنسان الكامل فالحكم بكون النّبي أولى من أنفسهم مطابق لقاعدة إمكان الأشرف عقلاً فكذلك شرعاً و هذا الحكم لا ربط له بما ذكروه في معنى الآية من الأولويّة في أمر الدّين و الدُّنيا و ليست الآية بصدد بيان هذا الموضوع بل الآية بصدد بيان الأولويّة في حفظ النُّفوس فتعميم الأولويّة يحتاج الىٰ الدّليل في غير ما ذكرناه و أنمّا خصّ الحكم بالمؤمنين لأنّ من لم يؤمن باللّه و رسوله لا يترقّب هذا منه لأنّه غير مكلّف به بل لعدم قبوله الأصل و هو النُّبوة.

أمّا قوله تعالىٰ: **وَ أَزْوٰاجُهُ أُمَّهٰاتُهُمْ** فالمعنىٰ أنّهن كالأمّهات في الحرمة و تحريم العقد عليهنّ بعد موت الرّسول لا مُطلقا، شرَّف اللّه تعالىٰ أزواج نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم بأن جعلهنّ أمّهات المؤمنين في وجوب التّعظيم و المَبرّة والإجلال و حرمة النّكاح على الرّجال و حجبهنّ عنهم بخلاف الأمّهات و كيف كان فهذه الأمور لا توجب ميراثاً كالأمومة في التّبني و لذلك جاز تزويج بناتهّن، و لا يجعلن أخوات للنّاس و الحاصل أنّ جميع آثار الأمومة لا يترتّب على الحكم بكونّهن أمّهات والوجه في ذلك أنهنّ لسن من الأمّهات حقيقةً بل إطلاق الأمّ على كلّ واحدةٍ منهنّ على سبيل المجاز و أن شئت قلت أنهنّ بمنزلة الأمّهات فيما ذكرناه لا مطلقاً و أمّا البحث في أنّ هذا الحكم يشمل النّساء أيضاً أو هو مختصّ بالرّجال فقط بمعنى أنهنّ أمّهات الرّجال و النّساء جميعاً أم أمّهات الرّجال خاصّة فلا فائدة فيه و ذلك لأنّ قوله: **أُمَّهٰاتُهُمْ**، يدلّ على العموم لأنّ الخطاب للمؤمنين و المؤمن يشمل الرّجل و المرأة لثبوت التّكليف في حقّهما و لا نحتاج في إثبات الحكم الى حديث أبي هريرة و

أمثاله لوضوحه و قوله: **وَ أُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُهَاجِرِينَ** قيل المراد بأُولي الأرحام هو أولوا الأنساب لما ذكر اللّه أنّ أزواج النّبيأمهّاتهم في الحكم من جهة عظم الحرمة إلاّ ما بيّن اللّه في كتابه ممّا لا يجوز لأزواج النّبي أن يدعين أمهّات المؤمنين.

و قال قتادة كان النّاس يتوارثون بالهجرة فلا يرث الأعرابي المسلم المهاجر حتى نزلت الآية و قيل أنّهم كانوا يتوارثون بالموافاة الأولى ثمّ نسخ ذلك فبيّن اللّه أنّ أولي الأرحام بعضهم أولىٰ ببعضٍ أي من كان أقرب فهو أحقّ بالميراث من الأبعد، و قيل أنّه أراد بالمؤمنين الأنصار و بالمهاجرين قريشاً و فيه قولان:

أحدهما: أنّه ناسخ للتّوارث بالهجرة و ذلك لما نزل في سورة الأنفال حيث قال: **ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا**[1] فتوارث المسلمون بالهجرة ثمّ نسخ ذلك بقوله و أولوا الأرحام بعضهم أولىٰ ببعض في كتاب اللّه.

الثّاني: أنّ ذلك ناسخ للتّوارث بالحلف و المؤاخاة في الدّين و قد روي عن الزُّبير أنّه قال إنّا معشر قريش لمّا قدمنا المدينة قدمنا و لا أموال لنا فوجدنا الأنصار نعم الأخوان فآخيناهم فأورثونا و أورثناهم فآخى أبوبكر خارجة بن زيد و آخيت أنا كعب بن مالك فجئت فوجدت السّلاح قد أثقله فواللّه لقد مات عن الدُّنيا ما ورثه غيري حتّى أنزل اللّه هذه الآية فرجعنا الى موارثنا و ثبت من عروة أنّ رسول اللّه آخى بين الزُّبير و كعب بن مالك و كان الأمر على هذا المنوال حتّى نزلت قوله و أولوا الأرحام الآية فبيّن اللّه تعالىٰ أنّ القرابة أولى من الحلف فتركت الوراثة بالحلف و ورثوا بالقرابة و لذلك إستدلّت فاطمة الزّهراء في الخِطبة الّتي خطبت بها في مسجد النّبي في مجمع المهاجرين و الأنصار إلاّ أنّهم لم يقبلوا قولها بل أنكروه و ضيّعوا بذلك حقّها

١- الأنفال = ٧٢

لأنّهم إنقلبوا علىٰ أعقابهم و من ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّه شيئاً **وَ سَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ، إِنَّا لِلّٰهِ وَ إِنَّآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ.**

وقوله: **إِلَّآ أَنْ تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُمْ مَعْرُوفًا كٰانَ ذٰلِكَ فِى ٱلْكِتٰابِ مَسْطُورًا** فالإستثناء منقطع و معناه إلاّ أن تريدوا إحساناً الىٰ أوليـاءكم فـي الحياة والوّصية عند الموت فأنّ ذلك جائز لا بأس به نعم قال بعض الفُقهاء لا يجوز الوّصية للمشرك لقوله تعالىٰ: **لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ**[١] و قـد أجاز كثير من الفقهاء الوّصية للقرابات الكفّار و عندنا أنّ ذلك جائز للوالديـن والولد.

قال الشّيخ في التّبيان و أمّا قوله: **كٰانَ ذٰلِكَ فِى ٱلْكِتٰابِ مَسْطُورًا** فالمراد بالكتاب اللَّوح المحفوظ أثبته اللّه فيه و إطّلع عليه ملائكته لما لهـم فـي ذلك من اللُّطف و قيل هو مسطورٌ في القرآن.

و قال بعض مفسّرين العامّة المـراد بـالكتاب التّوراة، و نـقول خـير الامـور أوسطها.

وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِيثٰاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسٰى وَ عِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنٰا مِنْهُمْ مِيثٰاقًا غَلِيظًا

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه أخذ من النّبيين ميثاقهم و الميثاق العهد و المعنى أخذ منهم عهدهم على الوفاء بما حملّوا و أن يـبشّر بـعضهم ببعضٍ و يصدّق بعضهم بعضاً.

إن قلت قوله تعالىٰ من النّبيين يشمل هؤلاء الخمسة لأنّهم منهم فـما وجـه تخصيصهم بالذّكر.

قُلتُ لعلَّ وجه التّخصيص بيان فضلهم و شرفهم على غـيرهم مـن الأنـبياء لكونهم من أولى العظم وأصحاب الشّرائع و الكتب السّـماوية، و بـهذا البـيان

١- المُمتحنة =١

قدَّم محمّد صلى الله عليه و آله و سلم علىٰ نوح و إبراهيم و موسىٰ و عيسىٰ في الذِّكر مع أنّه صلى الله عليه و آله و سلم آخر الأنبياء في الظّاهر.

و قيل أنّ التَّفضيل ليس من لوازمه التّقديم و لعلّ سرّ تقديمه على نوح و من بعده في الذِّكر هو أنّه المخاطب من بينهم و المنزل عليه هذا المتّلو فكأنّ تقديمه لذلك، و كيف كان فالأمر سهل إذ لا شكّ في كونه صلى الله عليه و آله و سلم أفضل الأنبياء لقوله صلى الله عليه و آله و سلم: **أنا سيّد وُلد آدم و لا فَخر**، و قوله صلى الله عليه و آله و سلم: **آدم ومن دُونه تحت لوائي يوم القيامة** و قد ثبت عقلاً أنّ العلّة الغائية مقدّم في وجودها الذّهني و مؤخّر في وجوده الخارجي وقد ورد فيه صلى الله عليه و آله و سلم: **لولاك لَما خَلَقتُ الإفلاك**، فهو العلّة الغائية لجميع ما سواه و للحبث فيه مقام آخر.

و أعلم أنّ بعض المفسّرين إستفاد من الآية في هذا المقام أنّ السَّبب في نزولها هو بيان أنّ الحكم المذكور في الآية السّابقة أعني به الولاية بين المسلم و الكافر و التّوارث بينهما لم يكن في دين أحدٍ من الأنبياء الّذين أخذ عليهم المواثيق و ليس هو من مختصّات الإسلام واللّه أعلم.

لِيَسْئَلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا

قيل معناه أنّ اللّه تعالىٰ فعل ذلك لِيسأل الصّادقين أعني بهم الأنبياء المرسلين، ما الّذي أجاب به أممكم قال و يجوز أن يحمل على عمومه في كلّ صادق و يكون فيه تهديد للكاذب فأنّ الصّادق إذا سُأل عن صدقه على أيّ وجهٍ قال فيجازي بحسبه فكيف يكون صورة الكاذب ذكر هذا في التّبيان عن مجاهد.

و ذكر بعض المفسّرين في تفسير الآية وجوهاً لا بأس بالإشارة اليها.

أحدها: ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرّسالة الى قومهم قاله النقّاش قال و في هذا تنبيه أي إذا كان الأنبياة يسألون فكيف من سواهم.

الثّاني: ما نقله عن مجاهد وهو الّذي نقلناه عن التّبيان.

الثّالث: ليسأل الأنبياء عليهم السّلام عن الوفاء بالميثاق الّذي أخذه عليهم.

الرّابع: ليسأل الأفواه الصّادقة عن القلوب المخلصة.

أقُول مرجع كلّ الأقوال الىٰ أمرٍ واحد و هو أنّ العبد كائناً من كان مسئول يوم القيامة و هذا ممّا لا شكّ فيه.

يٰٓا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جٰآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهٰا وَ كٰانَ ٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا، إِذْ جٰآءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زٰاغَتِ ٱلْأَبْصٰارُ وَ بَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنٰاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللّٰهِ ٱلظُّنُونَا

أخبر اللّه تعالى في هاتين الأيتين و ما بعدها إلىٰ ما أنعم علىٰ المسلمين في غزوة الأحزاب و قد يسمّى بالخندق سمّيت بالأحزاب لإجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين و هم قريش و غطفان و اليهود و سمّيت بالخندق لأجل الخندق الّذي حفره المسلمون حول المدينة بأمر الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم و إختلفوا في أيّ سنةٍ كانت فقال إبن إسحادق كانت في شوّال من السَّنَة الخامسة بعد الهجرة و قال إبن وهب و إبن القاسم كانت وقعة الخندق في سنة أربع و هي و بنوقريظة في يومٍ واحد و بين بنى قريظة و بني النّضير أربع سِنين و كيف كان فقد أمر رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم بالقتال من المدينة و ذلك لأنّ قريشاً جائت من مكّة و اليهود و النَّجدية من مقّرهما، و سببها أنّ نفراً من اليهود منهم كنانة بن الرّبيع بن أبي الحقيق و سلام إبن أبي الحقيق و سلام بن مثكم و حيّ إبن أخطب النّضريون و هوذة بن قيس و أبو عمّار من بني وائل و هم كلّهم يهود هم الّذين حزَّبوا الأحزاب و ألبوا و جمعوا خرجوا في نفرٍ من بني النَّضير و نفرٍ من بني وائل فأتوا مكّة فدعوا إلى حرب رسول اللّه و و اعدوهم من أنفسهم بعون من إنتدب إلى ذلك فأجابهم أهل مكّة إلىٰ ذلك ثمّ خرج اليهود المذكورون إلى غطفان فدعوهم إلى مثل ذلك فأجابوهم

فخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب و خرجت غطفان و قائدهم عينية بن حصن بن حذيفة بن بَدر الفزاري على فزارة و الحارث بن عوف المرّي على بني مرّة و مسعود بن رخيلة على أشجع، فلمّا سمع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بإجتماعهم و خروجهم شاور أصحابه فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق فرضي رأيه و قال المهاجرون يومئذٍ سلمان مِنّا و قال الأنصار سلمان منّا فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم **سلمان مِنّا أهل البيت** و كان الخندق أوَّل مشهد شهده سلمان مع رسول اللّه و هو يومئذٍ حرّ فقال يا رسول اللّه أنا كنّا بفارس إذا حوصرنا خندقنا فعمل المسلمون في الخندق مجتهدين و نكص المنافقون و جعلوا يتَسللون لواذاً فنزلت منهم أيات من القرأن ذكرها إبن إسحاق و غيره و كان من فزع من المسلمين من حصّة عاد إلى غيره حتّىٰ أكمل الخندق، قالوا لمّا أمر رسول اللّه بحفر الخندق عرضت لهم صخرة حالت بينهم و بين الحفر فقام رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم و أخذ المعول و وضع رداءه ناحية الخندق و قال صلى الله عليه و آله و سلم: **وَ تَمَّتْ كلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا**، فندر ثلث الحجر و سلمان الفارسي قائم ينظر فبرق مع ضربة رسول اللّه برقة ثمّ ضرب الثّانية و قال: **وَ تَمَّتْ كلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا**، فندر الثّلث الأخر فبرقت برقة فرأها سلمان، ثمّ ضرب الثّالثة و قال: **وَ تَمَّتْ كلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا**، فندر الثّلث الباقي و خرج رسُول اللّه و أخذ رداءه و جلس قال سلمان يا رسول اللّه رأيتك حين خرجت، ما تضرب ضربة إلاّ كانت معها برقة قال له رسول اللّه رأيت ذلك يا سلمان فقال أي والّذي بعثك بالحقّ يا رسول اللّه قال صلى الله عليه و آله و سلم فإنّي حين ضربت الضَّربة الأولىٰ رفعت لي مدائن كسرىٰ و ما حولها و مدائن كثيرة رأيتها بعيني قال له من حضره من أصحابه يارسول اللّه أدع اللّه أن يفتحها علينا فدعا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

ثمّ ضربت الضَّربة الثّانية فرفعت لي مدائن قيصر و ما حولها حتّى رأيتها بعيني، قالوا يارسول اللّه أدع اللّه أن يفتحها علينا فدعا رسول اللّه ثمّ ضربت الضَّربة الثّالثة فرفعت لي مدائن الحبشة و ما حولها من القرى حتّى رأيتها

بعيَّني قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عند ذلك دعوا الحبشة ما و دعوكم و أتركوا التّرك ما تركوكم فلمّا فرغ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من حفر الخندق أقبلت قريش في نحو عشرة ألاف بمن معهم من كنانة و أهل تهامة و أقبلت غطفان بمن معها من أهل نجد حتّى نزلوا إلىٰ جانب أحد، خرج رسول اللّه و المسلمون حتّىٰ نزلوا بظهر سلع في ثلاثة ألاف و ضربوا عسكرهم و الخندق بينهم و بين المشركين و إستعمل على المدينة إبن أمّ مكتوم و خرج عدّو اللّه حيّ بن أخطب النَّضري حتّىٰ أتى كعب بن أسد القُرظّي و كان صاحب عقد بني قريظة و رئيسهم و كان قد واعد رسول اللّه و عاقده و عاهده فلمّا سمع كعب بن أسد حيّ إبن أخطب أغلق دونه حصنه و أبى أن يفتح له فقال له حيّ إبن أخطب إفتح لي يا أخي فقال له كعب لا أفتح أنّك رجل مشؤم تدعُوني إلى خلاف محمّد و أنا عاقدته و عاهدته و لم أر منه إلاّ وفاءً و صدقاً فلست بناقضٍ ما بيني وبينه فقال حيّ إفتح لي حتّىٰ أكلّمك فقال لا أفعل فقال حيّ أنّما تخاف أن أكل معك حشيشك فغضب كعب و فَتح له فقال ياكعب أنّما جئتك بعزّ الدّهر جئتك بقريش و سادتها و غطفان و قادتها و قد تعاقدوا علىٰ أنّ يتسأصلوا محمّداً و من معه فقال له كعب جئتني و اللّه بذّل الدّهر و بالجملة أصرَّ حيّ إبن أخطب على كعب حتّى وافقه و عاقده علىٰ خلاف رسول اللّه فأقام رسول اللّه و أقام المشركون بضعاً و عشرين ليلة قريباً من شهر لم يكن بينهم حرب إلاّ الرَّمي بالنَّبل و الحصى فلمّا راىٰ رسول اللّه أنّه إشتدّ علىٰ المسلمين البلاء بعث إلى عينية بن حصن الفزاري و إلى الحارث بن عوف المرّي و هما قائدان غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة لينصرفا بمن معهما من غطفان و يؤخذ قريشاً و رجعا بقومهما عنهم وكانت هذه المقالة مراوضة و لم تكن عقداً فلمّا رأىٰ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم منهما أنّهما قد أنابا و رضيا أتى سعد بن معاذ و سعد بن عبادة فذكر ذلك لهما و إستشارهما فقالا يارسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم هذا أمرٌ تحبّه فنصنعه لك أو شيءٍ أمرك اللّه به فنسمع له و نطيع، أو

أمرٌ تصنعه لنا، فقال رسول اللّه بل أمرٌ أصنعه لكم واللّه ما أصنعه إلاّ إنّي قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدة فقال سعد بن معاذ يارسول اللّه لقد كنّا نحن و هؤلاء القوم على الشّرك باللّه و عبادة الأوثان لا نعبد اللّه و لا نعرفه و ما طمعوا قطّ أن ينالوا منا ثمرة إلاّ شراءً أو قرّي فحين أكرمنا اللّه بالإسلام و هدانا له و أعزّنا بك نعطيهم أموالنا واللّه لا نعطيهم إلاّ السّيف حتّى يحكم اللّه بيننا و بينهم فسَّر رسول اللّه بذلك و قال أنتم و ذاك، و قال لعينية و الحارث انصرفا و ليس لكما عندنا إلاّ السَّيف و تناول سعد الصَّحيفة و ليس فيها شهادة فمحاها، فأقام رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم و المشركون يحاصرونهم و لا قتال بينهم إلاّ أنّ فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدودّ العامري و عكرمة بن أبي جهل و هبيرة بن أبي وهب و ضرار بن الخطّاب الفهّري و كانوا فرسان قريش و شجعانهم أقبلوا حتّىٰ وقفوا فلمّا رأوه قالوا أنّ هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ثمّ إختاروا مكاناً ضيّقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت بهم و جاوزوا الخندق و صاروا بين الخندق و بين سلع و خرج علّي بن أبي طالب في نفرٍ من المسلمين حتّىٰ أخذوا عليهم الثّغرة التّي إقتحموا منها و أقبلت الفرسان نحوهم و كان عمرو بن عبدودّ قد أثبتته الجراح يوم بدر فلم يشهد أحد و أراد يوم الخندق أن يرى مكانه فلمّا وقف هو و خيله نادىٰ من يبارز فبرز له أميرالمؤمنين فقال له عمرو أرجع يابن الأخ فما أحبّ أن أقتلك فقال له علّي عليه السلام قد كنت يا عمرو عاهدت اللّه أن لا يدعوك رجل من قريش إلىٰ أحدىٰ خصلتين إلاّ إخترت إحدايهما قال أجل فما ذاك قال عليه السلام أدعوك إلى اللّه و رسوله و الإسلام قال لا حاجة لي إلىٰ ذلك قال فإنّي أدعوك إلى النزّال فقال إرجع فقد كان بيني و بين أبيك مودّة و خلّة و ما أحبّ أن أقتلك فقال علّي عليه السلام و اللّه إنّي أحبّ أن أقتلك مادمت أبياً للحقّ فحمى عمرو عند ذلك فقال أتقتلني و نزل عن فرسه فعقره و ضرب وجهه نفر و أقبل على علّيٍ مصلتاً بسيفه و بدره بالسّيف فنشب سيفه في ترس عليّ فضربه أميرالمؤمنين ضربة

فقتله فلمّا رأى عكرمة إبن أبي جهل و هبيرة بن أبي وهب و ضرار بن الخطّاب عمرواً صريعاً و لّوا بخيلهم منهزمين حتّىٰ إقتحموا الخندق و لا يلوون إلىٰ شئٍ و إنصرف أميرالمؤمنين إلى مقامه الأوّل و قد كادت نفوس الّذين خرجوا معه الى الخندق تطير جزعاً و هو عليه السلام يقول:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ونصرت دين محمّدٍ بضراب

نازلته فتركته متجدلاً كالجذع بين دكادكٍ و روابي

وعففت عن أثوابه ولو أنّني كنت المقطّر بزّني أثوابي

لا تحسبنّ اللّه خاذل دينه ونَبيَّه يامعشر الأحزاب

و قد روي الواقدي بأسناده عن الزُّهري قال جاء عمرو بن عبدودّ و عكرمة ابن أبي جهل و هبيرة بن أبي وهب و نوفل بن عبد اللّه و ضرار بن الخطّاب يوم الأحزاب إلىٰ الخندق فجعلوا يطوفون به يطلبون مضيقاً منه فيعبرون حتّىٰ إنتهوا إلىٰ مكان أكرهوا خيولهم فيه فعبرت فجعلوا يجيلون خيولهم فيما بين الخندق و سلم المسلمون وقوف لا يقدم منهم أحدٌ و جعل عمرو بن عبدودّ يدعوا إلى البراز و يعرض المسلمين، ولد بحجت من النّداء بجمعهم هل من مبارزٍ، و في كلّ ذلك يقوم عليّ بن أبي طالب عليه السلام ليبارزه فيأمره رسول اللّه بالجلوس إنتظاراً منه ليتحرّك غيره و المسلمون كأنّ على رؤوسهم الطّير لمكان عمرو بن عبدودّ و الخوف منه و ممّن معه فلمّا طال نداء عمرو بالبراز و تتابع قيام أميرالمؤمنين قال له رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أدن منّي يا عليّ فدنا منه فنزع عمامته من رأسه و عمّمه بها و أعطاه سيفه و قال صلى الله عليه وآله وسلم إمض لشأنك ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم اللّهم أعنه فسعا نحو عمرو و معه جابر بن عبد اللّه الأنصاري لينظره ما يكون منه و من عمرو فلمّا إنتهىٰ عليّ عليه السلام إليه قال له يا عمرو أنّك كنت في الجاهليّة تقول لا يدعوني أحَد إلىٰ ثلاث و اللاّت و العزّىٰ إلاّ قبلتها أو واحدة منها قال عمرو أجل قال عليه السلام فإنّي أدعوك إلىٰ شهادة أن لا إله إلاّ اللّه و أنّ محمّداً رسول اللّه و أن تسلم لربّ العالمين قال عمرو يابن أخي أخرّ هذه

عنّي فقال له عليه السلام أما أنّه خيرٌ لك لو أخذت بها ثمّ قال عليه السلام فهاهنا أخرى قال و ما هي قال عليه السلام ترجع من حيث جئت قال لا تحدّث نساء قريش هذا أبداً قال عليه السلام فهاهنا أخرى قال و ما هي قال تنزل فتقاتلني فضحك عمرو و قال هذه الخصلة ما كنت أظنّ أنّ أحداً من العرب يرونني عليها أنّي لاكره أن أقتل الرّجل الكريم مثلك و قد كان أبوك لي نديماً قال عليّ عليه السلام لكنّي أحبّ أن أقتلك فأنزل إن شئت فأسف عمرو و نزل و ضرب وجه فرسه حتّىٰ رجع فقال جابر رحمة اللّه فثارت بينهما قترة فما رأيتهما فسمعت التّكبير تحتها فعلمت أنّ عليّاً قد قتله فإنكشف أصحابه حتّى ظفرت خيولهم الخندق و تبادر أصحاب النّبي حين سمعوا التّكبير ينظرون ما صنع القوم فوجدوا نوفل بن عبد اللّه في جوف الخندق لم ينهض به فرسه فجعلوا يرمونه بالحجارة فقال لهم قتلة أجمل من هذه ينزل إلّي بعضكم أقاتله فنزّل إليه أميرالمؤمنين فضربه حتّىٰ قتله و لحق عبيرة فأعجزه و ضرب قربوس سرجه و سقطت درعٌ كانت له وفرَّ عرمة و هرب ضرار بن الخطّاب فقال جابر فما شبّهت قتل علّي عمرواً إلاّ بما قصّ اللّه من قصّة قتل داود جالوت حيث يقول: **فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ ٱللّٰهِ وَ قَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ**(١) وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **ضربة علّيٍ يوم الخندق أفضل من عبادة الثّقلين.**

و قد روي قيس إبن الرّبيع قال حدَّثنا أبو هروان العبدي عن ربيعة السّعدي قال أتيت حذيفة بن اليمان فقلت له يا أبا عبد اللّه إنّا لنتحدّث عن علّيٍ و مناقبه فيقول لنا أهل البصرة أنّكم تفرطون في علّيٍ فهل أنت محدّثي بحديثٍ فيه فقال حذيفة يا ربيعة و ما تسألني عن علّيٍ عليه السلام فوالّذي نفسي بيده لو وضع جميع أعمال أصحاب محمّدٍ فيٍ كفّة الميزان منذ بعث اللّه محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم القيامة و وضع عمل علّيٍ في الكفّة الأخرىٰ لرجّح عمل علّيٍ علىٰ جميع أعمالهم فقال ربيعة هذا الّذي لا يقام له و لا يقعد و لا

١- البقرة = ٢٥١

يحمل فقال حذيفة يالكع و كيف لا يحمل و أين كان أبوبكر و عمر و حذيفة و جميع أصحاب محمّد يوم عمرو بن عبدود و قد دعا إلىٰ المبارزة فأحجم النّاس كلّهم ما خلا عليّاً فأنّه برز إليه و قلته اللّه علىٰ يده والذّي نفس حذيفة بيده لعمله ذلك أعظم أجراً من عمل أصحاب محمّد إلىٰ يوم القيامة.

و قد روى هشام بن محمّد عن معروف بن جربوز قال قال علّي بن أبى طالب يوم الخندق:

أعلّي تقتحم الفوارس هكذا   عنّي وعنها خبّروا أصحابي
اليوم يمنعني الفرار حفيظتي   ومصمّمٌ في الرّأس ليس ببابي
أرديت عمرواً إذ طغى بمهنّدٍ   صافي الحديد مجرّبُ قرضابي

و روى يونس إبن بُكير عن محمّد بن إسحاق قال لمّا قتل علّي بن أبي طالب عمرواً أقبل نحو رسول اللّه و وجهه يتهلّل فقال له عمر بن الخطّاب هلاّ سلبته يا علّي درعه فأنّه ليس في العرب درعٌ مثلها فقال عليٌّ عليه السلام أنّي إستحييت أن أكشف عورته (سُوءته). و روي أنّه لما إجتّز رأسه فحمله و ألقاه بين يدي النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فقام أبوبكر و عمر فقبّلا رأس علّي عليه السلام و لنعم ما قال أبو بكر بن عياش حيث قال لقد ضَرب عليٌّ ضربةٌ ما كانً في الإسلام أعزّ منها يعني ضربة عمرو بن عبدودّ و لقد ضرب عليٌّ ضربة ما ضرب في الإسلام أشأم منها يعني ضربة إبن ملجم لعنة اللّه عليه.

و لقد روى يوسف بن كليب بأسناده عن عبد اللّه بن مسعُود أنّه كان يقرأ و كفى اللّه المؤمنين القتال بعلّيٍ و كان اللّه قوّياً عزيزاً و في قتل عمرو بن عَبدودّ يقول حسّان إبن ثابت الأنصاريِ:

أمسى الفتىٰ عمرو بن عبد يبتغي   بجنوب يثرب غارةً لم تنظر
ولقد وجدت سيوفنا مشهورةً   ولقد وجدت جيادنا لم تقصر
ولقد رأيت غداة بدرٍ عصبةً   ضربوك ضرباً غير ضرب المخسِر
أصبحت لا تدعىٰ ليوم عظيمةٍ   ياعمرو أو لجسيم أمرٍ منكرٍ

فلمّا قال حسّان هذه الأشعار في مدح الأنصار و لم يذكر من علّيٍ شيئاً و أنّه قتل عمرواً وهو من المهاجرين قال فتىً مِن الأحزاب في جوابه:

كـذبتم وبـيت اللّـه لا تـقتلوننا	ولكـن بسـيف الهـاشميّين فأفـخروا
بسيف إبن عبد اللّه أحمد في الوغا	بكـفّ عـلّيٍ نـلتم ذاك فـإقصروا
ولم تقتلوا عمرو بـن عـبدٍ بـبأسكم	ولكـنّه الكـفوء الهـزبر الغـضيفر
علّي الّـذي فـي الفـخر طـال ثـنائه	ولا تكثروا الدّعوىٰ علينا فـتحقروا
بـبدرٍ خـرجـتم للـبراز فـرّدكم	شـيوخ قـريشٍ جـهرةً و تأخّـروا
فـلمّا أتـاهم حـمزةُ و عـبيدةُ	وجـاء عـلّيٌ بـالمهنّد يـخطروا
فـقالوا نـعم أكـفاء صِـدق فأقبلُوا	إليـهم سـراعـاً إذ بـغوا وتـجبّروا
فـجال عـلّيٌ جـولةً هـاشمّيةً	و دمّـرهم لمّـا عـتوا وتكـبّروا
فـليس لكـم فـخرُ عـلينا بـغيرنا	وليس لكـم فـخرُ يـعدّ و يـذكر

و قد روى عبد العزيز بأسناده عن أبي الحسن المدائني أنّه قال لمّا قتل علّي بن أبي طالب عمرو بن عبدودّ نعىٰ إلىٰ أخته فقالت من ذا الّذي إجترأ عليه فقالوا علّي بن أبي طالب فقالت موته علىٰ يد كفوٍ كريمٍ أنّ عمرواً قتل الأبطال و بادر الأقران و كانت منيّته علىٰ يد كفوٍ كريمٍ من قومه ما سمعت بأفخر من هذا يابني عامر ثمّ أنشأت تقول:

لو كـان قـاتل عـمروٍ غـير قـاتله	لكـنت أبكـي عـليه أخـر الأبـد
لكـنّ قـاتل عـمروٍ لا يُـعاب بـه	من كان يدعى قديماً بيضة البـلد

و لمّا قتل أميرالمؤمنين عمرواً و من معه إنهزم الأحزاب و وّلوا عن المسلمين فعمد رسول اللّه قصد بني قريظة و أنفذ أميرالمؤمنين عليه السلام إليهم في ثلاثين من الخزرج و كان الفتح أيضاً بيد علّي عليه السلام فأقام النّبي صلى الله عليه وآله وسلم محاصراً لبني قريظة خمساً و عشرين ليلة حتّىٰ سئلوه النزّول علىٰ حكم سعيد بن معاذ فحكم فيهم سعد بقتل الرّجال و سبي الذّراري و النّساء و قسمة الأموال فقال النّبي يا سعد لقد حكمت فيهم بحكم اللّه فأمر النّبي بإنزال الرّجال منهم و

كانوا تسعمائة رجل فجئ بهم الى المدينة و قسّم الأموال و أستّرق الذّراري و النّسوة و لمّا جئ بالأسارى الىٰ المدينة في دارٍ من دور بني النّجار و خرج رسول اللّهصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الى موضع السُّوق اليوم فخندق فيه خنادق و حضر أميرالمؤمنين و خرج و معه المسلمون و أمرهم أن يخرجوا و تقدّم الىٰ أميرالمؤمنين أن يضرب أعناقهم في الخندق فأخرجوا إرسالاً و فيهم حيّ إبن أخطب و كعب بن أسد و هما إذ ذاك رئيس القوم فقالوا لكعب بن أسد و هم يذهب بهم الى رسول اللّه يا كعب ما ترى يصنع بنا فقال في كلّ موطنٍ لا تعقلون ألا ترون الدّاعي لا ينزع و من ذهب منكم لا يرجع هو واللّه القتل و جئ بهما إبن أخطب مجموعة يداه الىٰ عنقه فلّما نظر الى رسول اللّه قال أما واللّه مالت نفسي الى عداوتك و لكن من يخذل اللّه يخذل ثمّ أقبل الى النّاس و قال أيّها النّاس أنّه لابدّ من أمر اللّه كتاب و قدر و ملحمة ثمّ قتل الى آخر ما ذكره المؤرّخون و إنّما نقلناه ما نقلناه من قصّة الأحزاب بطوله و تفصيله لأنّ تفسير الآيات موقوفٌ على العلم بأصل القضية فلنرجع الىَ تفسير ألفاظ الآية.

و نقول قوله تعالىٰ: **يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَ جُنُودًا** و هم قريش و غطفان و اليهود على ما مرَّ تفصيله **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا** قال مجاهد هي الصّباء أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتّى ألقت قدورهم و نزعت فساطيطهم و الجنود الملائكة و لم تقاتل يومئذٍ و لم يروها بأعينهم لأنّ الملك لا يرى بالبصر **وَ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** لا يخفى عليه شئ **إِذْ جَآءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ** فالذّين جاؤوا من فوقهم عينية بن حصين بن بدر في أهل نجد، و من جاء من أسفل فهم أبو سفيان في قريش **وَ إِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ** من رؤية الجنود **وَ بَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ** من الخوف من كثرة العدوّ **وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ ٱلظُّنُونَا** فظنّ المؤمن أنّه سينصر و ظنّ المنافق أنّه سيغلب و يستأصل.

روي أنّ المنافقين من المسلمين أظهروا كثيراً ممّا كانوا يسرّون به فمنهم من قال أنّ بيوتنا عورة فلننصرف إليها فإنّا نخاف عليها، و منهم من قال يعدنا محّمد أن يفتح كنوز كسرى و قيصر، و أحدنا اليوم لا يأمن على نفسه يذهب الى الغائط و هكذا و من المعلوم أنّ المنافق آفة الّدين و الدّنيا و أكثر المسلمين في صدر الإسلام كانوا منهم.

قال اللّه تعالى: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ** ألا ترىٰ أنّ أبا بكر و عمر قبّلا رأس علّيٍ بعد قتله عمرو بن عبدود في حضور النّبي ﷺ و فعلا به ما فعلا بعد موته وقس على هذا غيرهما ممّن أعانهما في الظُّلم على أهل بيت الرّسول فأعتبروا يا أولي الألباب.

هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا

لمّا وصف اللّه تعالى شدّة الأمر يوم الأحزاب و خوف المسلمين من الأعداء و أن القلوب منهم بلغت الحناجر، جمع حنجرة و هي الحلق من الرُّعب و الخوف لكثرة الأعداء و قلَّة المسلمين.

قال هنالك، أي يوم الخندق أبتلي المؤمنون أي أختبروا ليظهر بذلك حسن نيّاتهم و صبرهم على ما أمرهم اللّه من جهاد أعدائه، و (هنا) للقريب من المكان (و هنالك) للبعيد (هناك) للمتّوسط و الإبتلاء إظهار ما في الباطن من خيرٍ أو شّرٍ و مثله الإختبار و الزّلزال الإضطراب العظيم أشار اللّه تعالى بذلك الى شدّة خوف المسلمين يوم الخندق بحيث وقعوا من شدّة الخوف الى الإضطراب والدّهشة ففي الآية إشارة الى ما منَّ اللّه تعالى عليهم من النّصر و الفتح.

وَ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا ٱللّٰهُ وَ رَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا

أي كانوا يقولون أنّ ما وعدنا اللّه من النّصر و الظّفر على الأعداء، ما وعدنا الرّسول من كنوز كسرى و قيصر، ليس إلاّ غروراً، غرّنا به فالغرور إبهام المحبوب بالمكر و الغرور الشّيطان قيل الّذي قال هذا القول هو معتب بن قيسرة.

وَ إِذْ قٰالَتْ طٰائِفَةٌ مِنْهُمْ يٰا أَهْلَ يَثْرِبَ لاٰ مُقٰامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ اَلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنٰا عَوْرَةٌ وَ مٰا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاّٰ فِرٰاراً

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن طائفةٍ أخرى من المنافقين الّذين غلب عليهم الخوف أو أرادوا الفرار من المعركة، حيث قالوا يا أهل يثرب، و هو المدينة لا مقام لكم أي ليس لكم مكان تقومون فيه للقتال، هذا إذا قرئ اللّفظ أي (مقام) بفتح الميم و أمّا على قراءة الضّم أراد لا إقامة لكم ذكره الأحفش، قيل القائل هو أوس بن قبطي و من وافقه على رأيه و قوله: **فَارْجِعُوا** أمرهم بالرّجوع الى منازلهم و على هذا الخطاب للأنصار، (ويستأذن فريق منهم) هم طائفة أخرى من المنافقين كانوا يستأذنون النّبي للرّجوع الى المدينة و قالوا بيوتنا عورة، أي هي مكشوفة نخش عليها السّرق فكذّبهم اللّه في قوله: **وَ مٰا هِيَ بِعَوْرَةٍ** أي ليست بيوتهم عورة بل يريدون بهذا القول الفرار من القتال و الجهاد و من المعلوم أنّه من علائم النّفاق ثمّ أشار اللّه تعالى الى دقيقةٍ أخرى و هي قوله:

وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطٰارِهٰا ثُمَّ سُئِلُوا اَلْفِتْنَةَ لَآتَوْهٰا وَ مٰا تَلَبَّثُوا بِهٰا إِلاّٰ يَسِيراً

الأقطار جمع قطر و هو الناحيّة و الضمير في أقطارها، راجع على المدينة و قيل على البيوت و المآل واحد، و قوله: **لَآتَوْهٰا** بالقصر و المّد، قرأ النّافع و إبن كثير بالقصر و قرأ الباقون بالمدّ و عليه المصاحف و هو المشهور بين القرّاء.

و الفتنة يعني الكفر و الضّلال فعلى القول بالقصر معنى الآية لو دخلت هذه العساكر الّتي يفرّون خوفاً منها مدنيتهم و بيوتهم من نواحيها و جوانبها كلّها، و إنثالت على أهاليهم و أولادهم ناهيين سابّين ثمّ سألوا عند ذلك الفزع و تلك الرَّجفة، الفتنة، أي الرِّدة و الرَّجفة إلى الكفر و الضّلال و مقابلة المسلمين لاتوها، أي لفعلوها.

و أمّا على قراءة المدّ فمعنى الكلام لأعطوها، أي لأعطوا ما سئلوا إعطائه من ذلك، **وَ مَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا**، التلبُّث المكث و هو في المقام كناية عن البقاء أي لا يعيشون فيها إلاّ يسيراً أي قليلاً حتّى يهلكوا و حاصل الكلام في الآية أنّهم إلى الكفر و الضّلال أقرب منهم إلى الإيمان كما هو شأن المنافق فأنّه يظهر الإسلام و الإيمان و يبطن الكفر و الضّلال و بعبارةٍ أخرى أنّهم همج رعاء أتباع كلّ ناعقٍ يميلون مع كلّ ريح ولا يستضيئون بنور الهدى و المعرفة و ذلك لأنّهم إذا لقوا الّذين أمنوا قالوا أمنّا و إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزؤن.

وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا ٱللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْئُولًا

في هذه الآية أشار اللّه تعالى إلى نقضهم العهود و المواثيق و أنّ المنافق لا يفي بعهده و ميثاقه فلا يعتمد على قوله و عهده و ذلك لأنّهم عاهدوا اللّه بعد قبولهم الإسلام أن ينصروا الدّين و النّبي كنصرتهم أقربائهم و أولادهم و هذا الّذي ذكرناه ثابت في حقّ الأنصار فأنّهم أسلموا و بايعوا النّبي على ذلك مضافاً إلى أنّه ينبغي للمسلم أن يعمل بأحكام الإسلام و منها الجهاد في سبيل اللّه فمن نافق ناقض عهد اللّه و رسوله و من ينقلب على عقبيه فلن يضّر اللّه شيئاً و سيجزي اللّه الشّاكرين.



قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا

كلمة، لن، لنفي الأبد و المعنى قل يا محمّد لهؤلاء المنافقين فراركم من الموت أو القتل لا ينفعكم أبداً و ذلك لأنّ الموت حقٌّ على رقاب العباد:

قال اللّه تعالى: **إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ**(١).

قال اللّه تعالى: **إِنَّ أَجَلَ ٱللّٰهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**(٢).

و إذا كان الموت حقّاً لا محيص عنه، فالقتل في سبيل اللّه أحسن من الموت على الفراش فلا معنى للفرار عن الجهاد بل ينبغي الإقبال إليه و لنعم ما قيل في هذا المعنى:

فأن تكن الأبدان للموت أنشأت — فقتل إمرؤٍ بالسّيف في اللّه أفضل

و أن تكن الأرزاق قسماً مقدراً — فقلّة سعى المرء فىالكسب أجمل

هذا كلّه مضافاً إلى ما وعد اللّه المجاهدين في سبيل اللّه من الأجر و الثّواب في الأخرة و قد مرَّ الكلام فيه غير مرّةٍ بمناسبة الأيات.

و أمّا قوله: **وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا** فالتّمتع الحظّ و النّصيب من لذائذ الدّنيا:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيآ إِلَّا مَتاعُ ٱلْغُرُورِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيآ إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **فَما مَتاعُ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا فِى ٱلْاٰخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**(٥).

و الأيات كثيرة و قد مرّ الكلام في هذا الباب أيضاً بما لا مزيد عليه.

١- يُونس = ٤٩
٢- نُوح = ٤
٣- آل عمران = ١٨٥
٤- الأنعام = ٣٢
٥- التّوبة = ٣٨

قُلْ مَنْ ذَا ٱلَّذي يَعْصِمُكُمْ مِنَ ٱللّٰهِ إِنْ أَرٰادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرٰادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لٰا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَلِيًّا وَ لٰا نَصيرًا

أي قل يا محمّد لهؤلاء المنافقين الفارّين من الجهاد فى سبيل اللّه من ذا الّذى يعصمكم من اللّه أي يحفظكم منه و يمنعكم عمّا أراد بكم من سوء و رحمة فأنّ أحداً لا يقدر على منعه ممّا يريد أن يفعله به و لا يجدون هؤلاء المنافقين من دون اللّه وليّاً و لا نصيراً يدفع عنهم السُّوء أو يعطيهم الرَّحمة و الحاصل أنّ أمور الخلق بيده و ما سواه كائناً ما كان محتاج إليه فينبغي للعبد أن يستمّد منه و يستعين به في جميع شئونه فالفرار من الجهاد مثلاً إن كان بقصد الفرار من الموت أو القتل فهو لا يفيد لأنّ الموت بيده لا بيد غيره و أن كان لغرضٍ أخر فهو أيضاً لا يفيد لأنّ أزمّة الأمور بيده و هذا ظاهرٌ:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلٰاقيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلىٰ عٰالِمِ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهٰادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[1].

قَدْ يَعْلَمُ ٱللّٰهُ ٱلْمُعَوِّقينَ مِنْكُمْ وَ ٱلْقٰائِلينَ لِإِخْوٰانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنٰا وَ لٰا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلّٰا قَليلًا

أخبر اللّه في هذه الآية عن طائفة أخرى من المنافقين و هم الّذين كانوا يمنعون إخوانهم في الدّين أو في النّفاق عمّا كانوا فيه من البقاء علىٰ الجهاد فيقولون لهم هلمّ إلينا أي تعالوا إلينا و أتركوا الجهاد، و أنما قال تعالى: **هَلُمَّ إِلَيْنٰا** بصيغة المفرد ول م يقل هلّموا، بصيغة الجمع مع أنّ الأخوان بصيغة الجمع لأنّ لآية نزلت على لغة الحجاز، و هلّم، لغة أهل الحجاز و أمّا غيرهم فيقولون، هلّموا، للجماعة و هلمّي للمرأة و قوله: **وَ لٰا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ**، فالبأس كناية عن الحَرب أخبر اللّه أنّه لا يأتُون الحرب منهم إلاّ قليلاً.

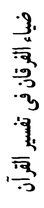
۱- الجمعة = ۸

و قال بعض المفسّرين معناه، أن يكلّفوا الحضور إلى القتال فلا يحضرون إلاّ قدر ما يوهمون أنّهم معكم و لا يقاتلون معكم فهو تعالى عالم بأحوال هؤلاء لا يخفى عليه شيء من أعمالهم و نيّاتهم فأنّه بكلّ شيءٍ عليم.

أقول هذا تفسير ألفاظ الآية و بيان المقصود منها و الّذي يختلج بالبال في هذه الآية هو أنّ ذنب هؤلاء الّذين أشار إليهم في الآية أعني بهم المانعين إخوانهم عن الجهاد، أعظم و أشدّ من الّذين فرّوا من الجهاد و ذلك لأنّ السّابقين إرتكبوا ذنباً واحداً و هو الفرار من الجهاد و أمّا المانعون فقد إرتكبُوا ذنبين، ذنب الفرار و ذنب فرار الغير، و الفرق بين المقامين هو الفرق بين الضّلال و الإضلال و من المعلوم عقلاً وشرعاً أنّ ذنب المضِّل أعظم من ذنب الضّال كما أنّ الأمر بالمنكر أخبث من فاعله و هو واضح.

و قال القُرطبي في تفسيره لهذه الآية في قوله تعالىٰ: **وَ ٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا** فيهم ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّهم المنافقون قالوا للمسلمين ما محمّد صلّی الله علیه و آله و سلّم و أصحابه إلاّ أكلة رأسٍ، و هو هالك و منعه فهلمّ إلينا.



الثّاني: أنّهم اليهود من بني قريظة قالوا لإخوانهم من المنافقين هلمّ أي تعالوا إلينا و فارقوا محمّداً صلّی الله علیه و آله و سلّم فأنّه هالك و أنّ أبا سفيان إن ظفر بكم لم يبق منكم أحداً.

الثّالث: ما حكاه إبن زيد أنّ رجلاً من أصحاب النّبي صلّی الله علیه و آله و سلّم بين الرّماح و السّيوف، فقال أخوه و كان من أمّه و أبيه هلمّ إلّي قد تبع بك و بصاحبك، أي أحيط بك و بصاحبك فقال له كذبت و اللّه لأخبرنّه بأمرك و ذهب الى رسول اللّه ليخبره فوجده قد نزل عليه جبرئيل، بقوله: **قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ** إنتهىٰ.



أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ

حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا

الشّح، بضمّ الشّين و تشديد الحاء البخل مع حرصٍ و ذلك فيما كان عادة قاله في المفردات.

و قال في المنجد يقال شحَّ يشحّ شحّاً و شِحّاً و شُحّاً، أقول فعلىٰ هذا هو مصدر يقال رجلٌ شحيح و قومٌ أشحّة، و قال في موضع أخر، الشَّحيح جمع شحاح و أشحّة و أشُحّاء إنتهىٰ.

و كيف كان فقد إتّفق أرباب اللّغة علىٰ أنّ أشحّة جمع شَحيح و هو البخيل، و قال بعض أهل اللّغة الشُّح البخل مع حرصٍ فهو أشدّ من البخل لأنّ البخل في المال و هو في حال و معروف يقال شَحَّ يَشحّ فهو شَحيح و قومٌ أشِحّاء و أشِحّة و منه قوله تعالىٰ: **أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ** فالشحّ اللّوم و إن تكون النّفس حريصة علىٰ المنع و أمّا البخل فأنّه المنع نفسه والشُّح مثلّث الشّين قاله في القاموس.

و في الحديث، **البخيل يبخل بما في يده والشَّحيح يشّح ويبخل بما في أيدي النّاس و علىٰ ما في يده حتّىٰ لا يرىٰ فيأيدي النّاس شيئاً إلاّ تمنّى أن يكون له و لا يَقنَع بما رزقه اللّه** و قد ورد أيضاً أنّه **لا يَجتَمع الشُّح والإيمان في قلب عبدٍ أبداً** إذا عرفت هذا فلنَرجع إلىٰ تفسير الآية فنقول:

أخبر اللّه في هذه الآية نبيّه أنّ في القوم شحاء بخلاء عليكم فقوله: **أَشِحَّةً** إنتصابه على الحال من الضّمير في يأتون، و أشحّة الثّانية حال من الضّمير المرفوع في سلقوكم و معنى الآية يأتون قومٌ أشحّة عليكم فإذا جاء الخوف من الموت أو القتل ينظرون إليك يا محمّد تدور أعينهم من الخوف كالّذي يغشى عليه يعني من شدّة ما يخافون يلحقهم مثل ما يلحق من شارف الموت و يغشى عليه، فإذا ذهب الخوف، و الفزع، منهم سلقوكم، بألسنةٍ حدادٍ، أي طلبوكم الغنيمة.

و قال الحسن معناه حاوروكم، يقال خطيب مصقع و مسلق أي بليغٌ في الخطابة فصيحٌ فيها.

أقول، قول الحسن أليق و أنسب لأنّ حدّة اللّسان كناية عن بلاغته و فصاحته و قوله: **أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ،** قلنا أنّه حال من الضّمير المرفوع في، سلقوكم، و عليه فالمعنى سلقوكم هؤلاء المنافقين حال كونهم أشحّاء علىٰ الخير أي بخلاء عليه، ثمّ أخبر اللّه تعالى عن عدم إيمانهم فقال أولئك لم يؤمنوا، أي لم يؤمنوا من بدأ الأمر إلاّ على طريق النّفاق فأنّ المنافق يؤمن بلسانه و يكفر بقلبه و حيث أنّ الملاك في صدق الإيمان هو الإعتقاد بالقلب أوّلاً ثمّ الإقرار باللّسان ثانياً فانّ الايمان يتحققّ و أنّما قلنا ذلك لأنّ اللّسان حاكٍ عن القلب و إن شئت قلت هو حاكٍ عن الإيمان لا أنّه نفس الإيمان أو محلّه و إذا كان كذلك فالملاك في وجود الإيمان و عدمه هو الإعتقاد بالقلب واللّه تعالىٰ هو العالِم بالقلوب و ضمائر العباد وحيث أنّ المنافق لم يعتقد بقلبه من أوّل الأمر و أنّما أقرَّ بلسانه فقط فقد أخبر اللّه تعالىٰ عن عدم إيمانه.

إن قُلت أنّهم عملوا ظاهراً عمل المؤمنين من الصّلاة و الصّوم و الحجّ و غيرها و لازم عدم إيمانهم عدم الثّواب عليها و هو ينافي قوله تعالىٰ: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**[1].

قُلتُ قوله تعالىٰ: **فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ** يدلّ علىٰ أنّ اللّه تعالىٰ جَعَل لهم الثّواب علىٰ ما عملوا، ثمّ أحبط ذلك بفرارهم من الجهاد أو بخلهم و هو دليل علىٰ أنّهم لم يقصدوا وجه اللّه بأعمالهم بل قصدوا وجه الشّيطان بها و الآية تدلّ علىٰ أنّ الإحباط حَّق و قوله: **كَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا** فهو إشارة الى أنّ الإحباط في الأعمال سهلٌ يسير على اللّه تعالى و قد أشار بذلك في كثيرٍ من الأيات:



۱- الزّلزال = ۷

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمٰانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰيٰاتِنٰا وَ لِقٰآءِ ٱلْاٰخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مٰآ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ فَأَحْبَطَ أَعْمٰالَهُمْ**[۴].

والحاصل أنّ مسألة الحَبط من المسّلمات.

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزاٰبَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ ٱلْأَحْزاٰبُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بٰادُونَ فِى ٱلْأَعْراٰبِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنْبآئِكُمْ وَ لَوْ كٰانُوا فيكُمْ مٰا قٰاتَلُوٓا إِلّٰا قَليلًا

وصف اللّه المنافقين في هذه الآية بالجبن و الخوف و أنّهم ليسوا من رجال الحرب و ذلك لظنّهم أنّ الأحزاب أي الكفّار لم يذهبوا أي لم ينصرفوا عن الحرب مع أنّهم أي الكفّار كانوا إنصرفوا و أعرضوا من الحرب و لكنّهم لم يتباعدوا في السيّر، و أن يأتِ الأحزاب، أي و أن يرجع الأحزاب اليهم للقتال، يودُّوا، هؤلاء المنافقين **بٰادُونَ فِى ٱلْأَعْراٰبِ** أي تمنّوا أن يكونوا مع الأعراب حذراً من القتل و تربُّصاً للدّوائر **يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنْبآئِكُمْ** النبأ الخَبر أي يسألون عن أخبار النّبي، أما هلك محمّد و أصحابه، أما غلب أبو سفيان و أحزابه فيتربّصون بكم الدّوائر و يتوقّعون الهلاك ثمّ قال تعالىٰ لنبيّه (ولو كانوا) هؤلاء المنافقين معكم و فيكم، ما قاتلوا إلاّ قليلاً، أي قدراً يسيراً ليوهموا أنّهم في جملتكم لا لينصروكم و يجاهدوا معكم، و قيل كان منهم في أطراف المدينة من لم يحضر الخندق و جعلوا يسألون عن أخباركم و يتمنّون هزيمة المسلمين و محصّل الكلام في هذه الآية هو أنّ النّفاق داء معضل لا دواء له إلاّ الإيمان من صميم القلب و العمل بمقتضاه.

١- المائدة = ۵ ٢- الانعام = ٨٨

٣- الأعراف = ١۴٧ ۴- محمّد = ٩

لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللّهَ كَثيرًا

لمّا ذكر اللّه تعالىٰ أوصاف المنافقين و غيرهم من المؤمنين و عظهم و أمرهم بالتأسّي برسول اللّه في جميع أمورهم فعلاً و قولاً و الاسوة بضمّ الألف الإقتداء و التأسّي بالغير.

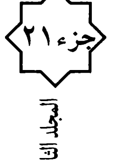
و من المعلوم أنّ العاقل لا يقتدي إلاّ بمن هو أصلح منه و لا يوجد بل و لن يوجد إنسانٌ في عالم الوجود الىٰ يوم القيامة أصلح و أليق من رسول اللّه الّذي قال اللّه تعالىٰ فيه **لولاك لَما خَلقتُ الأفلاك** فمن إقتدىٰ به صلّى الله عليه وآله وسلّم فقد إهتدى.

و قال بعض المفسّرين، هذا الكلام من اللّه تعالىٰ في الحقيقة عتابٌ للمتخلّفين عن القتال من حيث أنّهم لم يقتدوا برسول اللّه في حفر الخندق و البقاء على الجهاد، و علىٰ هذا، فمعنى الآية كان لكم قدوة في النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث بذل نفسه لنصرة دين اللّه في حروبه و خروجه الىٰ الخندق إنتهىٰ.

أقول ما ذكره لا بأس به و يؤيّد سياق الآية إلاّ أنّ حمل الكلام علىٰ معناه العامّ الشّامل له ولغيره من الأعمال و الأقوال في جميع الشّئون أولىٰ فأنّ الإقتداء بالرّسول لا يختصّ بفعلٍ دون فعلٍ بل هو حكمٌ كليّ في جميع الأمور.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما آتيكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**[1].





تنبية

لو عمل المسلمون بهذه الآية و أقتدوا برسول اللّه في أفعاله و أقواله و أخلاقه حصلت العزّة لهم في الدُّنيا و الأخرة و لكنّهم مع الأسف أعرضوا عمّا ذكرّوا به في هذه الآية و أمثالها و أقتدوا في دينهم و دنياهم بمن شاؤوا وأرادوا بمقتضى أهواءهم و أميالهم النّفسانية و أنّما فعلوا ذلك في حياة النّبي و بعد

۱- الحشر = ۷

موته لأنّهم لم يؤمنوا باللّه و رسوله واقعاً و أنّما آمنوا بألسنتهم و كانت قلوبهم خالية من الإعتقاد الجازم الثّابت و كانوا ينتهزون الفرصة لإظهار ما في قلوبهم من الحقد و الغلّ فلمّا مات النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أظهروا ما في بطونهم، فبدّلوا عدله بالظّلم و صدقه بالكذب و أمانته بالخيانة و رحمه و شفقته بالقساوة و بالجملة أحلّوا حرامه و حرّموا حلاله فسلّطوا علىٰ المؤمنين من لم يرحمهم أبداً حتّىٰ وصلت النّوبة الى أراذل بني أميّة و أولاد العبّاس فقلّبوا دين اللّه بالكلّية و غيّروا أحكامه و قتلوا خيار النّاس من أولاد الرّسول و صلحاء المؤمنين و هكذا و الباعث علىٰ جميع هذه الأمور هو المنافقون في صدر الإسلام و هم الّذين قال اللّه تعالىٰ فيهم:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللّٰهِ كُفْرًا وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ ٱلْبَوارِ(١).

و قال: **فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ ٱلسَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ**(٢).

و للبحث في هذه الآية مجالٌ واسع إلاّ أنّه يوجب خروجنا عمّا نحن بصدده من تفسير ألفاظ الأيات علىٰ وجه الإختصار وللّه عاقبة الأمور.

و أمّا قوله تعالىٰ: **لِمَنْ كانَ يَرْجُوا ٱللّٰهَ وَ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَ ذَكَرَ ٱللّٰهَ كَثِيرًا** ففيه إشارة الىٰ أنّ التأسّي بالنّبي الّذي أمر اللّه به أنّما ينفع لمن كان يرجوا اللّه أي يرجوا ثوابه يوم القيامة و ذكر اللّه كثيراً، في جميع أحواله و أنّما قيّد اللّه التّأسي بها لأنّ الإقتداء بالرّسول فرعٌ علىٰ التّوحيد فمن لا يعرف اللّه و اليوم الأخر كيف يرجوا ثوابه و كيف يقتدي بالنّبوة و الرّسالة و من لا يعتقد باللّه و رسوله و اليوم الأخر لا ينفعه التأسى.

١- إبراهيم = ٢٨
٢- البقرة = ٥٩

وَ لَمّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزٰابَ قٰالُوا هٰذٰا مٰا وَعَدَنَا ٱللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ ٱللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ مٰا زٰادَهُمْ إِلاّٰ اِيمٰانًا وَ تَسْلِيمًا

لمّا ذكر اللّه أوصاف المنافقين و أشار الىٰ جبنهم و خوفهم و أنّهم كانوا بصدد الفرار، أشار الىٰ أوصاف المؤمنين و إن كانوا قليلين فوصفهم اللّه بأحسن ما يمكن أن يوصف به أحد، فأشار أوّلاً الىٰ سرورهم و فرحهم لمّا رأوا الأحزاب مقهورين مغلوبين فقالوا هذا، أي الفتح، و الغلبة علىٰ الكفّار، ما وعدنا اللّه و رسوله و صدق اللّه و رسوله في هذا الوعد، و ما زادهم، ما، نافية، أي ما رأوه من النَّصر و الغلبة على الأعداء لم يزدهم إلاّ إيماناً و تسليماً.

و بعبارة أخرى صارت رؤيتهم ذلك سبباً لتقوية إيمانهم و تسليمهم للّه و رسوله و ذلك لأنّهم علموا أنّ النَّصر بيد اللّه:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ تَنْصُرُوا ٱللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدٰامَكُمْ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ يَنْصُرْكُمُ ٱللّٰهُ فَلاٰ غٰالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ**(٣) والأيات كثيرة.

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجٰالٌ صَدَقُوا مٰا عٰاهَدُوا ٱللّٰهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مٰا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا

كلمة، مِن، في قوله: **مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** تبعيضيَّة قسّم اللّه تعالىٰ المؤمنين باللّه و رسوله إلىٰ صنفين، صنفٌ منهم صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه من مجاهدة أعداء الإسلام و أن لا يولُّوا الأدبار.

١- محمّد = ٧
٢- غافر = ٥١
٣- آل عمران = ١٦٠

و صنفٌ منهم لم يصدقوا بما عاهدوا اللّه عليه و لم يفوا بعهدهم، ثمّ قسّم الأوّل أيضاً فقال و منهم أي من الّذين صدقوا بما عاهدوا اللّه عليه من قضى نحبه أي صبر حتّى قتل في سبيل اللّه دخل فى ثواب ربّه و إستقرّ في جوار رحمته و منهم من لم يقتل و لكنّه ينتظر الموت و الشّهادة في سبيل اللّه و ما بدَّلوا تبديلاً، أي لم يبدّلوا الإيمان بالنّفاق و لا العهد بالحنث.

قيل نزلت الآية في غزوة بدر يوم تأخّروا عنه ثمّ عاهدوا أن لا يفارقوا النّبي صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في غزواته و قيل نزلت في حمزة بن عبد المطّلب و جعفر بن أبي طالب و علّي بن أبي طالب (عليهم السّلام) و ذلك لأنّ حمزة و جعفر قد قضى نحبهما و قتل في سبيل اللّه قتل حمزة بن عبد المطّلب في أُحد و جعفر إبن أبي طالب في غزوة مؤتة و أمّا علّي بن أبي طالب فهو ممّن ينتظر الشّهادة حتّى قتل في مسجد الكوفة و الحقّ أنّهم من مصاديقها الأتّم وأن كانت لا تَنحَصر بهم.

لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنْ شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا

ثمّ بيّن اللّه تعالىٰ أنّه يجزي الصّادقين و هم الّذين صدقوا ما عاهدو اللّه عليه، على صدقهم و ثبات أقدامهم في طريق الإيمان فوعدهم اللّه بالثّواب الدّائم و النَّعيم المقيم و أمّا المنافقون الّذين لم يفوا بعهدهم و بدَّلوا إيمانهم و لم ينصروا الإسلام فاللّه تعالىٰ أن شاء يعذّبهم وأن شاء يوَّفقهم علىٰ التّوبة فأنّ اللّه يغفر الذّنوب و هو رحيم بعباده.

و قال بعض المفسّرين معناه أن شاء قبل توبتهم و أن شاء لم يقبل ذلك والوجه فيه أنّ قبول التّوبة منه تعالىٰ تفضّلٌ منه لا أنّه يجب عليه عقلاً قبولها فما ورد في السَّمع من أنّه تعالى يغفر الذّنوب جميعاً يحمل عليه لا على الوجوب العقلي و البحث فيه موكولٌ إلىٰ محلّه.

وَ رَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَ كَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَ كَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا

أخبر اللّه تعالىٰ أنّه ردَّ المشركين أعني بهم أبا سفيان و من تبعه عن حوالي المدينة خائباً خاسراً و أنّهم لم ينالوا خيراً أمّلوه من الظّفر فرجعوا إلىٰ أوطانهم و كفى اللّه المؤمنين القتال و كان اللّه قوّياً عزيزاً، فلا قوّةً إلاّ به، و لا عِزَّ إلاّ عزّه فهو القادر القاهر الغالب علىٰ كلّ شيءٍ فإذا أراد اللّه شيئاً لا مرَّد له يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

وَ أَنْزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقًا

المظاهرة المعاونة و هي زيادة القوّة بأن يكون المعاون ظَهراً لصاحبه في الدّفع عنه و الظّهر المعين و الصّياصي الحصُون التّي يمتنع بها واحدها صيصة و المراد بهم في الآية بنو قريظة من اليهود و هم الّذين كانوا من أهل الكتاب فأنّهم عاونوا قريشاً و غطفان يوم الأحزاب.

و قوله: **وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ** فالقذف الرَّمي و المعنى أرعبهم اللّه عن النّبي و أصحابه مع كثرتهم، و هذا معنىٰ قوله ﷺ: **أنَا مَنصُورٌ بالرُّعب** والوجه فيه واضح فأنّ القلوب بيد اللّه.

و قوله: **فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقًا** فهو إشارة إلىٰ قصّة بني قُريظة و قد مضىٰ خبرهم حكم سعد بن معاذ فيهم بعد أن رضوا بحكمه بميلهم و إرادتهم، فحكم سعد بقتل الرّجال و سبي الّذراري و النّساء و تقسيم الأموال و تكون الأرض للمهاجرين دون الأنصار، و لمّا قيل له في ذلك قال في جواب الأنصار، لكم دار و ليس للمهاجرين دار فقال رسول اللّه حكم فيهم بحكم اللّه تعالىٰ فقتل الرّجال و سبي الذّراري و النّساء و قسم أموالهم و أراضيهم علىٰ ما هو مسطور في التّواريخ.

و إلى هذا المعنىٰ أشار اللّه تعالىٰ بقوله:

وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَرْضًا لَمْ تَطَؤُهَا وَ كَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا

و المعنى أورثكم اللّه أرض بني قريظة و ديارهم و أموالهم، و هذا ما حكم به سعد بن معاذ علىٰ ما مرَّ.

و أمّا قوله: **وَ أَرْضًا لَمْ تَطَؤُهَا** فقيل هي أرض فارس و الرُّوم، و قيل هي مكّة، و قيل خيبر، **وَ كَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**، و هو ممّا ثبت عقلاً و نقلاً، إلى هاهنا إنتهت قصّة الأحزاب و فيها من المواعظ و التّذكير و التوجّه إلىٰ المعبود و عدم الإعتماد على الخلق و تبعات نقض العهد في الدّنيا و الأخرة و غيرها ممّا لا يخفى على من تأمّل فيها و إعتبر بها أنّ في ذلك لأياتٍ لقومٍ يتفكّرون.

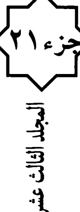
يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا، وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ ٱلدَّارَ ٱلْأٰخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا

لمّا بيّن اللّه تعالىٰ قصّة الأحزاب إنتقل إلىٰ خطاب النبي ﷺ فقال له يا أيّها النّبي، الآية إعلم أنّ الزّوج يقال لكلّ واحدٍ من الفريقين من الذّكر والأُنثىٰ في الحيوانات المتزاوجة و أيضاً يقال لكلّ قرينين فيها و في غيرها كالخفّ و النَّعل و لكلّ ما يقترن بأخر مماثلاً له أو مضّاد أيضاً يقال زوجٌ و جمعه علىٰ أزواج و المراد بها في الآية أزواج النّبي أي نسائه خيَّرهن بين الدّنيا و الأخرة و ليس هذا تخيير طلاق بل هو تخيير بين الدَّارين قالوا كان للنّبي أزواجٌ منهنّ مَن دخل بها و منهُنّ من عقد عليها و لم يدخل بها و منهنّ من خطبها فلم يتمّ نكاحه معها وإليك تفصيل الأزواج علىٰ ما ذكروه في التّواريخ و السَّير.

فأَوَّلهُن خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصيّ بـن كـلاب و كانت قبله عند أبي هالة و إسمه زرارة بن النّباش الأسـدي و كـانت قـبله عـند عتيق بن عائذ ولدت منه غلاماً إسمه عبد مناف و ولدت من بني هالة هند بـن أبي هالة و عاش إلى زمن الطّاعون فمات فيه و يقال أنّ الّذي عـاش إلىٰ زمـن الطّاعون هند بن هـند و قـيل غـير ذلك ولم يـتزوّج رسـول اللّـه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عـلىٰ خديجة غيرها حتّىٰ ماتت و كانت يوم تَزوّجها رسول اللّه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بنت أربعين سنة و توفّيت بعد أن مضىٰ من النّبوة سبع سنين و قيل عشر و كـان لهـا حـين توَّفيت خمس و ستُون سنة و هي أوّل إمرأةٍ أمـنت بـه و جـميع أولاده صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ منها غير إبراهيم فأنّ أمّه مارية القبطيّة.

قال حكيم بن حزام توَّفيت خديجة فـخر جـنابها مِـن مـنزلها حتّ دفّـناها بالحجون و نزل رسول اللّه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في حفرتها و لم تكن يـومئذٍ سـنّة الجـنازة الصّلاة عليها.

و منهُنّ سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس العامريّة أسلمت قـديماً و بايعت و كانت عند إبن عمّ لها يقال له السّكران بن عمرو و أسلم أيضاً و هاجرا جميعاً إلىٰ أرض حبشة في الهجرة الثّانية فلمّا قدما مكّة مـات زوجـها و قـيل مات بالحبشة فلمّا حلّت خطبها رسول اللّه فتزوّجها و دخل بها مكّة و هـاجر بها إلىٰ المدينة فلمّا كبرت أراد طلاقها فسألته أن لا يفعل و أن يدعها في نسائه و جعلت ليلتها لعائشة فأمسكـها و تـوَّفيت بـالمدينة فـي شـوال سـنة أربـع و خمسين.



ومِنهن عائشة بنت أبي بكر و كانت مسماة لجبير بن مطعم فخطبها رسـول اللّه فقال أبوبكر يا رسول اللّه دعني أسلّها من جبير سلاً رفيقاً فتزوّجها رسول اللّه بمكّة قبل الهجرة بسنتين و قيل بثلاث و بنى لها بالمدنية و هي بنت تسع و بقيت عنده تسع سنين و مات رسول اللّه و هي بنت ثمان عشـرة و لم يـتزوّج بكراً غيرها و ماتت سنة تسع و خمسين و قيل ثمان و خمسين.

ومنهنّ حفصة بنت عمر بن الخطّاب القرشيّة العدويّة تزوّجها رسول اللّه قال الواقدي و توفّيت في شعبان سنة خمس و أربعين في حكومة معاوية و هي إبنة ستّين سنة وقيل ماتت في خلافة عثمان بالمدينة.

و منهُنّ أمّ سلمة و إسمها هند بنت أمّية المخزوميّة و إسمه سهيل، تزوّجها رسول اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في سنة أربع و توفّيت في سنة تسع و خمسين و قيل ثنتين و ستّين و دفنت بالبقيع و هي إبنة أربع و ثمانين سنة.

و منهُنّ أمّ حبيبة و إسمها رملة بنت أبي سفيان بعث رسول اللّه عمرو بن أميّة الضّمري إلىٰ النّجاشي ليخطب عليه أمّ حبيبة فزوّجه إيّاها و ذلك سنة سبع من الهجرة و أصدق النّجاشي عن رسول اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أربع مائة دينار و بعث بها مع شرحبيل بن حسنة و توفّيت سنة أربع و أربعين قيل كانت أمّ حبيبة تحت عبيد اللّه بن جحش فمات بأرض الحبشة على النّصرانية فزوّجها النّجاشي للنّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و أمهرها عنه أربعة ألاف و بعث بها إلى المدينة مع شرحبيل بن حسنة.

و مِنهُنّ زينب بنت جحش بن رباب الأسديّة و كان إسمها برَّة فسمّاها رسول اللّه زينب و كان إسم أبيها برّة فقالت يا رسول اللّه بدِّل إسم أبي فأنّ البرّة حقيرة فقال لها النّبي لو كان أبوك مؤمناً سمَّيناه بإسم رجلٍ منّا أهل البيت و لكنّي قد سمَّيته جحش و الجحش من البرّة ذكر هذا الحديث الدّار قطني تزوّجها رسول اللّه في سنة خمس من الهجرة و توفّيت سنة عشرين و هي بنت ثلاث و خمسين سنة.

و منهُنّ زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد اللّه بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلاليّة كانت تسمّى في الجاهليّة أمّ المساكين لإطعامها إيّاهم تزوّجها رسول اللّه علىٰ رأس واحد وثلاثين شهراً في رمضان، مضت من الهجرة فكانت عنده ثمانية أشهر و توّفيت في حياته في أخر ربيع الأوّل على رأس تسعة و ثلاثين شهراً و دفنت بالبقيع.

و منهُنّ جويريّة بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعيّة أصابها في غزوة بني المصطلق فوقعت في سهم ثابت قيس بن شمّاس فكاتبها فقضى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كتابتها و تزوّجها و ذلك في شعبان سنة ستّ و كان إسمها برّة فسمّاها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم جويريّة توفّيت في ربيع الأوّل سنة ستّ و خمسين و هي إبنة خمس و ستّين.

و منهُنّ صفيّة بنت حيّ إبن أخطب الهارونيّة سباها النّبي يوم خيبر و أصطفاها لنفسه و أسلمت و أعتقها و جعل عتقها صداقها، و قيل أنّها وقعت في سهم دحية الكلبي فأشتراها رسول اللّه بسبعة أرؤس و ماتت في سنة خمسين و قيل إثنتين و خمسين و دفنت بالبقيع.

و منهُن ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة من بني النَّضير سباها رسول اللّه و أعتقها و تزوّجها في سنة ستّ و ماتت مرجعةً من حجّة الوداع فدفنها بالبقيع و قال الواقدي ماتت سنة ستّ عشرة و صلّى عليها عمر، و قال أبوالفرج الجوزي أنّه صلى الله عليه و آله و سلم كان يطؤها بملك اليمن و لم يعتقها و لذالك لم يعدوّها في عداد أزواج النّبي.

و منهُن ميمونة بنت الحارث الهِلالية تزوّجها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، بسرف على عشرة أميال من مكّة في سنة سبع من الهجرة في عمرة القضيّة و هي آخر إمرأةٍ تزوجها رسول اللّه و قدَّر اللّه تعالى أنّها ماتت في المكان الّذي بنى فيه رسول اللّه بها و دفنت هنالك و ذلك في سنة إحدىٰ و ستّين و قيل ثلاث و قيل ثمان و ستّين:

فهؤلاء المشهورات من أزواج النّبي صلى الله عليه و آله و سلم و هنّ اللاّتي دخل بهنّ فأمّا من تزوّجهن و لم يدخل بهنّ.

و فمنهُنّ الكلابيّة و إختلفوا في إسمها فقيل فاطمة و قيل عمرة و قيل العالية و هي التّي إستعاذت منه صلى الله عليه و آله و سلم فطلّقها و كانت تقول أنا الشَّقية تزّوجها في شهر ذي القعدة سنة ثمان من الهجرة و توفيّت سنة ستّين.

و منهُّن أسماء بنت نعمان بن الجون و هي الجونيّة و طلّقها.

و منهنّ فتيلة بنت قيس أخت الأشعث بن قيس زوّجها أيّاه الأشعث ثمّ إنصرف الىٰ حَضرمُوت فحملها اليه فبلغه و فات النّبي صلى الله عليه و آله و سلم فردّها الىٰ بلاده فإرتدّ و إرتدَّت معه.

و منهنّ أمّ شريك الأزدية و إسمها غزيّة.

و منهَنّ خولة بنت الهذيل.

و منهُنّ شراف بنت خليفة أخت دحية.

و منهُنّ عمرة، و العفارية، و أمّا السّراري فاثنتان، مارية القبطية، و ريحانة هذا ما ذكره القرطبي[1] في تفسيره لهذه الآية و نحن نقلناه عن كتابه و العهدة عليه و لا يهمنا البحث في هذا الباب لكثر الإختلاف فيما ذكروه و أنّما تعرَّضنا لإسماء الأزواج تبعاً للقوم و كيف كان لا شكّ في أنّ النّبي صلى الله عليه و آله و سلم كان له أزواجاً كثيرة و لذلك قال اللّه تعالىٰ مخاطباً لنبيّه: **يٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُلْ لِأَزْوٰاجِكَ** و لايضرّنا الإختلاف في العدد و النَّسب و غير ذلك.

إذا عرفت هذا فلنرجع الىٰ تفسير ألفاظ الآية فنقول: **يٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُلْ لِأَزْوٰاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيٰوةَ ٱلدُّنْيٰا وَ زِينَتَهٰا فَتَعٰالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَرٰاحًا جَمِيلًا** أمر اللّه نبيّه أن يقول لأزواجه، إن كنتنّ تُردن الحياة الدُّنيا، و بقاءها و زينتها فتعالين أمتعكنّ و أسرّحكنّ، أي أعطيكنّ من مالي بقدر ما تتمتعنّ به و أسرّحكنّ، الإسراح الإرسال يقال سرحت الإبل سرحاً و سروحاً، أي رعت بنفسها و قوله: **سَرٰاحًا جَمِيلًا**، معناه واضح و السّراح الجميل عبارة عن التّطليق علىٰ وجه التّراضي.

وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ ٱلدّٰارَ ٱلْاٰخِرَةَ فَإِنَّ ٱللّٰهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنٰاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا أي وأن تردن اللّه ورسوله لا الدّنيا وزينتها فأنّ اللّه أعدَّ أي هيّأ لمن أحسنت منكنّ و حفظت إيمانها أجراً عظيماً يوم

١– ج ١۴ ص ١۶۴

القيامة ومحصّل الكلام أنّ اللّه تعالىٰ خيرهنّ بين المقام مع النّبي و إختيار ما عند اللّه من الثّواب و مفارقتهنّ بالطّلاق و تحصيل المنافع يأخذونها و يلتذّون بها و أنّما قيدهنّ بالمحسنات لعلمه تعالىٰ بأنّ منهنّ من ليس مِن المحسنات بإرتكابها ما يستحقّ به الخروج عن و لاية اللّه فزجرهنّ بالتّهديد المذكور في الآية كما فعلت عائشة بنت أبي بكر في قصّة الجمل.

قال بعض المفسّرين من العامّة إختلف العلماء في كيفيّة تخيير النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أزواجه علىٰ قولين:

الأوّل: أنّه خيرهنّ بإذن اللّه تعالىٰ في البقاء علىٰ الزّوجية، أو الطّلاق فإخترن البقاء قالته عائشة و مجاهد و عكرمة و الشّعبي و إبن شهاب و ربيعة.

الثّاني: قال بعضهم أنّما خيرهنَّ بين الدُّنيا فيفارقهنّ، و بين الأخرة فيمسكهنّ لتكون لهنّ المنزلة العليا كما كانت لزوجهنّ و لم يخيّرهنّ في الطّلاق ذكره الحسن و قتادة و نقل عن أحمد بن حنبل أنّه قال، لَم يخيّر رسول اللّه نساءه إلاّ بين الدُّنيا و الأخرة إنتهىٰ.

و قال الشّيخ قدّس سرّه في التّبيان بعد نقله عن الحسن أنّه لا يرىٰ التّخيير شيئاً، و قال أنّما خيرهنّ بين الدُّنيا و الأخرة لا في الطّلاق ما هذا لفظه و كذلك عندنا أنّ الخيار ليس بشيءٍ غير أنّ أصحابنا قالوا كان ذلك لنبيّ اللّه خاصّة إنتهىٰ ما أردنا نقله عنه.

و أمّاً سبب نزول الآية فقيل أنّ كلّ واحدةٍ من نساءه طلبت شيئاً، فسألت أمّ سلمة ستراً معلّقاً و سألت زينب بنت جحش برداً يمانيّاً، و سألت أمّ حبيبة ثوباً سعوافيّاً و سألت حفصة ثوباً من ثياب مصر و سألت جويريّة معجراً و سألت سؤدة قطيفة خيّبرية فلم يقدر علىٰ ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ كان خيَّره صلّى الله عليه وآله وسلّم بين ملك الدُّنيا و نعيم الأخرة فإختار الأخرة و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: **اللّهم أحيني مِسكيناً و أمتني مسكيناً وأحشرني مسكيناً في جملة المساكين** فحينئذٍ أمره اللّه تعالىٰ بتخييّر النّساء فإختّرن اللّه و رسوله فعوّضهنّ اللّه من ذلك أن جعلهنّ أمّهات المؤمنين و كانت النّساء يومئذٍ تحته، تسع نسوة، خمس من قريش

عائشة و حفصة، أمّ حبيبة، أمّ سلمة، و سؤدة و اربع نسوة من غير قريش، صفية، زينب بنت جحش، جويريّة و ميمونة بنت الحارث الهّلالية.

يٰا نِسٰآءَ ٱلنَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضٰاعَفْ لَهَا ٱلْعَذٰابُ ضِعْفَيْنِ وَ كٰانَ ذٰلِكَ عَلَى ٱللّٰهِ يَسِيرًا

قيل لمّا إختار نساء النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم رسول اللّه شكرهنّ اللّه علىٰ ذلك فقال اللّـه، تكرمةٍ لهنّ) لنبيّه صلّى الله عليه و آله و سلّم: **لا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسٰآءُ مِنْ بَعْدُ وَ لآ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوٰاجٍ**[١].

و سيأتي الكلام فيها.

والحكم الثانى: في قوله تعالىٰ: **وَ مٰا كٰانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللّٰهِ وَ لآ أَنْ تَنْكِحُوٓا أَزْوٰاجَهُ مِنْ بَعْدِهِٓ أَبَدًا**[٢].

الثّالث: جعل ثواب طاعتّهن و عذاب معصيتهنّ أكثر ممّا لغيّرهن فقال: **يٰا نِسٰآءَ ٱلنَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفٰاحِشَةٍ** و هي الّتي نبحث فيها فعلاً.

قال الرّاغب في المفردات الفحش و الفحشاء ما عظم قبحه من الأفعال و الفاحشة المبيّنة كناية عن الزّناء، قيل و أنمّا جاز أن يضعّف عقابهنّ بالمعصية لعظم قدرهنّ و شرف منزلتهنّ و فضل درجتهنّ و تقدّمهنّ علىٰ سائر النسّاء و ذلك أنّـه كلمّا تضاعفت الحرمات فهتكت، تضاعفت العقوبات و لذلك ضوعف حدّ الحرّ علىٰ العبد و الثّيب علىٰ البكر و لما كان أزواج النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم في مهبط الوحي و في منزل أوامر اللّه و نواهيه، قوّي الأمر عليهنّ و لزمهنّ بسبب مكانتهنّ أكثر مّما يلزم غيرهنّ فضوعف لهنّ الأجر و العذاب و قيل في وجه ذلك لعظم الضّرر في جرائمهنّ بإيذاء رسول اللّه فكانت العقوبة على قدر عضم الجريمة في إيذاء رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم و قيل غير ذلك و الكلّ لا دليل عليه من الشّرع بل هو من المستخرجات العقليّة بل الظّنية و كيف كان فهذا

١- الأحزاب = ٥٢
٢- الأحزاب = ٥٣

الحكم ثابت بنصّ الكتاب من اللّه تعالىٰ و أمّا علّة الحكم فهو أعلم بما قال ثمّ أخبر اللّه تعالىٰ أنّ تضعيف ذلك على اللّه سهلٌ يسيرٌ.

قال المفسّرون الضِّعف مثل الشّيء الّذي يضمّ إليه يقال ضاعفته إزددت عليه مثله و منه الضُّعف و هو نقصان القُوّة.

و قال أبو عبيدة يضاعف لها ضعفين أي يجعل لها العذاب ثلاثة أعذبة لأنّ ضعف الشّيء مثله و ضعفي الشّيء مثلاه.

و قال النّحاس ما ذكره أبوعبيدة لا يعرفه أحد من أهل اللّغة و المعنى في يضاعف و يضعف واحد أي يجعل ضعفين، أقول العجب ثمّ العجب أنّ عائشة فعلت ما فعلت في خروجها عن بيتها في قصّة الجمل و حربها لعلّي أميرالمؤمنين عليه السلام و قتلها كثيراً من المسلمين في البصرة و لم تخف اللّه و رسوله مع علمها بهذه الأيات و معرفتها بمقام أميرالمؤمنين عند اللّه و رسوله و لم تندم عمّا فعلت إلىٰ أخر عمرها و ماتت علىٰ بغض علّيٍ عليه السلام و قد سمعت عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال لعلّيٍ: **ياعلّي حربك حربي و سلمك سلمي من أحبّك فقد أحبّني و من أبغضك فقد أبغضني** و أمثال ذلك ممّا ورد في الباب.

و أعجب من ذلك أنّ العامّة و لا سيّما علمائهم يفتخرون بوجودها في الإسلام و يأخذون دينهم عنها و لذلك ترىٰ كتبهم و لا سيّما صحاحهم مملوّةٌ من الأحاديث المرّوية عنها في جميع الأحكام و أن شئت قلت هي أمّ المؤمنين حقيقةً لا غيرها و يروون حديثاً عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال خذوا أحكام دينكم عنها فأنّها صادقة عالمة بالأحكام، و من أخذ دينه من إمرأةٍ متّصفةٍ بهذه الأوصاف فهو أخبث منها و إذا كان مبيّن أحكام الإسلام بعد رسول اللّه عائشة و أبوهريرة و أمثالهما فعلى الإسلام السّلام.

وَ سَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ، إِنَّا لِلّٰهِ وَ إِنَّآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ، هذا أخر الكلام في تفسير الجُزء الحادي و العشرين و يتلوه الجزء الثّاني و العشرون.

■

الفهرست

■

■

■

■


جزء ٢١